

زاد المسير

في

علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء الخامس

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

سورة بني إسرائيل

فصل في نزولها

هي مكية في قول الجماعة ، إلا أن بعضهم يقول : فيها مدني ، فروي عن ابن عباس أنه قال : هي مكية إلا ثمان آيات : من قوله : (وإن كادوا ليفتنونك) إلى قوله : (نصيراً) [الاسراء : ٧٣ - ٧٥] ، وهذا قول قتادة . وقال مقاتل : فيها من المدني : (وقل رب أدخلني مُدْخَلَ صدقٍ) [الاسراء : ٨٠] وقوله : (إن الذين أوتوا العلم من قبله) [الاسراء : ١٠٧] وقوله : (إن ربك أحاط بالناس) [الاسراء : ٦٠] وقوله : (وإن كادوا ليفتنونك) [الاسراء : ٧٣] وقوله : (وإن كادوا ليستفزّونك) [الاسراء : ٧٦] وقوله : (ولولا أن ثبّتناك) والتي تليها [الاسراء : ٧٤ ، ٧٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (سبحان) روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن تفسير « سبحان الله » ، فقال : « تنزيه لله عن كل سوء » ، وقد ذكرنا هذا المعنى في (البقرة : ٣٢) .

قال الزجاج : و « أسرى » : بمعنى : سيَّر عبده ، يقال : أسريت وسريت : إذا سرت ليلاً . وقد جاءت اللغتان في القرآن ، قال الله تعالى : (والليل إذا يسرِ) [الفجر : ٤] .

وفي معنى التسبيح هاهنا قولان .

أحدهما : أن العرب تسبِّح عند الأمر المعجب ، فكأن الله تعالى عجَّب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة .

والثاني : أن يكون خرج مخرج الرد عليهم ، لأنه لما حدَّثهم بالاسراء ، كذبوه ، فيكون المعنى : تنزه الله أن يتخذ رسولاً كذاباً . ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا : محمد ﷺ .

وفي قوله : (من المسجد الحرام) قولان .

أحدهما : أنه أُسري به من نفس المسجد ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويسنده حديث مالك بن صعصعة ، وهو في « الصحيحين » [١] « بينا أنا في الحطيم » وربما قال بعض الرواة : في « الحِجر » .

والثاني : أنه أُسري به من بيت أم هانىء [٢] ، وهو قول أكثر المفسرين ،

---

(١) البخاري : ٧/١٥٤ ، ومسلم . ١/١٥٠ ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ٤/١٤٠ وزاد نسبته إلى أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه . وقوله : « ربما قال بعض الرواة : في الحجر » قال الحافظ ابن حجر : هو شك من قتادة كما بينه أحمد عن عفان عن همام ، ولفظه : « بينا أنا نائم في الحطيم ، وربما قال قتادة : في الحجر » .

(٢) حديث أم هانىء ، رواه محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح ، والكلبي متروك بمرة ساقط ، ورواه الطبراني في « الكبير » ، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور . قال الهيثمي في « المجمع » ١/٧٦ : متروك كذاب .

فعلى هذا يعني بالمسجد الحرام : الحرم . والحرم كلّه مسجد ، ذكره القاضي أبو يعلى وغيره .

فأما (المسجد الأقصى) فهو بيت المقدس ، وقيل له : الأقصى ، لبُعد المسافة بين المسجدَين . ومعنى (باركنا حوله) : أنّ الله أجرى حوله الأنهار ، وأنبت الثِّمار . وقيل : لأنه مَقَرُّ الأنبياء ، ومَهْبِطُ الملائكة .

واختلف العلماء ، هل دخل بيتَ المقدس ، أم لا ؟ فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس ، وصلّى فيه بالأنبياء [1] ، ثم عُرِج به إلى السماء . وقال حُذيفة بن اليمان : لم يدخل بيت المقدس ولم يصلِّ فيه ، ولا نزل عن البُراق حتى عُرِج به .

فان قيل : مامعنى قوله : (إلى المسجد الأقصى) وأنتم تقولون : صعِد إلى السماء ؟

فالجواب : أن الإسراء كان إلى هنالك ، والمعراج كان من هنالك .

وقيل : إن الحكمة في ذِكْر ذلك ، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بَدْء الحديث ، لاشتد إنكارهم ، فلما أخبر ببيت المقدس ، وبان لهم صدقُه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة ، أخبر بمعراجه .

قوله تعالى : (لنُرِيَه من آياتنا) يعني : مارأى ، أي : تلك الليلة من العجائب التي أخبر بها الناس . (إنه هو السميع) لمقالة قريش ، (البصير) بها . وقد ذكرنا في كتابنا المسمى بـ « الحدائق » أحاديث المعراج ، وكرهنا الإطالة هاهنا .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾

(١) حديث أبي هريرة رواه مسلم ١٥٧/١ ، وفي « مسند أحمد » ومسلم ١٤٥/١ ، من حديث أنس بن مالك قال : « فركبته حتى أتيت بيت المقدس » قال : « فربطته بالحلقة التي يَربط به الأنبياء » قال : « ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين . . . » .

قولهتعالى : (وآتينا موسى الكتاب) لمـّا ذكر في الآية الأولى إكرام محمد ﷺ ، ذكر في هذه كرامة موسى . و (الكتاب) : التوراة . (وجعلناه هدىً لبني إسرائيل) أي : دللناهم به على الهدى . (ألاّ تتخذوا) قرأ أبو عمرو : « يتخذوا » بالياء ، والمعنى : هديناهم لئلا يتخذوا . وقرأ الباقون بالتاء ، قال أبو علي : وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغَيْبَة ، مثل (الحمد لله) ثم [قال] (إياك نعبد) .

قولهتعالى : (وكيلاً) قال مجاهد : شريكاً . وقال الزجاج : ربّاً . قال ابن الأنباري : وإنما قيل للربّ : وكيل ، لكفايته وقيامه بشأن عباده ، من أجل أن الوكيل عند الناس قد عُلم أنه يقوم بشؤون أصحابه ، وتفقّد أمورهم ، فكان الرب وكيلاً من هذه الجهة ، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكِّل وانحطاط أمر الوكيل .

قولهتعالى : (ذريّةَ مَنْ حَمَلْنا) قال مجاهد : هو نداء : ياذرية من حملنا . قال ابن الأنباري : من قرأ : « ألاّ تتخذوا » بالتاء ، فانه يقول : بعد الذرية مضمر حُذفَ اعتماداً على دلالة ماسبق ، تلخيصه : ياذرية من حملنا مع نوح لاتتخذوا وكيلاً ، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله : (إنه كان عبداً شكوراً) لأنه بمعنى : اشكروني كشكره . ومن قرأ : « لايتخذوا » بالياء ، جعل النداء متصلاً بالخطاب ، و « الذرية » تنتصب بالنداء ، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثانٍ ، تلخيص الكلام : أن لايتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً . قال قتادة : الناس كلّهم ذرّيّة من أنجى الله في تلك السفينة .

قال العلماء : ووجه الإنعام على الخَلْق بهذا القول ، أنهم كانوا في صلب من نجا .

قولهتعالى : (إنه كان عبداً شكوراً) قال سلمان الفارسي : كان إذا أكل

قال : « الحمد لله » وإذا شرب قال : « الحمد لله »[1] . وقال غيره : كان إذا لبس ثوباً قال : « الحمد لله » فسمَّاه الله عبداً شكوراً .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾

قوله تعالى : (وقضينا إلى بني إسرائيل) فيه قولان .

أحدهما : أخبرناهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : قضينا عليهم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وبه قال قتادة ، فعلى الأول : تكون « إلى » على أصلها ، ويكون الكتاب : التوراة ، وعلى الثاني : تكون « إلى » بمعنى « على » ، ويكون الكتاب : الذكر الأول .

قوله تعالى : (لَتُفْسِدُنَّ في الأرض) يعني : أرض مصر (مرتين) بالمعاصي ومخالفة التوراة .

وفي مَنْ قتلوه من الأنبياء في الفساد الأول قولان .

أحدهما : زكريا ، قاله السدي عن أشياخه .

---

(١) ابن جرير : ١٥/١٩ ، ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ٤/١٦٢ وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » . وروى الامام أحمد في « المسند » : ٣/١٠٠ ، ومسلم : ٤/٢٠٩٥ ، والترمذي ، والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » .

والثاني : شَعْيا ، قاله ابن إسحاق . فأما المقتول من الأنبياء في الفساد الثاني : ، فهو يحيى بن زكريا . قال مقاتل : كان بين الفسادَين مائتا سنة وعشر سنين . فأما السبب في قتلهم زكريا ، فانهم اتهموه بمريم ، وقالوا : منه حملت ، فهرب منهم ، فانفتحت له شجرة فدخل فيها وبقي من ردائه هدب ، فجاءهم الشيطان فدلّهم عليه ، فقطعوا الشجرة بالمنشار وهو فيها . وأما السبب في قتلهم « شعيا » ، فهو أنه قام فيهم برسالة من الله ينهاهم عن المعاصي . وقيل : هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة حتى قطعوه بالمنشار ، وأن زكريا مات حتف أنفه . وأما السبب في قتلهم يحيى بن زكريا ، ففيه قولان .

أحدهما : أن ملكهم أراد نكاح امرأة لا تحلُّ له ، فنهاه عنها يحيى . ثم فيها أربعة أقوال . أحدها : أنها ابنة أخيه ، قاله ابن عباس . والثاني : ابنته ، قاله عبد الله بن الزبير . والثالث : أنها امرأة أخيه ، وكان ذلك لا يصلح عندهم ، قاله الحسين بن علي عليهما السلام . والرابع : ابنة امرأته ، قاله السدي عن أشياخه ، وذكر أن السبب في ذلك : أن ملك بني إسرائيل هويَ بنت امرأته ، فسأل يحيى عن نكاحها ، فنهاه ، فحنقت أمها على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، وعمدت إلى ابنتها فزينتها وأرسلتها إلى الملك حين جلس على شرابه ، وأمرتها أن تسقيَه ، وأن تعرض له ، فان أرادها على نفسها ، أبت حتى يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْت ، ففعلت ذلك ، فقال : ويحك سليني غير هذا ، فقالت : ما أريد إلا هذا ، فأمر ، فأُتي برأسه والرأس يتكلم ويقول : لا تحلُّ لك ، لا تحلُّ لك .

والقول الثاني : أن امرأة الملك رأت يحيى عليه السلام وكان قد أُعطيَ حسناً وجمالاً ، فأرادته على نفسه ، فأبى ، فقالت لابنتها : سلي أباك رأس يحيى ، فأعطاها

ما سألت ، قاله الربيع بن أنس . قال العلماء بالسِّيَر : ما زال دم يحيى يغلي حتى قتل عليه من بني إسرائيل سبعون ألفاً ، فسكن ، وقيل : لم يسكن حتى جاء قاتله ، فقال : أنا قتلته ، فقُتِل ، فسكن .

قوله تعالى : (ولتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً) أي : لتَعَظَّمُنَّ عن الطاعة ولتبغُنَّ .

قوله تعالى : (فاذا جاء وعد أولاهما) أي : عقوبة أُولى المرَّتين (بعثنا) أي : أرسلنا (عليكم عباداً لنا) وفيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم جالوت وجنوده ، قاله ابن عباس ، وقتادة . والثاني : « بُخْتَنَصَّر » [١] ، قاله سعيد بن المسيب ، واختاره الفراء ، والزجاج . والثالث : العمالقة ، وكانوا كفاراً ، قاله الحسن . والرابع : سنحاريب [٢] ، قاله سعيد بن جبير . والخامس : قوم من أهل فارس ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد : سلط [الله] عليهم سابور ذا الأكتاف [٣] من ملوك فارس .

قوله تعالى : (أُولي بأسٍ شديد) أي : ذوي عدد وقوة في القتال .

وفي قوله : (فجاسوا خلال الديار) ثلاثة أقوال .

أحدها : مشَوا بين منازلهم ، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : يتجسَّسون أخبارهم ، ولم يكن قتال . وقال الزجاج : طافوا خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه ؟ و « الجوس » : طلب الشيء باستقصاء .

والثاني : قتلوهم بين بيوتهم ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة .

---

(١) هو ملك الكلدانيين ، أغار بحملاته على مصر وفتح القدس ، وأحرقها وأجلى بني إسرائيل إلى بابل .

(٢) هو ملك آشور بن سنجور وخليفته ، حمل على بلاد الكلدانيين واليهودية وأرمينية .

(٣) لقب بذلك ، لأنه أمر بفك أكتاف أسرى الحرب ، حارب العرب أحلاف الروم .

والثالث : عاثوا وأفسدوا ، يقال : جاسوا وحاسوا ، فهم يجوسون ويحوسون إذا فعلوا ذلك ، قاله ابن قتيبة .

فأما الخلال : فهي جمع خَلَل ، وهو الانفراج بين الشيئين . وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وابن جبير ، وأبو المتوكل : « خَلَلَ الديار » بفتح الخاء واللام من غير ألف . (وكان وعْداً مفعولا) أي : لا بد من كونه .

قوله تعالى : (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) أي : أظفرناكم بهم . والكَرَّة ، معناها : الرجعة والدَّولة ، وذلك حين قتل داودُ جالوتَ وعاد ملكهم إليهم . وحكى الفراء أن رجلا دعا على « بختنصر » ؛ فقتله الله ، وعاد ملكهم إليهم . وقيل : غزَوا ملك بابل فأخذوا ما كان في يده من المال والأسرى .

قوله تعالى : (وجعلناكم أكثر نفيراً) أي : أكثر عدداً وأنصاراً منهم . قال ابن قتيبة : النَّفير والنافر واحد ، كما يقال : قدير وقادر ، وأصله : مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته .

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (إن أحسنتم) أي : وقلنا لكم إن أحسنتم فأطعتم الله (أحسنتم لأنفسكم) أي : عاقبةُ الطاعة لكم (وإن أسأتم) بالفساد والمعاصي (فلها) وفيه قولان .

أحدهما : أنه بمعنى : فإليها . والثاني : فعليها .

(فإذا جاء وعد الآخرة) جواب « فإذا » محذوف ، تقديرُه : فإذا جاء

وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم ، بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم ، وهذا الفساد الثاني ، هو قتلهم يحيى بن زكريا ، وقصدهم قتل « عيسى » فرُفِع ، وسلَّط الله عليهم ملوك فارس والروم فقتلوهم وسبَوْهم ، فذلك قوله : (ليسوؤوا وجوهكم) . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « ليسوؤوا » بالياء على الجميع والهمز بين الواوين ، والإشارة إلى المبعوثين . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « ليسوءَ وجوهكم » على التوحيد ؛ قال أبو علي : فيه وجهان . أحدهما : ليسوءَ اللهُ عز وجل . والثاني : ليسوء البَعْثُ . وقرأ الكسائي : « لنسوءَ » بالنون ، وذلك راجع إلى الله تعالى .

وفيمن بَعث عليهم في المرة الثانية قولان .

أحدهما : بختنصر ، قاله مجاهد ، وقتادة . وكثير من الرواة يأبى هذا القول ، ويقولون : كان بين تخريب « بختنصر » بيت المقدس ، وبين مولد يحيى بن زكريا زمان طويل .

والثاني : انطياخوس الرومي ، قاله مقاتل . ومعنى (ليسوؤوا وجوهكم) أي : ليُدخِلوا عليكم الحزن بما يفعلون من قتلكم وسَبْيِكم ، وخصت المساءاة بالوجوه ، والمراد : أصحاب الوجوه ، لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة .

قوله تعالى : (وليدخلوا المسجد) يعني : بيت المقدس (كما دخلوه) في المرة الأولى (وليُتَبِّروا) أي : ليدمِّروا ويخرِّبوا . قال الزجاج : يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب : تِبر . ومعنى (ماعلَوا) أي : ليدمِّروا في حال علوِّهم عليكم .

قوله تعالى : (عسى ربكم أن يرحمكم) هذا مما وُعِدوا به في التوراة . و « عسى » من الله واجبة ، فرحمهم [الله] بعد انتقامه منهم ، وعمر بلادهم ، وأعاد نعمهم

بعد سبعين سنة . (وإن عدتم) إلى معصيتنا (عُدنا) إلى عقوبتكم . قال المفسرون : ثم إنهم عادوا إلى المعصية ، فبعث الله عليهم ملوكاً من ملوك فارس والروم . قال قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم محمداً ﷺ ، فهم في عذاب إلى يوم القيامة ، فيعطُون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

قوله تعالى : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) فيه قولان .

أحدها : سجناً ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة . وقال مجاهد : يحصرون فيها . وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : محبساً ، وقال الزجاج : « حصيراً » : حبساً ، أخذ من قولك : حصرت الرجل ، إذا حبسته ، فهو محصور ، وهذا حصيره ، أي : محبسه ، والحصير : المنسوج ، سمي حصيراً ، لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض ، ويقال للجَنْب : حصير ، لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض . وقال ابن الأنباري : حصيراً : بمعنى : حاصرة ، فصرف من حاصرة إلى حصير ، كما صرف « مؤلم » إلى أليم .

والثاني : فراشاً ومهاداً ، قاله الحسن . قال أبو عبيدة : ويجوز أن تكون جهنم لهم مهاداً بمنزلة الحصير ، والحصير : البساط الصغير .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً . وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) قال ابن الأنباري : « التي » وصف للجمع ، والمعنى : يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال . قال المفسرون : وهي توحيد الله والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته ، (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم) أي : بأن لهم (أجراً) وهو الجنة ، (وأن

الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي : ويبشرهم بالعذاب ، لأعدائهم ، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذىً من المشركين ، فعجَّل الله لهم البشرى في الدنيا بعقاب الكافرين .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً ﴾

قوله تعالى : (ويدعو الإنسان بالشر) وذلك أن الإنسان يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله بما لا يحب أن يستجاب له كما يدعو لنفسه بالخير . (وكان الإنسان عجولا) يعجِّل بالدعاء بالشر عند الغضب والضجر عَجَلَتَه بالدعاء بالخير .

وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم جنس يراد به الناس ، قاله الزجاج وغيره .

والثاني : آدم ، فاكتفى بذكره من ذكر ولده ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنه النضر بن الحارث حين قال : (فأمطر علينا حجارة من السماء) [الأنفال : ٣٢] ، قاله مقاتل . وقال سلمان الفارسي : أول ما خلق الله من آدم رأسه ، فجعل ينظر إلى جسده كيف يخلق ، قال : فبقيت رجلاه ، فقال : يارب عجِّل ، فذلك قوله : (وكان الإنسان عجولا) [1] .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾

---

(١) ابن جرير الطبري : ١٥/٤٨ عن سلمان الفارسي ، ورواه أيضاً عن ابن عباس .

قوله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي : علامتين يدلان على قدرة خالقها . (فمحونا آية الليل) فيه قولان .

أحدها : أن آية الليل : القمر ، ومحوها : ما في بعض القمر من الاسوداد . وإلى هذا المعنى ذهب علي عليه السلام ، وابن عباس في آخرين .

والثاني : آية الليل محيت بالظلمة التي جعلت ملازمةً للّيل ؛ فنسب المحو إلى الظلمة إذْ كانت تمحو الأنوارَ وتبطلُها ، ذكره ابن الأنباري . ويُروى أن الشمس والقمر كانا في النور والضوء سواءً ، فأرسل الله جبريل فأمرَّ جناحه على وجه القمر وطمس عنه الضوء .

قوله تعالى : (وجعلنا آية النهار) يعني : الشمس (مبصرة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منيرة ، قاله قتادة . قال ابن الأنباري : وإنما صلح وصف الآية بالإبصار على جهة المجاز ، كما يقال : لعب الدهر ببني فلان .

والثاني : أن معنى « مبصرة » : مبصراً بها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أن معنى « مبصرة » مُبَصِّرَةً ، فجرى « مُفْعِل » مجرى « مُفَعِّل » ، والمعنى : أنها تُبَصِّر الناس ، أي : تُريهم الأشياء ، قاله ابن الأنباري . ومعاني الأقوال تتقارب .

قوله تعالى : (لتبتغوا فضلاً من ربكم) أي : لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار (ولتعلموا عدد السنين والحساب) بمحو آية الليل ، ولولا ذلك ، لم يعرف الليل من النهار ، ولم يُتبين العدد . (وكلَّ شيء) أي : ما يُحتاج إليه ، (فصّلناه تفصيلا) بيّنّاه تبييناً لا يلتبس معه بغيره .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾

قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ) وقرأ ابن أبي عبلة « وكلُّ » برفع اللام . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ ، والحسن (ألزمناه طَيْره) بياء ساكنة من غير ألف .

وفي الطائر أربعة أقوال .

أحدها : شقاوته وسعادته ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال مجاهد : مامن مولود يولد إلّا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي ، أو سعيد .

والثاني : عمله ، قاله الفراء ، وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنه مايصيبه ، قاله خصيف . وقال أبو عبيدة : حظُّه .

قال ابن قتيبة : والمعنى فيما أرى ـ والله أعلم ـ : أن لكل امرئ حظاً من الخير والشر قد قضاه الله [عليه] ، فهو لازم عنقه ، والعرب تقول : لكل مالزم الإنسان : قد لزم عنقه ، وهذا لك عليَّ وفي عنقي حتى أخرج منه ، وإنما قيل للحظ من الخير والشر : « طائر » ، لقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير ، وجرى له الطائر بكذا من الشر ، على طريق الفأل والطِّيَرة ، فخاطبهم الله بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر ، هو الذي يُلزمه أعناقهم .

وقال الأزهري : الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم ، علم المطيع من ذريته ، والعاصي ، فكتب ماعلمه منهم أجمعين ، وقضى سعادة مَن علمه مطيعاً ، وشقاوة مَن علمه عاصياً ، فصار لكل منهم ماهو صائر إليه عند خلقه وإنشائه ، فذلك قوله : (ألزمناه طائره في عنقه) .

والرابع : أنه مايَتطيَّر من مثله من شيء عمله ، وذِكْر العنق عبارة عن اللزوم

له ، كلزوم القلادة العنق من بين مايلبس ، هذا قول الزجاج . وقال ابن الأنباري : الأصل في تسميتهم العمل طائراً ، أنهم كانوا يتطيَّرون من بعض الأعمال .

قوله تعالى : (ونُخرج له) قرأ أبو جعفر : « ويُخْرَج » بياء مضمومة وفتح الراء . وقرأ يعقوب ، وعبد الوارث : بالياء مفتوحة وضم الراء . وقرأ قتادة ، وأبو المتوكل : « ويُخرِج » بياء مرفوعة وكسر الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، والأعرج : « وتَخرُجُ » بتاء مفتوحة ورفع الراء ، (يوم القيامة كتاباً) وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك : « كتاب » بالرفع ، (يلقاه) وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر : « يُلقّاه » بضم الياء وتشديد القاف . وأمال حمزة ، والكسائي القاف . قال المفسرون : هذا كتابه الذي فيه ما عمل . وكان أبو السوّار العَدَوي إذا قرأ هذه الآية قال : نشرتان وطيّة ، أمّا ما حييتَ يا ابن آدم ، فصحيفتُك منشورة ، فأَمْلِ فيها ما شئت ، فاذا مُتَّ ، طُويت ، ثم إذا بُعثت ، نُشرت .

قوله تعالى : (إقرأ كتابك) وقرأ أبو جعفر : « اقرا » بتخفيف الهمزة ، وفيه إضمار ، تقديره ، فيقال له إقرأ كتابك . قال الحسن : يقرؤه أمّياً كان أو غير أميٍّ ، ولقد عدل عليك مَن جعلك حسيب نفسك .

وفي معنى (حسيباً) ثلاثة أقوال .

أحدها : محاسِباً . والثاني : شاهداً . والثالث : كافياً ، والمعنى : أن الإنسان يفوّض إليه حسابه ، ليعلم عدل الله بين العباد ، ويرى وجوب حجة الله عليه ، واستحقاقه العقوبة ، ويعلم أنه إن دخل الجنة ، فبفضل الله ، لا بعمله ، وإن دخل النار ، فبذنبه . قال ابن الأنباري : وإنما قال : (حسيباً) ، والنفس مؤنثة ، لأنه يعني بالنفس : الشخص ، أو لأنه لا علامة للتأنيث في لفظ النفس ، فشبّهت

بالسماء والأرض ، قال تعالى : (السماء منفطر به) [المزمل : ١٨] ، قال الشاعر :

[فلا مُزْنَةٌ وَدقَتْ وَدْقَها] ولا أرضَ أبقلَ إبقالَها [1]

﴿ مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾

قوله تعالى : (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه) أي : له ثواب اهتدائه ، وعليه عقاب ضلاله .

قوله تعالى : (ولا تزرُ وازرةٌ) أي : نفس وازرة (وزر أخرى) قال ابن عباس : إن الوليد بن المغيرة قال : اتَّبعوني وأنا أحمل أوزاركم ، فقال الله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، قال أبو عبيدة : والمعنى : ولا تَـأثَمْ آثمة إثم أخرى . قال الزجاج : يقـال : وَزر ، يَزِرُ ، فهو وازِر ، وَزراً ، ووِزراً ، ووِزْرَةً ، ومعناه : أثِم إثماً .

وفي تأويل هذه الآية وجهان .

أحدهما : أن الآثم لا يؤخذ بذنب غيره .

والثاني : أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم ، لأن غيرَه عَمِلَه ، كما

(١) قائله عامر بن جوين شاعر جاهلي ، كان خليعاً فاتكاً ، وشريفاً وفياً ، والبيت في « الكتـــاب » : ٢٠٥/١ ، و « مجاز القرآن » : ٦٧/٢ ، و « الطبري » : ١٥٣/١٨ ، و « القرطبي » : ٢٨٩/١٢ ، و « العيني » : ٤٦٤/٢ ، و « شواهد المغني » : ٣١٣ ، و « الخزانة » : ٢١/١ . والشاهد فيه حذف التاء من « أبقلت » لأن الأرض بمعنى المكان ، فكأنه قال : ولا مكان أبقل إبقالها ، والمزنة : السحابة ، والودق : المطر .

قال الكفار : (إنّا وجدنا آباءنا على أمة) [الزخرف : ٢٢] . ومعنى (حتى نبعثَ رسولاً) أي : حتى نُبيِّنَ ما به نعذِّب ، وما من أجله نُدخلُ الجنة .

فصل

قال القاضي أبو يعلى : في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلا ، وإنما تجب بالشرع ، وهو بعثة الرسل ، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك ، لم يقطع عليه بالنار . قال : وقيل معناه : أنه لا يعذِّب في ما طريقه السمع إلاَّ بقيام حجة السمع من جهة الرسول ، ولهذا قالوا : لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها ، لم يلزمه قضاء شيء منها ، لأنها لم تلزمه إلاَّ بعد قيام حجة السمع ، والأصل فيه قصة أهل قُباء حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا ، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة ، فالواجب عليه القضاء ، لأنه قد رأى الناس يصلّون في المساجد بأذان وإقامة ، وذلك دعاء إليها .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (وإذا أردنا أن نُهلِك قرية) في سبب إرادته لذلك قولان .

أحدهما : ما سبق لهم في قضائه من الشقاء والثاني : عنادهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم .

قوله تعالى : (أمرنا مترفيها) قرأ الأكثرون : « أمَرْنَا » مخففة ، على وزن « فعَلْنا » ، وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من الأمر ، وفي الكلام إضمار ، تقديره : أمرنا مترفيها بالطاعة ، ففسقوا ، هذا مذهب سعيد بن جبير . قال الزجاج : ومثله في الكلام : أمرتك فعصيتني ، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر .

والثاني : « كثَّرنا » يقال : أمرت الشيء وآمرته ، أي : كثَّرته ، ومنه قولهم : مُهرَةٌ مأمورةٌ ، أي : كثيرة النِتاج ، يقال : أَمِر بنو فلان يأمَرون أمراً : إذا كثروا ، هذا قول أبي عبيدة ، وابن قتيبة .

والثالث : أن معنى « أمَرْنَا » : أمَّرْنا ، يقال : أمرت الرجل ، بمعنى : أمَّرته ، والمعنى : سلَّطنا مترفيها بالإمارة ، ذكره ابن الأنباري . وروى خارجة عن نافع : « آمرنا » ممدودة ، مثل « آمنّا » ، وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي الدرداء ، وأبي رزين ، والحسن ، والضحاك ، ويعقوب . قال ابن قتيبة : وهي اللغة العالية المشهورة ، ومعناه : كثَّرنا ، أيضاً . وروى ابن مجاهد أن أبا عمرو قرأ : « أمَّرْنَا » مشددة الميم ، وهي رواية أبان عن عاصم ، وهي قراءة أبي العالية ، والنخعي ، والجحدري . قال ابن قتيبة : المعنى : جعلناهم أُمراءَ . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر : « أَمِرْنا » بفتح الهمزة مكسورة الميم مخففة . فأما المترَفون ، فهم المتنعّمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسَعة العيش ، والمفسرون يقولون : هم الجبَّارون والمسلَّطون والملوك ، وإنما خص المترَفين بالذكر ، لأنهم الرؤساء ، ومَن عداهم تبع لهم .

قوله تعالى : (ففسقوا فيها) أي : تمردوا في كفرهم ، لأن الفسق في الكفر : الخروج إلى أفحشه . وقد شرحنا معنى « الفسق » في (البقرة : ٢٦ ، ١٩٧) .

قوله تعالى : (فحق عليها القول) قال مقاتل : وجب عليها العذاب . وقد ذكرنا معنى « التدمير » في (الأعراف : ١٣٧) .

قوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون) وهو جمع قرن . وقد ذكرنا اختلاف الناس فيه في (الأنعام : ٦)، وشرحنا معنى « الخبير » و « البصير » في (البقرة). قال مقاتل : وهذه الآية تخويف لأهل مكة .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾

قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة) يعني : من كان يريد بعمله الدنيا، فعبَّر بالنعت عن الاسم، (عجلنا له فيها مانشاء) من عَرَض الدنيا، وقيل : من البسط والتقتير، (لمن نريد) فيه قولان .

أحدها : لمن نريد هلكته ، قاله أبو إسحاق الفزاري .

والثاني : لمن نريد أن نعجل له شيئاً، وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا، وبيان أنه لاينال مع مايقصده منها إلّا ما قُدِّرَ له ، ثم يدخل النار في الآخرة . وقال ابن جرير : هذه الآية لمن لايوقن بالمعاد . وقد ذكرنا معنى « جهنم » في (البقرة : ٢٠٦)، ومعنى « يصلاها » في سورة (النساء : ١٠)، ومعنى « مذموماً مدحوراً » في (الأعراف : ١٨) .

قوله تعالى : (ومَن أراد الآخرة) يعني : الجنة (وسعى لها سعيها) أي : عمل لها العمل الذي يصلح لها ، وإنما قال : (وهو مؤمن) لأن الإيمان شرط في صحة الأعمال، (فأولئك كان سعيهم مشكوراً) أي : مقبولا . وشكر الله عزَّ وجل لهم : ثوابه إياهم ، وثناؤه عليهم .

﴿ كُلاً نُمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً . لَاتَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً ﴾

قوله تعالى : (كُلاًّ نمد هؤلاء) قال الزجاج : « كلاًّ » منصوب بـ « نمدُّ » ، « هؤلاء » بدل من « كل » ، والمعنى : نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك . قال المفسرون : كُلاًّ نعطي من الدنيا ، البَرَّ والفاجرَ ، والعطاء هاهنا : الرزق ، والمحظور : الممنوع ، والمعنى : أن الرزق يعم المؤمن والكافر ، والآخرة للمتقين خاصة .

(أنظُر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) وفيما فضِّلوا فيه قولان .

أحدهما : الرزق ، منهم مقلٌّ ، ومنهم مُكثر .

والثاني : الرزق والعمل ، فنهم موفَّق لعمل صالح ، ومنهم ممنوع من ذلك .

قوله تعالى : (لا تجعل مع الله إلهاً آخر) الخطاب للنبي ﷺ ، والمعنى عام لجميع المكلفين . والمخذول : الذي لا ناصر له ، والخذلان : ترك العون . قال مقاتل : نزلت حين دعَوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾

قوله تعالى : (وقضى ربك) روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : أمَر ربك . ونقل عنه الضحاك أنه قال : إنما هي « ووصى ربك » فالتصقت إحدى

الواوين بـ « الصاد »(١)، وكذلك قرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وسعيد ابن جبير : « ووصى » ، وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع ، فلا يلتفت إليه . وقرأ أبو عمران ، وعاصم الجحدري ، ومعاذ القارىء : « وقضاء ربك » بقاف وضاد بالمد والهمز والرفع وخفض اسم الرب . قال ابن الأنباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب ، لكنه من باب الأمر والفرض ، وأصل القضاء في اللغة : قطع الشيء باحكام وإتقان ، قال الشاعر يرثي عمر :

قَضَيْتَ أُمُوْراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا
بَوائِقَ في أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ (٢)

أراد : قطعتَها محكِماً لها .

قوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) أي : وأمر بالوالدين إحسانا ، وهو البِرّ والإكرام ، وقد ذكرنا هذا في (البقرة : ٨٣) .

قوله تعالى : (إما يبلغن) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يبلغنّ » على التوحيد . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « يبلغانّ »

(١) الخبر رواه ابن جرير ١٥/٦٣ عن الضحاك ، وفي سنده أبو إسحاق الكوفي ، وهو عبد الله بن ميسرة الحارثي ، ضعفه ابن معين ، وأحمد بن حنبل ، والنسائي ، والدارقطني ، وقال ابن أبي حاتم : ليس بشيء ، وقال ابن حبان : لا يحل الاحتجاج بخبره ، وهشيم الراوي عن أبي إسحاق هذا - وإن كان ثقة - موصوف بالتدليس وقد عنعن في هذا الخبر .

(٢) البيت من قصيدة تروى للشماخ كما في « حماسة أبي تمام » : ٣/١٠٩٠ بشرح التبريزي ، و « زهر الآداب » : ٩٨٦ ، وتروى أيضاً لمزرد بن ضرار كما في « البيان والتبيين » : ٣/٣٦٤ ، وتروى لجزء بن ضرار . قال التبريزي : وقال أبو رياش : الذي عندي أنه لمزرد أخيه ، وفي « الأغاني » ٩/١٥٩ : أن هذا الشعر للجن قالته قبل أن يقتل عمر بثلاث ، فكان ذلك نعياً له قبل أن يقتل . والبوائق : جمع بائقة وهي الداهية والبلية ، وفي « الحماسة » : بوائج ، وهي رواية اللسان : بوج . والبوائج : البوائق .

على التثنية . قال الفراء : جعلت « يبلغن » فعلاً لأحدهما وكرّت عليهما «كلاهما» . ومن قرأ « يبلغانِّ » فانه ثنَّى ، لأن الوالدين قد ذُكرا قبل هذا ، فصار الفعل على عددهما ، ثم قال : (أحدهما أو كلاهما) على الاستئناف ، كقوله : (فعموا وصموا) [المائدة : ٧١] ثم استأنف فقال : (كثيرٌ منهم) .

قوله تعالى : (فلا تقل لهما أفٍّ) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أفِّ » بالكسر من غير تنوين . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب ، والمفضل : « أفَّ » بالفتح من غير تنوين . وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم : « أفٍّ » بالكسر والتنوين . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : « أفٌّ » بالرفع والتنوين وتشديد الفاء . وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم ، الجحدري ، وحميد بن قيس : « أفّاً » مثل « تعساً » . وقرأ أبو عمران الجوني ، وأبو السماك العدوي : « أفُّ » بالرفع من غير تنوين مع تشديد الفاء ، وهي رواية الأصمعي عن أبي عمرو . وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : « أفْ » باسكان الفاء وتخفيفها ؛ قال الأخفش : وهذا لأن بعض العرب يقول : أفْ لك ، على الحكاية ، والرفع قبيح ، لأنه لم يجيء بعده لام . وقرأ أبو العالية ، وأبو حصين الأسدي : « أفّي » بتشديد الفاء وياء . وروى ابن الأنباري أن بعضهم قرأها : « إفِ » بكسر الهمزة[1] . وقال الزجاج : فيها سبع لغات ، الكسر بلا تنوين ، وبتنوين ، والضم بلا تنوين ، وبتنوين ، والفتح بلا تنوين ، وبتنوين ، واللغة السابعة لا تجوز في القراءة : « أفي » بالياء ، هكذا قال الزجاج . وقال ابن الأنباري : في « أفٍّ » عشرة أوجه . « أفَّ » لك ، بفتح الفاء ، و « أفِّ » بكسرها ، و « أفٍّ » ، و « أفّاً » لك بالنصب والتنوين على مذهب الدعاء

(١) في « القرطبي » : ٢٤٣/١٠ : و « إفٍّ » لك ، بكسر الهمزة .

كما تقول : « وَيْلاً » للكافرين ، و « أُفٌّ » لك ، بالرفع والتنوين ، وهو رفع باللام ، كقوله تعالى : (ويل للمطففين) [المطففون : ١] ، و « أفهٍ » لك ، بالخفض والتنوين ، تشبيهاً بالأصوات ، كقولك : « صهٍ » و « مهٍ » ، و « أفها » لك ، على مذهب الدعاء أيضاً ، و « أُفّي » لك ، على الإضافة إلى النفس ، و « أُفْ » لك ، بسكون الفاء ، تشبيهاً بالأدوات ، مثل : « كم » و « هل » و « بل » ، و « إفْ » لك ، بكسر الألف . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : وتقول : « أُفٍ » منه ، و « أُفَ » ، و « أُفُ » ، و « أفٍ » ، و « أُفًا » ، و « أفّ » ، و « أفّي » مضاف ، و « أفها » ، و « أفا » بالألف ، ولا تقل : « أُفي » بالياء فانه خطأ .

فأما معنى « أف » ففيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه وسخ الظفر ، قاله الخليل . والثاني : وسخ الأذن ، قاله الأصمعي . والثالث : قلامة الظفر ، قاله ثعلب . والرابع : أن « الأف » الاحتقار والاستصغار ، من « الأَفف » ، والأَفف عند العرب : القِلَّة ، ذكره ابن الأنباري . والخامس : أن « الأفّ » مارفعته من الأرض من عود أو قصبة ، حكاه ابن فارس اللغوي . وقرأت على شيخنا أبي منصور قال : معنى « الأف » : النَّتن ، والتضجر ، وأصلها : نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد ، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه ، فقيلت لكل مستثقَل . قال المصنف : وأما قولهم : « تُف » ، فقد جعلها قوم بمعنى « أف » ، فروي عن أبي عبيد أنه قال : أصل « الأفّ » و « التُفّ » : الوسخ على الأصابع إذا فتلته . وحكى ابن الأنباري فرقاً ، فقال : قال اللغويون : أصل « الأفّ » في اللغة : وسخ الأذن ، و « التّفّ » : وسخ الأظفار ، فاستعملتها العرب فيما يكره ويستقذرُ ويُضجر منه . وحكى الزجاج فرقاً آخر ، فقال : قد

قيل : إن « أف » : وسخ الأظفار ، و « التف » : الشيء الحقير ، نحو وسخ الأذن ، أو الشظية تؤخذ من الأرض ، ومعنى « أُف » : النَّتْنُ ، ومعنى الآية : لاتقل لهما كلاماً تتبرّم فيه بهما إذا كَبِرَا وأَسَنَّا ، فينبغي أن تتولَّى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك ، (ولا تنهرهما) أي : لاتكلمهما ضَجِراً صائحاً في وجوههما . وقال عطاء بن أبي رباح : لاتنفض يدك عليهما ، يقال : نَهَرْتُهُ أَنْهَرُهُ نَهْراً ، وانتهَرْتُه انتهاراً ، بمعنى واحد . وقال ابن فارس : نهرتُ الرجُل وانتهرتُه ، مثل : زجرتُه . قال المفسرون : وإنما نهى عن أذاهما في الكِبَر ، وإن كان منهياً عنه على كلِّ حالة ، لأن حالة الكِبَر يظهر فيها منهما مايُضجِر ويؤذي ، وتكثر خدمتهما .

قوله تعالى : (وقل لهما قولاً كريماً) أي : ليِّناً لطيفاً أحسن ماتجد . وقال سعيد بن المسيّب : قولَ العبد المذنِب للسَّيد الفظّ .

قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أي : أَلِنْ لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما . وخفضُ الجَناح قد شرحناه في (الحجر : ٨٨) . قال عطاء : جناحك : يداك ، فلا ترفعهما على والديك . والجمهور يضمون الذال من « الذّلّ » . وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي عبلة : بكسر الذال . قال الفراء : الذِّل : أن تتذلَّلَ لهما ، من الذِّل ، والذُّل : أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة ، والذُّل والذّلة : مصدر الذليل ، والذِّل ، بالكسر : مصدر الذَّلول ، مثل الدابة والأرض . قال ابن الأنباري : من قرأ « الذّل » ، بكسر الذال ، جعله بمعنى الذُّل ، بضم الذال ، والذي عليه كُبَراء أهل اللغة أن الذُّل من الرجل : الذليل ، والذِّل من الدابة : الذَّلول .

قوله تعالى : (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) أي : مثل رحمتهما إياي في

صغري حتى ربياني . وقد ذهب قوم إلى أن هذا الدعاء المطلق نُسخ منه الدعاء لأهل الشرك بقوله : (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) [التوبة : ١١٣] ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومقاتل . قال المصنف : ولا أرى هذا نسخاً عند الفقهاء ، لأنه عامّ دخله التخصيص ، وقد ذَكَرَ قريباً مما قلتُه ابن جرير .

قوله تعالى : (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي : بما تُضمرون من البِرّ والعقوق ، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يُضمِر العقوق ، غفر له ذلك ، وهو قوله : (إن تكونوا صالحين) أي : طائعين لله ، [وقيل] بارّين ، وقيل : توّابين ، (فانه كان للأوابين غفوراً) في الأوّاب عشرة أقوال .

أحدها : أنه المسلِم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه التواب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : هو التائبُ مَرّةً بعد مَرّةٍ . وقال الزجاج : هو التوّاب المُقْلِع عن جميع ما نهاه الله عنه ، يقال : قد آب يؤوب أوْباً : إذا رجع .

والثالث : أنه المسبِّح ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والرابع : أنه المطيع لله تعالى ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والخامس : أنه الذي يَذْكر ذَنْبه في الخلاء ، فيستغفر اللهَ منه ، قاله عُبيد بن عُمير .

والسادس : أنه المُقْبل إلى الله تعالى بقلبه وعمله ، قاله الحسن .

والسابع : المصلّي ، قاله قتادة .

والثامن : هو الذي يصلّي بين المغرب والعشاء ، قاله ابن المنكدر .

والتاسع : الذي يصلّي صلاة الضحى ، قاله عَون العُقيلي .

والعاشر : أنه الذي يُذنب سِرّاً ويتوب سِرّاً ، قاله السُّدّي .

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾

قوله تعالى : (وآت ذا القربى حقّه) فيه قولان .

أحدهما : أنه قرابة الرجل من قبَل أبيه وأُمّه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال . أحدها : أن المراد به : بِرُّهم وصِلَتهم . والثاني : النّفقة الواجبة لهم وقت الحاجة . والثالث : الوصيّة لهم عند الوفاة .

والثاني : أنهم قرابة الرسول ، قاله علي بن الحسين عليهما السلام ، والسدي . فعلى هذا ، يكون حقهم : إعطاؤهم من الخُمس ، ويكون الخطاب للوُلاة .

قوله تعالى : (والمسكينَ وابنَ السبيل) قال القاضي أبو يعلى : يجوز أن يكون المراد : الصدقات الواجبة ، يعني : الزكاة ، ويجوز أن يكون الحق الذي يلزمه إعطاؤه عند الضرورة إليه . وقيل : حق المسكين ، من الصدقة ، وابن السبيل ، من الضيافة .

قوله تعالى : (ولا تبذّر تبذيراً) في التبذير قولان .

أحدها : أنه إنفاق المال في غير حق ، قاله ابن مسعود [1] ، وابن

---

(١) « الأدب المفرد » للبخاري : ١/٥٣٣ ، وابن جرير : ١٥/٧٣ ، والحاكم : ٢/٣٦١ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ٤/١٧٧ وزاد نسبته إلى الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والبيهقي في « شعب الايمان » .

عباس[1]. وقال مجاهد : لو أنفق الرجل ماله كلّه في حقّ ، ما كان مبذّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق ، كان مبذِّراً . قال الزجاج : التبذير : النفقة في غير طاعة الله ، وكانت الجاهلية تنحر الإبل وتبذّر الأموال تطلب بذلك الفخر والسُّمعة ، فأمر الله عز وجل بالنفقة في وجهها فيما يقرّب منه .

والثاني : أنه الإسراف المتلِف للمال ، ذكره الماوردي . وقال أبو عبيدة : المبذِّر : هو المُسرف المُفسد العائث .

قوله تعالى : (إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين) لأنهم يوافقونهم فيما يدعونهم إليه ، ويشاكلونهم في معصية الله ، (وكان الشيطان لربه كفورا) أي : جاحداً لنِعَمه . وهذا يتضمن أن المسرف كفور للنِّعم .

قوله تعالى : (وإما تعرضَنّ عنهم) في المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين تقدَّم ذِكْرُهم من الأقارب والمساكين وأبناء السبيل ، قاله الأكثرون ، فعلى هذا في علّة هذا الإعراض قولان . أحدهما : الإعسار ، قاله الجمهور . والثاني : خوف إنفاقهم ذلك في معصية الله ، قاله ابن زيد . وعلى هذا في الرحمة قولان . أحدهما : الرزق ، قاله الأكثرون . والثاني : أنه الصلاح والتوبة ، هذا على قول ابن زيد .

والثاني : أنهم المشركون ، فالمعنى : وإما تعرضَنّ عنهم لتكذيبهم ، قاله سعيد بن جبير . فتحتمل إذاً الرحمة وجهين . أحدهما : انتظار النصر عليهم . والثاني : الهداية لهم .

والثالث : أنهم ناس من مُزينة جاؤوا يستحملون رسولَ الله ﷺ ، فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » ، فبكَوا ، فنزلت هذه الآية ، قاله عطاء الخراساني .

(١) « الأدب المفرد » : ٥٣٤/١ ، وابن جرير : ٧٣/١٥ .

والرابع : أنها نزلت في خبّاب ، وبلال ، وعمّار ، ومِهجَع ، ونحوهم من الفقراء ، كانوا يسألون رسول الله ﷺ فلا يجد مايعطيهم ، فيُعرض عنهم ويسكت ، قاله مقاتل . فعلى هذا القول والذي قبله تكون الرحمة بمعنى الرِّزق .

قوله تعالى : (فقل لهم قولاً ميسوراً) قال أبو عبيدة : ليّناً هيّناً ، وهو من اليُسْر . وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه العِدَة الحسنة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : أنه القول الجميل ، مثل أن يقول : رزقنا الله وإياك ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على ماتقدّم من قوله .

والثالث : أنه المداراة لهم باللسان ، على قول مَن قال : هم المشركون ، قاله أبو سليمان الدمشقي ؛ وعلى هذا القول ، تحتمل الآية النسخ .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) سبب نزولها : أن غلاماً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال ، إن أُمّي تسألك كذا وكذا ، قال : « ماعندنا اليوم شيء » ، قال : فتقول لك : اكْسُني قميصك ، قال : فخلع قميصه فدفعه إليه ، وجلس في البيت حاسراً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود [1] . وروى جابر

(١) نسبه السيوطي في « الدر » ١٧٨/٤ لابن جرير ، ولم نقف عليه .

ابن عبد الله نحو هذا ، فزاد فيه ، فأذّن بلال للصلاة ، وانتظروه فلم يخرج ، فشغل قلوب الصحابة ، فدخل عليه بعضهم ، فرأوه عُرياناً ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى : لا تمسك يدك عن البذل كلّ الإمساك حتى كأنها مقبوضة إلى عنقك ، (ولا تبسطها كلّ البسط) في الإعطاء والنفقة (فتقعُدَ ملوماً) تلوم نفسك ويلومك النـاس ، (محسوراً) قال ابن قتيبة : تَحْسِرُكَ العطيةُ وتقطعك كما يَحْسِرُ السفرُ البعيرَ فيبقى منقطعاً به . قال الزجّاج : المحسور : الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء ، فالمعنى : فتقعدَ وقد بلغتَ في الحَمْل على نفسك وحالك حتى صِرتَ بمنزلة من قد حَسَرَ . قال القاضي أبو يعلى : وهذا الخطاب أُريدَ به غيرُ رسول الله ﷺ ، لأنه لم يكن يدّخِرُ شيئاً لغدٍ ، وكان يجوع حتى يشُدّ الحجَر على بطنه ، وقد كان كثير من فضلاء الصحابة ينفقون جميع مايملكون ، فلم ينههم الله ، لصحة يقينهم ، وإنما نهى من خِيف عليه التحسّر على ماخرج من يده ، فأما من وثق بوعد الله تعالى ، فهو غير مراد بالآية .

قوله تعالى : (إن ربّك يبسُط الرّزق لمن يشاء ويقدر) أي : يوسّع على من يشاء ويضيّق ، (إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) حيث أجرى أرزاقهم على ماعلم فيه صلاحهم .

قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خَشية إملاق) قد فسرناه في (الأنعام : ١٥١) .

قوله تعالى : (كان خِطْءاً كبيراً) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « خِطْءاً » مكسورة الخاء ساكنة الطاء مهموزة مقصورة . وقرأ ابن كثير ، وعطاء : « خِطاءً » مكسورة الخاء ممدودة مهموزة . وقرأ ابن عامر : « خَطَأً » بنصب الخاء والطاء وبالهمز من غير مدٍّ . وقرأ أبو رزين كذلك ، إلّا

أنه مَدّ وقرأ الحسن، وقتادة : « خَطْءاً » بفتح الخاء وسكون الطاء مهموز مقصور . وقرأ الزهري ، وحميد بن قيس : « خِطاً » بكسر الخاء وتنوين الطاء من غير همز ولا مَدّ . قال الفراء : الخِطء : الإثم ، وقد يكون في معنى « خَطأ » كما قالوا : « قِتْبٌ » و « قَتَبٌ » و « حِذْرٌ » و « حَذَرٌ » و « نِجْسٌ » و « نَجَسٌ » ، والخِطء ، والخِطاء ، والخَطَاء ، ممدود : لغات . وقال أبو عبيدة : خَطِئْتُ وأخْطَأْتُ ، لغتـان . وقال أبو علي : قراءة ابن كثير « خِطاءً » ، يجوز أن تكون مصدرَ « خاطأ » وإن لم يسمع « خاطأَ » ولكن قد جاء مايدل عليه ، أنشد أبو عبيدة :

الخِطء والخَطء والخَطاء

وقال الأخفش : خَطِيء يَخْطَأُ بمعنى « أذْنَبَ » وليس بمعنى « أخطأَ » ، لأن « أخطأ » : فيما لم يصنعه عمداً ، تقول فيما أتيتَه عمداً : « خَطِئْتُ » ، وفيما لم تتعمده : « أخطأتُ » . وقال ابن الأنباري : « الخِطء » : الإثم ، يقـال : قد خَطِيءَ يَخْطَأُ : إذا أثم ، وأخْطَأَ يُخْطِيء : إذا فارق الصواب . وقد شرحنا هذا في (يوسف : ٩١) عند قوله : (وإن كنا لخاطئين) .

﴿ وَلا تَقرَبُوا الزِّنىٰ إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا) وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، والحسن : بالمد . قال أبو عبيدة : وقد يمد « الزنا » في كلام أهل نجد ، قال الفرزدق :

أبا حَاضِرٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤه

وَمَنْ يَشْرَبِ الخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرا[1]

(١) « مجاز القرآن » : ١/٣٧٧ ، و « الجمهرة » : ٣/٢٢٥ ، و « اللسان » و « التاج » : زني .

وقال أيضاً :

أخضبتَ فِعلَكَ للزِّناءِ ولم تَكُنْ يَوْمَ اللِّقَاءِ لتَخْضِبَ الأبْطَالا (١)

وقال آخر :

[كانت فريضةُ ماتقول] كَمَا كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيْضَةَ الرَّجْمِ (٢)

قوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله) قد ذكرناه في (الأنعام : ١٥١) .

قوله تعالى : (فقد جعلنا) قال الزجاج : الأجود إدغام الدال مع الجيم ، والإظهار جيد بالغ ، إلّا أنّ الجيم من وسط اللسان ، والدال من طرف اللسان ، والإدغام جائز ، لأن حروف وسط اللسان تقرب من حروف طرف اللسان .
ووليُّه : الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ، فان لم يكن له وليٌّ ، فالسُّلطان وليُّه .

وللمفسرين في السُّلطان قولان .

أحدهما : أنه الحُجَّة ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الوالي ، والمعنى : (فقد جعلنا لوليه سلطاناً) ينصره ويُنْصِفه في حَقِّه ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (فلا يُسرف في القتل) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « فلا يسرف » بالياء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بالتاء .

وفي المشار إليه في الآية قولان .

---

(١) « مجاز القرآن » : ٣٧٧/١ .

(٢) البيت للنابغة الجعدي ديوانه : ٢٣٥ طبع المكتب الاسلامي ، و « مجاز القرآن » : ٣٧٨/١ ، و « أمالي المرتضى » : ٢١٦/١ ، و « الانصاف في مسائل الخلاف » : ١٦٥ ، و « السمط » : ٣٦٨/١ ، و « اللسان » : زني . وقوله : « كان الزناء فريضة الرجم » مقلوب ، والأصل : كان الرجم فريضة الزنا .

أحدها : أنه وليّ المقتول . وفي المراد بإسرافه خمسة أقوال . أحدها : أن يَقتُل غير القاتل ، قاله ابن عباس ، والحسن . والثاني : أن يقتُل اثنين بواحد ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : أن يقتُل أشرف مِن الذي قُتل ، قاله ابن زيد . والرابع : أن يمثِّل ، قاله قتادة . والخامس : أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان ، ذكره الزجّاج .

والثاني : أن الإشارة إلى القاتل الأول ، والمعنى : فلا يسرف القاتل بالقتل تعدّياً وظلماً ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (إنه كان منصوراً) أي : مُعاناً عليه .

وفي هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الولي ، فالمعنى : إنه كان منصوراً بتمكينه من القَوَد ، قاله قتادة ، والجمهور .

والثاني : أنها ترجع إلى المقتول ، فالمعنى : إنه كان منصوراً بقتل قاتله ، قاله مجاهد .

والثالث : أنها ترجع إلى الدم ، فالمعنى : إن دم المقتول كان منصوراً ، أي : مطلوباً به .

والرابع : أنها ترجع إلى القتل ، ذكر القولين الفراء .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلاً . وَلا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾

قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم) قد شرحناه في (الأنعام : ١٥٢) .

قوله تعالى : (وأوفوا بالعهد) وهو عامّ فيما بين العبد وبين ربه ، وفيما بينه وبين الناس . قال الزجاج : كلُّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

قوله تعالى : (كان مسؤولاً) قال ابن قتيبة : أي : مسؤولاً عنه .

قوله تعالى : (وأوفوا الكيل إذا كِلْتُم) أي : أتِمُّوه ولا تَبْخَسوا منه .

قوله تعالى : (وَزِنوا بالقسطاس) فيه خمس لغات . أحدها : « قُسطاس » ، بضم القاف وسينين ، وهذه قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وأبي بكر عن عاصم هاهنا وفي (الشعراء : ١٨٢) . والثانية : كذلك ، إلّا أن القاف مكسورة ، وهذه قراءة حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم . قال الفراء : هما لغتان . والثالثة : « قصطاص » ، بصادين . والرابعة : « قصطاس » ، بصاد قبل الطاء وسين بعدها ، وهاتان مرويتان عن حمزة . والخامسة : « قِسطان » ، بالنون . قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال : القسطاس : الميزان ، روميٌّ معرَّب ، ويقال : « قُسطاس » و « قِسطاس » .

قوله تعالى : (ذلك خير) أي : ذلك الوفاء خير عند الله وأقرب إليه ، (وأحسن تأويلاً) أي : عاقبة في الجزاء .

قوله تعالى : (ولا تَقْفُ ماليس لك به علم) قال الفراء : أصل « تَقْفُ » من القيافة ، وهي : تتبُّع الأثر ، وفيه لغتان : قَفَا يقْفُو ، وقاف يقوف ، وأكثر القراء يجعلونها من « قفوتُ » ، فيحرك الفاء إلى الواو ويجزم القاف كما تقول : لاتَدْعُ . وقرأ معاذ القارىء : « لاتقُفْ » ، مثل : تَقُل ؛ والعرب

تقول : قُفْتُ أثَره ، وقَفَوت ، ومثله : عاث وعثا ، وقاعَ الجملُ الناقة ، وقماها : إذا ركبها . قال الزجاج : من قرأ باسكان الفاء وضم القاف مِنْ : قاف يقوف ، فكأنه مقلوب مِنْ قفا يقفو ، والمعنى واحد ، تقول : قفوتُ الشيء أقفُوه قفواً : إذا تبعت أثره . وقال ابن قتيبة : « لاتقف » ، أي : لاتُتْبِعه الظُّنون والحَدْسَ ، وهو من القفاء مأخوذ ، كأنك تقفو الأمور ، أي : تكون في أقفائها وأواخرها تتعقَّبها ، والقائف : الذي يعرف الآثار ويتبعها ، فكأنه مقلوب عن القافي .

وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال .

أحدها : لاتَرمِ أحداً بما ليس لك به علم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : لاتقل : رأيتُ ، ولم تَرَ ، ولا سمعتُ ، ولم تَسمع . رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثالث : لاتُشرك بالله شيئاً ، رواه عطاء أيضاً عن ابن عباس .

والرابع : لاتشهد بالزور ، قاله محمد بن الحنفية .

قوله تعالى : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك) قال الزجاج : إنما قال : (كل) ، ثم قال : (كان) ، لأن كلاً في لفظ الواحد ، وإنما قال : (أولئك) لغير الناس ، لأن كلَّ جمع أشرتَ إليه من النـاس وغيرهم من الموات ، تشير إليه بلفظ « أولئك » ، قال جرير :

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى والعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ [1]

قال المفسرون : الإشارة إلى الجوارح المذكورة ، يُسأل العبد يوم القيامة فيما إذا

---

(١) ديوانه : ٥٥١ ، و « النقـائض » : ١/٢٥٦ ، و « الطبري » : ١٥/٨٧ ، و « القرطبي » : ١٠/٢٦٠ .

استعملها ، وفي هذا زجر عن النظر إلى مالا يَحِلُّ ، والاستماع إلى ما يحرم ، والعزم على مالا يجوز .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً . ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ﴾

قوله تعالى : (ولا تمش في الأرض مرَحاً) وقرأ الضحاك ، وابن يعمر : « مَرِحاً » بكسر الراء ، قال الأخفش : والكسر أجود ، لأن « مَرِحاً » اسم الفاعل ؛ قال الزجاج : وكلاهما في الجودة سواء ، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال ، تقول : جاء زيد رَكْضاً ، وجاء زيد راكضاً ، فـ « ركضاً » أوكد في الاستعمال ، لأنه يدل على توكيد الفعل ، وتأويل الآية : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، والمرح : الأشر والبطر . وقال ابن فارس : المرح : شدة الفرح .

قوله تعالى : (إنَّك لن تَخْرِقَ الأرض) فيه قولان .

أحدهما : لن تقطعها إلى آخرها . والثاني : لن تنفذها وتنقُبها . قال ابن عباس : لن تَخرق الأرضَ بِكِبْرِك ، ولن تبلغ الجبال طولاً بعظَمتك . قال ابن قتيبة : والمعنى : لا ينبغي للعاجز أن يَبْذَخَ ويستكبر .

قوله تعالى : (كل ذلك كان سيِّئه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « سيِّئَةً » منوناً غير مضاف ، على معنى : كان خطيئةً ، فعلى هـذا يكون قوله : (كلُّ ذلك) إشارة إلى المنهيِّ عنه من المذكور فقط . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « سيِّئُهُ » مضافاً مذكَّراً ، فتكون لفظة « كلّ » يُشار بها إلى سائر ماتقدم ذِكْره . وكان أبو عمرو لا يرى هذه القراءة . قال الزجاج :

وهذا غلط من أبي عمرو ، لأن في هذه الأقاصيص سَيِّئاً وحَسَناً ، وذلك أن فيها الأمر بِبِرِّ الوالدين ، وإيتاء ذي القربى ، والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك ، فهذه القراءة أحسن من قراءة مَنْ نصب السَّيِّئة ، وكذلك قال أبو عبيدة : تدبرت الآيات من قوله تعالى : (وقضى ربك ...) فوجدت فيها أموراً حسنة . وقال أبو علي : من قرأ « سَيِّئَةً » رأى أن الكلام انقطع عند قوله : (وأحسن تأويلاً) ، وأن قوله : (ولا تقف) لاحُسْنَ فيه [1] .

قوله تعالى : (ذلك مما أوحى إليك ربك) يشير إلى ماتقدم من الفرائض والسنن ، (من الحكمة) ، أي : من الأمور المُحْكَمَة والأدب الجامع لِكُلِ خير . وقد سبق معنى « المدحور » [الأعراف:١٨] .

﴿ أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

قوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين) قال مقاتل : نزلت في مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الرحمن . وقال أبو عبيدة : ومعنى (أفأصفاكم) : اختصكم . وقال المفضل : أخلصكم . وقال الزجاج : اختار لكم صفوة الشيء . وهذا توبيخ للكفار ، والمعنى : اختار لكم البنين دونه ، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه ، فاختصكم بالأعلى وجعل لنفسه الأدون ؟!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

قوله تعالى : (ولقد صَرَّفْنا) معنى التصريف هاهنا : التبيين ، وذلك أنه

---

(١) أي : ليس معطوفاً على الحسن في قوله تعالى : (وأحسن تأويلاً) ، بل هو نهي عن تتبع أثر مالا تعلم ولا يعنيك ، فيكون ابتداء كلام .

إنما يصرِّف القول ليبيِّن . وقال ابن قتيبة : « صرّفنا » بمعنى : وجَّهنا ، وهو من قولك : صرفت إليك كذا ، أي : عدلت به إليك ، وشُدِّدَ للتكثير ، كما تقول : فَتَّحْتُ الأبواب .

قوله تعالى : (لِيَذَّكَّرُوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « لِيَذَّكَّروا » مشدّد . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « ليَذْكُرُوا » مخفف ، وكذلك قرؤوا في (الفرقان : ٥٠) . والتذكُّر : الاتعاظ والتدبر . (وما يزيدهم) تصريفنا وتذكيرنا (إلَّا نُفوراً) قال ابن عباس : ينفرون من الحق ، ويتبعون الباطل .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً . تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾

قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تقولون » بالتاء . وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « يقولون » بالياء .

قوله تعالى : (إذاً لابتغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً) فيه قولان .

أحدهما : لابتغَوا سبيلاً إلى ممانعته وإزالة ملكه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير .

والثاني : لابتغَوا سبيلاً إلى رضاه ، لأنهم دونه ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (عَمَّا يقولون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : « يقولون » بالياء . وقرأ حمزة ، والكسائي : بالتاء .

قوله‌تعالى : (تسبِّح له السموات السبع) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « تسبِّح » بالتاء . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر [عن] عاصم : « يسبِّح » بالياء . قال الفراء : وإنما حَسُنَت « الياء » هاهنا ، لأنه عدد قليل ، وإذا قلَّ العدد من المؤنَّث والمذكَّر ، كانت الياء فيه أحسن من التاء ، قال عز وجل في المؤنث القليل : (وقال نسوة) [يوسف : ٣٠] ، وقال في المذكَّر : (فاذا انسلخ الأشهُر الحُرُم) [التوبة : ٥] . قال العلماء : والمراد بهذا التسبيح : الدلالة على أنه الخالق القادر .

قوله‌تعالى : (وإن من شيء إلا يسبِّح بحمده) « إن » بمعنى « ما » . وهل هذا على إطلاقه ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه على إطلاقه ، فكلُّ شيء يسبِّحُهُ حتى الثوب والطعام وصرير الباب ، قاله إبراهيم النخعي .

والثاني : أنه عامّ يراد به الخاصّ . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه كل شيء فيه الروح ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك . والثاني : أنه كُلُّ ذي روح ، وكل نامٍ من شجرٍ أو نبات ؛ قال عكرمة : الشجرة تسبِّح ، والأسطوانة لاتسبِّح . وجلس الحسن على طعام فقدَّموا الُخِوان ، فقيل له : أيسبِّح هذا الُخِوان ؟ ، فقال : قد كان يسبِّح مرة . والثالث : أنه كل شيء لم يغيَّر عن حاله ، فاذا تغيَّر انقطع تسبيحه ؛ روى خالد بن معدان عن المقدام بن معدي كرب قال : إنَّ التراب ليسبِّح مالم يبتلّ ، فاذا ابتلّ ترك التسبيح ، وإن الورقة تسبِّح مادامت على الشجرة ، فاذا سقطت تركت التسبيح ، وإن الثوب ليسبِّحُ مادام جديداً ، فاذا توسخ ترك التسبيح .

فأما تسبيح الحيوان الناطق، فمعلوم، وتسبيح الحيوان غير الناطق، فجائز أن يكون بصوته، وجائز أن يكون بدلالته على صانعه.

وفي تسبيح الجمادات ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه تسبيح لايعلمه إلّا الله. والثاني: أنه خضوعه وخشوعه لله. والثالث: أنه دلالته على صانعه، فيوجب ذلك تسبيح مُبْصِره. فان قلنا: إنه تسبيح حقيقة، كان قوله: (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) لجميع الخلق؛ وإن قلنا: إنه دلالته على صانعه، كان الخطاب للكفار، لأنهم لايستدلّون، ولا يعتبرون.

وقد شرحنا معنى « الحليم » و « الغفور » في (البقرة : ٢٢٥).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً. أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً. أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً ﴾

قوله تعالى : (حجاباً مستوراً) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الحجاب: هو الأكنّة على قلوبهم، قاله قتادة.

والثاني : أنه حجابٌ يستره فلا تَرونه ؛ وقيل : إنها نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ؛ قال الكلبي : وهم أبو سفيان ، والنضر ابن الحارث ، وأبو جهل ، وأم جميل امرأة أبي لهب ، فحجب الله رسولَه عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، فكانوا يأتونه ويمرُّون به ، ولا يرونه .

والثالث : أنه مَنْعُ الله عز وجل إياهم عن أذاه ، حكاه الزجاج .

وفي معنى (مستوراً) قولان .

أحدهما : أنه بمعنى ساتر ؛ قال الزجاج : وهذا قول أهل اللغة . قال الأخفش : وقد يكون الفاعل في لفظ المفعول ، كما تقول : إنك مشؤوم علينا ، وميمون علينا ، وإنما هو شائم ويامن ، لأنه من « شأَمَهُم » و« يَمَنَهُم » .

والثاني : أن المعنى : حجاباً مستوراً عنكم لاترونه ، ذكره الماوردي . وقال ابن الأنباري : إذا قيل : الحجاب : هو الطبع على قلوبهم ، فهو مستور عن الأبصار ، فيكون « مستوراً » باقياً على لفظه .

قوله تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه) قد شرحناه في (الأنعام : ٢٥) .

قوله تعالى : (وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده) يعني : قلتَ : لاإله إلا الله ، وأنت تتلو القرآن (ولَّوا على أدبارهم) قال أبو عبيدة : أي : على أعقابهم ، (نُفوراً) وهو : جمع نافر ، بمنزلة قاعد وقُعود ، وجالس وجُلوس . وقال الزجاج : تحتمل مذهبين . أحدهما : المصدر ، فيكون المعنى : ولَّوا نافرين نفوراً . والثاني : أن يكون « نفوراً » جمع نافر .

وفي المشار إليهم قولان . أحدهما : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم المشركون ، وهذا مذهب ابن زيد .

قوله تعالى : (نحن أعلم بما يستمعون به) قال المفسرون : أمر رسول الله ﷺ

علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل ذلك ، ودخل عليهم رسول الله ﷺ فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى التوحيد ، وكانوا يستمعون ويقولون فيما بينهم : هو ساحر ، هو مسحور ، فنزلت هذه الآية : (نحن أعلم بما يستمعون به) ، أي : يستمعونه ، والباء زائدة . (إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) قال أبو عبيدة : هي مصدر مِنْ « ناجَيْتُ » واسم منها ، فوصف القوم بها ، والعرب تفعل ذلك ، كقولهم : إنما هو عذاب ، وأنتم غَمٌّ ، فجاءت في موضع « متناجين » . وقال الزجاج : والمعنى : وإذ هم ذوو نجوى ، وكانوا يستمعون من رسول الله ﷺ ، ويقولون بينهم : هو ساحر ، وهو مسحور ، وما أشبه ذلك من القول .

قوله تعالى : (إذ يقول الظالمون) يعني : أولئك المشركون (إن تتّبعون) أي : ماتتّبعون (إلا رجلاً مسحوراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي سُحر فذُهب بعقله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مخدوعاً مغروراً ، قاله مجاهد .

والثالث : له سَحْر ، أي : رئة ؛ وكلُّ دابّة أو طائر أو بَشَر يأكل فهو : مسحور ومسحَّر ، لأن له سَحْراً ، قال لبيد :

فإنْ تَسْأَلِينا فيمَ نَحْنُ فإنّنا عَصافيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّرِ [1]

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ [2]

---

(١) ديوانه : ٥٦ ، و « مجاز القرآن » : ٣٨١/١ ، و « البيان والتبيين » : ١٨٩/١ ، و « الحيوان » : ٢٢٩/٥ ، و « الطبري » : ٩٦/١٥ ، و « القرطبي » : ٣٧٣/١٠ ، و « اللسان » : سحر .

(٢) ديوانه : ٩٧ ، و « مجاز القرآن » : ٣٨٢/١ ، و « البيان والتبيين » : ١٨٩/١ ، ـــ

أي : نُغذّى ، لأن أهل السماء لايأكلون ، فأراد أن يكون مَلَكاً . فعلى هذا يكون المعنى : إن تتبعون إلا رجلاً له سَحْر ، خلقه الله كخلقكم ، وليس بِمَلَك ، وهذا قول أبي عبيدة .

قال ابن قتيبة : والقول قول مجاهد ، [أي : مخدوعاً] ، لأن السِّحر حيلة وخديعة ، ومعنى قول لبيد « المسحَّر » : المعلَّل ، وقول امرىء القيس : « ونُسْحَر » أي : نُعلَّل ، وكأنا نُخدَع ، والناس يقولون : سحرتَني بكلامكَ ، أي : خدعتَني ، ويدل عليه قوله : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) ، لأنهم لو أرادوا رجلاً ذا رِئَةٍ ، لم يكن في ذلك مَثَلٌ ضربوه ، فلما أرادوا مخدوعاً - كأنه بالخديعة سُحر - كان مَثَلاً ضربوه ، وكأنهم ذهبوا إلى أن قوماً يعلِّمونه ويخدعونه . قال المفسرون : ومعنى (ضربوا لك الأمثال) بيَّنوا لك الأشباه ، حتى شبَّهوك بالساحر والشاعر والمجنون (فضَلُّوا) عن الحق ، (فلا يستطيعون سبيلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لايجدون سبيلاً إلى تصحيح مايعيبونك به .

والثاني : لايستطيعون سبيلاً إلى الهُدى ، لأنا طبعنا على قلوبهم .

والثالث : لايأتون سبيل الحق ، لثقله عليهم ؛ ومثله قولهم : لا أستطيع أن أنظر إلى فلان ، يعنون : أنا مبغِض له ، فنظري إليه يثقل ، ذكرهن ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أئذا كُنَّا عظاماً) قرأ ابن كثير : (أَيْذا) بهمزة ثم يأتي بياء ساكنة من غير مَدّ ، (أينا) مثله ، وكذلك في كل القرآن . وكذلك روى قالون عن نافع ، إلا أن نافعاً كان لايستفهم في (أَيْنا) ، كان يجعل الثاني

ـــ و « الحيوان » : ٥/٢٢٩ ، و « الطبري » : ١٥/٩٦ ، و « أمالي المرتضى » : ١/٥٧٧ ، و « اللسان » : سحر . وفي الديوان : « أرانا موضعين . . . » والايضاع : ضرب من السير السريع .

خبراً في كل القرآن، وكذلك مذهب الكسائي، غير أنه يهمز الأُولى همزتين . وقرأ عاصم، وحمزة بهمزتين في الحرفين جميعاً وقرأ ابن عامر : « إذا كُنّا » بغير استفهام بهمزة واحدة « آئنا » بهمزتين يمد بينهما مدة .

قولهتعالى : (ورُفاتاً) فيه قولان .

أحدها : أنه التراب ، ولا واحد له ، فهو بمنزلة الدُّقاق والحُطام ، قاله الفراء ، وهو مذهب مجاهد .

والثاني : أنه العظام مالم تتحطم ، والرُّفات : الحُطام ، قاله أبو عبيدة . وقال الزجاج : الرُّفات : التراب . والرُّفات : كل شيء حُطِمَ وكُسِر ، و (خلقاً جديداً) في معنى مجدداً .

قولهتعالى : (أو خلقاً مما يَكْبُر في صدوركم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الموت ، قاله ابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، والأكثرون .

والثاني : أنه السماء والأرض والجبال ، قاله مجاهد .

والثالث : [أنه] مايكبر في صدوركم ، من كل مااستعظموه من خلق الله تعالى ، قاله قتادة .

فان قيل : كيف قيل لهم : (كونوا حجارة أو حديداً) وهم لايقدرون على ذلك ؟ فعنه جوابان .

أحدها : إن قدرتم على تغيُّر حالاتكم ، فكونوا حجارة أو أشدّ منها ، فانا نميتكم ، وننفِّذ أحكامنا فيكم ، ومثل هذا قولك للرجل : اصعد إلى السماء فاني لاحقك .

والثاني : تصوَّروا أنفسكم حجارة أو أصلب منها ، فانا سنُبيدكم ، قال الأحوص :

إذَا كُنْتَ عِزْهَاةً عَنِ اللَّهْوِ والصِّبَى
فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا (١)

معناه : فتصوَّر نفسك حَجَراً ، وهؤلاء قوم اعترفوا أن الله خالقهم ، وجحدوا البعث ، فأُعلموا أن الذي ابتدأ خلقهم هو الذي يحييهم .

قوله تعالى : (فسيُنْغِضون إليك رؤوسهم) قال قتادة : يحرِّكونها تكذيباً واستهزاءً . قال الفراء : يقال : أنغض رأسه : إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل . وقال ابن قتيبة : المعنى : يحرِّكونها ، كما يحرِّك الآيس من الشيء والمستبعدُ [له] رأسَه ، يقال : نَغَضَتْ سِنُّه : إذا تحركت .

قوله تعالى : (ويقولون متى هو ؟) يعنون البعث (قل عسى أن يكون قريباً) أي : هو قريب . ثم بيَّن متى يكون فقال : (يوم يدعوكم) يعني : من القبور بالنداء الذي يُسمعكم ، وهو النفخة الأخيرة (فتستجيبون) أي : تجيبون . قال مقاتل : يقوم إسرافيل على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن ، فيقول : أيتها العظام البالية ، وأيتها اللحوم المتمزقة ، وأيتها الشعور المتفرقة ، وأيتها العروق المتقطعة ، اخرجوا إلى فصل القضاء لتُجزَوا بأعمالكم ، فيسمعون الصوت ، فيسعَون إليه .

وفي معنى (بحمده) أربعة أقوال .

أحدها : بأمره ، قاله ابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد .

والثاني : يخرجون من القبور وهم يقولون : سبحانك وبحمدك ، قاله سعيد بن جبير .

---

(١) البيت في « الأغاني » : ١٥/١٠٠ ، و « طبقات ابن سلام » : ٥٣٩ ، و « الشعر والشعراء » : ٥٠١ ، و « زهر الآداب » : ١/٣٥٠ ، و « مصارع العشاق » : ٦٢ ، ورجل عزهاة وعزهاءة : وهو الذي لايقرب النساء وينقبض عنهن ويمرض ، من زهو أو كبر ، أو أنفة من الضعف والاستكانة لحبهن أو سطوتهن على الرجال ، وصخرة جلمد : شديدة مجتمعة صلبة .

والثالث : أن معنى (بحمده) : بمعرفته ، وطاعته ، قاله قتادة . قال الزجاج : تستجيبون مُقِرِّين أنه خالقكم .

والرابع : تجيبون بحمد الله لا بحمد أنفسكم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً) في هذا الظن قولان .

أحدها : أنه بمعنى اليقين .

والثاني : أنه على أصله . وأين يظنون أنهم لبثوا قليلاً ؟ فيه ثلاثة أقوال . أحدها : بين النفختين ، ومقداره أربعون سنة ، ينقطع في ذلك العذاب عنهم ، فيرون لبثهم في زمان الراحة قليلاً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : في الدنيا ، لعلمهم بطول اللبث في الآخرة ، قاله الحسن . والثالث : في القبور ، قاله مقاتل . فعلى هذا إنما قصر اللبث في القبور عندهم ، لأنهم خرجوا إلى ماهو أعظم عذاباً من عذاب القبور . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خطاب للمؤمنين ، لأنهم يجيبون المنادي وهم يحمدون الله على إحسانه إليهم ، ويستقلّون مدة اللبث في القبور ، لأنهم كانوا غير معذّبين .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾

قوله تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة ، بالقول والفعل ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب ، فهمّ به عمر رضي الله عنه ،

فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل ؛ والمعنى : وقل لعبادي المؤمنين يقولوا الكلمة التي هي أحسن . واختلفوا فيمن تقال له هذه الكلمة على قولين .

أحدها : أنهم المشركون ، قال الحسن : تقول له : يَهديك الله ، وما ذكرنا من سبب نزول الآية يؤيد هذا القول . وذهب بعضهم إلى أنهم أُمِروا بهذه الآية بتحسين خطاب المشركين قبل الأمر بقتالهم ، ثم نُسخت هذه الآية بآية السيف .

والثاني : أنهم المسلمون ، قاله ابن جرير . والمعنى : وقل لعبادي يقول بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة . وقد روى مبارك عن الحسن قال : « التي هي أحسن » أن يقول له مثل قوله ، ولكن يقول له : يرحمك الله ، ويغفر الله لك . قال الأخفش : وقوله : (يقولوا) مثل قوله : (يقيموا الصلاة) ، وقد شرحنا ذلك في سورة (إبراهيم : ٣١) .

قوله تعالى : (إن الشيطان يَنزَغ بينهم) أي : يُفسد مابينهم ، والعدوّ المُبين : الظاهر العداوة .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ربُّكم أعلم بكم) فيمن خوطب بهذا قولان .

أحدها : أنهم المؤمنون . ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : (إن يشأ يرحمكم) فينجيكم من أهل مكة ، (وإن يشأ يعذبكم) فيسلطهم عليكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : إن يشأ يرحمكم بالتوبة ، أو يعذبكم بالإقامة على الذنوب ، قاله الحسن .

والثاني : أنهم المشركون. ثم في معنى الكلام قولان. أحدهما: إن يشأ يرحمكم، فيهديكم للايمان، أو إن يشأ يعذّبكم، فيميتكم على الكفر، قاله مقاتل. والثاني: أنه لما نزل القحط بالمشركين فقالوا: (ربَّنا اكشف عنا العذاب إنّا مؤمنون) [الدخان : ١٢]، قال الله تعالى: (ربُّكم أعلم بكم) مَنْ الذي يؤمن، ومن [الذي] لا يؤمن، (إن يشأ يرحمكم) فيكشف القحط عنكم (أو إن يشأ يعذبكم) فيتركه عليكم، ذكره أبو سليمان الدمشقي. قال ابن الأنباري: و « أو » هاهنا دخلت لسَعة الأمرين عند الله تعالى، وأنه لا يردّ عنهما، فكانت ملحقة بـ « أو » المبيحة في قولهم: جالس الحسن، أو ابن سيرين، يعنون: قد وسَّعنا لك الأمر.

قوله تعالى: (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: كفيلاً تُؤخذ بهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: حافظاً وربّاً، قاله الفراء. والثالث: كفيلاً بهدايتهم وقادراً على إصلاح قلوبهم، ذكره ابن الأنباري. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذا منسوخ بآية السيف.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾

قوله تعالى: (وربك أعلم بمن في السموات والأرض) لأنه خالقُهم، فهدى من شاء، وأضلّ من شاء، وكذلك فضّل بعض النبيين على بعض، وذلك عن حكمة منه وعِلم، فخلق آدم بيده، ورفع إدريس، وجعل الذرّية لنوح، واتخذ ابراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى روحاً، وأعطى سليمان مُلْكاً جسيماً، ورفع محمداً ﷺ فوق السموات، وغفر له ما تقدم من ذَنْبه وما تأخر. ويجوز أن يكون المفضَّلون أصحابَ الكتب، لأنه ختم الكلام بقوله: (وآتينا داود زبوراً). وقد شرحنا معنى « الزبور » في سورة (النساء : ١٦٣).

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾

قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجن والنفر من العرب لايشعرون ، فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، روي عن ابن مسعود .

والثاني : أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون : هي تشفع لنا عند الله ، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين ، قيل لهم : « ادعوا الذين زعمتم » ، قاله مقاتل ، والمعنى : قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة ، (فلا يملكون كشف الضرِّ عنكم ولا تحويلاً) له إلى غيركم .

قوله تعالى : (أولئك الذين يَدْعون) في المشار إليهم بـ « أولئك » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الجن الذين أسلموا [١] . والثاني : الملائكة . وقد سبق بيان

---

(١) روى البخاري : ٣٠١/٨ ، ومسلم : ٢٣٢١/٤ من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال : كان ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم . قال الحافظ ابن حجر : أي : استمر الانس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن ، والجن لايرضَون بذلك لكونهم أسلموا ، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة . وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود ، فزاد فيه : والانس الذين كانوا يعبدونهم لايشعرون باسلامهم ، وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية . اهـ .

القولين . والثالث : أنهم المسيحُ ، وعزيرٌ ، والملائكةُ ، والشمسُ ، والقمرُ ، قاله ابن عباس . وفي معنى « يدعون » قولان .

أحدها : يعبدون ، أي : يدعونهم آلهة ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة . وعلى هذا يكون قوله : « يدعون » راجعاً إلى « أولئك » ، ويكون قوله : « يبتغون » تماماً للكلام . وعلى القول الأول : يكون « يدعون » راجعاً إلى المشركين ، ويكون قوله : « يبتغون » وصفاً لـ « أولئك » مستأنفاً . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن : « تدعون » بالتاء قال ابن الأنباري : فعلى هذا ، الفعلُ مردودٌ إلى قوله : (فلا يملكون كشف الضرِّ عنكم) . ومن قرأ « يدعون » بالياء ، قال : العرب تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أُمن اللبْس . ومعنى « يدعون » : يدعونهم آلهة . وقد فسرنا معنى « الوسيلة » في (المائدة : ٣٥) .

وفي قوله : (أيُّهم أقرب) قولان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : أن يكون « أيهم » مرفوعاً بالابتداء ، وخبره « أقرب » ، ويكون المعنى : يطلبون الوسيلة إلى ربهم ، ينظرون أيُّهم أقرب إليه فيتوسَّلون إلى الله به .

والثاني : أن يكون « أيهم أقرب » بدلاً من الواو في « يبتغون » ، فيكون المعنى : يبتغي أيُّهم هو أقرب الوسيلةَ إلى الله ، أي : يتقرَّب إليه بالعمل الصالح .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

قوله تعالى : (وإن من قرية إلا نحن مُهلِكوها) « إن » بمعنى « ما » ، والقرية الصالحة هلاكها بالموت ، والعاصية بالعذاب ، والكتاب : اللوح المحفوظ ، والمسطور : المكتوب .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾

قوله تعالى : (وما مَنَعَنا أن نُرْسِل بالآيات) سبب نزولها فيه قولان .

أحدها : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعوا[1] ، فقيل له : إن شئتَ أن تستأني بهم لعلّنا نجتبي منهم ، وإن شئتَ نؤتيهم الذي سألوا ، فان كفروا أُهلكوا كما أُهلك من كان قبلهم ، قال : « لا ، بل أستأني بهم » ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس[2] .

والثاني : قد ذكرناه عن الزبير في قوله : (ولو أن قرآناً سيِّرت به الجبال) [الرعد : ٣١] ، ومعنى الآية : وما منَعَنا إرسالَ الآياتِ التي سألوها إلا تكذيبُ الأوّلين ، يعني : أن هؤلاء سألوا الآيات التي استوجب بتكذيبها الأولونَ العذابَ ، فلم يرسلها لئلا يكذِّب بها هؤلاء ، فيهلكوا[3] كما هلك أولئك ، وسنَّةُ الله في الأمم أنهم إذا سألوا الآيات ثم كذَّبوا بها عذّبهم .

قوله تعالى : (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) قال ابن قتيبة : أي : بيِّنَةً ، يريد : مُبْصَراً بها . قال ابن الأنباري : ويجوز أن تكون مبصِرة ، ويصلح أن يكون المعنى : مُبصِر مشاهدوها ، فنسب إليها فعل غيرها تجوُّزاً ، كما يقال : لا أرينَّك هاهنا ، فأدخل حرف النهي على غير المنهي عنه ، إذ المعنى : لاتحضر هاهنا ، حتى

(١) في الأصل : فيزرعون .

(٢) « مسند أحمد » : ٤/٩٦ وإسناده صحيح ، وفيه « وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا » بدل « فيزرعوا » ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٣/٤٧ ، و « التاريخ » : ٣/٥٢ وقال : وهكذا رواه النسائي عن جرير .

(٣) في الأصل : فيهلكون .

إذا جئتُ لم أرك فيه . ومن قرأ « مَبْصَرة » بفتح الميم والصاد ، فمعناه : المبالغة في وصف الناقة بالتبيان ، كقولهم : « الولد مَجْبَنَة »[1] .

قوله تعالى : (فظلموا بها) قال ابن عباس : فجحدوا بها . وقال الأخفش : بها كان ظُلمهم .

قوله تعالى : (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) أي : نخوّف العباد ليتّعظوا . وللمفسرين في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال .

أحدها : أنها الموت الذّريع[2] ، قاله الحسن . والثاني : معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين . والثالث : آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . والرابع : تقلّب أحوال الإنسان من صِغَرٍ إلى شبابٍ ، ثم إلى كهولة ، ثم إلى مشيب ، ليعتبر بتقلّب أحواله فيخاف عاقبة أمره ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي ، ونسبَ القولَ الأخير منها إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

قوله تعالى : (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أحاط علمه بالناس ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الربيع ابن أنس . وقال مقاتل : أحاط علمه بالناس ، يعني : أهل مكة ، أن يفتحها لرسوله ﷺ .

---

(١) وما روي من أنه ﷺ قال : « الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة » فهو ضعيف ، رواه أبو يعلى ، والبزار ، قال المناوي : قال الزين العراقي ، وتبعه الهيثمي : وفيه عطية العوفي ، وهو ضعيف .

(٢) الموت الذريع ، أي : السريع الفاشي ، لايكاد الناس يتدافنون .

والثاني : أحاطت قدرته بالناس ، فهم في قبضته ، قاله مجاهد .

والثالث : حال بينك وبين الناس أن يقتلوك ، لتبلّغ رسالته ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) في هذه الرؤيا قولان .

أحدها : أنها رؤيا عين ، وهي ما رأى ليلة أُسري به من العجائب والآيات . روى عكرمة عن ابن عباس قال : هي رؤيا عين رآهـا ليلة أُسري به ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ، وقتادة ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، وابن جريج ، وابن زيد في آخرين . فعلى هذا يكون معنى الفتنة : الاختبار ، فان قوماً آمنوا بما قال ، وقوماً كفروا . قال ابن الأنباري : المختار في هذه الرؤية أن تكون يقظة ، ولا فرق بين أن يقول القائل : رأيت فلاناً رؤية ، ورأيته رؤيا ، إلا أن الرؤية يقلّ استعمالها في المنام ، والرؤيا يكثر استعمالها في المنام ، ويجوز كل واحد منهما في المعنيين .

والثاني : أنها رؤيا منام [1] . ثم فيها قولان . أحدها : أن رسول الله ﷺ

(١) روى البخاري ٨/٣٠١ عن ابن عباس رضي الله عنهما (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به . قال الحافظ ابن حجر ٨/٣٠٢ : زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث : وليست رؤيا منام . وقال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٥/١١٣ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسري به . قال : وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب ، لاجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك ، وإياه عنى الله عز وجل بها . فاذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس ، إلا فتنة للناس ، يقول : إلا بلاءً للناس الذين ارتدوا عن الاسلام لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام ، وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا لسماعهم ذلك من رسول الله ﷺ تمادياً في غيهم ، وكفراً إلى كفرهم .

كان قد أُرِيَ أنه يدخل مكة ، هو وأصحابه ، وهو يومئذ بالمدينة ، فعَجل قبل الأجل ، فردّه المشركون ، فقال أناس : قد رُدّ ، وكان حدّثنا أنه سيدخلها ، فكان رجوعهم فتنتهم ، رواه العوفي عن ابن عباس [١] . وهذا لاينافي حديث المعراج ، لأن هذا كان بالمدينة ، والمعراج كان بمكة . قال أبو سليمان الدمشقي : وإنما ذكره ابن عباس على وجه الزيادة في الإخبار لنا أن المشركين بمكة افتتنوا برؤيا عينه ، والمنافقين بالمدينة افتتنوا برؤيا نومه . والثاني : أنه أُري بني أمية على المنابر ، فساءه ذلك ، فقيل له : إنها الدنيا يُعْطَوْنَها ، فسُرِّيَ عنه [٢] . فالفتنة هاهنا : البلاء ، رواه علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب ، وإن كان مثل هذا لايصح ، ولكن قد ذكره عامة المفسرين .

وروى ابن الأنباري أن سعيد بن المسيّب قال : رأى رسول الله ﷺ قوماً على منابر ، فشَقّ ذلك عليه ، وفيه نزل : (والشجرةَ الملعونةَ في القرآن) ، قال : ومعنى قوله : (إلا فتنةً للناس) : إلا بلاء للناس . قال ابن الأنباري : فمن ذهب إلى أن الشجرة رجال رآهم النبي ﷺ في منامه يصعدون على المنابر ، احتج بأن الشجرة يكنى بها عن المرأة لتأنيثها ، وعن الجماعة لاجتماع أغصانها . قالوا : ووقعت اللعنة بهؤلاء الذين كنى عنهم بالشجرة . قال المفسرون : وفي الآية تقديم وتأخير ، تقديره : وما جعلنا الرؤيا والشجرة إلا فتنة للناس .

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها شجرة الزّقّوم ، رواه عكرمة عن ابن عباس [٣] ، وبه قال

---

(١) والعوفي ضعيف .

(٢) قال ابن كثير ٤٩/٣ : وهو غريب ضعيف .

(٣) روى البخاري : ٣٠٢/٨ عن ابن عباس : (والشجرة الملعونة في القرآن) قال : ـــ

مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومسروق ، والنخعي ، والجمهور . وقال مقاتل : لما ذكر الله تعالى شجرة الزَّقُّوم ، قال أبو جهل : يامعشر قريش إن محمداً يخوِّفكم بشجرة الزَّقُّوم ، ألستم تعلمون أن النار تحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تنبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : إن الزَّقُّوم بلسان بَرْبَر : التمر والزُّبْد ، فقال أبو جهل : ياجارية ابغينا تمراً وزُبداً ، فجاءته به ، فقال لمن حوله : تَزَقَّمُوا من هذا الذي يخوِّفكم به محمدٌ ، فأنزل الله تعالى : (ونخوِّفهم فما يَزِيدُهم إلا طغياناً كبيراً) . قال ابن قتيبة : كانت فتنتهم بالرؤيا قولهم : كيف يذهب إلى بيت المقدس ، ويرجع في ليلة ؟ ! وبالشجرة قولهم : كيف يكون في النار شجرة ؟ ! .

وللعلماء في معنى « الملعونة » ثلاثة أقوال . أحدها : المذمومة ، قاله ابن عباس . والثاني : الملعون آكلُها ، ذكره الزجاج ، وقال : إن لم يكن في القرآن ذِكْر لعنها ، ففيه لعن آكليها ؛ قال : والعرب تقول لكل طعام مكروه وضارٍّ : ملعون ؛ فأما قوله : (في القرآن) فالمعنى : التي ذكرت في القرآن ، وهي مذكورة في قوله : (إن شجرة الزَّقُّوم طعام الأثيم) [الدخان : ٤٣ ، ٤٤] . والثالث : أن معنى « الملعونة » : المُبعَدة عن منازل أهل الفضل ، ذكره ابن الأنباري .

شجرة الزقوم . قال الحافظ ابن حجر : وهذا هو الصحيح ، وذكره ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفساً من التابعين . وقال أبو جعفر بن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال : عنى بها شجرة الزقوم ، لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك . ونصبت (الشجرة الملعونة) عطفاً بها على الرؤيا ، فتأويل الكلام إذن : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ، والشجرة الملعونة في القرآن ، إلا فتنة للناس ، فكانت فتنتهم في الرؤيا ماذكرت من ارتداد من ارتد ، وتمادي أهل الشرك في شركهم حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أسري به ، وكانت فتنتهم في الشجرة الملعونة ماذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه : يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة ، والنار تأكل الشجر ، فكيف تنبت فيها ؟ !

والقول الثاني : أن الشجرة الملعونة هي التي تلتوي على الشجر ، يعني : الكَشُوثى [١] ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن الشجرة كناية عن الرجال على ماذكرنا عن سعيد بن المسيّب .

قوله تعالى : (ونخوّفهم) قال ابن الأنباري : مفعول « نخوّفهم » محذوف ، تقديره : ونخوّفهم العذاب ، (فما يزيدهم) أي : فما يزيدهم التخويف (إلا طغياناً) ؛ وقد ذكرنا معنى الطغيان في (البقرة : ١٥) ، وذكرنا هناك تفسير قوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) [البقرة : ٣٤] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً . قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُوراً . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ءَأَسْجُدُ) قرأه الكوفيون : بهمزتين . وقرأه الباقون : بهمزة مطوّلة ؛ وهذا استفهام إنكار ، يعني به : لم أكن لأفعل .

قوله تعالى : (لمن خلقتَ طيناً) قال الزجاج : « طيناً » منصوب على وجهين .

---

(١) قال الجوهري : الكشوث : نبت يتعلق بأغصان الشجر ، من غير أن يضرب بعرق في الأرض ، قال الشاعر :

هو الكشوثُ فلا أصلٌ ولا وَرَقٌ ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ

أحدهما : التمييز ، المعنى : لمن خلقتَه من طين . والثاني : على الحال ، المعنى : أنشأتَه في حال كونه من طين . ولفظ (قال أرأيتَك) جاء هاهنا بغير حرف عطف ، لأن المعنى : قال آسجد لمن خلقتَ طيناً ، وأرأيتَكَ ، وهي في معنى : أخبرني ، والكاف ذُكرت في المخاطبة توكيداً ، والجواب محذوف ، والمعنى : أخبِرني عن هذا الذي كرّمت عليّ ، لم كرّمتَهُ عليّ وقد خلقتَني من نار وخلقتَه من طين ؟ ! فحذف هذا ، لأن في الكلام دليلاً عليه .

قوله تعالى : (لئن أخّرْتَنِ إلى يوم القيامة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « أخرتني » بياء في الوصل . ووقف ابن كثير بالياء . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بغير ياء في وصل ولا في وقف[1] .

قوله تعالى : (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لَأَستولِيَنَّ عليهم ، قاله ابن عباس ، والفراء . والثاني : لَأُضِلَّنَّهم ، قاله ابن زيد . والثالث : لَأَستأصلنَّهم ؛ يقال : احْتَنَكَ الجرادُ ماعلى الأرض : إذا أكله ؛ واحْتَنَكَ فلانٌ ماعند فلان من العلم : إذا استقصاه ، فالمعنى : لَأَقودنَّهم كيف شئتُ ، هذا قول ابن قتيبة .

فان قيل : من أين عَلِمَ الغيب . فقد أجبنا عنه في سورة (النساء : ١١٩) .

قوله تعالى : (إلا قليلاً) قال ابن عباس : هم أولياء الله الذين عصمهم .

قوله تعالى : (قال اذهب) هذا اللفظ يتضمن إنظاره ؛ (فمن تبعك) ، أي : تبع أمرك منهم ، يعني : ذرية آدم . والموفور : الموفَّر . قال ابن قتيبة : يقال : وفَّرْتُ ماله عليه ، ووَفَرْتُه ، بالتخفيف والتشديد .

---

(١) أي : بغير ياءٍ في الوصل والوقف .

قوله تعالى : (واستَفْزِز مَن استطعتَ منهم) قال ابن قتيبة : استَخِفّ ، ومنه تقول : استَفَزّني فلان .

وفي المراد بصوته قولان . أحدهما : أنه كل داعٍ دعا إلى معصية الله ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الغناء والمزامير ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وأجْلِب عليهم) أي : صِح (بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) واحثهم عليهم بالإغراء ؛ يقال : أجلبَ القوم وجلّبوا : إذا صاحوا . وقال الزجاج : المعنى : اجمع عليهم كل ماتقدر عليه من مكايدك ؛ فعلى هذا تكون الباء زائدة . قال ابن قتيبة : والرَّجْلُ : الرَّجّالة ؛ يقال : رَاجِلٌ ورَجْل ، مثل تاجر وتَجْر ، وصاحِب وصَحْب . قال ابن عباس : كلّ خيل تسير في معصية الله ، وكلّ رَجُل يسير في معصية الله [١] . وقال قتادة : إن له خيلاً ورَجْلاً من الجن والإنس . وروى حفص عن عاصم : « بخيلك ورَجِلِكَ » بكسر الجيم ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي رزين ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي . قال أبو زيد : يقال : رَجُلٌ رَجِلٌ : للراجل ، ويقال : جاءنا حافياً رجِلاً . وقرأ ابن السميفع ، والجحدري : « بخيلك ورُجّالك » برفع الراء وتشديد الجيم مفتوحة وبألف بعدها . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعكرمة : « ورِجالك » بكسر الراء وتخفيف الجيم مع ألف .

قوله تعالى : (وشاركهم في الأموال) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها ماكانوا يحرِّمونه من أنعامهم ، رواه عطية عن ابن عباس .

---

(١) في « الطبري » عن ابن عباس قوله : (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) قال : خيله : كلّ راكب في معصية الله ؛ ورجله : كل راجل في معصية الله .

والثاني : الأموال التي أصيبت من حرام ، قاله مجاهد . والثالث : التي أنفقوها في معاصي الله ، قاله الحسن . والرابع : ماكانوا يذبحون لآلهتهم ، قاله الضحاك .

فأما مشاركته إيام في الأولاد ، ففيها أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أولاد الزنا ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : الموؤودة من أولادهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم ، كعبد شمس ، وعبد العزى ، وعبد مناف ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : مامَجّسُوا وهوّدُوا ونصّرُوا ، وصبغُوا من أولادهم غير صبغة الإسلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (وعِدْهم) قد ذكرناه في قوله : (يعدهم ويمنّيهم . . .) إلى آخر الآية [النساء : ١٢٠] . وهذه الآية لفظها لفظ الأمر ، ومعناها التهديد ، ومثلها في الكلام أن تقول للانسان : اجهد جهدك فسترى ماينزل بك . قال الزجاج : إذا تقدم الأمرَ نهيٌ عما يؤمر به ، فمعناه التهديد والوعيد ، تقول للرجل : لاتدخُلَنْ هذه الدار ؛ فاذا حاول أن يدخلها قلت : ادخُلها وأنت رجل ، فلستَ تأمره بدخولها ، ولكنك تُوعِده وتهدِّده ، ومثله : (اعملوا ماشئتم) [فصّلت : ٤٠] ، وقد نُهُوا أن يعملوا بالمعاصي . وقال ابن الأنباري : هذا أمر معناه التهديد ، تقديره : إن فعلت هذا عاقبناك وعذّبناك ، فنقل إلى لفظ الأمر عن الشرط ، كقوله : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) [الكهف : ٢٩] .

قوله تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) قد شرحناه في (الحجر : ٤٢) .

قوله تعالى : (وكفى بربك وكيلاً) قال الزجاج : كفى به وكيلاً لأوليائه يعصمهم من القبول من إبليس .

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً . وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ربكم الذي يزجي لكم الفُلْك) أي : يسيِّرها . قال الزجاج : يقال : زجيت الشيء ، أي : قدمته [1] .

قوله تعالى : (لتبتغوا من فضله) أي : في طلب التجارة .

وفي « من » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها زائدة . والثاني : أنها للتبعيض . والثالث : أن المفعول محذوف ، والتقدير : لتبتغوا من فضله الرزق والخير ، ذكرهنّ ابن الأنباري .

قوله تعالى : (إنه كان بكم رحيماً) هذا الخطاب خاصّ للمؤمنين ، ثم خاطب المشركين فقال : (وإذا مسَّكم الضُّرُّ في البحر) يعني : خوفَ الغرَقِ (ضلَّ

(١) كذا الأصل ، « قدمته » والذي في كتب اللغة والتفسير « دفعته برفق » ، وانظر ما ذكره المؤلف عند قوله تعالى : (وجئنا ببضاعة مزجاة) ٢٧٧/٤ .

مَنْ تَدْعُون) أي : يَضِلُّ من يدعون من الآلهة ، إلا الله تعالى . ويقال : ضَلَّ بمعنى غاب ، يقال : ضَلَّ الماء في اللَّبَن : إذا غاب ، والمعنى : أنكم أخلصتم الدعاء [لله] ، ونسيتم الأنداد . وقرأ مجاهد ، وأبو المتوكل : « ضَلَّ مَنْ يَدْعُون » بالياء . (فلما نجّاكم إلى البَرِّ أعرضتم) عن الإيمان والإخلاص (وكان الإنسان) يعني الكافر (كفوراً) بنعمة ربِّه . (أفأمنتم) إذا خرجتم من البحر (أن يَخْسِفَ بكم) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « نخسف بكم » « أو نرسل » « أن نعيدكم » « فنرسل » « فنغرقكم » بالنون في الكل . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، بالياء في الكُلِّ . ومعنى (نخسف بكم جانب البر) ، أي : نغيبكم ونذهبكم في ناحية البر ، والمعنى : إن حكمي نافذ في البر نفوذه في البحر ، (أو نرسل عليكم حاصباً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحاصب : حجارة من السماء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الريح العاصف تحصب ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الريحِ تَضْرِبُهُمْ
بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ[1]

وقال ابن قتيبة : الحاصب : الريح ، سميت بذلك لأنها تَحْصِبُ ، أي : ترمي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار . وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الحاصب : الريح التي فيها الحصى . وإنما قال في الريح : « حاصباً » ولم يقل : « حاصبة » لأنه وصفٌ لزم الريح ولم يكن لها مذكَّر تنتقل إليه في حال ، فكان بمنزلة قولهم : « حائض » للمرأة ، حين لم يُقَلْ : رجل حائض . قال : وفيه جواب آخر ،

(١) ديوانه : ٢٦٢ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٨٥ ، و « الكامل » : ٢/٧٧٢ و « الطبري » : ١٥/١٢٤ ، و « القرطبي » : ١٠/٢٩٢ .

وهو أن نعت الريح عُريٌ من علامة التأنيث ، فأشبهت بذلك أسماء المذكر ، كما قالوا : السماء أمطر ، والأرض أنبت .

والثالث : أن الحاصب : التراب الذي فيه حصباء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ثم لاتجدوا لكم وكيلاً) أي : مانعاً وناصراً .

قوله تعالى : (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي : في البحر (تارة أخرى) أي : مَرَّة أخرى ، والجمع : تارات . (فيرسل عليكم قاصفاً من الريح) قال أبو عبيدة : هي التي تقصف كل شيء . قال ابن قتيبة : القاصف : [الريح التي] تقصف الشجر ، أي : تكسره .

قوله تعالى : (فيُغْرِقكم) وقرأ أبو المتوكل ، و [أبو] جعفر ، وشيبة ، ورويس : « فتغرقكم » بالتاء ، وسكون الغين ، وتخفيف الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأيوب : « فيغرّقكم » بالياء ، وفتح الغين ، وتشديدها [1] . وقرأ أبو رجاء مثله ، إلا أنه بالتاء ، (بما كفرتم) أي : بكفركم حيث نجوتم في المرة الأولى ، (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً) قال ابن قتيبة : أي : من يتبع بدمائكم ، أي : يطالبنا . قال عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما : ريح العذاب أربع ، اثنتان في البر ، واثنتان في البحر ، فاللتان في البرّ : الصَّرْصَر ، والعَقِيم ، واللتان في البحر : العاصف ، والقاصف .

قوله تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم) أي : فضّلناهم . قال أبو عبيدة : و « كرّمنا » أشد مبالغة من « أكرمنا » .

وللمفسرين فيما فُضِّلوا به أحد عشر قولاً .

أحدها : أنهم فضِّلوا على سائر الخلق غير طائفة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومَلَك الموت ، وأشباههم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

(١) أي : تشديد الراء .

فعلى هذا يكون المراد : المؤمنين منهم ، ويكون تفضيلهم بالإيمان . والثاني : أن سائر الحيوان يأكل بفيه ، إلا ابن آدم فانه يأكل بيده ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس . وقال بعض المفسرين : المراد بهذا التفضيل : أكلهم بأيديهم ، ونظافة مايقتاتونه ، إذ الجن يقتاتون العظام والرَّوث . والثالث : فُضِّلوا بالعقل ، روي عن ابن عباس . والرابع : بالنطق والتمييز ، قاله الضحاك . والخامس : بتعديل القامة وامتدادها ، قاله عطاء . والسادس : بأن جعل محمداً ﷺ منهم ، قاله محمد بن كعب . والسابع : فضِّلوا بالمطاعم واللَّذات في الدنيا ، قاله زيد بن أسلم . والثامن : بحسن الصورة ، قاله يمان . والتاسع : بتسليطهم على غيرهم من الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم ، قاله محمد بن جرير . والعاشر : بالأمر والنهي ، ذكره الماوردي . والحادي عشر : بأن جعلت اللِّحى للرجال ، والذوائب للنساء ، ذكره الثعلبي .

فان قيل : كيف أطلق ذكر الكرامة على الكل ، وفيهم الكافر المُهان ؟

فالجواب من وجهين . أحدهما : أنه عامل الكل معاملة المكرَم بالنعم الوافرة . والثاني : أنه لما كان فيهم من هو بهذه الصفة ، أُجرى الصِّفة على جماعتهم ، كقوله : (كنتم خير أُمة أُخرجت للناس) [آل عمران : ١١٠] .

قوله تعالى : (وحملناهم في البر) على أكباد رطبة ، وهي : الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، (و) في (البحر) على أعواد يابسة ، وهي : السفن . (ورزقناهم من الطيبات) فيه قولان .

أحدهما : الحلال . والثاني : المستطاب في الذوق .

قوله تعالى : (وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) فيه قولان .

أحدهما : أنه على لفظه ، وأنهم لم يفضَّلوا على سائر المخلوقات . وقد ذكرنا

عن ابن عباس أنهم فضِّلوا على سائر الخلق غيرِ طائفة من الملائكة . وقال غيره : بل الملائكة أفضل .

والثاني : أن معناه : وفضَّلناهم على جميع مَنْ خلقنا . والعرب تضع الأكثر والكثير في موضع الجمع ، كقوله : (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) [الشعراء : ٢٢٣] . وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « المؤمن أكرم على الله عز وجل من الملائكة الذين عنده »[1] .

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا . وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

قوله تعالى : (يوم ندعو) قال الزجاج : هو منصوب على معنى : اذكر (يوم ندعو كل أناس بامامهم) والمراد به : يوم القيامة . وقرأ الحسن البصري : « يوم يدعو » بالياء (كلَّ) بالنصب . وقرأ أبو عمران الجوني : « يوم يُدعى » بياء مرفوعة ، وفتح العين ، وبعدها ألف ، « كلُّ » بالرفع .

وفي المراد بامامهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه رئيسهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وروى عنه سعيد بن جبير أنه قال : إمام هدى ، أو إمام ضلالة .

---

(١) عزاه الحافظ في « تخريج أحاديث الكشاف » : ١٠٠ للبيهقي في « الشعب » من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً . وأبو المهزم بتشديد الزاي المكسورة التميمي البصري ، اسمه يزيد ، وقيل : عبد الرحمن بن سفيان ، قال الحافظ في « التقريب » : متروك ، ورواه ابن ماجه : ٢/١٣٠١ ، من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته » ، وهو ضعيف ، لضعف أبي المهزم .

والثاني : عملُهم ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وأبو العالية .

والثالث : نبيُّهم ، قاله أنس بن مالك ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومجاهد في رواية .

والرابع : كتابُهم ، قاله عكرمة ، ومجاهد في رواية . ثم فيه قولان . أحدهما : أنه كتابهم الذي فيه أعمالهم ، قاله قتادة ، ومقاتل . والثاني : كتابهم الذي أُنزل عليهم ، قاله الضحاك ، وابن زيد . فعلى القول الأول يقال : يامتَّبعي موسى ، يامتَّبعي عيسى ، يامتَّبعي محمَّد ؛ ويقال : يامتَّبعي رؤساء الضلالة . وعلى الثاني : يامن عمل كذا وكذا . وعلى الثالث : يا أُمَّة موسى ، يا أُمَّة عيسى ، يا أُمَّة محمد . وعلى الرابع : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن . أو ياصاحب الكتاب الذي فيه عمل كذا وكذا .

قوله تعالى : (فأولئك يقرؤون كتابهم) معناه : يقرؤون حسناتِهم ، لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم .

قوله تعالى : (ولا يُظلمون فتيلاً) أي : لاينقصون من ثوابهم بقدر الفتيل ، وقد بيَّنَّاه في سورة (النساء : ٤٩) .

قوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « أعمى فهو في الآخرة أعمى » مفتوحتي الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميمين . وقرأ أبو عمرو : « في هذه أعمى » بكسر الميم « فهو في الآخرة أعمى » بفتحها .

وفي المشار إليها بـ « هذه » قولان .

أحدها : أنها الدنيا ، قاله مجاهد . ثم في معنى الكلام خمسة أقوال . أحدها :

من كان في الدنيا أعمى عن معرفة قدرة الله في خَلْق الأشياء ، فهو عمّا وُصِف له في الآخرة أعمى ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : من كان في الدنيا أعمى بالكفر ، فهو في الآخرة أعمى ، لأنه في الدنيا تُقبَل توبته ، وفي الآخرة لا تُقبَل ، قاله الحسن . والثالث : من عمي عن آيات الله في الدنيا ، فهو عن الذي غيّب عنه من أمور الآخرة أشدّ عمىً . والرابع : من عمي عن نِعَم الله التي بيَّنها في قوله : (ربُّكم الذي يزجي لكم الفُلْك في البحر) إلى قوله : (تفضيلا) فهو في الآخرة أعمى عن رشاده وصلاحه ، ذكرهما ابن الأنباري . والخامس : من كان فيها أعمى عن الحُجَّة ، فهو في الآخرة أعمى عن الجنة ، قاله أبو بكر الورّاق .

والثاني : أنها النِعم . ثم في الكلام قولان . أحدهما : من كان أعمى عن النِّعم التي تُرى وتُشاهَد ، فهو في الآخرة التي لم تُر أعمى ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : من كان أعمى عن معرفة حق الله في هذه النِّعم المذكورة في قوله : (ولقد كرَّمنا بني آدم) ولم يؤدِّ شكرها ، فهو فيما بينه وبين الله مما يُتقرَّب به إليه أعمى (وأضل سبيلاً) ، قاله السدي . قال أبو علي الفارسي : ومعنى قوله : (في الآخرة أعمى) أي : أشدُّ عمىً ، لأنه كان في الدنيا يمكنه الخروج عن عَماهُ بالاستدلال ، ولا سبيل له في الآخرة إلى الخروج من عماه . وقيل : معنى العمى في الآخرة : أنه لا يهتدي إلى طريق الثواب ، وهذا كلُّه من عمى القلب .

فان قيل : لم قال : (فهو في الآخرة أعمى) ولم يقل : أشدُّ عمىً ، لأن العمى خِلْقة بمنزلة الحُمرة ، والزُرقة ، والعرب تقول : ما أشدَّ سواد زيد ، وما أبيَنَ زرقة عمرو ، وقلَّما يقولون : ما أسود زيداً ، وما أزرق عمراً ؟

فالجواب : أن المراد بهذا العمى عمى القلب ، وذلك يتزايد ويحدث منه

شيء بعد شيء ، فيخالف الخلقَ اللاّزمة التي لا تزيد ، نحو عمى العين ، والبياض ، والحمرة ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً . وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لايَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾

قوله تعالى : (وإن كادوا ليفتنونك) في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متّعنا باللات سَنة ، وحرّم وادينا كما حرّمتَ مكة ، فأبى ذلك ، فأقبلوا يُكثرون مسألتهم ، وقالوا : إنا نحب أن تعرّف العربَ فضلنا عليهم ، فان خشيتَ أن يقول العرب : أعطيتهم مالم تعطنا ، فقل : الله أمرني بذلك ؛ فأمسك رسول الله ﷺ [عنهم] ، وداخلهم الطمع ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس . وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا : أجّلنا سنة ، ثم نُسلم ونكسر أصنامنا ، فهمّ أن يؤجّلهم ، فنزلت هذه الآية [1] .

والثاني : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : لانكفّ عنك إلا بأن تُلمّ بآلهتنا ، ولو بأطراف أصابعك ، فقال رسول الله ﷺ : « ماعليّ لو فعلت والله يعلم إني لكاره » ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، وهذا باطل

---

(١) ابن جرير الطبري : ١٥/١٣٠ بسند ضعيف جداً .

لايجوز أن يُظَنَّ برسول الله ﷺ ، ولا ماذكرنا عن عطية من أنه هَمَّ أن يُنْظِرهم سنة ، وكل ذلك مُحال في حقّه وفي حق الصحابة أنهم رَوَوْا عنه .

والثالث : أن قريشاً خلَوْا برسول الله ليلةً إلى الصباح يكلّمونه ويفخّمونه ، ويقولون : أنت سيدنا وابن سيدنا ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض مايريدون ، ثم عصمه الله من ذلك ، ونزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والرابع : أنهم قالوا لرسول الله ﷺ : اطرد عنك سُقَاط الناس ، ومواليهم ، وهؤلاء الذين رائحتهم رائحة الضأن ، وذلك أنهم كانوا يلبَسون الصوف ، حتى نجالسَك ونسمعَ منك ، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل مايستدعي به إسلامهم ، فنزلت هذه الآيات ، حكاه الزجاج ؛ قال : ومعنى الكلام : كادوا يفتنونك ، ودخلت « إن » واللام للتوكيد . قال المفسرون : وإنما قال : « ليفتنونك » ، لأن في إعطائهم ماسألوا مخالفةً لحكم القرآن .

قوله تعالى : (لتفتريَ) أي : لتختلقَ (علينا غيرَه) وهو قولهم : قل الله أمرني بذلك ، (وإذاً) لو فعلت ذلك (لاتخذوك خليلاً) أي : والَوْكَ وصافَوْكَ .

قوله تعالى : (ولولا أن ثبّتناك) على الحق ، بعصمتنا إياك (لقد كدتَ تركَن إليهم) أي : هممتَ وقاربتَ أن تميل إلى مرادهم (شيئاً قليلاً) قال ابن عباس : وذلك حين سكت عن جوابهم ، والله أعلم بنيّته . وقال ابن الأنباري : الفعل في الظاهر للنبي ﷺ ، وفي الباطن للمشركين ، وتقديره : لقد كادوا يُركنونك إليهم ، وينسبون إليك مايشتهونه مما تكرهه ، فنسب الفعل إلى غير فاعله عند أمن اللّبْس ، كما يقول الرجل للرجل : كدت تقتل نفسَك اليوم ، يريد : كدت تفعل فعلاً يقتلك غيرُك من أجله ؛ فهذا من المجاز والاتساع . وشبيه

بهذا قوله : (فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون) [البقرة : ١٣٢] ، وقول القائل : لأرينّكَ في هذا الموضع .

قوله تعالى : (إذاً لأذقناك) المعنى : لو فعلت ذلك الشيء القليل (لأذقناك ضعف الحياة) أي : ضِعف عذاب الحياة (وضِعف) عذاب (الممات) ، ومثله قول الشاعر :

[نُبّئتُ أنَّ النّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ]
واسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيْبُ المَجْلِسُ (١)

أي : أهل المجلس . وقال ابن عباس : ضِعْفَ عذاب الدنيا والآخرة . وكان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكنه تخويف لأُمّته ، لئلا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه .

قوله تعالى : (وإن كادوا ليَسْتَفِزُّونك من الأرض) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن رسول الله ﷺ لما قَدِم المدينة، حسدته اليهود على مُقامه بالمدينة ، وكرهوا قربه ، فأتوه ، فقالوا : يامحمد أنبيٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قالوا : فوالله لقد علمتَ ماهذه بأرض الأنبياء ، وأن أرض الأنبياء الشام ، فان كنتَ نبيّاً فائت الشام ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس (٢) . وقال سعيد بن جُبير : همَّ رسول الله ﷺ أن يشخص عن المدينة ، فنزلت هذه الآية .

---

(١) البيت لمدي بن ربيعة في « الأمالي » : ٩٥/١ ، و « الحماسة » : ٩٢٩/٢ ، ومعنى قوله : « نبئت أن النار بعدك أوقدت » : أنه كان لا توقد بحضرته نار ، لعظم ناره وعمومه بطعامه ، وقيل : إنه أراد نار الحرب التي كانت ثارت بينهم بقتل كليب فركدت أحقاباً .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » : ٥٣/٣ : وهذا القول ضعيف ، لأن هذه الآية مكية ، وسكنى المدينة بعد ذلك .

وقال عبد الرحمن بن غَنْم : لمّا قالت له اليهود هذا ، صدّق ماقالوا ، وغزا غزوة تبوكَ لايريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوكَ ، نزلت هذه الآية (١) .

والثاني : أنهم المشركون أهل مكة هَمّوا باخراج رسول الله ﷺ من مكة ، فأمره الله بالخروج ، وأنزل هذه الآية إخباراً عما هَمّوا به ، قاله الحسن ، ومجاهد . وقال قتادة : هَمَّ أهلُ مكة باخراجه من مكة ، ولو فعلوا ذلك مانُوظِروا ، ولكنَّ الله كفّهم عن إخراجه حتى أمره بالخروج . وقيل : مالبثوا بعد ذلك حتى بعث الله عليهم القتل ببدر . فعلى القول الأول ، المشار إليهم : اليهود ، والأرض : المدينة . وعلى الثاني : هم المشركون ، والأرض : مكة . وقد ذكرنا معنى « الاستفزاز » آنفاً [الاسراء : ٦٤] ، وقيل : المراد به هاهنا : القتل ، ليخرجوه من الأرض كلّها ، روي عن الحسن .

قوله تعالى : (وإذاً لايَلْبَثون خَلفك) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « خلفك » . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « خلافك » . قال الأخفش « خلافك » في معنى خلفك ، والمعنى : لايلبثون بعد خروجك (إلا قليلاً) أي : لو أخرجوك لاستأصلناهم بعد خروجك بقليل ، وقد جازاهم الله على ماهمّوا به ، فقتل صناديد المشركين ببدر ، وقتل من اليهود بني قريظة ، وأجلى النضير . وقال ابن الأنباري : معنى الكلام : لايَلْبَثون

---

(١) قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر خبر عبد الرحمن بن غَنْم عن البيهقي : وفي هذا الاسناد نظر ، والأظهر أن هذا ليس بصحيح ، فان النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود ، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) ، ولقوله تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ، وغزاها ليقتصَّ وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه ، والله أعلم .

على خِلافك ومخالفتك ، فسقط حرف الخفض . وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : « خُلاَّفُكَ » بضم الخاء ، وتشديد اللام ، ورفع الفاء .

قوله تعالى : (سُنَّةَ مَنْ قد أرسلْنا) قال الفراء : نصب السُّنَّة على العذاب المُضْمَر ، أي : يعذَّبونَ كسُنَّتنا فيمن أرسلْنا . وقال الأخفش : المعنى : سَنَنّاها سُنَّةً . وقال الزجاج : انتصب بمعنى « لا يلبثون » وتأويله : إنّا سَنَنَّا هذه السُّنَّة فيمن أرسَلْنا قبلك أنهم إذا أخرجوا نبيَّهم أو قتلوه ، لم يلبث العذاب أن ينزل بهم .

﴿ أَقِمِ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً . وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً . وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾

قوله تعالى : (أقم الصلاة) أي : أدِّها (لِدُلوك الشمس) أي : عند دُلوكها . وذكر ابن الأنباري في « اللام » قولين . أحدهما : أنها بمعنى « في » . والثاني : أنها مؤكِّدة ، كقوله : (رَدِفَ لكم) [النمل:٧٢] . وقال أبو عبيدة : دُلوكها : من عند زوالها إلى أن تغيب . وقال الزجاج : مَيْلها وقتَ الظهيرة دُلوك ، ومَيْلها للغروب دُلوك . وقال الأزهري : معنى « الدُّلوك » في كلام العرب : الزوال ، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار : دالكة ، وإذا أفلت : دالكة ، لأنها في الحالين زائلة .

وللمفسرين في المراد بالدُّلوك هاهنا قولان .

أحدهما : أنه زوالها نصف النهار . روى جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه ، فطعِموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج رسول الله ﷺ وقال : « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » [1] ؛ وهذا قول ابن عمر ، وأبي برزة ، وأبي هريرة ، والحسن ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، ومجاهد ، وعطاء ، وعبيد بن عمير ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، وهو اختيار الأزهري . قال الأزهري : لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس ، فيكون المعنى : أقم الصلاة من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل ، فيدخل فيها الأولى ، والعصر ، وصلاتا غسق الليل ، وهما العشاءان ، ثم قال : (وقرآن الفجر) ، فهذه خمس صلوات .

والثاني : أنه غروبها ، قاله ابن مسعود [2] ، والنخعي ، وابن زيد ، وعن ابن عباس كالقولين ، قال الفراء : ورأيت العرب تذهب في الدُّلوك إلى غيبوبة الشمس ، وهذا اختيار ابن قتيبة ، قال : لأن العرب تقول : دَلَكَ النجم : إذا غاب ؛ قال ذو الرمة :

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ باللَّوَاتي تَقُودُهَا ... نُجُومٌ وَلَا بالآفلاتِ الدَّوالِكِ [3]

---

(١) رواه الطبري : ١٥/١٣٧ ، عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله ، ورواه أيضاً عن نُبَيح العَنَزي عن جابر بن عبد الله ، ونبيح العنزي : مجهول .

(٢) رواه ابن جرير : ١٥/١٣٤ ، والحاكم : ٢/٣٦٣ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في « المجمع » ٧/٥١ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٤/١٩٥ وزاد نسبته إلى عبدالرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، من طرق عن ابن مسعود .

(٣) ديوانه : ٥١١ طبع المكتب الاسلامي ، و « غريب القرآن » : ٢٦٠ ، و « تفسير —

وتقول في الشمس : دلكتْ بَرَاحِ[1] ، يريدون : غربت ، والناظر قد وضع كفّه على حاجبه ينظر إليها ، قال الشاعر :

والشَّمْسُ قدْ كادَتْ تكُونُ دَنَفَا   أدْفَعُها بالرَّاحِ كَيْ تَزَحْلَفَا[2]

فشبهها بالمريض [في] الدَّنَف ، لأنها قد همَّت بالغروب كما قارب الدَّنِف الموت ، وإنما ينظر إليها من تحت الكف ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ، ويتوقى الشعاع بكفهِ . فعلى هذا ، المراد بهذه الصلاة : المغرب . فأما غسق الليل ، فظلامُه .

وفي المراد بالصلاة المتعلقة بغسق الليل ثلاثة أقوال .

أحدها : العشاء ، قاله ابن مسعود . والثاني : المغرب ، قاله ابن عباس . قال القاضي أبو يعلى : فيحتمل أن يكون المراد بيانَ وقت المغرب ، أنه من غروب الشمس إلى غسق الليل . والثالث : المغرب والعشاء ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وقرآنَ الفجر) المعنى : وأقم قراءة الفجر . قال المفسرون : المراد به : صلاة الفجر . قال الزجاج : وفي هذا فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لاتكون إلا بقراءة ، حين سمِّيت الصلاة قرآناً .

ـــ القرطبي » : ١٠/٣٠٣ ، و « البحر المحيط » : ٦/٦٨ ، و « اللسان » ، و « التاج » : دلك . مصابيح : يعني الابل تصبح في مباركها ، والآفلات : الغائبات ، يقال : أفل النجم : إذا غاب ، والدوالك : يقال : دلكت الشمس : إذا غابت أو دنت للمغيب .

(١) براح ، بفتح الباء : اسم للشمس ، ومن كسر الباء ، فانه يعني أنه يضع الناظر كفه على حاجبه من شعاعها لينظر .

(٢) البيت للعجّاج ، ديوانه : ٨٢ ، و « تهذيب الألفاظ » : ٣٩٣ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٨٨ ، و « غريب القرآن » : ٢٦٠ ، و « الطبري » : ١٥/١٣٧ ، و « تفسير القرطبي » : ١٠/٣٠٣ ، و « الجمهرة » : ٢/٢١٨ ، وفي « اللسان » : زحلف . يقال للشمس إذا مالت للمغيب ، وزالت عن كبد السماء نصف النهار : قد تزحلفت .

قوله تعالى : (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « تشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار » (١) .

قوله تعالى : (ومن الليل فتهجَّد به) قال ابن عباس : فَصَلِّ بالقرآن . قال مجاهد ، وعلقمة ، والأسود : التهجُّد بعد النوم . قال ابن قتيبة : تهجَّدت : سَهِرت ، وهَجَدت : نِمْت . وقال ابن الأنباري : التهجُّد هاهنا بمعنى : التيقُّظ والسَّهَر ، واللغويون يقولون : هو من حروف الأضداد ؛ يقال للنائم : هاجِد ومتهجِّد ، وكذلك للساهر ، قال النابغة :

وَلَوَ انَّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ   عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةٍ مُتَهَجِّدِ
لرَنَا لِبَهْجَتِها وحُسْنِ حَدِيثِها   وَلَخَالَهُ رَشداً وإنْ لَمْ يَرْشُدِ (٢)

يعني بالمتهجد : الساهر ، وقال لبيد :

قال هَجِّدْنا فقَد طالَ السُّرَى   [وقَدَرْنا إن خَنَا الدَّهْرِ غَفَلْ] (٣)

---

(١) « المسند » : ٢٣٨/١٣ ، وابن ماجه : ٢٢٠/١ ، والنسائي : ٢٤١/١ ، و « الترمذي » : ١٤١/٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وروى الامام أحمد في « المسند » : ١٧٢/١٢ ، و « البخاري » : ٣٠٢/٨ ، و « مسلم » ٤٥٠/١ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تفضل صلاةُ في الجميع على صلاة الرجل وحده خمساً وعشرين درجة » قال : « وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .

(٢) البيتان في ديوانه : ٣١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١٨٦/١ ، و « أضداد ابن الأنباري » : ٥٢ . والأشمط : الذي دب في رأسه الشيب ، والصرورة : الذي لم يذنب مطلقاً ، أو الذي لم يتزوج .

(٣) ديوانه : ١٨٢ ، و « الاقتضاب » : ١٨٤ ، و « الخزانة » : ٢٨/٢ ، و « أضداد ابن الأنباري » : ٥١ ، و « أضداد ابن السكيت » : ١٩٤ ، و « أضداد الحلبي » : ٦٧٩ ، و « اللسان » : هجد ، وسرى ، وصلة البيت قبله : —

أي : نوّمنا . وقال الأزهري : المتهجِّد : القائم إلى الصلاة من النَّوم . وقيل له : متهجد، لإلقائه الهُجُود عن نفسه ، كما يقال : تحرَّج وتأثَّم .

قوله تعالى : (نافلةً لك) النافلة في اللغة : ما كان زائداً على الأصل .

وفي معنى هذه الزيادة في حقه قولان .

أحدهما : أنها زائدة فيما فُرِض عليه ، فيكون المعنى : فريضة عليك، وكان قد فرض عليه قيام الليل ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أنها زائدة على الفرض ، وليست فرضاً ؛ فالمعنى : تطوعاً وفضيلة . قال أبو أُمامة ، والحسن ، ومجاهد : إنما النافلة للنبي ﷺ خاصة . قال مجاهد : وذلك أنه قد غُفِرَ له ماتقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر ، فما زاد على فرضه فهو نافلة له وفضيلة ، وهو لغيره كفارة [1] . وذكر بعض أهل العلم : أن صلاة الليل كانت فرضاً عليه في الابتداء ، ثم رخِّص له في تركها ، فصارت نافلة . وذكر ابن الأنباري في هذا قولين .

أحدهما : يقارب ماقاله مجاهد ، فقال : كان رسول الله ﷺ إذا تنفَّل

ـــ وَمَجودٍ من صُبابات الكرى عاطِفِ النُّمْرُقِ صَدْقِ المُبْتَذَلْ

والمجود : الذي يجهد من النعاس وغيره ، وقوله : عاطف النمرق ؛ يريد : عطف نمرقته وثناها فنام ، وصدق المبتذل ، أي : جلد قوي لايفتر عند ابتذاله نفسه ولا يسقط . قال ابن السيد في شرح البيتين : وصف نفسه بالجلد في السفر ، وكثرة السهر حتى يتأذى رفيقه بذلك ، فيقول له : خلّنا ننام ونستريح . . . قد قدرنا على مازيد ، ووصلنا إلى مانحب ، إن غفل عنا الدهر ولم يفسد علينا أمرنا ، فَلِمَ نجهد أنفسنا بطول السُّرى ، ونمنع أعيننا لذيذ الكرى؟! .

(١) « المسند » : ٣/٢٩١ ، والترمذي : ٢/١٤٢ وقال : حديث حسن صحيح ، ونقله ابن كثير في « تفسيره » : ٣/٥٨ ، وأقر تصحيح الترمذي إياه ، وصححه أيضاً الشيخ أحمد شاكر . وفي سنده قابوس بن أبي ظَبْيان الجَنْبي ، لينه الحافظ في « التقريب » .

لا يقدر له أن يكون بذلك ماحياً للذنوب ، لأنه قد غُفر له ماتقدم من ذَنبه وما تأخَّر ، وغيره إذا تنفَّل كان راجياً ، ومقدّراً محو السيئات عنه بالتنفل ، فالنافلة لرسول الله ﷺ زيادة على الحاجة ، وهي لغيره مفتقَر إليها ، ومأمول بها دفع المكروه . والثاني : أن النافلة للنبي ﷺ وأمته ، والمعنى : ومن الليل فتهجدوا به نافلة لكم ، فخوطب النبي ﷺ بخطاب أمته .

قوله تعالى : (عسى أن يبعثكَ ربُّك) « عسى » من الله واجبة ، ومعنى « يبعثك » يقيمك (مقاماً محموداً) وهو الذي يحمَده لأجله جميع أهل الموقف . وفيه قولان .

أحدهما : أنه الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله ابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عمر ، وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله ، والحسن ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد [١] .

والثاني : يجلسه على العرش يوم القيامة . روى أبو وائل عن عبد الله أنه قرأ هذه الآية ، وقال : يُقعده على العرش ، وكذلك روى الضحاك عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد .

قوله تعالى : (وقل رب أدخلني مدخل صدق) وقرأ الحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وحميد بن قيس ، وقتادة ، وابن أبي عبلة بفتح الميم في « مَدخل »

(١) في « صحيح البخاري » عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيَّها ، تقول : يافلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الكشاف » : وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد ، وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم ، وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً ، وعن كعب بن مالك عند الحاكم ، وأصله عند مسلم ، وعن جابر عند أحمد والحاكم ، واختلف في وصله وإرساله على الزهري عن علي بن الحسين وعن أبي سعيد عند الترمذي وابن ماجه ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه .

و « مَخرج » . قال الزجاج : المدخل ، بضم الميم : مصدر أدخلته مُدخلاً ، ومن قال : مَدخل صدق ، فهو على أدخلته ، فدخل مَدخل صدق ، وكذلك شرح « مَخرج » مثله .

وللمفسرين في المراد بهذا المدخل والمخرج أحد عشر قولاً .

أحدها : أدخلني المدينة مدخل صدق ، وأخرجني من مكة مخرج صدق . روى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فنزلت عليه هذه الآية . وإلى هذا المعنى ذهب الحسن في رواية سعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : أدخلني القبر مُدخل صدق ، وأخرجني منه مُخرج صدق ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أدخلني المدينة ، وأخرجني إلى مكة ، يعني : لفتحها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أدخلني مكة مدخل صدق ، وأخرجني منها مخرج صدق ، فخرج منها آمناً من المشركين ، ودخلها ظاهراً عليها يوم الفتح ، قاله الضحاك .

والخامس : أدخلني مُدخل صدقٍ الجنةَ ، وأخرجني مخرج صدق من مكة إلى المدينة ، رواه قتادة عن الحسن .

والسادس : أدخِلني في النبوّة والرسالة ، وأخرجني منها مخرج صدق ، قاله مجاهد ، يعني : أخرجني مما يجب عليّ فيها

والسابع : أدخِلني في الإسلام ، وأخرجني منه ، قاله أبو صالح ؛ يعني : من أداء ماوجب عليّ فيه إذا جاء الموت .

والثامن : أدخِلني في طاعتك ، وأخرجني منها ، أي ، سالماً غير مقصّر في أدائها ، قاله عطاء .

والتاسع : أدخِلني النار ، وأخرجني منه ، قاله محمد بن المنكدر .

والعاشر : أدخلني في الدّين ، وأخرجني من الدنيا وأنا على الحق ، ذكره الزجاج .

والحادي عشر : أدخلني مكة ، وأخرجني إلى حُنَين ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

وأما إضافة الصدق إلى المُدخل والمُخرج ، فهو مدح لهما . وقد شرحنا هذا المعنى في سورة (يونس : ٢) .

قوله تعالى : (واجعل لي من لدنك) أي : من عندك (سُلطاناً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التسلّط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين باقامة الحدود ، قاله الحسن . والثاني : أنه الحُجة البيّنة ، قاله مجاهد . والثالث : المُلك العزيز الذي يُقهَر به العصاة ، قاله قتادة . وقال ابن الأنباري : وقوله : (نصيراً) يجوز أن يكون بمعنى مُنْتصَراً ، ويصلح أن يكون تأويله ناصراً .

قوله تعالى : (وقل جاء الحق، وزَهق الباطل) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الحق : الإسلام ، والباطل : الشرك ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن الحق : القرآن ، والباطل : الشيطان ، قاله قتادة . والثالث : أن الحق : الجهاد ، والباطل : الشرك ، قاله ابن جريج . والرابع : الحق : عبادة الله ، والباطل : عبادة الأصنام ، قاله مقاتل . ومعنى « زهق » : بطَل واضمحلّ . وكلُّ شيء هلك وبَطَل فقد زَهق . وزَهقت نفسُه : تلفت .

وروى ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة

وستون صنماً ، فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً (١) .

فان قيل : كيف قلتم : إنّ « زهق » بمعنى بَطَل ، والباطل موجود معمول عليه عند أهله ؟

فالجواب : أن المراد من بطلانه وهلكته : وضوح عيبه ، فيكون هالكاً عند المتدبِّر الناظر .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾

قوله تعالى : (وننزّل من القرآن ماهو شفاء) « مِنْ » هاهنا لبيان الجنس ، فجميع القرآن شفاء . وفي هذا الشفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : شفاء من الضلال ، لما فيه من الهدى . والثاني : شفاء من السّقم ، لما فيه من البركة . والثالث : شفاء من البيان للفرائض والأحكام .

وفي « الرحمة » قولان . أحدها : النعمة . والثاني : سبب الرحمة .

قوله تعالى : (ولا يزيد الظالمين) يعني المشركين (إلا خساراً) لأنهم يكفرون به ، ولا ينتفعون بمواعظه ، فيزيد خسرانهم .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً . قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴾

---

(١) البخاري : ٨/٣٠٣ ، ومسلم : ٣/١٤٠٨ ، والترمذي : ٢/١٤٢ من طرق عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود ....

قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان) قال ابن عباس : الإنسان هاهنا : الكافر ، والمراد به الوليد بن المغيرة . قال المفسرون : وهذا الإنعام : سَعة الرزق ، وكشف البلاء . (ونأى بجانبه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « ونأى » على وزن « نعى » بفتح النون والهمزة . وقرأ ابن عامر : « ناء » مثل « باع » . وقرأ الكسائي ، وخلف عن سليم عن حمزة : « وناء » بإمالة النون والهمزة . وروى خلاّد عن سليم : « نئي » بفتح النون ، وكسر الهمزة ؛ والمعنى : تباعد عن القيام بحقوق النِّعم ، وقيل : تعظّم وتكبّر . (وإذا مسّه الشرُّ) أي : نزل به البلاء والفقر (كان يَؤوساً) أي : قنوطاً شديد اليأس ، لايرجو فضل الله .

قوله تعالى : (قل كلٌّ يعمل على شاكلته) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : على ناحيته ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . قال الفراء : الشاكلة : الناحية ، والجديلة ، والطريقة ، سمعت بعض العرب يقول : وعبد الملك إذ ذاك على جديلته ، وابن الزبير على جديلته ، يريد : على ناحيته . وقال أبو عبيدة : على ناحيته وخليقته . وقال ابن قتيبة : على خليقته وطبيعته ، وهو من الشكل . يقال : لستَ على شكلي ، ولا شاكلتي وقال الزجاج : على طريقته ، وعلى مذهبه .

والثاني : على نيّته ؛ قاله الحسن ، ومعاوية بن قُرّة . وقال الليث : الشاكلة من الأمور : ماوافق فاعله .

والثالث : على دينه ، قاله ابن زيد . وتحرير المعنى : أن كل واحد يعمل على طريقته التي تشاكل أخلاقه ، فالكافر يعمل مايشبه طريقته من الإعراض عند النِّعم واليأس عند الشدة ، والمؤمن يعمل مايشبه طريقته من الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والله يجازي الفريقين . وذكر أبو صالح عن ابن عباس : أن

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)[التوبة : ٥] ، وليس بشيء .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن رسول الله ﷺ مَرَّ بناس من اليهود، فقالوا : سَلُوهُ عن الروح ؟ فقال بعضهم : لاتسألوه ، فيستقبلكم بما تكرهون . فأتاه نفر منهم ، فقالوا : يا أبا القاسم : ماتقول في الروح ؟ فسكت ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود [1] .

والثاني : أن اليهود قالت لقريش : سلوا محمداً عن ثلاث ، فان أخبركم عن اثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي ؛ سلوه عن فِتية فُقدوا ، وسلوه عن ذي القرنين ، وسلوه عن الرُّوح . فسألوه عنها ، ففسَّر لهم أمر الفتية في الكهف ، وفسر لهم قصة ذي القرنين ، وأمسك عن قصة الروح ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

(١) « المسند » : ٢٥٤/٥ ، والبخاري : ٣٠٣/٨ ، ومسلم : ٢١٥٢/٤ ، والترمذي : ١٤٢/٢ ، وانظر ابن كثير ٦٠/٣ في الكلام على سبب نزول هذه الآية . وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقال : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فنزلت (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا : أوتينا علماً كثيراً ؛ أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) .

وفي المراد بالروح هاهنا ستة أقوال .

أحدها : أنه الروح الذي يحيا به البدن ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس . وقد اختلف الناس في ماهيَّة الروح ، ثم اختلفوا هل الروح النَّفْسُ ، أم هما شيئان فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم لأنه لابرهان على شيء من ذلك وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة ؟ فأما السلف ، فانهم أمسكوا عن ذلك ، لقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) ، فلما رأوا أن القوم سألوا عن الروح فلم يُجابوا ، والوحي ينزل ، والرسول حيٌّ ، علموا أن السكوت عما لم يُحَطْ بحقيقة علمه أولى .

والثاني : أن المراد بهذا الروح : ملك من الملائكة على خِلْقة هائلة ، روي عن عليٍّ عليه السلام ، وابن عباس ، ومقاتل .

والثالث : أن الروح : خَلْق من خلق الله عز وجل صوَّرهم على صُوَر بني آدم ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والرابع : أنه جبريل عليه السلام ، قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أنه القرآن ، روي عن الحسن أيضاً .

والسادس : أنه عيسى بن مريم ، حكاه الماوردي . قال أبو سليمان الدمشقي : قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن ، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إلى موضع لايليق به ، وظنوه مثله ، وإنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم . وقوله : (من أمر ربي) أي : من عِلمه الذي منع أن يعرفه أحد .

قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) في المخاطبين بهذا قولان .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنهم جميع الخلق ، علمهم قليل بالإضافة إلى علم الله عز وجل ، ذكره الماوردي .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : (ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) [البقرة : ٢٦٩] ؟

فالجواب : أن ما أوتيه الناس من العلم ، وإن كان كثيراً ، فهو بالإضافة إلى علم الله قليل .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَاتَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً . إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك) قال الزجاج : المعنى : لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب ، حتى لا يوجد له أثر ، (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أي : لا تجد مَن يتوكل [علينا] في ردّ شيء منه ، (إلا رحمة من ربك) هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين . وقال ابن الأنباري : المعنى : لكن رحمة من ربك تمنع من أن تُسْلَبَ القرآن ، وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في الرجوع إلى دين آبائهم ، فهدّدهم الله عز وجل بسلب النعمة ، فكان ظاهر الخطاب للرسول ، ومعنى التهدّد للأمة . وقال أبو سليمان : « ثم لا تجد لك به » أي : بما نفعله بك ، من إذهاب ما عندك « وكيلاً » يدفعنا عما نريده بك . وروي [عن] عبد الله ابن مسعود أنه قال : يسرى على القرآن في ليلة واحدة ، فيجيء جبريل من جوف الليل ، فيذهب به من صدورهم ومن بيوتهم ، فيصبحون لا يقرؤون آية ،

ولا يحسنونها [١] . وردّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً » [٢] ، وحديث ابن مسعود مروي من طُرُقٍ حِسان ، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ أراد بالعلم ماسوى القرآن ، فان العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر [٣] .

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

قوله تعالى : (قل لَئِنِ اجتمعت الإنس والجِنّ) قال المفسرون : هذا تكذيب للنَّضْر بن الحارث حين قال : « لو شئنا لقلنا مثل هذا » . والمِثْل الذي طُلِبَ منهم : كلام له نظم كنظم القرآن ، في أعلى طبقات البلاغة . والظهير : المُعين .

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في « الفتح » ١٣/١٣ من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : « ولينزعنّ القرآن من بين أظهركم ، يسرى عليه ليلاً ، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء » ، وقال الحافظ : وسنده صحيح ، لكنه موقوف .

(٢) البخاري ١/١٧٤ ، ومسلم ٤/٢٠٥٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولفظه في البخاري « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلمُ بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

(٣) روى ابن ماجه رقم (٤٠٤٩) بسند قوي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الاسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ماصيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ولَيُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير ، والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة : « لا إله إلا الله » فنحن نقولها » ، فقال له صلة : ماتغني عنهم « لا إله إلا الله » وهم لايدرون ماصلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ، فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردها عليه ثلاثاً ، كل ذلك يعرض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال : ياصلة ، تنجيهم من النار ، ثلاثاً . قال في « الزوائد » : إسناده صحيح .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً . وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلٰئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾

قوله تعالى : (ولقد صرَّفْنا للناس في هذا القرآن) قد فسَّرناه في هذه السورة [الاسراء : ٤١]، والمعنى : من كل مَثَل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار (فأبى أكثر الناس) يعني أهل مكة (إلا كُفوراً) أي : جحوداً للحق وإنكاراً .

قوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض يَنبوعا) سبب نزول هذه الآية وما يتبعها، أن رؤساء قريش ، كعُتبة ، وشيبة ، وأبي جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث في آخرين ، اجتمعوا عند الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذَروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك ، فجاءهم سريعاً ، وكان حريصاً على رشدهم ، فقالوا : يا محمد ، إنا والله لا نَعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفَّهت الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فان كنتَ إنما جئتَ بهذا لتطلب مالاً ، جعلنا لك من أموالنا ماتكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تطلب الشرف فينا ، سوَّدناك علينا ، وإن كان هذا الرَّئِيُّ الذي يأتيك قد غلب عليك ، بذلنا أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نُبرِئك منه ، أو نُعذَر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « إن تقبلوا

مِنّي [ماجئتكم به] ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه [١] عليَّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا : يامحمد ، فان كنتَ غير قابل منّا ماعرضنا ، فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيقَ بلاداً ولا أشد عيشاً منا ، سل لنا ربك يُسيّر لنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، ويُجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب ، فانه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول : أحق هو ؟ فان فعلتَ صدّقناك ، فقال رسول الله ﷺ : « مابهذا بُعثتُ ، وقد أبلغتكم ما أُرسلتُ به » ؛ قالوا : فَسَلْ ربّك أن يبعث مَلَكاً يصدّقك ، وسله أن يجعل لك جِناناً ، وكنوزاً ، وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك ؛ قال : « ما أنا بالذي يسأل ربه هذا » ؛ قالوا : فأسقط [٢] السماء [علينا] كما زعمت بأن ربّك إن شاء فعل ؛ فقال : « ذلك إلى الله عز وجل » ؛ فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً ، وقال عبد الله بن أبي أمية : لا أؤمن لك حتى تتخذ إلى [السماء] سُلَّماً ، وترقى فيه وأنا أنظر ، وتأتي بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك ، فانصرف رسول الله ﷺ حزيناً لِمَا رأى من مباعدتهم إياه ، فأنزل الله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك . . .) الآيات ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (حتى تفجر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « حتى تُفَجِّرَ » بضم التاء ، وفتح الفاء ، وتشديد الجيم مع الكسرة . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « حتى تَفْجُرَ » بفتح التاء ، وتسكين الفاء ، وضم الجيم مع التخفيف . فمن ثقّل ، أراد كثرة الانفجار من الينبوع ، ومن خفّف ، فلأن

(١) في الأصل : تردوا . (٢) في الأصل: فتسقط ، والتصحيح من الطبري ، وابن كثير ، والدر .

الينبوع واحد . فأما الينبوع : فهو عين ينبع الماء منها ؛ قال أبو عبيدة : هو يفعول، من نبع الماء ، أي : ظهر وفار .

قوله تعالى : (أو تكونَ لك جنَّة) أي : بستان (فتفجر الأنهار) أي : تفتحها وتجريها (خلالها) أي : وسط تلك الجنة .

قوله تعالى : (أو تُسْقِطَ السماء) وقرأ مجاهد ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وحميد ، والجحدري : « أو تَسقُط » بفتح التاء ، ورفع القاف « السماءُ » بالرفع .

قوله تعالى : (كِسفاً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « كِسْفا » بتسكين السين في جميع القرآن إلا في (الروم : ٤٨) فانهم حرَّكوا السين . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين ، وفي باقي القرآن بالتسكين . وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين ، وفي باقي القرآن بتسكينها . قال الزجاج : من قرأ « كِسَفاً » بفتح السين ، جعلها جمع كِسفة ، وهي : القطعة ، ومن قرأ « كِسْفاً » بتسكين السين ، فكأنهم قالوا : أَسْقِطها طبقاً علينا ؛ واشتقاقه من كسفتُ الشيء : إذا غطَّيته ، يعنون : أسقطها علينا قطعة واحدة . وقال ابن الأنباري: من سكَّن قال : تأويله : ستراً وتغطية ، من قولهم : قد انكسفت الشمس : إذا غطاها ما يحول بين الناظرين إليها وبين أنوارها .

قوله تعالى : (أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عياناً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل . وقال أبو عبيدة : معناه : مقابلة ، أي : معاينة ، وأنشد للأعشى :

نُصَالِحُكُمْ حتَّى تَبُوؤُوا بِمِثْلِهَا
كَصَرْخَةِ حُبْلَى يَسَّرَتْهَا قَبِيلُهَا [١]

---

(١) « الطبري » ١٥/١٦٢ . وهو في ملحق ديوان الأعشى ٢٥٦ برواية « شواهد الكشاف » ٢٤٧ ، و « اللسان » : قبل . وعجز البيت في « الاصلاح » ١٦٠ ، و « فتح الباري » ٨/٢٩٨ .

أي : قابلتُها . ويروى : وجَّهتها [يعني بدل : يسرتها] .

والثاني : كفيلاً أنك رسول الله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء ، قال : القبيل ، والكفيل ، والزعيم ، سواء ؛ تقول : قبلت ، وكفلت ، وزعمت .

والثالث : قبيلةً قبيلةً ، كل قبيلة على حِدَتها ، قاله الحسن ، ومجاهد . فأما الزخرف ، فالمراد به الذهب ، وقد شرحنا أصل هذه الكلمة في (يونس : ٢٤) ، و « ترقى » : بمعنى « تصعد » ؛ يقال : رَقِيتُ أرقَى رُقِيّاً .

قوله تعالى : (حتى تُنزِّل علينا كتاباً) قال ابن عباس : كتاباً من رب العالمين إلى فلان بن فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه .

قوله تعالى : (قل سبحان ربي) قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « قل » . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : « قال » ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والشام ، (هل كنتُ إلا بشراً رسولاً) ، أي : أن هذه الأشياء ليست في قوى بشر .

فإن قيل : لِم اقتصر على حكاية « قالوا » من غير إيضاح الرد ؟

فالجواب : أنه لما خصمهم بقوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) فلم يكن في وسعهم ، عجَّزهم ، فكأنه يقول : قد أوضحت لكم بما سبق من الآيات ما يدل على نبوَّتي ، ومن ذلك التحدّي بمثل هذا القرآن ، فأما عنَتُكم فليس في وسعي ، ولأنهم ألحّوا عليه في هذه الأشياء ، ولم يسألوه أن يسألَ ربه ، فردَّ قولهم بكونه بشراً ، فكفى ذلك في الردّ .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ

مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً . قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا) قال ابن عباس : يريد أهل مكة . قال المفسرون : ومعنى الآية : وما منعهم من الإيمان (إذ جاءهم الهُدى) وهو البيان والإرشاد في القرآن (إلا أن قالوا) [أي : إلا] قولهم في التعجب والإنكار : (أبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً) ؛ وفي الآية اختصار، تقديره : هلا بعث الله مَلَكاً رسولاً ، فأجيبوا على ذلك بقوله تعالى : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين) أي : مستوطنين الأرض . ومعنى الطمأنينة : السكون ؛ والمراد من الكلام أن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم .

قوله تعالى : (قل كفى بالله شهيداً) قد فسرناه في (الرعد : ٤٣) (إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) قال مقاتل : حين اختص الله محمداً بالرسالة .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً . ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً . قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾

قوله تعالى : (من يهدي الله فهو المهتدي) قرأ نافع ، وأبو عمرو بالياء في الوصل ، وحذفاها في الوقف . وأثبتها يعقوب في الوقف ، وحذفها الأكثرون في

الحالتين . « من يهد الله » قال ابن عباس : من يرد الله هداه (فهو المهتد ومن يُضْلِل فلن تجد لهم أولياء من دونه) يَهدونهم .

قوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يمشّيهم على وجوههم ، وشاهده ما روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث أنس بن مالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « إن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » [1] .

والثاني : أن المعنى : ونحشرهم مسحوبين على وجوههم ، قاله ابن عباس .

والثالث : نحشرهم مسرعين مبادرين ، فعبَّر بقوله : « على وجوههم » عن الإسراع ، كما تقول العرب : قد مَرَّ القوم على وجوههم : إذا أسرعوا ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (عمياً وبكماً وصماً) فيه قولان .

أحدها : عمياً لا يرون شيئاً يَسرُّهم ، وبكماً لا ينطقون بحجَّة ، وصماً لا يسمعون شيئاً يسرُّهم ، قاله ابن عباس . وقال في رواية : عمياً عن النظر إلى ما جعل لأوليائه ، وبكماً عن مخاطبة الله ، وصماً عما مدح به أولياءه ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن هذا الحشر في بعض أحوال القيامة بعد الحشر الأول . قال مقاتل : هذا يكون حين يقال لهم : (اخسؤوا فيها) [المؤمنون : ١٠٨] فيصيرون عمياً بكماً صماً لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون بعد ذلك .

قوله تعالى : (كلما خَبَتْ) قال ابن عباس : أي : سكنت . قال المفسرون : وذلك أنها تأكلهم ، فاذا لم تُبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله ،

(١) البخاري : ٣٧٨/٨ ، ومسلم : ٢١٦١/٤ .

سكنت ، فيُعادُون خلقاً جديداً ، فتعود لهم . وقال ابن قتيبة : يقال : خبت النار : إذا سكن لهبها . فاللّهب يسكن ، والجمر يعمل ، فان سكن اللّهب ، ولم يُطفأ الجمر ، قيل : خَمَدت تَخْمُدُ خُمُوداً ، فان طُفئت ولم يبق منها شيء ، قيل : هَمَدت تَهْمُد هُمُوداً . ومعنى (زدناهم سعيراً) : ناراً تتسعر ، أي : تتلهّب . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الاسراء : ٤٩] إلى قوله : (قادر على أن يخلق مثلهم) أي : على أن يخلقهم مرة ثانية ، وأراد بـ « مثلهم » إياهم ، وذلك أن مِثْل الشيء مساوٍ له ، فجاز أن يعبّر به عن نفس الشيء ، يقال : مِثْلُك لا يفعل هذا ، أي : أنت ، ومثله قوله : (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به) [البقرة : ١٣٧] ، وقد تم الكلام عند قوله : (مِثلَهم) ، ثم قال : (وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه) يعني : أجل البعث (فأبى الظالمون إلا كُفوراً) أي : جحوداً بذلك الأجل .

قوله تعالى : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) قال الزجاج : المعنى : لو تملكون أنتم ، قال المتلمّس :

وَلَوْ غيرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي نَصبْتُ لهم فَوْقَ العرانينِ مِيسَما (١)

المعنى : لو أراد غير أخوالي .

وفي هذه الخزائن قولان .

أحدهما : خزائن الأرزاق . والثاني : خزائن النِعم ، فيخرج في الرحمة قولان . أحدهما : الرِزق . والثاني : النِعمة . وتحرير الكلام : لو ملكتم ما يملكه الله عز وجل لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفاقة . (وكان الإنسان) يعني : الكافر (قتورا) أي : بخيلاً مُمْسِكاً ؛ يقال : قَتَر يَقْتُرُ ، وقَتَر يَقْتِرُ : إذا قصّر في الإنفاق . وقال الماوردي : لو ملك أحد من المخلوقين من خزائن الله تعالى ، لما جاد

(١) البيت في « اللسان » : نقص .

كجود الله تعالى ، لأمرين . أحدهما : أنه لابد أن يُمسك منه لنفقته ومنفعته . والثاني : أنه يخاف الفقر ، والله تعالى منزّه في جُوده عن الحالين .

ثم إن الله تعالى ذكر إنكار فرعون آيات موسى ، تشبيهاً بحال هؤلاء المشركين ، فقال : (ولقد آتينا موسى تسع آيات) وفيها قولان .

أحدهما : أنها بمعنى المعجزات والدلالات ، ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها ، وهي : يده ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، واختلفوا في الآيتين الآخرتين على ثمانية أقوال . أحدها : أنها لسانه والبحر الذي فلق له ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ يعني بلسانه : أنه كان فيه عقدة فحلّها الله تعالى له . والثاني : البحر والجبل الذي نُتق فوقهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : السّنون ونقص الثمرات ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وعكرمة ، وقتادة . وقال الحسن : السِّنون ونقص الثمرات آية واحدة . والرابع : البحر والموت أُرسل عليهم ، قاله الحسن ، ووهب . والخامس : الحَجَر والبحر ، قاله سعيد بن جبير . والسادس : لسانه وإلقاء العصا مرتين عند فرعون ، قاله الضحاك . والسابع : البحر والسِّنون ، قاله محمد بن كعب . والثامن : ذكره [محمد بن إسحاق عن] محمد بن كعب أيضاً ، فذكر السبع الآيات الأولى ، إلا أنه جعل مكان يده البحر ، وزاد الطمسة والحجر ، يعني قوله : (اطمس على أموالهم) [يونس : ٨٨] .

والثاني : أنها آيات الكتاب ، روى أبو داود السجستاني من حديث صفوان ابن عسّال ، أن يهودياً قال لصاحبه : تعال حتى نسأل هذا النبيّ ، فقال الآخر : لاتقل : إنه نبيٌّ ، فانه لو سمع ذلك ، صارت له أربعة أعين ؛ فأتَياه ، فسألاه عن تسع آيات بيِّنات ، فقال : « لاتشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ،

ولا تزنوا ، ولا تسرقوا ، ولا تأكلوا الرِّبا ، ولا تمشوا بالبريء إلى السلطان ليقتلَه ، ولا تَسْحَروا ، ولا تقذفوا المحصنات ، ولا تَفِرُّوا من الزَّحف ، وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تَعْدُوا في السبتِ » ، قال : فقبّلا يده ، وقالا : نشهد أنك نبيٌّ [١] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُوراً . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُوراً . فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾

قوله تعالى : (فاسْأَلْ بني إسرائيل) قرأ الجمهور : « فاسأل » على معنى الأمر لرسول الله ﷺ . وإنما أُمر أن يسأل من آمن منهم عما أخبر [به] عنهم ، ليكون حُجّة

---

(١) كذا ذكر المؤلف الحديث من رواية أبي داود السجستاني عن صفوان بن عسال ، ولم نره في « سنن أبي داود » عن صفوان ، بل هو في « مسند أحمد » ٤/٢٣٩ ، و « سنن الترمذي ٢/٩٨ ، والنسائي ، وابن ماجه رقم (٣٧٠٥) . ولفظه في الترمذي : فقبلوا يديه ورجليه ، وقالوا : نشهد أنك نبي ، قال : « فما منعكم أن تتبعوني ؟ » قالوا : إن داود عليه السلام دعا ربه أن لايزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود . وقال الترمذي في آخره : هذا حديث حسن صحيح . وقال ابن كثير في « تفسيره » ٣/٦٧ : وهو حديث مشكل ، وعبد الله بن سلمة - أحد الرواة - في حفظه شيء ، وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات ، فانها وصايا في التوراة لاتعلق لها بقيام الحجة على فرعون ، والله أعلم . اهـ . وأما الذي في « سنن أبي داود » فهو من حديث ابن عمر في قصة رقم (٢٦٤٧) : فدنونا - يعني من النبي ﷺ - فقبلنا يده ، وجاء مختصراً برقم (٥٢٢٣) ، وهو في « سنن أبي داود » أيضاً رقم (٥٢٢٥) من حديث زارع وكان في وفد عبد القيس قال : لما قدمنا المدينة ، فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد النبي ﷺ ورجله . . . الحديث .

على من لم يؤمن منهم . وقرأ ابن عباس : « فسَأَلَ بني إسرائيل »، [على معنى] الخبر عن موسى أنه سأل فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل . (فقال له فرعونُ إني لأظنك) أي : لأحسبك (ياموسى مسحوراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مخدوعاً ، قاله ابن عباس . والثاني : مسحوراً قد سُحِرْتَ ، قاله ابن السائب . والثالث : ساحراً ، فوضع مفعولاً في موضع فاعلٍ ، هذا مروي عن الفراء ، وأبي عبيدة . فقال موسى : (لقد علمتَ) قرأ الجمهور بفتح التاء . وقرأ علي عليه السلام بضمها ، وقال : والله ماعَلِم عدوُّ الله ، ولكنَّ موسى هو الذي عَلِم ، فبلغ ذلك ابنَ عباس ، فاحتج بقوله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) [النمل: ١٤] . واختار الكسائي وثعلب قراءة علي عليه السلام ، وقد رُويت عن ابن عباس ، وأبي رزين ، وسعيد بن جبير ، وابن يعمر . واحتج من نصرها بأنه لما نَسَبَ موسى إلى أنه مسحور ، أعلمه بصحة عقله بقوله : « لقد علمتُ » ، والقراءة الأولى أصح ، لاختيار الجمهور ، ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه ، فلم يردّ عليه إلا بالتعلل والمدافعة ، فكأنه قال : لقد علمتَ بالدليل والحجة « ما أنزل هؤلاء » يعني الآيات . وقد شرحنا معنى « البصائر » في (الأعراف : ٢٠٣) .

قوله تعالى : (وإني لأظنك) قال أكثر المفسرين : الظن هاهنا بمعنى العِلم ، على خلاف ظن فرعون في موسى ، وسوّى بينهما بعضهم ، فجعل الأول بمعنى العِلم أيضاً .

وفي المثبور ستة أقوال .

أحدها : أنه الملعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك . والثاني : المغلوب ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : الناقص العقل ، رواه

ميمون بن مهران عن ابن عباس . والرابع : المُهْلَك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال الزجاج : يقال : ثُبر الرجل ، فهو مثبور : إذا أُهلك . والخامس : الهالك ، قاله مجاهد . والسادس : الممنوع من الخير ؛ تقول العرب : ماثبرك عن هذا ، أي : مامنعك ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (فأراد أن يستفزَّهم من الأرض) يعني : فرعون أراد أن يستفزَّ بني إسرائيل من أرض مصر . وفي معنى « يستفزَّهم » قولان .

أحدها : يستأصلهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : يستخفّهم حتى يخرجوا ، قاله ابن قتيبة . وقال الزجاج : جائز أن يكون استفزازُهم إخراجَهم منها بالقتل أو بالتنحية . قال العلماء : وفي هذه الآية تنبيه على نصرة رسول الله ﷺ ، لأنه لما خرج موسى فطلبه فرعون ، هلك فرعون وملَك موسى ، وكذلك أظهر الله نبيَّه بعد خروجه من مكة حتى رجع إليها ظاهراً عليها .

قوله تعالى : (وقلنا من بعده) أي : من بعد هلاك فرعون (لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : فلسطين والأردنّ ، قاله ابن عباس . والثاني : أرضٌ وراء الصِّين ، قاله مقاتل . والثالث : أرض مصر والشام .

قوله تعالى : (فاذا جاء وعد الآخرة) يعني : القيامة (جئنا بكم لفيفاً) أي : جميعاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن قتيبة . وقال الفراء : لفيفاً ، أي : مِنْ هاهنا ومِن هاهنا . وقال الزجاج : اللفيف : الجماعات من قبائل شتى .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً . قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾

قوله تعالى : (وبالحق أنزلناه) الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى : أنزلنا القرآن بالأمر الثابت والدّين المستقيم ، فهو حقٌّ ، ونزوله حق ، وما تضمنه حق . وقال أبو سليمان الدمشقي : « وبالحق أنزلناه » أي : بالتوحيد ، « وبالحق نزل » يعني : بالوعد والوعيد ، والأمر والنهي .

قوله تعالى : (وقرآنا فرَقناه) قرأ علي عليه السلام ، وسعد بن أبي وقاص ، وأُبيّ بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة ، والأعرج ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : « فرّقناه » بالتشديد . وقرأ الجمهور بالتخفيف .

فأما قراءة التخفيف ، ففي معناها ثلاثة أقوال .

أحدها : بيّنّا حلاله وحرامه ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : فرقنا فيه بين الحق والباطل ، [قاله الحسن] .

والثالث : أحكمناه وفصّلناه ، كقوله تعالى : (فيها يُفرَق كلُّ أمرٍ حكيم) [الدخان : ٤] ، قاله الفراء . وأما المشددة ، فمعناها : أنه أُنزل متفرّقاً ، ولم ينزل جملة واحدة . وقد بيّنّا في أول كتابنا هذا مقدار المدة التي نزل فيها .

قوله تعالى : (لتقرأه على الناس على مُكْثٍ) قرأ أنس ، والشعبي ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو رجاء ، وأبان عن عاصم ، وابن محيصن : بفتح الميم ؛ والمعنى : على تُؤدة وترسُّل ليتدبَّروا معناه .

قوله تعالى : (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) هذا تهديد لكفار [أهل] مكة ، والهاء كناية عن القرآن . (إن الذين أوتوا العلم) وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم ناس من أهل الكتاب ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله ابن زيد .

والثالث : طلاب الدِّين ، كأبي ذر ، وسلمان ، وورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو ، قاله الواحدي .

وفي هاء الكناية في قوله : (من قبله) قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن ، والمعنى : من قبل نزوله .

والثاني : ترجع إلى رسول الله ﷺ ، قاله ابن زيد . فعلى الأول (إذا يتلى عليهم) القرآن . وعلى قول ابن زيد (إذا يتلى عليهم) ما أنزل إليهم من عند الله .

قوله تعالى : (يَخِرُّون للأذقان) اللام هاهنا بمعنى « على » . قال ابن عباس : قوله « للأذقان » أي : للوجوه . قال الزجاج : الذي يَخِرُّ وهو قائم ، إنما يَخِرُّ لوجهه ، والذَّقن : مُجتَمع اللَّحيَين ، وهو عضو من أعضاء الوجه ، فاذا ابتدأ يَخِرُّ ، فأقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض الذقن . وقال ابن الأنباري : أول ما يلقى الأرضَ من الذي يَخِرُّ قبل أن يصوِّب جبهته ذقنُه ، فلذلك قال:

« للأذقان » . ويجوز أن يكون المعنى: يَخِرُّون للوجوه ، فاكتفى بالذقن من الوجه كما يُكتفى بالبعض من الكُلِّ ، وبالنوع من الجنس .

قوله تعالى : (ويقولون سبحان ربّنا) نزّهوا الله تعالى عن تكذيب المكذّبين بالقرآن ، وقالوا : (إن كان وعد ربنا) بانزال القرآن وبعث محمد ﷺ (لمفعولاً) واللام دخلت للتوكيد . وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيّاً من العرب ، ومُنزِلٌ عليه كتاباً ، فلما عاينوا ذلك ، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد ، (ويَخِرُّون للأذقان) كرّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم . (ويزيدهم خشوعاً) أي : يزيدهم القرآن تواضعاً . وكان عبد الأعلى التيمي يقول : من أوتي من العلم ما لا يُبكيه ، لَخليق أن لا يكون أوتيَ علماً ينفعه ، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال : « إن الذين أوتوا العلم ... » إلى قوله : « يبكون » .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً . وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾

قوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ...) الآية . هذه الآية نزلت على سببين . [نزل] أولها إلى قوله : (الحسنى) على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ تهجّد ذات ليلة بمكة ، فجعل يقول في سجوده : « يا رحمن ، يا رحيم » ، فقال المشركون : كان محمدٌ يدعو إلهاً واحداً ، فهو الآن

يدعو إلهين اثنين : الله، والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون : مسيلمة ، فأنزل الله هذه الآية ، قاله ابن عباس [١] .

والثاني : أن رسول الله ﷺ كان يكتب في أول ما أوحي إليه : باسمك اللهم ، حتى نزل : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) [النمل : ٣٠] ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مشركو العرب : هذا الرحيم نعرفه ، فما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ميمون بن مهران .

والثالث : أن أهل الكتاب قالوا لرسول الله ﷺ : إنك لَتُقِلُّ ذِكْر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

فأما قوله : (ولا تجهر بصلاتك) فنزل على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بالقرآن بمكة ، فيسُبُّ المشركون القرآن ومَنْ أتى به ، فخفض رسول الله ﷺ صوته بعد ذلك حتى لم يسمع أصحابه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك » أي : بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن ، (ولا تخافت بها) عن أصحابك ، فلا يسمعون ، قاله ابن عباس [٢] .

والثاني : أن الأعرابيّ كان يجهر في التشهّد ويرفع صوته ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة .

والثالث : أن رسول الله ﷺ كان يصلّي بمكة عند الصفا ، فجهر بالقرآن في صلاة الغداة ، فقال أبو جهل : لاتفترِ على الله ، فخفض النبي ﷺ صوته ، فقال

(١) أخرجه ابن جرير الطبري : ١٥/١٨٢ عن مكحول أن النبي ﷺ كان يتهجد بمكة ... الخ ، وهو مرسل .

(٢) « الطبري » : ١٥/١٨٤ ، وأحمد في « المسند » : ١/٢١٥ ، والبخاري : ٨/٣٠٧ ، ومسلم .

أبو جهل للمشركين : ألا ترون مافعلت بابن أبي كبشة ؟! رددنه عن قراءته ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

فأما التفسير ، فقوله : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) المعنى : إن شئتم فقولوا : يا ألله ، وإن شئتم فقولوا : يارحمن ، فانهما يرجعان إلى واحد ، (أيّاً ماتدعوا) المعنى : أيّ أسماء الله تدعوا ؛ قال الفراء : و « ما » قد تكون صلة ، كقوله : (عما قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين) [المؤمنون : ٤٠] ، وتكون في معنى : « أيّ » معادَة لمّا اختلف لفظها .

قوله تعالى : (ولا تجهر بِصَلاتك) فيه قولان .

أحدها : أنها الصلاة الشرعية . ثم في المراد بالكلام ستة أقوال .

أحدها : لاتجهر بقراءتك ، ولا تخافت بها ، فكأنه نهي عن شدة الجهر بالقراءة ، وشدة المخافتة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان ذكرهما ابن الأنباري . أحدهما : أن يكون المعنى : فلا تجهر بقراءة صلاتك . والثاني : أن القراءة بعض الصلاة ، فنابت عنها ، كما قيل لعيسى : كلمة الله ، لأنه بالكلمة كان .

والثاني : لاتصلِّ مراءاة للناس ، ولا تَدَعْها مخافة الناس ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : لاتجهر بالتشهُّد في صلاتك ، روي عن عائشة في رواية ، وبه قال ابن سيرين .

والرابع : لاتجهر بفعل صلاتك ظاهراً ، ولا تخافت بها شديد الاستتار ، قاله عكرمة .

والخامس : لاتُحسِنْ علانيتها ، وتُسِيءْ سريرتها ، قاله الحسن .

والسادس : لاتجهر بصلاتك كلّها ، ولا تُخافت بجميعها ، فاجهر في صلاة الليل ، وخافِت في صلاة النهار ، على ما أمرناك به ، ذكره القاضي أبو يعلى .

والقول الثاني : أن المراد بالصلاة : الدعاء ، وهو قول عائشة ، وأبي هريرة، ومجاهد .

قوله تعالى : (ولا تخافت بها) المخافتة : الإخفاء ، يقال : صوت خفيت . (وابتغ بين ذلك سبيلاً) أي : اسلك بين الجهر والمخافتة طريقاً . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نُسخت هذه الآية بقوله : (واذكر ربَّك في نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول) [الأعراف : ٢٠٥] ، وقال ابن السائب : نُسخت بقوله : (فاصدع بما تؤمر) [الحجر : ٩٤] ؛ وعلى التحقيق ، وجود النسخ هاهنا بعيد .

قوله تعالى : (ولم يكن له شريك في المُلك) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وطلحة بن مصرِّف : « في المِلك » بكسر الميم . (ولم يكن له وليٌّ من الذُّلِّ) قال مجاهد : لم يحالف أحداً ، ولم يبتغ نصر أحد ؛ والمعنى : أنه لا يحتاج إلى موالاة أحد لذُلٍّ يلحقه ، فهو مستغنٍ عن الولي والنصير . (وكَبِّره تكبيراً) أي : عظِّمه تعظيماً تاماً .

★ ★ ★

سورة الكهف

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة (الكهف) مكية ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه ، إلا أنه قد روي عن ابن عباس ، وقتادة أن منها آية مدنية ، وهي قوله : (واصبر نفسك) [الكهف : ٢٨] . وقال مقاتل : من أولها إلى قوله تعالى : (صعيداً جرزاً) [الكهف : ٨] مدني ،وقوله تعالى:(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) [الكهف:١٠٧،١٠٨] الآيتان مدنية ، وباقيها مكي . وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من حفظ عشر آيات من أول (الكهف) ثم أدرك الدجال لم يضره ، ومن حفظ خواتيم سورة (الكهف) كانت له نوراً يوم القيامة »[1] .

---

(١) ذكره بهذا اللفظ السيوطي في « الدر » : ٢٠٩/٤ من رواية أبي عبيد ، وابن مردويه ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروى أحمد في « المسند » : ٤٤٩/٤ ، ومسلم في « صحيحه » ٥٥٥/١ ، وأبو داود في « سننه » رقم (٤٣٢٣) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف) عصم من الدجال » ، ورواه أحمد ٤٤٦/٤ عن أبي الدرداء بلفظ : « من قرأ عشر آيات من آخر الكهف ... » ورواه مسلم وأبو داود من حديث قتادة به ، ورواه الترمذي : ١١٢/٢ عن أبي الدرداء بلفظ : « من قرأ ثلاث آيات من أول (الكهف) عصم من فتنة الدجال » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

قوله تعالى : (الحمد لله) قد شرحناه في أول « الفاتحة » . والمراد بعبده هاهنا : محمد ﷺ ، وبالكتاب : القرآن ، تمدَّح بإنزاله ، لأنه إنعام على الرسول خاصة ، وعلى الناس عامَّة . قال العلماء باللغة والتفسير : في هذه الآية تقديم وتأخير ، تقديرها : أنزل على عبده الكتاب (قيِّماً) أي : مستقيماً عدلاً . وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر ، والنخعي ، والأعمش : « قِيَماً » بكسر القاف ، وفتح الياء ، وقد فسرناه في (الأنعام : ١٦١) .

قوله تعالى : (ولم يجعل له عوجا) أي : لم يجعل فيه اختلافا ، وقد سبق بيان العِوَج في (آل عمران : ٩٩) .

قوله تعالى : (لينذر بأساً شديداً) أي : عذاباً شديداً ، (من لدنه) أي : من عنده ، ومن قِبَلِه ، والمعنى : لينذر الكافرين (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم) أي : بأن لهم (أجراً حسناً) وهو الجنة . (ماكثين)

أي : مقيمين ، وهو منصوب على الحال . (وينذر) بعذاب الله (الذين قالوا اتخذ الله ولداً) وهم اليهود حين قالوا : عزيرٌ ابن الله ، والنصارى حين قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون حين قالوا : الملائكة بنات الله ، (ما لهم به) أي : بذلك القول (من علْم) لأنهم قالوا : افترَىٰ على الله ، (ولا لآبائهم) الذين قالوا ذلك ، (كَبُرَتْ) أي : عَظُمَتْ (كلمةً) الجمهور على النصب . وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو رزين ، وأبو رجاء ، ويحيى بن يعمر ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة : « كلمةٌ » بالرفع . قال الفراء : من نصب ، أضمر : كَبُرتْ تلك الكلمةُ كلمةً ، ومن رفع ، لم يضمر شيئاً ، كما تقول : عَظُم قولك . وقال الزجاج : من نصب ، فالمعنى : كبرت مقالتهم : اتخذ الله ولداً كلمة ، و « كلمةً » منصوب على التمييز . ومن رفع ، فالمعنى : عظمت كلمة هي قولهم : اتخذ الله ولداً .

قوله تعالى : (تخرج من أفواههم) أي : إنها قول بالفم لا صحة لها ، ولا دليل عليها ، (إن يقولون) أي : ما يقولون (إلا كذبا) . ثم عاتبه على حُزْنه لفوت ما كان يرجو من إسلامهم ، فقال : (فلعلك باخع نفسك) وقرأ سعيد ابن جبير ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : « باخعُ نفسِك » بكسر السين ، على الإضافة . قال المفسرون واللغويون : فلعلك مهلك نفسك ، وقاتل نفسك ، وأنشد أبو عبيدة لذي الرمّة :

ألا أيُّهَذَا الباخِعُ الوجْدُ نَفْسَهُ لِشَيْءٍ نَحتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقَادِرُ[1]

أي : نحّته .

(١) ديوانه طبع المكتب الاسلامي صفحة (٣٣٨) ، و « الطبري » : ١٥/١٩٤ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٩٣ ، و « القرطبي » : ١٠/٣٤٨ ، و « الصحاح » و « الراغب » و « الأساس » و « اللسان » و « التاج » : بخع ، و « فتح الباري » : ٨/٣٠٨ .

فان قيل : كيف قال : (فلعلك) والغالب عليها الشك ، والله عالم بالأشياء قبل كونها ؟

فالجواب : أنها ليست بشكّ ، إنما هي مقدَّرة تقدير الاستفهام الذي يعنى به التقرير ، فالمعنى : هل أنت قاتل نفسك ؟ ! لا ينبغي أن يطول أساك على إعراضهم ، فان من حكمْنا عليه بالشِقْوَةِ لا تجدي عليه الحسرة ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (على آثارهم) أي : من بعد تولّيهم عنك (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني : القرآن (أسفا) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حَزَناً ، قاله ابن عباس ، وابن قتيبة . والثاني : جزَعاً ، قاله مجاهد . والثالث : غَضَباً ، قاله قتادة . والرابع : نَدَماً ، قاله السدي . وقال أبو عبيدة : نَدَماً وتَلهُّفاً وأسىً . قال الزجاج : الأسف : المبالغة في الحزن ، أو الغضب ، يقال : قد أسف الرجل ، فهو أسيف ، قال الشاعر :

أرَى رَجُلاً مِنْهُمْ أسِيفاً كأنَّما يَضُمُّ إلى كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبا[1]

وهذه الآية يشير بها إلى نهي رسول الله ﷺ عن كثرة الحرص على إيمان قومه لئلا يؤدّي ذلك إلى هلاك نفسه بالأسف .

﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . وَإنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾

قوله تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الرجال ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : العلماء ،

---

(١) قائله الأعشى الكبير ميمون بن قيس ديوانه : ١١٥ ، و « اللسان » : أسف . والأسيف : الحزين والغضبان ومن لا يكاد يسمن ، لأن الحقد يأكله .

رواه مجاهد عن ابن عباس . فعلى هذين القولين تكون « ما » في موضع « مَنْ » لأنها في موضع إبهام ، قاله ابن الأنباري . والثالث : أنَّه ماعليها من شيء ، قاله مجاهد . والرابع : النبات والشجر ، قاله مقاتل . وقول مجاهد أعمّ ، يدخل فيه النبات ، والماء ، والمعادن ، وغير ذلك .

فان قيل : قد نرى بعض ماعلى الأرض سَمِجاً وليس بزينة .

فالجواب : أنا إن قلنا : إن المراد [به] شيء مخصوص ، فالمعنى : إنا جعلنا بعض ماعلى الأرض زينةً لها ، فخرج مخرج العموم ، ومعناه الخصوص . وإن قلنا : هم الرجال أو العلماء ، فلعبادتهم أو لدلالتهم على خالقهم . وإن قلنا : النبات والشجر ، فلأنه زينة لها تجري مجرى الكسوة والحلية . وإن قلنا : إنه عامّ في كل ماعليها ، فلكونه دالّاً على خالقه ، فكأنَّه زينة الأرض من هذه الجهة .

قوله تعالى : (لنبلوهم) أي : لنختبر الخلق ، والمعنى : لنعاملهم معاملة المبتلي . قال ابن الأنباري : من قال : إن « ما على الأرض » يعني به النبات ، قال : الهاء والميم ترجع إلى سكان الأرض المشاهدين للزينة ، ومن قال : « ماعلى الأرض » الرجال ، ردَّ الهاء والميم على « ما » لأنها بتأويل الجميع ، ومعنى الآية : لنبلوهم فنرى أيُّهم أحسن عملاً ، هذا ، أم هذا . قال الحسن : أيُّهم أزهد في الدنيا . وقد ذكرنا في هذه الآية أربعة أقوال في سورة (هود : ٧) . ثم أعلم الخلقَ أنه يفني جميع ذلك ، فقال تعالى : (وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً) قال الزجاج : الصعيد : الطريق الذي لانبات فيه . وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الصعيد : التراب ، ووجه الأرض . فأما الجُرُز ، فقال الفراء : أهل الحجاز يقولون : أرض جُرُزٌ ، وجَرْزٌ . وأسد تقول : جَرَز ، وجُرُز ، وتميم تقول : أرض جُرْز ، وجَرْز ، بالتخفيف ، وقال أبو عبيدة : الصعيد الجُرُز : الغليظ الذي لا يُنْبِتُ شيئاً . ويقال للسَّنَةِ

المُجْدِبة : جُرُز ، وسِنُون أجراز ، لجدوبتها ، وقلّة مطرها ، وأنشد :

قَدْ جَرَّفَتْهُنَّ السِّنُون الأَجْرَازْ (١)

وقال الزجاج : الجرز : الأرض التي لا ينبت فيها شيء ، كأنها تأكل النبت أكلاً .
وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : الجرز :[الأرض] التي لا يبقى بها نبات ، تحرق كل نبات يكون بها . وقال المفسرون : وهذا يكون يوم القيامة ، يجعل الله الأرض مستويةً لا نبات فيها ولا ماء .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾

قوله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرّقيم) نزلت على سبب قد ذكرناه عند قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) [الاسراء : ٨٥] . وقال ابن قتيبة : ومعنى « أم حسبت » : أحسبت . فأما « الكهف » فقال المفسرون : هو المغارة في الجبل ، إلا أنه واسع ، فاذا صغر ، فهو غار . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : الكهف بمنزلة الغار في الجبل .

فأما الرقيم ، ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنه لوح من رصاص كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة ليعلم من اطّلع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال

---

(١) « الطبري » : ١٥/١٩٧ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٩٤ ، و « اللسان » : جرز .

وهب بن منبّه ، وسعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد في رواية . وقال السدي : الرقيم : صخرة كُتب فيها أسماء الفتية ، وجُعلت في سُور المدينة . وقال مقاتل : الرقيم : كتاب كتبه رجلان صالحان ، وكانا يكتمان إيمانهما من الملك الذي فرَّ منه الفتية ، كتبا أمر الفتية في لوح من رصاص ، ثم جعلاه في تابوت من نحاس ، ثم جعلاه في البناء الذي سَدُّوا به باب الكهف ، فقالا : لعل الله أن يُطْلِعَ على هؤلاء الفتية أحداً ، فيعلمون أمرهم إذا قرؤوا الكتاب . وقال الفراء : كُتِب في اللوح أسماؤهم ، وأنسابهم ، ودينهم ، وممن كانوا . قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : الرقيم : الكتاب ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، ومنه : كتاب مرقوم ، أي : مكتوب . والثاني : أنه اسم القرية التي خرجوا منها ، قاله كعب . والثالث : اسم الجبل ، قاله الحسن ، وعطية . والرابع : أن الرقيم : الدواة ، بلسان الروم ، قاله عكرمة ومجاهد في رواية . والخامس : اسم الكلب ، قاله سعيد بن جبير . والسادس : اسم الوادي الذي فيه الكهف ، قاله قتادة ، والضحاك .

قوله تعالى : (كانوا من آياتنا عجباً) قال المفسرون : معنى الكلام : أحسبتَ أنهم كانوا أعجبَ آياتنا ؟! قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم ، فإن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم . وقال ابن عباس : الذي آتيتك من الكتاب والسنّة والعلم ، أفضل من شأنهم .

قوله تعالى : (إذ أوى الفتية) قال الزجاج : معنى : أوَوْا إليه : صاروا إليه ، وجعلوه مأواهم . والفتية : جمع فتى ، مثل غُلام وغِلمة ، وصبي وصبية . و « فِعلة » من أسماء الجمع ، وليس ببناء يقاس عليه ؛ لا يجوز غُراب وغِرْبة ، ولا غنيٌّ وغِنية . وقال بعض المفسرين : الفتية : بمعنى الشبان . وقد ذكرنا عن

القتيبي أن الفتى : بمعنى الكامل من الرجال ، وبيّنّاه في قوله تعالى : (من فتياتكم المؤمنات) [النساء : ٢٥] .

قوله تعالى : (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) أي : من عندك (رحمة) أي : رزقاً (وهيِّئْ لنا) أي : أصلح لنا (من أمرنا رشداً) أي : أرشدنا إلى ما يقرِّبنا منك . والمعنى : هيِّئْ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد . والرُّشد والرَّشد ، والرشاد : نقيض الضلال .

تلخيص قصة أصحاب الكهف

اختلف العلماء في بُدُوِّ أمرهم ، وسبب مصيرهم إلى الكهف ، على ثلاثة أقوال .

أحدها . أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم إلى عبادة الأصنام ، فمروا براعٍ له كلب ، فتبعهم على دينهم ، فأَوَوا إلى الكهف يتعبَّدون ، ورجل منهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة ، إلى أن جاءهم يوماً فأخبرهم أنهم قد ذُكِروا ، فبكوا وتعوَّذوا بالله من الفتنة ، فضرب الله تعالى على آذانهم ، وأمر الملك فسدَّ عليهم الكهف ، وهو يظنهم أيقاظاً ، وقد توفَّى الله أرواحهم وفاة النَّوم ، وكلبُهم قد غشيه ما غشيهم . ثم إن رجلين مؤمنَيْن يكتمان إيمانهما كتبا أسماءهم وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص ، وجعلاه في تابوت من نحاس في البنيان ، وقالا : لعل الله يُطْلع عليهم قوماً مؤمنين ، فيعلمون خبرهم ، هذا قول ابن عباس . وقال عبيد بن عمير : فَقَدهم قومهم فطلبوهم ، فعمَّى الله عليهم أمرهم ، فكتبوا أسماءهم وأنسابهم في لوح : فلان وفلان أبناء ملوكنا فَقَدْناهم في شهر كذا ، في سنة كذا ، في مملكة فلان ، ووضعوا اللوح في خزانة الملك ، وقالوا : ليَكُونَنَّ لهذا شأن .

والثاني : أن أحد الحواريّين جاء إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له : إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخلها ، فأتى حمّاماً قريباً من المدينة ، فكان يعمل فيه بالأجْر ، وعلقه فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم عن خبر السماء والأرض ، وخبر الآخرة ، فآمنوا به وصدّقوه ، حتى جاء ابن الملك يوماً بامرأة ، فدخل معها الحمّام ، فأنكر عليه الحواريُّ ذلك ، فسبَّه ودخل ، فمات وماتت المرأة في الحمام ، فأتى الملك ، فقيل له : إن صاحب الحمام قتل ابنك ، فالتُمِس فهرب ، فقال : من كان يصحبه ؟ فسُمّي له الفتيةُ ، فالتُمِسوا فخرجوا من المدينة ، فمروا على صاحب لهم في زرع ، وهو على مثل أمرهم ، فانطلق معهم ومعه كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوه فقالوا : نبيت هاهنا ، ثم نصبح إن شاء الله فترَون رأيكم ، فضرب الله على آذانهم فناموا ؛ وخرج الملك ، وأصحابه يتبعونهم ، فوجدوهم قد دخلوا الكهف ، فكلما أراد رجل أن يدخل [الكهف] أُرعب ، فقال قائل للملك : أليس قلتَ : إن قدرتُ عليهم قتلتُهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ، ففعل ، هذا قول وهب بن منبّه .

والثالث . أنهم كانوا أبناء عظماء المدينة وأشرافهم ، خرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد ، فقال رجل منهم ، هو أسنهم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده ، فقالوا : ما تجد ؟ قال : أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض ، فقاموا جميعاً فقالوا : ربُّنا ربُّ السموات والأرض ، فأجمعوا أن يدخلوا الكهف ، فدخلوا ، فلبثوا ما شاء الله ، هذا قول مجاهد . وقال قتادة : كانوا أبناء ملوك الروم ، فتفرّدوا بدينهم في الكهف ، فضرب الله على آذانهم .

﴿ فصل ﴾

فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم ، فقال عكرمة : جاءت أمّةٌ مسلمةٌ ، وكان ملكهم مسلماً ، فاختلفوا في الروح والجسد ، فقال قائل : يُبعث الروح والجسد . وقال قائل : يبعث الروح وحده ، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق اختلافهم على الملك ، فانطلق فلبس المسوح ، وقعد على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف . وقال وهب ابن منبه : جاء راعٍ قد أدركه المطر إلى الكهف ، فقال: لو فتحت هذا الكهف ، وأدخلته غنمي من المطر ، فلم يزل يعالجه حتى فتحه ، ورد الله إليهم أرواحهم حين أصبحوا من الغد . وقال ابن السائب : احتاج صاحب الأرض التي فيها الكهف أن يبني حظيرة لغنمه ، فهدم ذلك السدّ ، فبنى به ، فانفتح باب الكهف . وقال ابن إسحاق : ألقى الله في نفس رجل من أهل البلد أن يهدم ذلك البنيان فيبني به حظيرة لغنمه ، فاستأجر عاملين ينزعان تلك الحجارة ، فنزعاها ، وفتحا باب الكهف ، فجلسوا فرحين ، فسلّم بعضهم على بعض لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم شيئاً يكرهونه ، إنما هم على هيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم في طلبهم ، فصلّوا ، وقالوا ليمليخا صاحب نفقتهم : انطلق فاستمع ، ما نُذكَر به ، وابتغ لنا طعاماً ، فوضع ثيابه ، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها ، وخرج فرأى الحجارة قد نزعت عن باب الكهف ، فعجب ، ثم مرّ مستخفياً متخوّفاً أن يراه أحد فيذهب به إلى الملك ، فلما رأى باب المدينة رأى عليه علامة تكون لأهل الإيمان ، فعجب ، وخُيِّل إليه أنها ليست بالمدينة

التي يعرف ، ورأى ناساً لا يعرفهم ، فجعل يتعجب ويقول : لعلّي نائم ؛ فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى ، فقام مسنداً ظهره إلى جدار ، وقال في نفسه : والله ما أدري ما هذا ، عشية أمس لم يكن على [وجه] الأرض من يذكر عيسى إلا قُتل ، واليوم أسمعهم يذكرونه ، لعل هذه ليست المدينة التي أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا ، فقام كالحيران ، وأخرج وَرِقاً فأعطاه رجلاً وقال : بعني طعاماً ، فنظر الرجل إلى نقشه فعجب ، ثم ألقاه إلى آخر ، فجعلوا يتطارحونه بينهم ، ويتعجبون ، ويتشاورون ، وقالوا : إن هذا قد أصاب كنزاً ، فَفَرِق منهم ، وظنّهم قد عرفوه ، فقال : أمسكوا طعامكم فلا حاجة بي إليه ، فقالوا له : من أنت يافتى ؟ والله لقد وجدتَ كنزاً وأنت تريد أن تخفيه ، شاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فيقتلك ، فلم يدر مايقول ، فطرحوا كساءه في عنقه وهو يبكي ويقول : فُرِّق بيني وبين إخوتي ، ياليتهم يعلمون مالقيتُ ، فأتوا به إلى رجلين كانا يدبّران أمر المدينة ، فقالا : أين الكنز الذي وجدتَ ؟ قال : ماوجدتُ كنزاً ، ولكن هذه وَرِق آبائي ، ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ماشأني ، ولا ما أقول لكم ، قال مجاهد : وكان وَرِق أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل ، فقالوا : من أنت ، وما اسم أبيك ؟ فأخبرهم ، فلم يجدوا من يعرفه ، فقال له أحدهما : أتظن أنك تسخر منّا وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟! إني سآمر بك فتعذّب عذاباً شديداً ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز ، فقال يمليخا : أنبؤني عن شيء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدَقتكم ، قالوا : سل ، قال : مافعل الملك دقيانوس ؟ قالوا : لانعرف اليوم على وجه الأرض مَلِكاً يسمى دقيانوس ، وإنما هذا ملك كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة ، فقال : والله مايصدِّقني أحد بما أقوله ، لقد كُنّا

فتيةً ، وأكرهنا الملكُ على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية أمسِ فنمنا ، فلما انتبهنا خرجتُ أشتري لأصحابي طعاماً ، فاذا أنا كما ترون ، فانطلِقوا معي إلى الكهف أُريكم أصحابي ، فانطلقوا معه وسائر أهل المدينة ، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أُخذ ، فبينما هم يتخوّفون ذلك ، إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل ، فظنوا أنهم رُسُل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة ، وسلَّم بعضهم على بعض ، فسبق يمليخا إليهم وهو يبكي ، فبكَوا معه ، وسألوه عن شأنه ، فأخبرهم خبره ، وقصّ عليهم النبأَ كلَّه ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى ، وأنما أوقظوا ليكونوا آية للناس ، وتصديقاً للبعث ؛ ونظر الناس في المسطور الذي فيه أسماؤهم وقصتهم ، فعجبوا ، وأرسلوا إلى ملكهم ، فجاء ، واعتنق القومَ ، وبكى ، فقالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام ، حفظك الله ، وحفظ ملكك ، فبينا الملك قائم ، رجعوا إلى مضاجعهم ، وتوفّى الله عزّ وجلّ أنفسهم ، فأمر الملك أن يُجعل لكل واحد منهم تابوت من ذهب ، فلما أمسَوْا رآهم في المنام ، فقالوا : إنا لم نُخلَق من ذهب وفضة ، ولكن خُلقنا من تراب ، فاتركنا كما كُنّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عز وجل منه ، وحجبهم الله عز وجل حين خرجوا من عندهم بالرُّعْب ، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم ، وأمر المَلِك فجُعِل على باب الكهف مسجدٌ يصلّى فيه ، وجعل لهم عيداً عظيماً يؤتَى كلّ سنة . وقيل : إنه لما جاء يمليخا ومعه الناس ، قال : دعوني أدخل إلى أصحابي فأبشِّرهم ، فانهم إن رأوْكم معي أرعبتموهم ، فدخل فبشّرهم ، وقبض الله روحه وأرواحهم ، فدخل الناس ، فاذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً ، غير أنها لا أرواح فيها ، فقال الملك : هذه آيةٌ بعثها الله لكم .

قوله تعالى : (فضربنا على آذانهم) قال الزجاج : المعنى : أنمناهم ومنعناهم السمع ، لأن النائم إذا سمع انتبه . و (عدداً) منصوب على ضربين .

أحدهما : على المصدر ، المعنى : نُعَدُّ عدداً .

والثاني : أن يكون نعتاً للسنين ، المعنى : سنين ذات عدد ، والفائدة في ذِكْر العدد في الشيء المعدود ، توكيد كثرة الشيء ، لأنه إذا قلَّ فُهِم مقداره ، وإذا كَثُر احتيج إلى أن يُعَدَّ العدد الكثير . (ثم بعثناهم) من نومهم ، يقال لكلِّ مَنْ خرج من الموت إلى الحياة ، أو من النوم إلى الانتباه : مبعوث ، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسه عن التصرّف والانبعاث . وقيل : معنى (سنين عدداً) : أنه لم يكن فيها شهور ولا أيام ، إنما هي كاملة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (لنعلم أيُّ الحزبين) قال المفسرون : أي : لنرى . وقال بعضهم : المعنى : لتعلموا أنتم . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والنخعي : « ليُعلَم » بضم الياء ، على ما لم يُسمَّ فاعله « أيُّ الحزبين » ، ويعني بالحزبين : المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف . (أحصى لما لبثوا) أي : لنعلم أهؤلاء أحصى للأمد أو هؤلاء ، فكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم ، فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهر . قال قتادة : لم يكن للفريقين عِلم بلبثهم ، لا لمؤمنيهم ، ولا لكافريهم . قال مقاتل : لما بُعثوا زال الشك وعُرفت حقيقة اللبث . وقال القاضي أبو يعلى : معنى الكلام : بعثناهم ليظهر المعلوم في اختلاف الحزبين في مدة لبثهم ، لما في ذلك من العبرة .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا

شَطَطاً . هٰؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾

قوله تعالى : (نحن نقصُّ عليك نبأهم) أي : خبر الفتية (بالحق) أي : بالصدق .

قوله تعالى : (وزدناهم هدى) أي : ثبَّتناهم على الإيمان ، (وربطنا على قلوبهم) أي : ألهمناها الصبر (إذ قاموا) بين يدي ملكهم دقيانوس (فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض) وذلك أنه كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، فعصم الله هؤلاء حتى عصَوْا ملِكهم . وقال الحسن : قاموا في قومهم فدعوْهم إلى التوحيد . وقيل : هذا قولهم بينهم لما اجتمعوا خارج المدينة على ما ذكرنا في أول القصة . فأما الشطط ، فهو الجَوْر . قال الزجاج : يقال : شَطَّ الرجل ، وأشَطَّ : إذا جار . ثم قال الفتية : (هؤلاء قومُنا) يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس (اتخذوا من دونه آلهة) أي : عبدوا الأصنام (لولا) أي : هلاَّ (يأتون عليهم) أي : على عبادة الأصنام (بسُلطان بيّن) أي : بِحُجَّةٍ . وإنما قال : « عليهم » والأصنام مؤنَّثة ، لأن الكفار نحلوها العقل والتمييز ، فجرت مجرى المذكَّرين من الناس .

قوله تعالى : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فزعم أن له شريكاً ؟! .

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ

منْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾

قوله تعالى : (وإذ اعتزلتموهم) قال ابن عباس : هذا [قول] يمليخا، وهو رئيس أصحاب الكهف ، قال لهم : وإذ اعتزلتموهم ، أي : فارقتموهم ، يريد : عبدة الأصنام ، (وما يعبدون إلا الله) فيه قولان .

أحدهما : واعتزلتم ما يعبدون إلا الله ، فان القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة ، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة ، ولم يعتزلوا عبادة الله ، هذا قول عطاء الخراساني ، والفراء .

والثاني : وما يعبدون غير الله ؛ قال قتادة : هي في مصحف عبد الله : « وما يعبدون من دون الله » ، وهذا تفسيرها .

قوله تعالى : (فأووا إلى الكهف) أي : اجعلوه مأواكم ، (ينشرْ لكم ربكم من رحمته) أي : يبسطْ عليكم من رزقه ،(ويهيئْ لكم من أمركم مرفقا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « مِرفَقا » بكسر الميم ، وفتح الفاء . وقرأ نافع ، وابن عامر : « مَرفِقا » بفتح الميم ، وكسر الفاء . قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : « مَرفِقاً » بفتح الميم وكسر الفاء ، في كل مرفق ارتفقت به ، ويكسرون مِرفق الإنسان ، والعرب قد يكسرون الميم منهما جميعاً . قال ابن الأنباري : معنى الآية : ويهيّئ لكم بَدَلاً من أمركم الصّعب مرفقاً ، قال الشاعر :

فليتَ لنا من ماءِ زمزمَ شَربَةً مُبرَّدةً باتت على طَهَيانِ (١)

(١) البيت للأحول الكندي في « اللسان » و « التاج » : طها ، و « البحر » : ٦/١٠٧ ، و « روح المعاني » : ١٥/٢٠٤ .

معناه : فليت لنا بدلاً من ماء زمزم . قال ابن عباس : « ويهيّئ لكم » : يسهِّلْ عليكم ما تخافون من الملِك وظلمه ويأتِكم باليُسر والرِّفق، واللُّطف .

قوله تعالى : (وترى الشمس إذا طلعت) المعنى : لو رأيتَها لرأيتَ ما وصفنا . (تزاور) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « تَزَّاوَرُ » بتشديد الزاي . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « تَزَاور » خفيفة . وقرأ ابن عامر : « تَزْوَرُّ » مثل : « تَحْمَرُّ » . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، والجحدري : « تَزْوَارُّ » باسكان الزاي ، وبألف ممدودة بعد الواو من غير همزة ، مشددة الراء . وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل ، وابن السميفع : « تَزْوَئِرُّ » بهمزة قبل الراء ، مثل : « تَزْوَعِرُّ » . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو السماك : « تَزَوَّرُ » بفتح التاء والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء ، مثل : « تَكَوَّرُ » ، أي : تميل وتعدل . قال الزجاج : أصل « تزاور » : تتزاور ، فأدغمت التاء في الزاي ، و (تقرضهم) أي : تعدل عنهم وتتركهم ، وقال ذو الرمة :

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أجْوَازَ مُشْرِفٍ ... شِمالاً وعَنْ أيْمانِهِنَّ الفَوَارِسُ [1]

يقرضن : يتركن . وأصل القرض : القطع والتفرقة بين الأشياء ، ومنه قولك : أقرِضني درهماً ، أي : اقطع لي من مالك درهماً . قال المفسرون : كان كهفهم بازاء بنات نعش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً لاتدخل عليهم فتؤذيهم بحرِّها وتغير ألوانهم . ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ، ونسيم الهواء ، فقال : (وهم في فجوة منه) قال أبو عبيدة : أي : [في] مُتَّسَع ، والجميع : فَجَوات ، وفِجاء ، بكسر الفاء . وقال الزجاج : إنما

---

(١) ديوانه طبع المكتب الاسلامي : ٤٠٣ ، و « مجاز القرآن » : ٣٩٦/١ ، و « الطبري » : ٢١١/١٥ . ومشرف والفوارس : موضعان بنجد كما في « معجم ما استعجم » .

صَرْفُ الشمس عنهم آيةٌ من الآيات ، ولم يرض قول من قال : كان كهفهم بازاء بنات نعش .

قوله تعالى : (ذلك من آيات الله) يشير إلى ماصنعه بهم من اللطف في هدايتهم ، وصرف أذى الشمس عنهم ، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم . « من آيات الله » أي : من دلائله على قدرته ولطفه . (من يهد اللهُ فهو المهتد) هذا بيان أنه هو الذي تولـّى هداية القوم ، ولولا ذلك لم يهتدوا .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾

قوله تعالى : (وتَحسَبُهم أيقاظاً) أي : لو رأيتهم لحسبتهم أيقاظاً . قال الزجاج : الأيقاظ : المنتبهون ، واحدهم : يَقِظ ، ويَقْظان ، والجميع : أيقاظ ؛ والرقود : النيام . قال الفراء : واحد الأيقاظ : يقُظ ، ويَقِظ . قال ابن السائب : وإنما يُحسَبون أيقاظاً ، لأن أعينهم مفتَّحة وهم نيام . وقيل : لتقلـّبهم يميناً وشمالاً . وذكر بعض أهل العلم : أن وجه الحكمة في فتح أعينهم ، أنه لو دام طَبْقها لذابت .

قوله تعالى : (ونُقلـّبهم) وقرأ أبو رجاء : « وتَقْلِبُهم » بتاء مفتوحة ، وسكون القاف ، وتخفيف اللام المكسورة . وقرأ أبو الجوزاء ، وعكرمة : « ونَقْلِبُهم » مثلها ، إلا أنه بالنون . (ذاتَ اليمين) أي : على أيمانهم وعلى شمائلهم . قال ابن عباس : كانوا يُقلـّبون في كل عام مرتين ، ستة أشهر على هذا الجنب ، وستة أشهر على هذا الجنب ، لئلا تأكل الأرض لحومهم . وقال مجاهد : كانوا ثلاثمائة عام على شِقّ واحد ، ثم قُلـّبوا تسع سنين .

قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم ، وهو في رأي العين منتبه . وفي الوصيد أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفِناء فِناء الكهف ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والفراء . قال الفراء : يقال : الوَصِيد والأَصِيد لغتان ، مثل الإكفاف والوِكاف . وأرَّخت الكتاب وورَّخت ، ووكدت الأمر وأكَّدت ؛ وأهل الحجاز يقولون : الوَصيد ، وأهل نجد يقولون : الأَصِيد ، وهو : الحظيرة والفِناء .

والثاني : أنه الباب ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي . وقال ابن قتيبة : فيكون المعنى : وكلبهم باسط ذراعيه بالباب ، قال الشاعر :

بِأَرْضِ فَضَاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها عليَّ ومَعْرُوفي بها غيرُ مُنْكَرِ [1]

والثالث : أنه الصعيد، وهو التراب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد في رواية عنهما .

والرابع : أنه عتبة الباب ، قاله عطاء . قال ابن قتيبة : وهذا أعجب إليَّ ، لأنهم يقولون : أوصِد بابك ، أي : أغلِقه ، ومنه قوله : (إنها عليهم مؤصَدة) [الهُمَزة : ٨] ، أي : مُطْبَقة مُغْلَقة ، وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته ، ومما يوضح هذا أنك إذا جعلت الكلب بالفِناء ، كان خارجاً من الكهف ، وإن جعلته بعتبة الباب ، أمكن أن يكون داخل الكهف ، والكهفُ وإن لم يكن له باب وعتبة ، فإنما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت ، فاستُعير .

قوله تعالى : (لو اطَّلعتَ عليهم) [وقرأ الأعمش ، وأبو حصين : « لوُ اطلعت »

(١) البيت لعبيد بن وهب العبسي ، وهو في « غريب القرآن » : ٢٦٥ ، و « البحر المحيط » : ٩٣/٦ ، و « القرطبي » : ٣٥١/١٠ ، ٣٧٣ .

بضم الواو] (لولَّيتَ منهم فراراً) رهبة لهم (ولملئت) قرأ عاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « ولَمُلِئتَ » خفيفة مهموزة . وقرأ ابن كثير ، ونافع : « ولَمُلِّئتَ » مشددة مهموزة ، (رُعْباً) [أي] : فزعاً وخوفاً ، وذلك أن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يدخل إليهم أحد . وقيل : إنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً ، فلذلك كان الرائي لهم لو رآهم هرب مرعوباً ، حكاه الزجاج .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً . إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾

قوله تعالى : (وكذلك بعثناهم) أي : وكما فعلنا بهم ما ذكرنا ، بعثناهم من تلك النومة (ليتساءلوا) أي : ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة لبثهم ، فيفيد تساؤلهم اعتبار المعتبرين بحالهم . (قال قائل منهم كم لبثتم) أي : كم مرَّ علينا منذ دخلنا هذا الكهف ؟ (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) وذلك أنهم دخلوا غُدوةً ، وبعثهم الله في آخر النهار ، فلذلك قالوا : « يوماً » ، فلما رأوا الشمس قالوا : « أو بعض يوم » (قالوا ربُّكم أعلم بما لبثتم) قال ابن عباس : القائل لهذا يمليخا رئيسهم ، ردَّ عِلْم ذلك إلى الله تعالى . وقال في رواية أخرى : إنما قاله مكسلمينا ، وهو أكبرهم . قال أبو سليمان : وهذا يوجب أن تكون نفوسهم قد حدَّثتهم أنهم قد لبثوا أكثر مما ذكروا . وقيل : إنما قالوا ذلك ، لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جداً .

قوله تعالى : (فابعثوا أحدكم) قال ابن الأنباري : إنما قال : « أحدكم » ،

ولم يقل : واحدكم ، لئلا يلتبس البعض بالممدوح المعظَّم ، فان العرب تقول : رأيت أحد القوم ، ولا يقولون : رأيت واحد القوم ، إلا إذا أرادوا المعظَّم ، فأراد بأحدهم : بعضَهم ، ولم يُرِد شريفهم .

قوله تعالى : (بِوَرِقِكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « بِوَرِقِكُم » الراء مكسورة خفيفة . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم ساكنة الراء . وعن أبي عمرو : « بورقكم » مدغمة يُشمِمُها شيئاً من التثقيل ؛ قال الزجاج : تصير كافاً خالصة . قال الفراء : الوَرِق لغة أهل الحجاز ، وتميم يقولون : الوَرْق ، وبعض العرب يكسرون الواو ، فيقولون : الوِرْق . قال ابن قتيبة . الوَرِق : الفضة ، دراهم كانت أو غير دراهم ، يدلك على ذلك حديث عَرْفَجَة أنه اتخذ أنفاً من وَرِق[1] .

قوله تعالى : (إلى المدينة) يعنون التي خرجوا منها ، واسمها دقسوس ، ويقال : هي اليوم طرسوس .

قوله تعالى : (فلينْظُر أيُّها) قال الزجاج : المعنى : أيُّ أهلها (أزكى طعاماً) وللمفسرين في معناه ستة أقوال .

أحدها : أحَلُّ ذبيحة ؛ قاله ابن عباس ، وعطاء ، وذلك أن عامة أهل بلدهم كانوا كفاراً ، فكانوا يذبحون للطواغيت ، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم . والثاني : أحَلُّ طعاماً ، قاله سعيد بن جبير ؛ قال الضحاك : وكانت أكثر أموالهم غصوباً . وقال مجاهد : قالوا لصاحبهم : لا تبتعْ طعاماً فيه ظلم ولا غصب . والثالث : أكثر ، قاله عكرمة . والرابع : خير ، أي : أجود ، قاله قتادة .

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٢٣٢) ، والنسائي : ٨/١٦٣ ، والترمذي في « جامعه » : ١/٢٠٩ عن عرفجة بن سعد قال : أصيب أنفي يوم الكُلاب في الجاهلية ، فاتخذت أنفاً من وَرِق ، فأنتن عليَّ ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أتخذ أنفاً من ذهب ، قال الترمذي : هذا حديث حسن ، وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنهم شدّوا أسنانهم بالذهب ، وفي هذا الحديث حجة لهم . اهـ .

والخامس : أطيب ، قاله ابن السائب ، ومقاتل ، والسادس : أرخص ، قاله يمان بن رياب . قال ابن قتيبة : وأصل الزكاء : النماء والزيادة .

قوله تعالى : (فليأتكم برزق منه) أي : بما تأكلونه . (ولْيتلطف) أي : ليدقق النظر فيه ، وليحتلْ لئلا يُطَّلَع عليه . (ولا يُشْعِرَنَّ بِكُم) أي : ولا يُخبِرَنَّ أحداً بمكانكم . (إنهم إن يظهروا) أي : يطَّلعوا ويُشرفوا عليكم ،(يرجموكم) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يقتلوكم ، قاله ابن عباس . وقال الزجاج : يقتلوكم بالرجم . والثاني : يرجموكم بأيديهم ، استنكاراً لكم ، قاله الحسن . والثالث : بألسنتهم شتماً لكم ، قاله مجاهد ، وابن جريج .

قوله تعالى : (أو يُعيدوكم في مِلَّتهم) أي : يردُّوكم في دينهم ،(ولن تُفلحوا إذاً أبداً) أي : إن رجعتم في دينهم ، لم تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾

قوله تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم) أي : وكما أنمناهم وبعثناهم ، أطلعنا وأظهرنا عليهم . قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن من عَثَر بشيء وهو غافل ، نظر إليه حتى يعرفه ، فاستعير العِثار مكان التبين والظهور ، ومنه قول الناس : ما عثرت على فلان بسوء قط ، أي : ما ظهرت على ذلك منه .

قوله تعالى : (ليعلموا) في المشار إليهم بهذا العلم قولان .

أحدهما : أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث ، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا (أن وعد الله) بالبعث والجزاء (حَقٌّ) وأن القيامة لا شك فيها ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنهم أهل الكهف ، بعثناهم ليرَوْا بعد علمهم أن وعد الله حق ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (إذ يتنازعون) يعني : أهل ذلك الزمان . قال ابن الأنباري : المعنى : إذ كانوا يتنازعون ، ويجوز أن يكون المعنى : إذ تنازعوا .

وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم تنازعوا في البنيان ، والمسجد . فقال المسلمون : نبني عليهم مسجداً ، لأنهم على ديننا ؛ وقال المشركون : نبني عليهم بنياناً ، لأنهم من أهل سُنَّتنا ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم تنازعوا في البعث ، فقال المسلمون : تُبعث الأجساد والأرواح ، وقال بعضهم : تُبعث الأرواح دون الأجساد ، فأراهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف ، قاله عكرمة . والثالث : أنهم تنازعوا مايصنعون بالفتية ، قاله مقاتل . والرابع : أنهم تنازعوا في قدْر مكثهم . والخامس : تنازعوا في عددهم ، ذكرهما الثعلبي .

قوله تعالى : (ابنوا عليهم بنياناً) أي : استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان . وفي القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنهم مشركو ذلك الزمان ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (قال الذين غَلَبوا على أمرهم) قال ابن قتيبة : يعني المُطاعين

والرؤساء ، قال المفسرون : وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً .
قال سعيد بن جبير : بنى عليهم الملك بيعة .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً . وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً ﴾

قوله تعالى : (سيقولون ثلاثةٌ) قال الزجاج : « ثلاثة » مرفوع بخبر الابتداء ، المعنى : سيقول الذين تنازعوا في أمرهم [هم] ثلاثةٌ . وفي هؤلاء القائلين قولان .

أحدهما : أنهم نصارى نجران ، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدَّة أهل الكهف ، فقالت الملكيَّة : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (رجماً بالغيب) أي : ظناً غير يقين ، قال زهير :

وَمَا الحَرْبُ إِلَّا ما علِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بالحَدِيثِ المُرَجَّمِ[1]

فأما دخول الواو في قوله : (وثامنهم كلبهم) ولم تدخل فيما قبل هذا ، ففيه أربعة أقوال .

(١) ديوانه : ١٨ ، و « الطبري » : ١٥/٢٢٦ ، و « القرطبي » : ١٠/٣٨٣ ، و « اللسان » : رجم .

أحدها : أن دخولها وخروجها واحد ، قاله الزجاج .

والثاني : أن ظهور الواو في الجملة الثامنة[1] دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين ، فأعلم بذكرها هاهنا أنها مرادة فيما قبل ، وإنما حذفت تخفيفاً، ذكره أبو نصر في شرح « اللمع » .

والثالث : أن دخولها يدل على انقطاع القصة ، وأن الكلام قد تمّ ، ذكره الزجاج أيضاً ، وهو قول مقاتل بن سليمان ، فان الواو تدل على تمام الكلام قبلها ، واستئناف مابعدها ؛ قال الثعلبي : فهذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم ، فتم الكلام عند قوله : (ويقولون سبعة) ، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم . وجاء في بعض التفسير أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى : هم سبعة ، فحقّق الله قول المسلمين .

والرابع : أن العرب تعطف بالواو على السبعة ، فيقولون : ستة ، سبعة ، وثمانية ، لأن العقد عندهم سبعة ، كقوله : (التائبون العابدون ...) إلى أن قال في الصفة الثامنة : (والناهون عن المنكر) [التوبة : ١١٢] ، وقوله في صفة الجنة : (وفتحت أبوابها) وفي صفة النار : (فتحت أبوابها) [الزمر : ٧١ - ٧٣] ، لأن أبواب النار سبعة ، وأبواب الجنة ثمانية ، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي .

وقد اختلف العلماء في عددهم على قولين .

أحدها : أنهم كانوا سبعة ، قاله ابن عباس .

والثاني : ثمانية ، قاله ابن جريج ، وابن إسحاق . وقال ابن الأنباري : وقيل: معنى قوله : (وثامنهم كلبهم) : صاحب كلبهم ، كما يقال : السخاء حاتم ، والشِعر زهير ، أي : السخاء سخاء حاتم ، والشِعر شِعر زهير . وأما أسماؤهم ، فقال هُشَيْم :

(١) أي في قوله تعالى : (وثامنهم كلبهم) .

مكسلمينا ، ويمليخا ، وطَرينوس ، وسَدينوس ، وسَرينوس ، ونَواسس ، ويرانوس ، وفي التفسير خلاف في أسمائهم فلم أُطل به .

واختلفوا في كلبهم لمن كان على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان لراع مَرّوا به فتبعهم الراعي والكلب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان لهم يتصيدون عليه ، قاله عبيد بن عمير .

والثالث : أنهم مَرّوا بكلب فتبعهم ، فطردوه ، فعاد ، ففعلوا ذلك به مراراً ، فقال لهم الكلب : ما تريدون مني ؟ ! لاتخشوا جانبي أنا أُحِبُ أحِبّاءَ الله ، فناموا حتى أحرسكم ، قاله كعب الأحبار .

وفي اسم كلبهم أربعة أقوال .

أحدها : قطمير ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : اسمه الرقيم ، وقد ذكرناه عن سعيد بن جبير . والثالث : قطمور ، قاله عبد الله بن كثير . والرابع : حُمران ، قاله شعيب الجبائي . وفي صفته ثلاثة أقوال .

أحدها : أحمر ، حكاه الثوري . والثاني : أصفر ، حكاه ابن إسحاق . والثالث : أحمر الرأس ، أسود الظهر ، أبيض البطن ، أبلق الذنب ، ذكره ابن السائب .

قوله تعالى (ربّيَ أعلمُ بعدّتهم) حرك الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأسكنها الباقون .

قوله تعالى : (ما يعلمهم إلا قليل) أي : ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس . قال عطاء : يعني بالقليل : أهل الكتاب . قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، هم سبعة ، إن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة .

قوله تعالى : (فلا تُمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً) قال ابن عباس ، وقتادة :

لا تُمارِ أحداً ، حسبك ما قصصتُ عليكَ من أمرهم . وقال ابن زيد : لا تُمارِ في عِدَّتهم إلا مراءً ظاهراً أن تقول لهم : ليس كما تقولون ، ليس كما تعلمون . وقيل : « إلا مراءً ظاهراً » بحجة واضحة ، حكاه الماوردي . والمراء في اللغة : الجدال ؛ يقال : مارى يُماري مُماراة ومِراءً ، أي : جادَل . قال ابن الأنباري : معنى الآية : لا تجادل إلا جدال متيقِّنٍ عالِم بحقيقة الخبر ، إذ الله تعالى ألقى إليك مالا يشوبه باطل . وتفسير المراء في اللغة : استخراج غضب المجادل ، من قولهم : مَرَيْتُ الشاة : إذا استخرجت لبنها .

قوله تعالى : (ولا تستفت فيهم) أي : في أصحاب الكهف ، (منهم) قال ابن عباس : يعني : من أهل الكتاب . قال الفراء : أتاه فريقان من النصارى ، نسطوري ، ويعقوبي ، فسألهم النبي ﷺ عن عددهم ، فنُهي عن ذلك .

قوله تعالى : (ولا تقولَنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين ، وعن الرُّوح ، وعن أصحاب الكهف ، فقال : غداً أخبركم بذلك ، ولم يقل : إن شاء الله ، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء ، فشقّ ذلك عليه ، ثم نزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الكلام : ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن تقول : إن شاء الله ، فحذف القول .

قوله تعالى : (واذكر ربَّكَ إذا نسيتَ) قال ابن الأنباري : معناه : واذكر ربَّكَ بعد تقضِّي النسيان ، كما تقول : اذكر لعبد الله ـ إذا صلّى ـ حاجتك ، أي : بعد انقضاء الصلاة .

وللمفسرين في معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : إذا نسيتَ الاستثناء ثم ذكرتَ ، فقل : إن شاء الله ، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة ، قاله سعيد بن جبير ، والجمهور .

والثاني : أن معنى « إذا نسيتَ » : إذا غضبتَ ، قاله عكرمة ، قال ابن الأنباري : وليس ببعيد ، لأن الغضب يُنتج النسيان .

والثالث : إذا نسيتَ الشيء فاذكر الله ليذكِّرك إياه ، حكاه الماوردي .

فصل

وفائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه ، كقوله في قصة موسى : (ستجدني إن شاء الله صابراً) [الكهف : ٧٠] ، ولم يصبر ، فسَلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه . ولا تختلف الرواية عن أحمد أنه لا يصح الاستثناء في الطلاق والعتاق ، وأنه إذا قال : أنتِ طالق إن شاء الله ، وأنتَ حُرٌّ إن شاء الله ، أن ذلك يقع ، وهو قول مالك ؛ وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يقع شيء من ذلك . وأما اليمين بالله تعالى ؛ فان الاستثناء فيها يصح ، بخلاف الطلاق ، وكذلك الاستثناء في كل ما يكفِّر ، كالظهار ، والنذر ، لأن الطلاق والعتاق لفظه لفظ إيقاع ، وإذا علّق به المشيئة ، علمنا وجودها ، لوجود لفظ الإيقاع من جهته ، بخلاف سائر الأيمان ؛ لأنها ليست بموجبات للحكم ، وإنما تتعلق بأفعال مستقبلة .

وقد اختُلف في الوقت الذي يصح فيه الاستثناء على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لا يصح الاستثناء إلا موصولاً بالكلام ، وقد روي عن أحمد نحو هذا ، وبه قال أكثر الفقهاء .

والثاني : أنه يصح ما دام في المجلس ، قاله الحسن وطاووس ، وعن أحمد نحوه .

والثالث : أنه لو استثنى بعد سنة ، جاز ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وأبو العالية . وقال ابن جرير الطبري : الصواب للانسان أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينه ، فيقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك مما ألزمه اللهُ في هذه الآية ، فيسقط عنه الحرج ، فأما الكفّارة فلا تسقط عنه بحال ، إلا أن يكون الاستثناء موصولاً بيمينه ، ومن قال : له ثُنياه ولو بعد سنة ، أراد سقوطَ الحرج الذي يلزمه بترك الاستثناء دون الكفّارة .

قوله تعالى : (وقل عسى أن يهدِيَني ربّي) قرأ نافع ، وأبو عمرو : « يهديَني ربّي » بياء في الوصل [دون] الوقف . وقرأ ابن كثير بياء في الحالين . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بغير ياء في الحالين .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : عسى أن يعطيني ربّي من الآيات والدلالات على النبوّة مايكون أقرب في الرّشد وأدلّ من قصّة أصحاب الكهف ، ففعل الله له ذلك ، وآتاه من علم غيوب المرسَلين ماهو أوضح في الحُجّة وأقرب إلى الرّشد من خبر أصحاب الكهف ، هذا قول الزجاج .

والثاني : أن قريشاً لما سألت رسول الله ﷺ أن يخبرهم خبر أصحاب الكهف ، قال : « غداً أُخبركم » كما شرحنا في سبب نزول الآية [1] ، فقال الله تعالى له : (وقل عسى أن يهديني ربي) أي : عسى أن يعرِّفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حدّدتُه لكم ، ويعجّل لي من جهته الرشاد ، هذا قول ابن الأنباري .

(١) في الصفحة (١٢٧) وقد أورده ابن كثير في « تفسيره » : ٣ / ٧١ من رواية محمد بن إسحاق مطولاً .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا . قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

قوله تعالى : (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « ثلاثمائةٍ سنين » منوّناً . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ثلاثمائةِ سنين » مضافاً غير منوّن . قال أبو علي : العدد المضاف إلى الآحاد قد جاء مضافاً إلى الجميع ، قال الشاعر :

وَمَا زَوَّدُونِي غيرَ سَحْقِ عِمامةٍ وَخَمْسِمِىءٍ منها قَسِيٌّ وزائفُ [(١)]

وفي هذا الكلام قولان .

أحدهما : أنه حكاية عما قال الناس في حقهم ، وليس بمقدار لبثهم ، قاله ابن عباس ، واستدل عليه فقال : لو كانوا لبثوا ذلك ، لما قال : (الله أعلم بما لبثوا) ، وكذلك قال قتادة ، وهذا قول أهل الكتاب .

والثاني : أنه مقدار مالبثوا ، قاله عبيد بن عمير ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ؛ والمعنى : لبثوا هذا القدر من يوم دخلوه إلى أن بعثهم الله وأطلع الخلق عليهم .

قوله تعالى : (سنين) قال الفراء ، وأبو عبيدة ، والكسائي ، والزجاج : التقدير : سنين ثلاثمائة . وقال ابن قتيبة : المعنى : أنها لم تكن شهوراً ولا أيّاماً ، وإنما كانت سنين . وقال أبو علي الفارسي : « سنين » بدل من قوله : « ثلاثمائة » . قال الضحاك : نزلت : (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ) فقالوا : أياماً ، أو شهوراً ، أو سنين ؟ فنزلت : « سنين » فلذلك قال : « سنين » ، ولم يقل : سنة .

---

(١) البيت لمزرّد كما في « الصحاح » و « اللسان » : مأي ، و « مجمع البيان » ١٥/١٤٤ .

قوله تعالى : (وازدادوا تسعاً) يعني : تسع سنين ، فاستغنى عن ذِكْر السنين بما تقدَّم من ذِكْرها . ثم أعلمَ أنه أعلمُ بقدْر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها ، فقال : (قل الله أعلم بما لبثوا) قال ابن السائب : قالت نصارى نجران : أما الثلاثمائة ، فقد عرفناها ، وأما التسع ، فلا عِلْم لنا بها ، فنزل قوله تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا) وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين ، فرد الله تعالى عليهم ذلك ، وقال : « قل الله أعلم بما لبثوا » بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا ، لايعلم ذلك غيرُ الله . وقيل : إنما زاد التسع ، لأنه تفاوت مابين السنين الشمسية والسنين القمرية ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (أبصِرْ به وأسمِعْ) فيه قولان .

أحدها : أنه على مذهب التعجب ، فالمعنى : ما أسمع الله به وأبصر ؛ أي : هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم ، هذا قول الزجاج ، وذكر أنه إجماع العلماء .

والثاني : أنه في معنى الأمر ، فالمعنى : أبصِر بدِين الله وأسمِع ، أي : بصِّر بهدى الله وسمِّع ، فترجع الهاء إما على الهدى ، وإما على الله عز وجل ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ما لهم من دونه) أي : ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر ، (ولا يُشرِك في حكمه أحداً) ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ماحكمَ به ، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عز وجل في حكمه . وقرأ ابن عامر : « ولا تُشرِكْ » جزماً بالتاء ، والمعنى : لاتشرك أيها الإنسان .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً . وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

قوله تعالى : (واتل ما أوحي إليك) في هذه التلاوة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى القراءة . والثاني : بمعنى الاتّباع . فيكون المعنى على الأول : اقرأ القرآن ، وعلى الثاني : اتّبعْه واعمل به . وقد شرحنا في (الأنعام : ١١٥) معنى (لامبدّل لكلماته) .

قوله تعالى : (ولن تجد من دونه ملتحداً) قال مجاهد ، والفراء : مَلجأً .

وقال الزجاج : : مَعْدِلاً عن أمره ونهيه . وقال غيرهم : موضعاً تميل إليه في الالتجاء .

قوله تعالى : (واصبر نفسك) سبب نزولها أن المؤلّفة قلوبُهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله : لو أنك جلست في صدر المجلس ، ونحّيت هؤلاء عنّا ، ـ يعنون سلمانَ وأباذَرٍّ وفقراءَ المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ـ جلسنا إليك ، وأخذنا عنك ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : (إنا أعتدنا للظالمين ناراً) ، فقام رسول الله ﷺ يلتمسهم ، حتى إذا أصابهم في مؤخّر المسجد يذكرون الله ، قال : « الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمّتي ، معكم المحيا ومعكم الممات » هذا قول سلمان الفارسي [1] . ومعنى قوله :

---

(١) « الطبري » : ١٥/٢٣٦ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٧١ ، و « القرطبي » : ١٠/٣٩١ ، و « الدر » : ٤/٢١٩ ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٣/٨١ من رواية الطبراني ، وقد تقدم الحديث بنحوه ٣/٤٤ فارجع إليه .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) أي : احبسها معهم على أداء الصلوات (بالغداة والعشي) . وقد فسرنا هذه الآية في (الأنعام : ٥٢) إلى قوله تعالى : (ولا تعد عيناك عنهم) أي : لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف ؛ وكان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قطُّ ، فأُمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين .

قوله تعالى : (ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذِكْرنا) سبب نزولها أن أمية بن خلف الجمحي ، دعا رسولَ الله ﷺ إلى طرد الفقراء عنه ، وتقريب صناديد أهل مكة ، فنزلت هذه الآية ، رواه الضحاك عن ابن عباس [١] . وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو عيينة وأشباهه . ومعنى « أغفلنا قلبه » : جعلناه غافلاً . وقرأ أبو مجلز : « من أغفلَنا » بفتح اللام ، ورفع باء القلب . « عن ذِكْرنا » : عن التوحيد والقرآن والإسلام ، (واتبع هواه) في الشرك . (وكان أمره فُرُطاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه أفرط في قوله ، لأنه قال : إنّا رؤوس مضر ، وإن نُسلِم يُسلم الناس بعدنا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : ضَياعاً ، قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سَرَفاً وتضييعاً . والثالث : نَدَماً ، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة . والرابع : كان أمره التفريط ، والتفريط : تقديم العجز ، قاله الزجاج .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾

---

(١) « أسباب النزول » : ١٧٢ ، و« القرطبي » : ٣٩٢/١٠ ، و « الدر » : ٢٢٠/٤ .

قوله تعالى : (وقل الحق مِنْ ربِّكم) قال الزجاج : المعنى : وقل الذي أتيتكم به ، الحقُّ من ربِّكم .

قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فمن شاء الله فليؤمن ، روي عن ابن عباس [١] .

والثاني : أنه وعيد وإنذار ، وليس بأمر ، قاله الزجاج .

والثالث : أن معناه : لا تنفعون الله بإيمانكم ، ولا تضرُّونه بكفركم ، قاله الماوردي . وقال بعضهم : هذا إظهار للغنى ، لا إطلاق في الكفر .

قوله تعالى : (إنا أعتدنا) أي : هيَّأنا ، وأعددنا ، وقد شرحناه في قوله : (وأعتدتْ لهن متَّكأً) [يوسف : ٣١] . فأما الظالمون ، فقال المفسرون : هم الكافرون . وأما السُّرادِق ، فقال الزجاج : السُّرادِق : كلُّ ما أحاط بشيء ، نحو الشُّقَّة في المِضْرَب ، أو الحائط المشتمل على الشيء . وقال ابن قتيبة : السُّرادِق : الحُجرة التي تكون حول الفسطاط . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : السُّرادق فارسي معرَّب ، وأصله بالفارسية سَرَادَارْ ، وهو الدِّهليز ، قال الفرزدق :

تَمَنَّيْتَهُمْ حتى إذا ما لَقِيتَهم تَركتَ لهم قبلَ الضِّراب السُّرَادِقا [٢]

وفي المراد بهذا السُّرادق قولان .

أحدهما : أنه سُرادق من نار ، قاله ابن عباس . روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لِسُرادِق النار أربعةُ جُدُرٍ كُثُفٌ ، كلُّ جدار منها مسيرة أربعين سنة » [٣] . وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس ، قال :

---

(١) قال ابن جرير الطبري : عن ابن عباس: فمن شاء الله له الايمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر .

(٢) ديوانه : ٥٨٦/٢ ، و « المعرَّب » : ٢٠٠ .

(٣) رواه أحمد في « المسند » : ٢٩/٣ من حديث دراج أبي السمح عن أبي الهيثم ، ـــ

السرادق : لسان من النار ، يخرج من النار فيحيط بهم حتى يفرغ من حسابهم .

والثاني : أنه دخان يحيط بالكفار يوم القيامة ، وهو الظـِّل ذو ثلاث شعب الذي ذكره الله تعالى في (المرسلات : ٣٠) ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (وإن يستغيثوا) أي : مما هم فيه من العذاب وشدة العطش (يُغاثوا بماء كالمـُهل) وفيه سبعة أقوال .

أحدها : أنه ماء غليظٌ كدُرْدِيِّ الزيت ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه كل شيء أذيب حتى انماع ، قاله ابن مسعود . وقال أبو عبيدة ، والزجّاج : كل شيء أذبته من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك ، فهو مُهل .

والثالث : قيح ودم أسود كعكر الزيت ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه الفضة والرصاص يذابان ، روي عن مجاهد أيضاً .

والخامس : أنه الذي انتهى حرّه ، قاله سعيد بن جبير .

والسادس : [أنه] الصَّديد ، ذكره ابن الأنباري . قال مُغيث بن سُمي : هذا الماء هو ما يسيل من عَرَق أهل الموقف في الآخرة وبكائهم ، وما يجري منهم من دم وقيح ، يسيل ذلك إلى وادٍ في جهنم ، فتطبخه جهنم ، فيكون أول ما يُغاث به أهل النار .

والسابع : أنه الرماد الذي يُنفض عن الخُبزة إذا خرجت من التَّنُّور ، حكاه ابن الأنباري .

ورواه الترمذي في « جامعه » : ٢/٨٢ ، وابن جرير الطبري في « تفسيره » : ١٥/٢٣٩ من حديث رشدين بن سعد عن دراج عن أبي الهيثم ، ورشدين بن سعد ضعيف ، ودراج عن أبي الهيثم ضعيف .

قوله تعالى : (يشوي الوجوه) قال المفسرون : إذا قرّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه . ثم ذمّه ، فقال : (بئس الشراب وساءت) النار (مُرْتَفَقاً) وفيه خمسة أقوال .

أحدها : منزلاً ، قاله ابن عباس . والثاني : مجتمعاً ، قاله مجاهد . والثالث : متّكأً ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لأبي ذؤيب :

إني أرِقْتُ فبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً كأنَّ عَيْنِي فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ [1]

وذبحه : انفجاره ؛ قال الزجاج : « مرتفقاً » منصوب على التمييز ؛ ومعنى مرتفقاً : متّكأً على المِرفق . والرابع : ساءت مجلساً ؛ قاله ابن قتيبة . والخامس : ساءت مطلباً للرفق ، لأن من طلب رِفقاً من جهتها ، عَدِمه ، ذكره ابن الأنباري . ومعاني هذه الأقوال تتقارب . وأصل المِرفق في اللغة : مايُرتَفق به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال الزجاج : خبر « إن » هاهنا على ثلاثة أوجه .

---

(١) « ديوان الهذليين » : ١/١٠٤ ، و « شرح أشعار الهذليين » : ١/١٢٠ ، و « مجاز القرآن » : ١/٤٠٠ ، و « الطبري » : ١٥/٢٤١ ، و « القرطبي » : ١٠/٣٩٥ ، و « الكشاف » : ٢/٣٨٩ ، و « الصحاح » و « اللسان » ، و « التاج » : صوب ، و « شواهد المغني » : ٧٢ . والصاب : شجرة مُرّة .

أحدها : أن يكون على إضمار : (إنا لانُضيع أجر من أحسن عملاً) منهم ، ولم يحتج إلى ذكر « منهم » لأن الله تعالى قد أعلَمنا أنه محبطٌ عملَ غير المؤمنين .

والثاني : أن يكون خبر « إن » : (أولئك لهم جنات عدن) ، فيكون قوله : (إنا لانُضيع) قد فصل به بين الاسم وخبره ، لأنه يحتوي على معنى الكلام الأول ، لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا .

والثالث : أن يكون الخبر : (إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً) ، بمعنى : إنّا لانُضيع أجرهم .

قال المفسرون : ومعنى (لانضيع أجر من أحسن عملاً) أي : لانترك أعماله تذهب ضَياعاً ، بل نُجازيه عليها بالثواب .

فأما الأَساور ، فقال الفراء : في الواحد منها ثلاث لغات : إسوار ، وسِوار ، وسُوار ؛ فمن قال : : إسوار ، جمعَه أساور ، ، ومن قال : سِوار أو سُوار ، جمعَه أسْوِرة ، وقد يجوز أن يكون واحد أساورة وأساور : سِوار ؛ وقال الزجاج : الأَساور جمع أسْوِرَة ، وأسْوِرَة جمع سِوَار ، يقال : سِوار اليد ، بالكسر ، وقد حكي : سُوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور في اليد والتيجان على الرؤوس ، جعل الله ذلك لأهل الجنة . قال سعيد بن جبير : يُحلَّى كلُّ واحد منهم بثلاثة [1] من الأساور ، واحدٍ من فضة ، وواحدٍ من ذهب ، وواحدٍ من لؤلؤ ويواقيت .

فأما « السُّنْدُسُ » و « الإستبرق » ، فقال ابن قتيبة : السُّندس : رقيق الديباج ، والإستبرق ثخينه . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : السندس : رقيق الديباج ، ، لم يختلف أهل اللغة في أنه معرَّب ، قال الراجز :

وليلة من الليالي حِندِسِ لون حواشيها كلون السندس

(١) في الأصل : ثلاثة .

والاستبرق : غليظ الديباج ، فارسي معرَّب ، وأصله إسْتَفْرَهْ . وقال ابن دريد : إستَرْوَهْ ، ونقل من العجمية إلى العربية ، فلو حُقِّر « إستبرق » ، أو كُسِّر ، لكان في التحقير « أُبَيْرِق » ، وفي التكسير « أبارق » بحذف السين ، والتاء جميعاً .

قوله تعالى : (متكئين فيها) الاتكاء : التحامل على الشيء . قال أبوعبيدة : والأرائك : الفُرُش في الحِجَال ، ولا تكون الأريكة إلا بحَجَلة وسرير . وقال ابن قتيبة : الأرائك : السُّرُر في الحِجال ، واحدها : أريكة . وقال ثعلب : لا تكون الأريكة إلا سريراً في قُبَّة عليه شَواره ومتاعه ؛ قال ابن قتيبة : الشَّوار ، مفتوح الشين ، وهو متاع البيت . وقال الزجاج : الأرائك : الفُرُش في الحِجال . قال : وقيل : إنها الفُرُش ، وقيل : الأسِرَّة ، وهي على الحقيقة : الفُرُش كانت في حِجال لهم .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مَثَلاً رجلين) روى عطاء عن ابن عباس ، قال : هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل تُوفِّي وتركهما ، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور ، وكان الآخر زاهداً في الدنيا ، فكان إذا عمل أخوه شيئاً من زينة

الدنيا ، أخذ مثل ذلك فقدَّمه لآخرته ، حتى نَفِد ماله ، فضربهما الله عز وجل مثلاً للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن المسلم لما احتاج ، تعرَّض لأخيه الكافر ، فقال الكافر : أين ما ورثتَ عن أبيك ؟ فقال : أنفقتُه في سبيل الله ، فقال الكافر : لكني ابتَعت به جِنانا وغنماً ، وبقراً ، والله لا أعطيتك شيئاً أبداً حتى تتبع ديني ، ثم أخذ بيد المسلِم فأدخله جِنانه يطوف به فيها ، ويرغّبه في دينه . وقال مقاتل : اسم المؤمن يمليخا ، واسم الكافر قرطس ، وقيل : قطرس ، وقيل : هذا المَثَل [ضُرِب] لعيينة بن حصن وأصحابه ، ولسلمان وأصحابه .

قوله تعالى : (وحففناهما بنخل) الحَفّ : الإحاطة بالشيء ، ومنه قوله : (حافّين من حول العرش) [الزمر : ٧٥] . والمعنى : جعلنا النخل مُطِيفاً بها . وقوله : (وجعلنا بينهما زرعاً) إعلام أن عمارتهما كاملة .

قوله تعالى : (كِلتا الجنتين آتت أُكُلَها) قال الفراء : لم يقل : آتتا ، لأن « كلتا » ثنتان لا تُفرد واحدتُهما ، وأصله : « كُلٌّ » ، كما تقول للثلاثة : « كُلٌّ » ، فكان القضاء أن يكون للثنتين ما كان للجمع ، وجاز توحيده على مذهب « كُلّ » ، وتأنيثه جائز للتأنيث الذي ظهر في « كلتا » ، وكذلك فافعل بـ « كلا » و « كلتا » و « كُلّ » ، إذا أضفتَهُنَّ إلى مَعْرِفة وجاء الفعل بعدهن ، فوحِّد واجمع ، فمن التوحيد قوله تعالى : (وكُلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً) [مريم : ٩٦] ، ومن الجمع : (وكُلٌّ أتَوه داخرين) [النمل : ٨٧] ، والعرب قد تفعل ذلك أيضاً في « أي » فيؤنّثون ويذكّرون ، قال الله تعالى : (وما تدري نفس بأي أرض تموت) [لقمان : ٣٤] ، ويجوز في الكلام « بأيت أرض » ، وكذلك

(في أيِّ صورة ماشاء ركَّبك)[الانفطار : ٨] ، ويجوز في الكلام « في أيَّت » ، قال الشاعر :

بأي بلاءٍ أم بأيَّة نعمةٍ تقدَّم قبلي مسلمٌ والمهلَّب

قال ابن الأنباري : « كلتا » وإن كان واقعاً في المعنى على اثنتين ، فان لفظه لفظ واحدة مؤنثة ، فغلب اللفظ ، ولم يستعمل المعنى ثقةً بمعرفة المخاطَب به ؛ ومن العرب من يؤثر المعنى على اللفظ ، فيقول : « كلتا الجنتين آتتا أُكُلَها » ، ويقول آخرون : « كلتا الجنتين آتى أُكُلَه » ، لأن « كلتا » تفيد معنى « كُلّ » ، قال الشاعر :

وكلتاهما قد خطَّ لي في صَحيفتي فلا الموت أهواه ولا العيش أروح

يعني : وكلُّهما قد خط لي ، وقد قالت العرب : كلكم ذاهب ، وكلكم ذاهبون . فوحَّدوا لِلَفظ « كُلّ » وجمعوا لتأويلها . وقال الزجاج : لم يقل « آتتا » ، لأن لفظ « كلتا » لفظ واحدة ، والمعنى : كل واحدة منهما آتت أكلها (ولم تظلم) أي : لم تنقص (منه شيئاً وفجرنا خلالهما نَهَراً) فأعلمَنَا أن شربهما كان من ماء نهر ، وهو من أغزر الشرب . وقال الفراء : إنما قال : « فجَّرنا » بالتشديد ، وهو نَهَر واحد ، لأن النهر يمتد ، فكان التفجُّر فيه كلّه . قرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « وفَجَرْنا » بالتخفيف . وقرأ أبو مجلز ، وأبو المتوكل : « خِللهما » . وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران : « نهْراً » بسكون الهاء .

قوله تعالى : (وكان له) يعني : للأخ الكافر (ثمَر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « وكان له ثُمُر » ، « وأُحيط بثُمُره » بضمتين . وقرأ عاصم : « وكان له ثَمَر » ، « وأُحيط بثَمَره » بفتح الثاء والميم فيهما .

وقرأ أبو عمرو: « ثُمْر » و « بثُمْره » بضمة واحدة وسكون الميم . قال الفراء: الثَّمَر ، بفتح الثاء والميم : المأكول ، وبضمها : المال . وقال ابن الأنباري : الثَّمَر ، بالفتح : الجمع الأول ، والثُّمُر ، بالضم : جمع الثَّمَر ، يقال : ثَمَر ، وثُمُر ، كما يقال : أسَد ، وأُسُد ، ويصلح أن يكون الثُّمُر جمع الثِّمار ، كما يقال : حِمار وحُمُر ، وكِتاب وكُتُب ؛ فمن ضَمَّ ، قال : الثُّمُر أعم ، لأنها تحتمل الثمار المأكولة ، والأموال المجموعة . قال أبو علي الفارسي : وقراءة أبي عمرو: « ثُمُر » يجوز أن تكون جمع ثمار ، ككتاب ، وكُتُب ، فتخفف ، فيقال : كُتْب ، ويجوز أن يكون « ثُمْر » جمع ثَمَرة ، كبَدَنة وبُدْن ، وخَشَبة ، وخُشْب . ويجوز أن يكون (ثُمُر) واحداً ، كعُنُق ، وطُنُب .

وقد ذكر المفسرون في قراءة من ضم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المال الكثير من صنوف الأموال ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الذهب ، والفضة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه جمع ثمرة ، قال الزجاج : يقال : ثَمَرة ، وثِمار ، وثُمُر .

فإن قيل : ما الفائدة في ذِكْر الثَّمر بعد ذِكْر الجنَّتين ، وقد عُلِم أن صاحب الجنة لا يخلو من ثمر ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه لم يكن أصل الأرض ملكاً له ، وإنما كانت له الثمار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن ذِكْر الثَّمر دليل على كثرة ما يملك من الثمار في الجنَّتين وغيرهما ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : إنا قد ذكرنا أن المراد بالثمر الأموال من الأنواع ، وذكرنا

أنها الذهب ، والفضّة ، وذلك يخالف الثمر المأكول ؛ قال أبو علي الفارسي : من قال : هو الذهب ، والوَرِق ، فانما قيل لذلك : ثُمُر على التفاؤل ، لأن الثمر نماء في ذي الثمر ، وكونه هاهنا بالجَنَى أشبه من الذهب والفضة . ويقوي ذلك : (وأُحيط بثمره فأصبح يقلِّب كفَّيه على ما أنفق فيها) ، والإنفاق من الوَرِق ، لا من الشجر .

قوله تعالى : (فقال) يعني الكافر (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) أي : يراجعه الكلام ويجاوبه .

وفيما تحاورا فيه قولان .

أحدها : أنه الإيمان والكفر .

والثاني : طلب الدنيا ، وطلب الآخرة . فأما « النفر » فهم الجماعة ، ومثلهم : القوم والرهط ، [ولا واحد لهذه الألفاظ من لفظها . وقال ابن فارس اللغوي] : النفر : عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة .

وفيمن أراد بنَفَره ثلاثة أقوال .

أحدها : عبيده ، قاله ابن عباس . والثاني : ولده ، قاله مقاتل . والثالث : عشيرته ورهطه ، قاله أبو سليمان .

قوله تعالى : (ودخل جنَّته) يعني : الكافر (وهو ظالم لنفسه) بالكفر ؛ وكان قد أخذ بيد أخيه فأدخله معه ؛ (قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً) أنكر فَناء الدنيا ، وفَناء جنته ، وأنكر البعث والجزاء بقوله : (وما أظن الساعة قائمةً) وهذا شك [منه] في البعث ، ثم قال : (ولئن رُدِدْتُ إلى ربِّي) أي : كما تزعُم أنت . قال [ابن عباس] : يقول : إن كان البعث حقاً (لأجدنَّ خيراً منها) قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « خيراً منها » ، وكذلك هي في مصاحف أهل البصرة والكوفة . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « خيراً منهما » بزيادة

ميم على التثنية ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة والمدينة والشام . قال أبو علي : الإفراد أولى ، لأنه أقرب إلى الجَنَّة المفردة في قوله : (ودخل جنته) ، والتثنية لا تمتنع ، لتقدم ذِكْر الجَنَّتين .

قوله تعالى : (مُنْقَلَباً) أي : كما أعطاني هذا في الدنيا ، سيعطيني في الآخرة أفضل منه .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾

قوله تعالى : (قال له صاحبه) يعني : المؤمن (وهو يحاوره أكفرتَ بالذي خلقك من تراب) يعني : خلق أباك آدم (ثم من نطفة) يعني : ما أنشئ هو منه ، فلما شَكَّ في البعث كان كافراً .

قوله تعالى : (لكنَّا هو الله ربِّي) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وقالون عن نافع : « لكنَّ هو الله ربِّي » ، بإسقاط الألف في الوصل ، وإثباتها في الوقف . وقرأ نافع في رواية المُسَيَّبي بإثبات الألف وصلاً ووقفاً . وأثبت الألف ابن عامر في الحالين . وقرأ أبو رجاء : « لكنْ » بإسكان النون خفيفة من غير ألف في الحالين . وقرأ ابن يعمر : « لكنَّ » بتشديد النون من غير ألف في الحالين . وقرأ الحسن : « لكنْ أنا هو اللهُ ربِّي »

باسكان نون « لكنْ » وإثبات « أنا » . قال الفراء : فيها ثلاث لغات : لكنّا ، ولكنّ ، ولكنّه بالهاء ، أنشدني أبو ثروان :

وترْمينني بالطّرْف أي أنت مذنب وتَقْلِينَنِي لكنّ إيّاكِ لاَ أَقْلِي (١)

وقال أبو عبيدة : مجازه : لكن أنا هو الله ربي ، ثم حُذفت الألف الأولى ، وأُدغمت إحدى النونين في الأخرى فشدّدت . قال الزجاج : وهذه الألف تُحذف في الوصل ، وتُثبت في الوقف ، فأما من أثبتها في الوصل كما تثبت في الوقف ، فهو على لغة من يقول : أنا قمتُ ، فأثبت الألف ، قال الشاعر :

أنا سَيْفُ العَشِيرَةِ فاعْرِفُونِي [حُمَيداً قد تَذَرَّيْتُ السَّناما] (٢)

وهذه القراءة جيدة ، لأن الهمزة قد حذفت من « أنا » ، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة .

قوله تعالى : (ولولا إذ دخلتَ جنتك) أي : وهلاّ ؛ ومعنى الكلام التوبيخ . قال الفراء : (ما شاء الله) في موضع رفع ، إن شئت رفعته باضمار هو ، يريد : [هو] ما شاء الله ؛ وإن شئتَ أضمرتَ فيه : ما شاء الله كان ؛ وجاز طرح جواب الجزاء ، كما جاز في قوله : (فان استطعت أن تبتغيَ نفقاً في الأرض) [الأنعام : ٣٥] ، ليس له جواب ، لأنه معروف . قال الزجاج : وقوله : (لا قوّة إلا بالله) الاختيار النصب بغير تنوين على النفي ، كقوله : (لا ريب فيها) [الكهف : ٢١] ، ويجوز : « لاقوة إلا بالله » على الرفع بالابتداء ، والخبر « بالله » ، المعنى : لايقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى ، ولا يكون له إلا ماشاء الله .

---

(١) البيت غير منسوب في « القرطبي » : ١٠/٤٠٥ ، و « البحر » : ٦/١٢٨ ، و « روح المعاني » : ١٥/٢٥٥ .

(٢) « الطبري » : ١٥/٢٤٧ ، و « القرطبي » : ١٠/٤٠٥ ، و « خزانة الأدب » ٢/٣٩٠ .

قوله تعالى : (إن ترنِ) قرأ ابن كثير : « إن ترني أنا » و « يؤتيني خيراً » بياء في الوصل والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو بياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، بحذف الياء فيهما وصلاً ووقفاً . (أنا أقلَّ) وقرأ ابن أبي عبلة : « أنا أقلُّ » برفع اللام . قال الفراء : « أنا » هاهنا عماد إن نصبتَ « أقلَّ » ، واسم إذا رفعت « أقلُّ »[1] ، والقراءة بهما جائز .

قوله تعالى : (فعسى ربِّي أن يؤتيَني خيراً من جنتك) أي : في الآخرة ، (ويرسلَ عليها حسباناً) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه العذاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك . وقال أبو صالح عن ابن عباس : ناراً من السماء[2] .

والثاني : قضاءً من الله يقضيه ، قاله ابن زيد .

والثالث : مراميَ من السماء ، واحدها : حسبانة ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة . قال النَّضْر بن شُمَيل : الحُسبان : سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تُنزع في القوس ، ثم يرمي بعشرين منها دفعة ، فعلى هذا القول يكون المعنى : ويرسل عليها مراميَ من عذابه ، إما حجارة أو بَرَداً أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب .

والرابع : أن الحسبان : الحساب ، كقوله : (الشمس والقمر بحسبان) [الرحمن : ٥] أي : بحساب ، فيكون المعنى : ويرسل عليها عذابَ حسابِ ما كسبت يداه ، هذا قول الزجاج .

قوله تعالى : (فتصبحَ صعيداً زَلَقاً أو يُصْبِحَ ماؤها غَوراً) قال ابن قتيبة : الصعيد : الأملس المستوي ، والزَّلَق : الذي تَزِلُّ عنه الأقدام ، والغَور : الغائر ،

(١) وكذلك قال الطبري : ١٥/٢٤٨ . (٢) في نسخة الرباط : نازل من السماء .

فجعل المصدر صفة ، يقال : ماءٌ غَوْرٌ ، ومياه غَوْرٌ ، ولا يثنَّى ، ولا يجمع ، ولا يؤنَّث ، كما يقال : رجلٌ نَوْمٌ ، ورجلٌ صَوْمٌ ، ورجلٌ فِطْر ، ورجالٌ نَوْمٌ ، [ونساء نَوْمٌ] ، ونساء صَوْمٌ . ويقال للنساء إذا نُحْنَ : نَوْح ، والمعنى : يذهب ماؤها غائراً في الأرض ، أي : ذاهباً فيها . (فلن تستطيع له طلباً) فلا يبقى له أثر تطلبه به ، ولا تناله الأيدي ولا الأَرْشية . وقال ابن الأنباري : « غَوْراً » إذا غوَّر ، فسقط المضاف ، وخلَفه المضاف إليه ، والمراد بالطلب هاهنا : الوصول ، فقام الطلب مقامه لأنه سببه . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو المتوكل : « غُؤُوراً » برفع الغين والواو [الأولى] جميعاً ، [وواو بعدها] .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾

قوله تعالى : (وأُحيط بثمره) أي : أحاط اللهُ العذابَ بثمره ، وقد سبق معنى الثمر . (فأصبح يقلِّب كفيه) أي : يضرب يدعلى يد ، وهذا فعل النادم ، (على ما أنفق فيها) أي : في جنته ، و « في » هاهنا بمعنى « على » . (وهي خاوية) أي : خالية ساقطة (على عروشها) والعُروش : السقوف ؛ والمعنى : أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدَّمت فصارت في قرارها ، فصارت الحيطان كأنها على السقوف . (ويقول ياليتني لم أُشرك بربِّي أحداً) فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه ، وحقق ما أنذره [به] أخوه في الدنيا ، ندم على شِركه حين لا تنفعه الندامة . وقيل : إنما يقول هذا في القيامة . (ولم تكن له فئة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « ولم تكن » بالتاء . وقرأ حمزة ،

والكسائي ، وخلف : « ولم يكن » بالياء . والفئة : الجماعة (ينصرونه) أي : يمنعونه من عذاب الله .

قوله تعالى : (هنالك الوَلاية) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : « الوَلاية » بفتح الواو و (لله الحقِّ) خفضاً . وقرأ حمزة : « الوِلاية » بكسر الواو ، و « لله الحقِّ » بكسر القاف أيضاً . وقرأ أبو عمرو بفتح الواو ، ورفع « الحقُّ » ، ووافقه الكسائيُّ في رفع القاف ، لكنه كسر « الوِلاية » ، قال الزجاج : معنى الولاية في [مثل] تلك الحال : تبيين نصرة وليِّ الله . وقال غيره : هذا الكلام عائد إلى ما قبل قصة الرجلين . فأما من فتح واو « الوَلاية » فانه أراد الموالاة والنصرة ، ومن كسر ، أراد السلطان والملك على ماشرحنا في آخر (الأنفال:٧٢) . فعلى قراءة الفتح ، في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم يتولَّون الله تعالى في القيامة ، ويؤمنون به ، ويتبرَّؤون مما كانوا يعبدون ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : هنالك يتولَّى اللهُ أمرَ الخلائق ، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين . وعلى قراءة الكسر ، يكون المعنى : هنالك السُّلطان لله . قال أبو علي : من كسر قاف « الحقِّ » ، جعله من وصف الله عزَّ وجلَّ ، ومن رفعه جعله صفة للولاية .

فان قيل : لم نُعتت الولاية وهي مؤنثة بالحقِّ وهو مصدر ؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أن تأنيثها ليس حقيقياً ، فحُملت على معنى النصر ؛ والتقدير : هنالك النصر لله الحقُّ ، كما حُملت الصيحة على معنى الصياح في قوله : (وأخذَ الذين ظلموا الصيحةُ) [هود : ٦٧] .

والثاني : أن الحقَّ مصدر يستوي في لفظه المذكَّر والمؤنث والاثنان

والجمع ، فيقال : قولك حق ، وكلمتك حق ، وأقوالكم حق . ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية ، وعلى المدح لله تعالى بإضمار « هو » .

قوله تعالى : (هو خير ثوابا) أي : هو أفضل ثوابا ممن يُرجى ثوابه ، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل .

قوله تعالى : (وخير عُقبا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « عُقُباً » مضمومة القاف . وقرأ عاصم ، وحمزة : « عُقْباً » ساكنة القاف . قال أبو علي : ما كان [على] « فُعُل » جاز تخفيفه ، كالعُنُق ، والطُّنُب . قال أبو عبيدة : العُقُب ، والعُقْب ، والعُقْبى والعاقبة ، بمعنى ، وهي الآخرة ، والمعنى : عاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾

قوله تعالى : (واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا) أي : في سرعة نفادها وذهابها ، وقيل : في تصرُّف أحوالها ، إذ مع كلِّ فرحة تَرْحة ، وهذا مفسر في سورة (يونس : ٢٤) إلى قوله : (فأصبح هشيماً) . قال الفراء : الهشيم : كل شيء كان رطباً فيبس . وقال الزجاج : الهشيم : النبات الجافّ . وقال ابن قتيبة : الهشيم من النبت : المتفتِّت ، وأصله من هشمتُ الشيء : إذا كسرتَه ، ومنه سمِّي الرجل هاشماً . (وتذروه الرياح) تنسفه . وقرأ أُبيّ ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : « تُذْرِيهِ » برفع التاء وكسر الراء بعدها ياء ساكنة وهاء مكسورة . وقرأ ابن مسعود كذلك ، إلا أنه فتح التاء . والمقتَدِر : مُفْتَعِل ، من قَدَرْتُ . قال المفسرون : (وكان الله على كل شيء) من الإنشاء والإفناء (مقتدراً) .

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

قوله تعالى : (المالُ والبنونَ زينة الحياة الدنيا) هذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد ، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا ، [لا] مما ينفع في الآخرة .

قوله تعالى : (والباقيات الصالحات) فيها خمسة أقوال .

أحدها : أنها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ؛ روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه ، وعن العدوِّ أن تجاهدوه ، فلا تعجزوا عن قول : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقولوها ، فإنَّهن الباقيات الصالحات » [1] ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك . وسئل عثمان ابن عفان رضي الله عنه عن الباقيات الصالحات ، فقال هذه الكلمات ، وزاد فيها : « ولا حول ولا قوَّة إلا بالله » [2] . وقال سعيد بن المسيب ، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء .

والثاني : « أنها لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، ولا قوة إلا بالله » ، رواه علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله ﷺ [3] .

والثالث : أنها الصلوات الخمس ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم .

(١) أورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٢٥ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٢٥ من رواية أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عثمان رضي الله عنه .
(٣) أورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٢٥ من رواية ابن مردويه عن علي رضي الله عنه .

والرابع : الكلام الطيِّب ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والخامس : هي جميع أعمال الحسنات ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وابن زيد .

قوله تعالى : (خير عند ربّك ثواباً) أي : أفضل جزاءً (وخير أملاً) أي : خير مما تؤمّلون ، لأن آمالكم كواذب ، وهذا أمل لا يكذب .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً . وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً . وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَٰذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً وَلَايَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً . مَاأَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَاخَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾

قوله تعالى : (ويوم نُسيِّر الجبال) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ويوم تُسَيَّر » بالتاء « الجبالُ » رفعاً . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « نُسيِّرُ » بالنون « الجبالَ » نصباً . وقرأ ابن محيصن : « ويوم تَسِيْرُ » بفتح التاء وكسر السين وتسكين الياء « الجبالُ » بالرفع . قال الزجاج : « ويوم » منصوب على معنى : اذكر ، ويجوز أن يكون منصوباً على : والباقيات الصالحات

خير يومَ نسيرُ الجبال . قال ابن عباس : نُسيِّر الجبال عن وجه الأرض، كما يُسيَّر السحاب في الدنيا ، ثم تكسَّر فتكون في الأرض كما خرجت منها .

قوله تعالى : (وترى الأرض بارزة) وقرأ عمرو بن العاص ، وابن السميفع ، وأبو العالية : « وتُرى الأرضُ بارزةً » برفع التاء والضاد . وقرأ أبو رجاء العطاردي كذلك ، إلا أنه فتح ضاد « الأرضَ » .

وفي معنى « بارزة » قولان . أحدهما : [ظاهرة] فليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون . والثاني : بارزاً أهلها من بطنها، قاله الفراء .

قوله تعالى : (وحشرناهم) يعني المؤمنين والكافرين (فلم نُغادِر) قال ابن قتيبة : أي : فلم نُخلِّف ، يقال : غادرتُ كذا : إذا خلّفته، ومنه سمي الغدير، لأنه ماء تُخلِّفه السيول . وروى أبان : « فلم تغادر » بالتاء .

قوله تعالى : (وعُرضوا على ربك صفاً) إن قيل : هذا أمر مستقبل، فكيف عُبّر [عنه] بالماضي ؟ فالجواب : أن ما قد علم الله وقوعه ، يجري مجرى المعايَن ، كقوله : (ونادى أصحاب الجنة) [الأعراف : ٤٣] .

وفي معنى قوله : (صفاً) أربعة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى : جميعاً ، كقوله : (ثم ائتوا صفاً) [طه : ٦٤] ، قاله مقاتل .

والثاني : أن المعنى : وعُرضوا على ربِّك مصفوفين، هذا مذهب البَصريين .

والثالث : أن المعنى : وعُرضوا على ربِّك صفوفاً ، فناب الواحد عن الجميع ، كقوله : (ثم نُخرِجُكم طفلاً) [الحج : ٥] .

والرابع : أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد ، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة بجملته ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري . وقد قيل : إن كلَّ أمة وزمرة صفٌّ .

قوله تعالى : (لقد جئتمونا) ، فيه إضمار « فيقال لهم » .

وفي المخاطبين بهذا قولان . أحدهما : أنهم الكُلّ . والثاني : الكُفـار ، فيكون اللفظ عاماً ، والمعنى خاصاً . وقوله : (كما خلقناكم أول مَرَّة) مفسر في (الأنعام : ٩٤) . وقوله : (بل زعمتم) خطاب للكفار خاصة ، والمعنى : زعمتم في الدنيا (أن لن نجعل لكم موعداً) للبعث ، والجزاء .

قوله تعالى : (ووُضع الكتاب) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الكتـاب الذي سُطِر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الحساب ، قاله ابن السائب . والثالث : كتاب الأعمال ، قاله مقاتل . وقال ابن جرير : وُضع كتاب أعمال العباد في أيديهم ، فعلى هذا ، الكتاب اسم جنس .

قوله تعالى : (فترى المجرمين) قال مجاهد : [هم] الكافرون . وذكر بعض أهل العلم أن كل مجرم ذُكر في القرآن ، فالمراد به : الكافر .

قوله تعالى : (مشفقين) أي : خائفين (مما فيه) من الأعمال السيئة (ويقولون ياويلتنا) هذا قول كل واقع في هَلَكة . وقد شرحنا هذا المعنى في قوله : (ياحسرتنا) [الأنعام : ٣١] .

قوله تعالى : (لايُغادِر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها) هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها ؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس ، قال : الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : القهقهة . وقد يُتوهَّم أن المراد بذلك صغائر الذنوب وكبائرها ، وليس كذلك ، إذ ليس الضحك والتبسم ، مجرَّدهما من الذنوب ، وإنما المراد أن التبسم من صغار الأفعـال ، والضحك فعل كبير ، وقد روى الضحاك عن ابن عبـاس ، قال : الصغيرة : التبسم والاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة : القهقهة

بذلك ؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله ، لا لنفسه . ومعنى « أحصاها » : عدَّها وأثبتها ، والمعنى : وُجدتْ مُحصاةً . (ووجدوا ماعملوا حاضراً) أي : مكتوباً مُثْبَتاً في الكتاب ، وقيل : رأوا جزاءه حاضراً . وقال أبو سليمان : الصحيح عند المحققين أن صغائر المؤمنين الذين وُعدوا العفو عنها إذا اجتنبوا الكبائر ، إنما يعفى عنها في الآخرة بعد أن يراها صاحبها .

قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحداً) قال أبو سليمان : لاتنقص حسنات المؤمن ، ولا يزاد في سيئات الكافر . وقيل : إن كان للكافر فِعل خير ، كعتق رقبة ، وصدقة ، خُفِّف عنه به من عذابه ، وإن ظلمه مسلم ، أخذ الله من المسلم ، فصار الحق لله .

ثم إن الله تعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يذكِّر هؤلاء المتكبِّرين عن مجالسة الفقراء قصةَ إبليس وما أورثه الكِبْر ، فقال : (وإذ قلنا) أي : اذكر ذلك .

وفي قوله : (كان من الجن) قولان .

أحدهما : أنه من الجن حقيقة ، لهذا النص ؛ واحتج قائلو هذا بأن له ذريةً - وليس للملائكة ذريةٌ - وأنه كَفَرَ ، والملائكة رسل الله ، فهم معصومون من الكفر .

والثاني : أنه كان من الملائكة ، وإنما قيل : « من الجن » ، لأنه كان من قَبِيلٍ من الملائكة يقال لهم : الجن ، قاله ابن عباس ؛ وقد شرحنا هذا في (البقرة : ٣٤) .

قوله تعالى : (ففسق عن أمر ربه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : خرج عن طاعة ربه ، تقول العرب : فسَقت الرُّطَبة من قشرها : إذا خرجت منه ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أتاه الفسق لما أُمِر فعصى ، فكان سبب فسقه عن أمر ربه ، قال الزجاج : وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وهو الحق عندنا .

والثالث : ففسق عن ردِّ أمر ربّه ، حكاه الزجاج عن قطرب .

قوله تعالى : (أفتتخذونه وذُرِّيَّته أولياء من دوني) [أي] : توالونهم بالاستجابة لهم ؟! قال الحسن ، وقتادة : ذريته : أولاده ، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم . قال مجاهد : ذريته : الشياطين ، ومن ذريته زَلَنْبُور صاحب راية إبليس بكل سوق ، وثبْر ، وهو صاحب المصائب ، والأعور صاحب الرياء ، ومِسْوَط صاحب الأخبار يأتي بها فيطرحها على أفواه الناس ، فلا يوجد لها أصل ، وداسم صاحب الإنسان إذا دخل بيته ولم يسلِّم ولم يذكر اسم الله ، فهو يأكل معه إذا أكل . قال بعض أهل العلم : إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبْر فلا ترْجُه ، وإن كانت في شهوة فارجه ، فان معصية إبليس كانت بالكِبْر ، ومعصية آدم بالشهوة .

قوله تعالى : (بئس للظالمين بدلاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بئس الاتخاذ للظالمين بدلاً . والثاني : بئس الشيطان . والثالث : بئس الشيطان والذرِّيَّة ، ذكرهنَّ ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ما أشهدتُهم خلْق السموات والأرضِ) وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : « ما أشهدناهم » بالنون والألف .

وفي المشار إليهم أربعة أقوال .

أحدها : إبليس وذريته . والثاني : الملائكة . والثالث : جميع الكفار . والرابع : جميع الخلق ؛ والمعنى : إني لم أشاورهم في خلقهن ؛ وفي هذا بيان للغَناء عن الأعوان ، وإظهار كمال القدرة .

قوله تعالى : (ولا خَلْقَ أنفسهم) أي : ما أشهدت بعضَهم خَلْقَ بعض ، ولا استعنت ببعضهم على إيجاد بعض .

قوله تعالى : (وما كنتُ مُتَّخذَ المضِلّين)[يعني : الشياطين](عَضُداً) أي : أنصاراً وأعواناً . والعَضُد يستعمل كثيراً في معنى العون ، لأنه قِوام [اليد]، قال الزجاج : والاعتضاد : التقوّي وطلب المعونة ، يقال : اعتضدت بفلان ، أي : استعنت به .

وفي ما نفى اتخاذهم عضداً فيه قولان .

أحدهما : أنه الولايات ، والمعنى : ما كنت لأولي المضلّين ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه خَلْق السموات والأرض ، قاله مقاتل . وقرأ الحسن ، والجحدري ، وأبو جعفر : « وما كنتَ » بفتح التاء .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً . وَرَأَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾

قوله تعالى : (ويوم يقول) وقرأ حمزة : « نقول » بالنون ، يعني : يوم القيامة (نادوا شركائيَ) أضاف الشركاء إليه على زعمهم ، والمراد : نادوهم لدفع العذاب عنكم ، أو الشفاعة لكم ، (الذين زعمتم) أي : زعمتموهم شركاء (فَدَعَوْهُم فلم يستجيبوا لهم) أي : لم يجيبوهم ، (وجعلنا بينهم) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون والشركاء . والثاني : أهل الهدى وأهل الضلالة .

وفي معنى (مَوْبِقاً) ستة أقوال .

أحدها : مَهْلِكاً ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . وقال ابن قتيبة :

مَهْلِكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم ، ومنه يقال : أوبَقَتْه ذنوبُه ؛ [أي : أهلكته] .
قال الزجاج : [المعنى] : جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم ، أي : يهلكهم ، فالمَوْبق [1] :
المهلك ، يقال : وَبِق ، يَيْبَقُ ، ويابَق ، وبَقاً ؛ وَوَبَق ، يَبِق ، وُبُوقاً ، فهو وابق ؛
وقال الفراء : جعلنا تواصُلهم في الدنيا مَوْبِقاً ، أي : مَهْلِكاً لهم في الآخرة ؛
فالبَيْن ، على هذا القول ؛ بمعنى التواصل ، كقوله تعالى : (لقد تَقَطَّع بينُكم)
[الأنعام : ٩٤] على قراءة من ضم النون .

والثاني : أن المَوْبِق : وادٍ عميق يُفرِّق به بين أهل الضلالة وأهل الهدى ،
قاله عبد الله بن عمرو .

والثالث : أنه وادٍ في جهنم ، قاله أنس بن مالك ، ومجاهد .

والرابع : أن معنى المَوْبِق : العداوة ، قاله الحسن .

والخامس : أنه المَحْبِس ، قاله الربيع بن أنس .

والسادس : أنه المَوْعِد ، قاله أبو عبيدة .

قال ابن الأنباري : إن قيل : لم قال : « مَوْبِقاً » ولم يقل : « مُوبِقاً » ،
بضم الميم ؛ إذ كان معناه عذاباً مُوبقاً ؟

فالجواب : أنه اسم موضوع لمَحْبِس في النار ، والأسماء لا تؤخذ بالقياس ،
فيُعلم أن « مَوْبِقاً » : مَفْعِل ، من أوبقه الله : إذا أهلكه ، فتنفتح الميم ، كما
تنفتح في « مَوْعِد » و « مَوْلِد » و « مَحْتِد » إذا سمّيت الشخوص بهنّ .

قوله تعالى : (ورأى المجرمون النار) أي : عاينوها وهي تتغيَّظ حنقاً عليهم .
والمراد بالمجرمين : الكفار . (فظَنُّوا) أي : أيقنوا (أنهم مُواقِعُوها) أي :

---

(١) في الأصل : « فالوضع » بدلاً من كلمة « فالموبق » ، ولعله سهو من الناسخ .

داخلوها . ومعنى المواقعة : ملابسة الشيء بشدّة (ولم يجدوا عنها مَصْرِفا) أي : مَعْدِلاً ؛ والمَصْرِف : الموضع الذي يُصْرَف إليه ، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب ، فلم يقدروا على الهَرَب .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾

قوله تعالى : (ولقد صَرَّفْنا في هذا القرآن) قد فسرناه في (بني إسرائيل : ٤١) .

قوله تعالى : (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) فيمن نزلت قولان .

أحدهما : أنه النَّضْر بن الحارث ، وكان جِداله في القرآن ، قاله ابن عباس .

والثاني : أُبيّ بن خلف ، وكان جِداله في البعث حين أتى بعظم قد رَمّ ، فقال : أيقدر الله على إعادة هذا ؟! قاله ابن السائب . قال الزجاج : كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل ، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً .

قوله تعالى : (وما منع الناسَ أن يؤمنوا) قال المفسرون : يعني : أهل مكة (إذ جاءهم الهدى) وهو : محمد ﷺ ، والقرآن ، والإسلام (إلا أن تأتيهم سُنَّةُ الأوَّلِين) وهو : أنهم إذا لم يؤمنوا عذّبوا .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سُنَّة الأولين ، قاله الزجاج .

والثاني : وما منع الشيطانُ الناسَ أن يؤمنوا إلا لأن تأتيهم سُنَّة الأولين ، أي : منعهم رُشْدَهُم لكي يقع العذاب بهم ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : ما منهم إلا أنّي قد قدّرت عليهم العذاب . وهذه الآية فيمن قُتل ببدر وأُحُد من المشركين ، قاله الواحدي .

قوله تعالى : (أو يأتيَهم العذاب) ذكر ابن الأنباري في « أو » [هاهنا] ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى الواو .

والثاني : أنها لوقوع أحد الشيئين ، إذ لا فائدة في بيانه .

والثالث : أنها دخلت للتبعيض ، أي : أن بعضهم يقع به هذا ، وهذه الأقوال الثلاثة قد أسلفنا بيانها في قوله عز وجل : (أو كصيّب من السماء) [البقرة : ١٩] .

قوله تعالى : (قُبُلاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « قِبَلاً » بكسر القاف وفتح الباء . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « قُبُلاً » بضم القاف والباء . وقد بيّنّا علّة القراءتين في (الأنعام : ١١١) . وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وابن مسعود : « قَبِيلاً » بوزن فَعِيل . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو المتوكل « قَبَلاً » بفتح القاف من غير ياء ، قال ابن قتيبة : أراد استئنافاً .

فإن قيل : إذا كان المراد بسُنّة الأولين العذاب ، فما فائدة التكرار بقوله : (أو يأتيَهم العذاب) ؟

فالجواب : أن سُنّة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته ، وتختلف أنواعه ، وإتيان العذاب قُبُلاً أفاد القتل يوم بدر . قال مقاتل : « سُنّة الأولين » : عذاب الأمم السالفة ؛ « أو يأتيَهم العذاب قِبَلاً » ، أي : عِياناً قتلاً بالسيف يوم بدر .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي

وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً . وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً . وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾

قوله تعالى : (ويجادِل الذين كفروا بالباطل) قال ابن عباس : يريد : المستهزئين والمقتسمين وأتباعهم . وجدالـُهم بالباطل : أنهم ألزموه أن يأتيَ بالآيات على أهوائهم (ليُدْحِضُوا به الحق) أي : ليُبْطِلوا ماجاء به محمد ﷺ . وقيل : جدالـُهم : قولـُهم : (أإذا كُنّا عظاماً ورُفاتاً) [الاسراء : ٤٩] ، (أإذا ضللنا في الأرض) [السجدة : ١٠] ، ونحو ذلك ليبطلوا به ماجاء في القرآن من ذِكْر البعث والجزاء . قال أبو عبيدة : ومعنى « ليُدْحِضوا » : ليُزِيلوا ويذهبوا ، يقال : مكان دَحْض ، أي : مَزَلٌ لايثبت فيه قدم ولا حافر .

قوله تعالى : (واتَّخَذُوا آياتي) يعني القرآن . (وما أُنْذِروا) أي : خُوِّفوا به من النار والقيامة (هُزُواً) أي : مهزوءاً به .

قوله تعالى : (ومن أظلم) قد شرحنا هذه الكلمة في (البقرة : ١١٤) . و (ذُكِّر) بمعنى : وُعِظ . وآياتُ ربّه : القرآن ، وإعراضُه عنها : تهاونُه بها . (ونسي ماقدَّمت يداه) أي : ماسلف من ذنوبه ؛ وقد شرحنا مابعد هذا في (الأنعام : ٢١) إلى قوله : (وإن تدعُهم إلى الهُدى) وهو : الإيمان والقرآن (فلن يهتدوا) هذا إخبار عن علمه فيهم .

قوله تعالى : (وربُّك الغفور ذو الرحمة) إذ لم يعاجلهم بالعقوبة . (بل لهم

موعد) للبعث والجزاء (لن يجدوا من دونه موئلا) قال الفراء : الموئل : المنجى ، وهو الملجأ في المعنى ، لأن المنجى ملجأ ، والعرب تقول : إنه ليُوائل إلى موضعه ، أي : يذهب إلى موضعه ، قال الشاعر :

لاوَاءَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَهَا للعامِرِيَّيْن ، ولَمْ تُكْلَمِ [١]

يريد : لانجت نفسك ، وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وَقدْ أُخالِسُ رَبَّ البَيْتِ غَفْلَتَهُ وقَدْ يُحاذِرُ مِنِّي ثمَّ مَايَئِلُ [٢]

أي : ماينجو . وقال ابن قتيبة : الموئل : الملجأ . يقال : وأل فلان إلى كذا : إذا لجأ .

فان قيل : ظاهر هذه الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله ، ومعلوم أنه لانصيب لهم في رحمته .

فمنه جوابان . أحدهما : [أن] الرحمة هاهنا بمعنى النعمة ، ونعمة الله لايخلو منها مؤمن ولا كافر . فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى ، فليس للكافر فيها نصيب . والثاني : أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة ، فأما في الدنيا ، فأنهم ينالون منها العافية والرزق .

قوله تعالى : (وتلك القرى) يريد : التي قصصنا عليك ذِكْرها ، والمراد : أهلها ، ولذلك قال : (أهلكناهم) والمراد : قوم هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب . قال الفراء : قوله : (لمّا ظلموا) معناه : بعدما ظلموا .

---

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » : ١٥/٢٦٩ ، و « القرطبي » : ١١/٨ ، و « اللسان » : وأل .

(٢) ديوانه بشرح الدكتور محمد حسين ص ٥٩ ، و « الطبري » : ١٥/٢٦٩ ، و « مجاز القرآن » : ١/٤٠٨ ، و « القرطبي » : ١١/٨ .

قوله تعالى : (وجعلنا لمهلكهم) قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام ؛ قال الزجاج : وفيه وجهان .

أحدهما : أن يكون مصدراً ، فيكون المعنى : وجعلنا لإهلاكهم .

والثاني : أن يكون وقتاً ، فالمعنى : لوقت هلاكهم .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم واللام ، وهو مصدر مثل الهلاك . وقرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام ، ومعناه : لوقت إهلاكهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا . قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا . قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

قوله تعالى : (وإذ قال موسى لفتاه . . .) ، الآية ، سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر ، ما روى ابن عباس عن أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يَرُدَّ العِلْم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ؛ قال موسى : يارب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكتل ، فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ . فانطلق

معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق [١] . فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً ، قال : ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال فتاه : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة . . .) إلى قوله : (عجبا) ، قال : فكان للحوت سَرَبا ، ولموسى ولفتاه عجباً ، فقال موسى : (ذلك ما كنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصاً) قال : رجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فاذا هو مسجًّى بثوب ، فسلَّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام [٢] ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم أتيتك لتعلّمني مما علِّمت رُشْداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ياموسى ، إني على عِلْم مِنْ عِلْم الله لاتعلمُه علَّمَنيه ، وأنت على عِلْم من عِلْم الله علَّمَكَهُ لا أعلمه ؛ فقال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ؛ فقال له الخضر : فان اتَّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِث لك منه ذِكْراً ؛ فانطلقا يمشيان على الساحل ، فمرّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْلٍ [٣] ؛ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نَوْلٍ عمدتَ

---

(١) الطاق : عقد البناء ، وجمعه : طيقان ، وأطواق - وهو الأزج (بيت يبنى طولاً ، أو السقف) - وما عقد أعلاه من البناء وبقي ما تحته خالياً .

(٢) أي : من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعـرف فيها السلام . قال العلماء : « أنـّى » تأتي بمعنى : أين ، ومتى ، وحيث ، وكيف .

(٣) أي : بغير أجر ، والنول والنوال : العطاء .

إلى سفينتهم (فخرقتها لتُغْرِقَ أهلها . . .) إلى قوله : (عُسْراً) ؟ ! قال : وقال رسول الله ﷺ : « كانت الأُولى من موسى نسياناً » ، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما عِلْمي وعِلْمك من عِلم الله تعالى إلا مثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى : (أقتلت نفساً زاكية) إلى قوله : (يريد أن ينقضّ) فقال الخضر بيده [هكذا] [1] ، فأقامه ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيِّفونا (لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجراً) ! (قال هذا فراق بيني وبينك . . .) الآية . هذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » [2] ، وقد ذكرنا إسناده في كتاب « الحدائق » فآثرنا الاختصار هاهنا .

فأما التفسير ، فقوله تعالى : (وإذ قال موسى) المعنى : واذكر ذلك . وفي موسى قولان .

أحدها : أنه موسى بن عمران ، قاله الأكثرون . ويدل عليه ما روي في « الصحيحين » من حديث سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نَوْفاً البِكاليّ يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر ، قال :

---

(١) قوله : فقال الخضر بيده هكذا ، أي : أشار بيده فأقامه ، وهذا تعبير بالفعل عن القول ، وهو شائع .

(٢) البخاري : ١/١٥٣ و ٦/٣٠٨ و ٨/٣١٠ ، ومسلم : ٤/١٨٤٧ ، ورواه الترمذي ٢/١٤٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

كذب عدو الله[١] ، أخبرني أُبيّ بن كعب ... فذكر الحديث الذي قدمناه آنفاً[٢] .

والثاني : أنه موسى بن ميشا ، قاله ابن إسحاق ، وليس بشيء ، للحديث الصحيح الذي ذكرناه . فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف . وإنما سمي فتاه ، لأنه كان يلازمه ، ويأخذ عنه العلم ، ويخدمه .

ومعنى (لا أبرح) : لا أزال . وليس المراد به : لا أزول ، لأنه إذا لم يُزل لم يقطع أرضاً ، فهو مثل قولك : ما برحت أناظر عبد الله ، أي : مازلت ، قال الشاعر :

إذا أنتَ لم تبرحْ تؤدّي أمانةً وتحملُ أُخرى أفرحتْك الودائعُ[٣]

أي : أثقلتك ، والمعنى : لاأزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين ، أي : ملتقاهما ، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخَضِر فيه ، قال قتادة : بحر فارس ، وبحر الروم ، فبحر الروم نحو المغرب ، وبحر فارس نحو المشرق .

وفي اسم البلد الذي بمجمع البحرين قولان .

أحدهما : إفريقية ، قاله أُبيّ بن كعب . والثاني : طنجة ، قاله محمد بن كعب القرظي .

قوله تعالى : (أو أمضيَ حُقُباً) وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وأبو مجلز ، وقتادة ، والجحدري ، وابن يعمر : « حُقْباً » باسكان الكاف . قال ابن قتيبة : الحُقُب : الدّهر ، والحِقَب : السِنون ، واحدتها حِقْبة ، ويقال : حُقْبٌ وحُقُب ، كما يقال : قُفْل وقُفُل ، وهُزْؤ وهُزُؤ ، وكُفْؤ وكُفُؤ ، وأُكْل

---

(١) قوله : كذب عدو الله ، قال العلماء : هو على وجه الاغلاظ والزجر عن مثل قوله ، لا أنه يعتقد أنه عدو الله حقيقة ، إنما قاله مبالغة في إنكار قوله ، لمخالفته قول رسول الله ﷺ ، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس ، لشدة إنكاره ، وحالُ الغضب تطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها .

(٢) البخاري : ٨/٣١٠ ، ومسلم : ٤/١٨٤٧ .

(٣) البيت لبيهس العذري في « اللسان » : فرح .

وأُكُل ، وسُحْت وسُحُت ، ورُعْب ورُعُب ، ونُكْر ونُكُر ، وأُذْن وأُذُن ، وسُحْق وسُحُق ، وبُعْد وبُعُد ، وشُغْل وشُغُل ، وثُلْث وثُلُث ، وعُذْر وعُذُر ، ونُذْر ونُذُر ، وعُمْر وعُمُر .

وللمفسرين في المراد بالحُقُب هاهنا ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الدّهر ، قاله ابن عباس . والثاني : ثمانون سنة ، قاله عبد الله ابن عمرو ، وأبو هريرة . والثالث : سبعون ألف سنة ، قاله الحسن . والرابع : سبعون سنة ، قاله مجاهد . والخامس : سبعة عشر ألف سنة ، قاله مقاتل بن حيان . والسادس : أنه ثمانون ألف سنة ، كل يوم ألف سنة من عدد الدنيا . والسابع : أنه سنة بلغة قيس ، ذكرهما الفراء . والثامن : الحُقُب عند العرب وقت غير محدود ، قاله أبو عبيدة . ومعنى الكلام : لاأزال أسيرُ ، ولو احتجت أن أسير حُقُباً .

قوله تعالى : (فلما بلغا) يعني : موسى وفتاه (مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) يعني : البحرين (نسيا حوتهما) وكانا قد تزوّدا حوتاً مالحاً في زَبيل [1] فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء ، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر وضع فتاه المكتلَ ، فأصاب الحوتَ بللُ البحر . وقيل : توضأ يوشع من عين الحياة فانتضخ على الحوت الماء ، فعاش ، فتحرك في المِكْتَل ، فانسرب في البحر ، وقد كان قيل لموسى : تزوّدْ حوتاً مالحاً ، فاذا فقَدته وجدتَ الرجل . وكان موسى حين ذهب الحوت في البحر قد مضى لحاجة ، فعزم فتاه أن يخبره بما جرى فنسي . وإنما قيل : « نسيا حوتهما » توسعاً في الكلام ، لأنهما جميعاً تزوّداه ، كما يقال : نسي القوم زادهم ، وإنما نسيه أحدهم . قال الفراء : ومثله قوله : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) [الرحمن : ٢٢] ، وإنما يخرج ذلك من الملح ، لا من العذب . وقيل : نسي يوشع

(١) الزَّبيل : القُفّة ، والجمع : زُبُل ومثله الزِّبِّيل ، والزّنبيل ، والجمع : زنابيل .

أن يحمل الحوت، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فلذلك أُضيف النسيان إليهما.

قوله تعالى: (فاتخذ سبيله في البحر سرباً) أي: مسلكاً ومذهباً. قال ابن عباس: جعل الحوت لايمسُّ شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. وقال قتادة: جعل لايسلك طريقاً إلا صار الماء جامداً. وقد ذكرنا في حديث أُبيّ بن كعب أن الماء صار مثل الطاق على الحوت [1].

قوله تعالى: (فلما جاوزا) ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت، أصابهما مايصيب المسافر من النَّصَب، فدعا موسى بالطعام، فقال: (آتنا غداءنا) وهو الطعام الذي يؤكل بالغداة. والنَّصَب: الإعياء. وهذا يدل على إباحة إظهار مثل هذا القول عندما يلحق الإنسانَ من الأذى والتعب، ولا يكون ذلك شكوى. (قال) يوشع لموسى (أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة) أي: حين نزلنا هناك (فاني نسيتُ الحوت) فيه قولان.

أحدهما: نسيتُ أن أخبرك خبر الحوت. والثاني: نسيت حمل الحوت.

قوله تعالى: (وما أنسانيه) قرأ الكسائي: «أنسانيه» باِمالة السين [مع كسر الهاء]. وقرأ ابن كثير: «أنسانيهي» باثبات ياء في الوصل بعد الهاء. وروى حفص عن عاصم: «أنسانيهُ إلا» بضم الهاء [في الوصل].

قوله تعالى: (واتخذ سبيله في البحر عجباً) الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت. وفي المُتَّخِذ قولان.

أحدهما: أنه الحوت، ثم في المخبر عنه قولان.

أحدهما: أنه الله عز وجل، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال. أحدها: فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً، ويُحدث عجباً. والثاني: أنه لما قال الله تعالى:

(١) انظر الصفحة (١٦١).

(واتخذ سبيله في البحر) ، قال : اعجبوا لذلك عجباً ، وتنبَّهوا لهذه الآية .
والثالث : أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله : « في البحر » فقال موسى : عجباً، لما شوهد من الحوت . ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

والثاني : [أن] المُخْبِر عن الحوت يوشع ، وصف لموسى ما فعل الحوت .

والقول الثاني : أن المتخِذ موسى ، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً ، فدخل في المكان الذي مَرَّ فيه الحوت ، فرأى الخَضِر . وروى عطية عن ابن عباس قال : رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب في البحر ، ويتبعه موسى ، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر ، فلقي الخضر .

قوله تعالى : (قال) يعني : موسى (ذلك ما كُنَّا نبغي) أي : ذلك الذي نطلب من العلامة الدَّالة على مطلوبنا . قرأ ابن كثير : « نبغي » بياء في الوصل والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، بياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، بحذف الياء في الحالين .

قوله تعالى : (فارتدا على آثارهما) قال الزجاج : أي : رجعا في الطريق الذي سلكاه ، يقصَّان الأثر . والقَصَص : اتّباع الأثر .

قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا) يعني : الخضر .

وفي اسمه أربعة أقوال .

أحدها : اليسع ، قاله وهب ، ومقاتل . والثاني : الخَضِر بن عاميا . والثالث : أرميا بن حلفيا ، ذكرهما ابن المنادي : والرابع : بليا بن ملكان ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

فأما تسميته بالخضر ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرَّت ، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ [١] . والفروة : الأرض اليابسة .

والثاني : أنه كان إذا جلس اخضرَّ ما حوله ، قاله عكرمة . وقال مجاهد : كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله . وهل كان الخضر نبياً ، أم لا ؟ فيه قولان ، ذكرهما أبو بكر بن الأنباري ، وقال : كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبيـاً [٢] ، وبعضهم يقول : كان عبداً صالحاً . واختلف العلماء هل هو باقٍ إلى يومنا هذا ، على قولين حكاهما الماوردي ، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات ، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا يقول ، ويقبِّح قول من يرى بقاءه ، ويقول : لايثبت حديث في بقائه [٣] . وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر وإلياس : هل هما في الأحياء ؟ فقال : كيف يكون ذلك وقد قال النبي ﷺ : « لايبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » ؟! [٤] .

قوله تعالى : (آتيناه رحمة من عندنا) في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

(١) روى الامام أحمـد في « المسند » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال : « إنمـا سمي خضراً ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فاذا هي تهتز من تحته خضراء » وجاء في « صحيح البخاري » ٣٠٩/٦ عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إنما سمي الخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فاذا هي تهتز من خلفه خضراء » . قال ابن كثير : والمراد بالفروة هاهنا : الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات .

(٢) قال ابن كثير ٩٩/٣ عند قوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام (وما فعلته عن أمري) : وما فعلته عن أمري ، أي : لكني أمرت به ، ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام ، مع ماتقدم من قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) . وقال الآلوسي في « روح المعاني » ٢٩٣/١٥ : الجمهور على أنه نبي .

(٣) وممن جزم بأنه غير موجود الآن ، البخاري ، وابراهيم الحربي ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو طاهر العبادي ، وأبو بكر بن العربي ، وطائفة ، وعمدتهم الحديث الآتي « لايبقى على رأس مائة سنة . . . » الخ . والأخبار التي تدل على بقائه ، ضعيفة .

(٤) البخاري : ١٨٨/١ ، ومسلم : ١٩٦٥/٤ ، باختلاف يسير في ألفاظه .

أحدها : أنها النبوَّة ، قاله مقاتل . والثاني : الرِّقة والحُنُوُّ على من يستحقه ، ذكره ابن الأنباري . والثالث : النِّعمة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وعلَّمناه من لدنا) أي : من عندنا (علماً) قال ابن عباس : أعطاه عِلْماً من عِلْم الغيب .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾

قوله تعالى : (أن تعلِّمني) قرأ ابن كثير : « تعلمني مما » بإثبات الياء في الوصل والوقف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو بياء في الوصل . وقرأ ابن عامر ، وعاصم بحذف الياء في الحالين .

قوله تعالى : (مما عُلِّمْتَ رشداً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « رُشْداً » بضم الراء ، [وإسكان الشين] خفيفة . وقرأ أبو عمرو : « رَشَداً » بفتح الراء والشين . وعن ابن عامر بضمها . والرُّشْد ، والرَّشَد : لغتان ، كالنُّخْل والنَّخَل ، والعُجْم والعَجَم ، والعُرْب والعَرَب ، والمعنى : أن تعلمني عِلْماً ذا رشد . وهذه القصة قد حرَّضت على الرحلة في طلب العلم ، واتِّباع المفضول للفاضل طلباً للفضل ، وحثَّت على الأدب والتواضع للمصحوب .

قوله تعالى : (إنك لن تستطيع معي صبراً) قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي ، لأني علمت من غيب علم ربي .

وفي هذا الصبر وجهان .

أحدهما : على الإنكار . والثاني : عن السؤال .

قوله تعالى : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْراً) الخُبْر : علمك بالشيء ؛ والمعنى : كيف تصبر على أمر ظاهره مُنكَر ، وأنت لا تعلم باطنه ؟!

قوله تعالى : (ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) قال ابن الأنباري : نفي العصيان مَنسوق على الصبر [1] . والمعنى : ستجدني صابراً ولا أعصي إن شاء الله .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً . فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾

قوله تعالى : (فلا تسألني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « فلا تسألْني » ساكنة اللام . وقرأ نافع : « فلا تسألَنّي » مفتوحة اللام مشددة النون . وقرأ ابن عامر في رواية الداجوني : « فلا تسألَنِّ عن

---

(١) أي : معطوف على الصبر ، والنحويون يسمون حروف العطف : حروف النسق .

شيء » بتحريك اللام من غير ياء ، والنون مكسورة . والمعنى : لا تسألني عن شيء مما أفعله (حتى أحدث لك منه ذِكْراً) أي : حتى أكون أنا الذي أُبيِّنه لك ، لأن علمه قد غاب عنك .

قوله تعالى : (خرقها) أي : شقَّها . قال المفسرون : قلع منها لوحاً ، وقيل : لوحين مما يلي الماء ، فحشاها موسى بثوبه وأنكر عليه ما فعل بقوله : (أخرقتَها لتُغرق أهلَها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « لتُغرِق » بالتاء « أهلَها » بالنصب . وقرأ حمزة ، والكسائي : « ليَغرَق » بالياء « أهلُها » برفع اللام . (لقد جئتَ شيئاً إمراً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منكراً ، قاله مجاهد . وقال الزجاج : عظيماً من المنكر . والثاني : عجباً ، قاله قتادة ، وابن قتيبة . والثالث : داهية ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : (لا تؤاخذني بما نسيتُ) في هذا النسيان ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على حقيقته ، وأنه نسي ، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ « أن الأولى كانت نسياناً من موسى »[1]

والثاني : أنه لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام ، قاله أُبيّ بن كعب ، وابن عباس .

والثالث : أنه بمعنى التَّرك . فالمعنى : لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ولا تُرهقني) قال الفراء : لا تُعجلني . وقال أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج : لا تُغْشِني . قال أبو زيد : يقال : أرهقتُه عسراً : إذا كلفتَه ذلك . قال الزجاج : والمعنى : عاملني باليُسْر ، لا بالعُسْر .

---

(١) هذه قطعة من الحديث الطويل الذي تقدم في الصفحات (١٦١ - ١٦٣) .

قوله تعالى : (فانطلقَا) يعني : موسى والخضر . قال الماوردي : يحتمل أن يوشع تأخر عنهما ، لأن الإخبار عن اثنين ، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تَبَعٌ لموسى ، فاقتصر على حكم المتبوع .

قوله تعالى : (حتى إذا لقيا غلاماً) اختلفوا في هذا الغلام هل كان بالغاً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن بالغاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والأكثرون .

والثاني : أنه كان شاباً قد قبض على لحيته ، حكاه الماوردي عن ابن عباس أيضاً ، واحتج بأن غير البالغ لم يَجْرِ عليه قلم ، فلم يستحق القتل . وقد يُسمَّى الرجلُ غلاماً ، قالت ليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

[شفَاها من الدَّاء العُضَالِ الذي بها] غُلامٌ إذا هزّ القناةَ سقاها [1]

وفي صفة قتله له ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اقتلع رأسه ، وقد ذكرناه في حديث أُبَيٍّ . والثاني : كسر عنقه ، قاله ابن عباس . والثالث : أضجعه وذبحه بالسكين ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : (أقتلت نفساً زاكية) قرأ الكوفيون ، وابن عامر : « زكيَّة » بغير ألف ، والياء مشددة . وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد . قال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد ، وهما بمنزلة القاسية ، والقَسيّة .

وللمفسرين فيها ستة أقوال .

أحدها : أنها التائبة ، روي عن ابن عباس أنه قال : الزكية : التائبة ، [وبه] قال الضحاك .

---

(١) الأغاني طبع الدار ١١/٢٤٨ ، و « القرطبي » : ١١/٢١ ، و « البحر المحيط » ٦/١٥٠ ، و « روح المعاني » : ١٥/٣١٠ ، وقبله :

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبَّع أقصى دائها فشفاها

والثاني : أنها المسلمة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها الزكية التي لم تبلغ الخطايا ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنها الزكية النامية ، قاله قتادة . وقال ابن الأنباري : القوية في تركيبها .

والخامس : أن الزكية : المطهرة ، قاله أبو عبيدة .

والسادس : أن الزكية : البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها ، قاله الزجاج .

وقد فَرَّق بعضهم بين الزاكية ، والزكيَّة ، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : الزاكية : التي لم تذنب قطُّ ، والزكية : التي أذنبت ثم تابت . وروي عن أبي عبيدة أنه قال : الزاكية في البدن ، والزكية في الدِّين .

قوله تعالى : (بغير نفس) أي : بغير قتل نفس (لقد جئت شيئاً نكراً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « نكْراً » خفيفة في كل القرآن ، إلا قوله : (إلى شيءٍ نُكُرٍ) [القمر : ٦] ، وخفف ابن كثير أيضاً « إلى شيءٍ نُكْرٍ » . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « نُكُراً » و « إلى شيءٍ نُكُرٍ » مثقل . والمخفف إنما هو من المثقل ، كالعُنْق ، والعُنُق ، والنُّكْر ، والنُّكُر . قال الزجاج : والمعنى : لقد أتيت شيئاً نكراً . ويجوز أن يكون معناه : جئت بشيءٍ نكرٍ ، فلما حذف الباء ، أفضى الفعل فنصب نكراً ، و « نكراً » أقل منكراً من قوله : « إمراً » لأن تغريق مَنْ في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحدة .

قوله تعالى : (قال ألم أقل لك) .

إن قيل : لم ذكر « لك » هاهنا ، واختزله من الموضع الذي قبله ؟

فالجواب : أن إثباته للتوكيد ، واختزاله لوضوح المعنى ، وكلاهما معروف

عند الفصحاء . تقول العرب : قد قلت لك : اتق الله . وقد قلت لك : يا فلان اتق الله ، وأنشد ثعلب :

قد كنتُ حَذَّرْتُكَ آلَ المصْطَلِقْ وقلتُ : يا هذا أَطِعْني وانْطَلِقْ

فقوله : يا هذا ، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه . وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب يقول : وقّره في الأول ، فلم يواجهه بكاف الخطاب ، فلما خالف في الثاني ، واجهه بها .

قوله تعالى : (إن سألتك عن شيء) أي : سؤال توبيخ وإنكار (بعدها) أي : بعد هذه المسألة (فلا تصاحبني) وقرأ كذلك معاذ القارئ ، وأبو نهيك ، وأبو المتوكل ، والأعرج ، إلا أنهم شدّدوا النون . قال الزجاج : ومعناه : إن طلبتُ صحبتك فلا تُتابعني على ذلك . وقرأ أُبيْ بن كعب ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : « فلا تَصحبني » بفتح التاء من غير ألف . وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، والأعمش كذلك ، إلا أنهم شددوا النون . وقرأ أبو رجاء ، وأبو عثمان النهدي ، والنخعي ، والجحدري : « تُصْحِبْني » بضم التاء ، وكسر الحاء ، وسكون الصاد والباء . قال الزجاج : فيها وجهان .

أحدهما : لا تتابعني في شيء ألتمسه منك . يقال : قد أصحب المهر : إذا انقاد .

والثاني : لا تصحبني علماً من علمك .

(قد بلغت من لدني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « من لدنّي » مثقل . وقرأ نافع : « من لدُني » بضم الدال مع تخفيف النون . وروى أبو بكر عن عاصم : « من لَدْني » بفتح اللام مع تسكين الدال . وفي رواية أخرى عن عاصم : « لُدْني » بضم اللام وتسكين الدال . قال الزجاج :

وأجودها تشديد النون ، لأن أصل « لدن » الإسكان ، فاذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً ، ليسلم سكون النون الأولى ، تقول : من لدن زيد ، فتسكّن النون ثم تضيف إلى نفسك ، فتقول : من لدنّي ، كما تقول : عن زيد وعنّي . فأما إسكان دال « لَدْني » فانهم أسكنوها ، كما تقول في عضُد : عضْد ، فيحذفون الضم . قال ابن عباس : يريد : إنك قد أُعذرت فيما بيني وبينك ، يعني : أنك قد أخبرتني أني لا أستطيع معك صبراً .

قوله تعالى : (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أنطاكية ، قاله ابن عباس . والثاني : الأُبُلَّة ، قاله ابن سيرين . والثالث : باجروان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (استطعما أهلها) أي : سألاهم الضيافة (فأبَوْا أن يضيِّفوهما) روى المفضل عن عاصم : « يُضيفوهما » بضم الياء الأولى وكسر الضاد وتخفيف الياء الثانية . وقرأ أبو الجوزاء كذلك ، إلا أنه فتح الياء [الأولى] وقرأ الباقون : « يضيِّفوهما » بفتح الضاد وتشديد الياء الثانية وكسرها . قال أبو عبيدة : ومعنى يضيِّفوهما : ينزلوهما منزل الأضياف ، يقال : ضِفت أنا ، وأضافني الذي يُنزلني . وقال الزجاج : يقال : ضِفتُ الرجل : إذا نزلتَ عليه ، وأضفته : إذا أنزلته وقَرَيْتَهُ . وقال ابن قتيبة : [يقال] : ضيفت الرجل : إذا أنزلتَه منزلة الأضياف ، ومنه هذه الآية ، وأضفته : أنزلته ، وضِفته : نزلت عليه . وروى أُبيُّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : « كانوا أهل قرية لئاماً » [1] .

قوله تعالى : (فوجدا فيها جداراً) أي : حائطاً . قال ابن فارس : وجمعه

(١) رواه مسلم : ١٨٥٢/٤ بلفظ « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً » ، وهو قطعة من حديث طويل .

جُدُر ، والجَدْر : أصل الحائط . ومنه حديث الزبير : « ثم دع الماء يرجع إلى الجَدْر »[١] ، والجيدر : القصير .

قوله تعالى : (يريد أن ينقضَّ) وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو رجاء : «ينقاض» بألف ممدودة ، وضاد معجمة ؛ وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عثمان النهدي : « ينقاص » بألف ومدة وصاد غير معجمة ، وكلُّه بلا تشديد . قال الزجاج : فمعنى : ينقضّ : يسقط بسرعة ، وينقاص ، غير معجمة : ينشق طولاً ، يقال : انقاصت سِنُّه : إذا انشقَّت . قال ابن مقسم : انقاصت سِنُّه ، وانقاضت ـ بالصاد ، والضاد ـ على معنى واحد .

فإن قيل : كيف نسبت الإرادة إلى ما لا يعقل ؟

فالجواب : أن هذا على وجه المجاز تشبيهاً بمن يعقل ، ويريد : لأن هيأته في التهيؤ للوقوع قد ظهرت كما يظهر من أفعال المريدين القاصدين ، فوصف بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة ، وقد أضافت العرب الأفعال إلى ما لا يعقل تجوُّزاً ، قال الله عز وجل : (ولما سكت عن موسى الغضبُ) [الأعراف : ١٥٤] ، والغضب لا يسكت ، وإنما يسكت صاحبه ، وقال : (فإذا عزم الأمر) [محمد : ٢١] ، وأنشدوا من ذلك :

إنَّ دهْراً يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإحْسانِ[٢]

وقال آخر :

(١) في البخاري ٥/٢٢٧ : « اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر » وهو في النسائي : ٨/١٣٩ ، وهو جزء من حديث طويل .

(٢) البيت غير منسوب في « تأويل مشكل القرآن » : ١٠٠ ، و « الطبري » : ١٥/٢٨٩ ، و « القرطبي » : ١١/٢٦ ، و « أمالي المرتضى » : ٤/٥٥ ، و « الصناعتين » : ٢١٤ ، و « اللسان » و « التاج » : دهر ، وقد نسبه الآلوسي في « روح المعاني » : ١٦/٦ إلى حسان ابن ثابت ولم نجده في ديوانه .

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عقيلِ [١]

وقال آخر :

ضحكوا والدهرُ عنهم سَاكتٌ ثم أبكاهم دماً لمَّا نَطَقْ

وقال آخر :

يشكُو إليَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى [صَبْراً جَمِيلاً فَكِلانا مُبْتَلَى] [٢]

وهذا كثير في أشعارهم .

قوله تعالى : (فأقامه) أي : سوّاه ، لأنه وجده مائلاً .

وفي كيفية ما فعل قولان . أحدهما : أنه دفعه بيده فقام . والثاني : هدمه ثم قعد يبنيه ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : (لو شئتَ لتَخِذْتَ عليه أجراً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « لَتَخِذْتَ » بكسر الخاء ، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال ، وابن كثير يظهرها . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « لاتَّخَذْتَ » وكلهم أدغموا ، إلا حفصاً عن عاصم ، فانه لم يدغم مثل ابن كثير . قال الزجاج : يقال : تَخِذَ يَتْخَذُ في معنى : اتَّخَذَ يتَّخِذُ . وإنما قال له هذا ، لأنهم لم يضيّفوهما .

قوله تعالى : (قال) يعني : الخضر (هذا) يعني : الإنكار عَلَيَّ (فراق بيني وبينك) أي : هو المفرّق بيننا . قال الزجاج : المعنى : هذا فراقُ بينِنا ،

---

(١) البيت في « تأويل مشكل القرآن » : ١٠٠ ، و « مجاز القرآن » : ١/٤١٠ ، ونسبه محققه للحارثي و « الطبري » : ١٥/٢٨٩ ، و « الصناعتين » : ٢١٢ ، و « اللسان » : رود ، و « القرطبي » : ١١/٣٦ ، ونسبه الزمخشري في « الكشاف » : ٢/٣٩٨ للراعي .

(٢) الرجز غير منسوب في « مجاز القرآن » : ١/٣٠٣ ، و « تأويل مشكل القرآن » : ٧٩ ، و « الطبري » : ١٥/٢٨٩ ، و « القرطبي » : ٩/١٥٢ ، و « اللسان » و « التاج » : شكا .

أي : فراق اتصالنا ، وكرر « بين » توكيداً ، ومثله في الكلام : أخزى اللهُ الكاذب مني ومنك . وقرأ أبو رزين ، وابن السميفع ، وأبو العالية ، وابن أبي عبلة : « هذا فِراقٌ » بالتنوين « بيني وبينَك » بنصب النون . قال ابن عباس : كان قول موسى في السفينة والغلام، لربّه ، وكان قوله في الجدار ، لنفسه، لطلب شيء من الدنيا .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

قوله تعالى : (فكانت لمساكين) في المراد بمسكنتهم قولان .

أحدهما : أنهم كانوا ضعفاء في أكسابهم . والثاني : في أبدانهم . وقال كعب : كانت لعشرة إخوة ، خمسة زمْنى ، وخمسة يعملون في البحر .

قوله تعالى : (فأردتُ أن أعيبَها) أي : أجعلها ذات عيب ، يعني بخرقها ، (وكان وراءهم) فيه قولان .

أحدهما : أمامهم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن مسعود : « وكان أمامَهم ملِك » .

والثاني : خلفهم ؛ قال الزجاج : وهو أجود الوجهين . فيجوز أن يكون رجوعهم في طريقهم كان عليه ، ولم يعلموا بخبره ، فأعلم الله تعالى الخضرَ خبرَه .

قوله تعالى : (يأخذ كل سفينة غصباً) أي : كل سفينة صالحة . وفي قراءة أُبيِّ [بن كعب] : « كلَّ سفينة صحيحة » . قال الخضر : إنما خرقتها ، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلُها فانتفعوا بها .

قوله تعالى : (وأما الغلام) روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافراً » . وروى أُبيّ بن كعب عن رسول ﷺ أنه قال : « إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً »[1] . قال الربيع بن أنس : كان الغلام على الطريق لا يمرُّ به أحدٌ إلا قتلَه أو غصبه ، فيدعو ذلك عليه وعلى أبويه . وقال ابن السائب : كان الغلام لصّاً ، فاذا جاء من يطلبه حلف أبواه أنه لم يفعل .

قوله تعالى : (فخشينا) في القائل لهذا قولان .

أحدهما : الله عز وجل . ثم في معنى الخشية المضافة إليه قولان . أحدهما : أنها بمعنى : العلم . قال الفراء : معناه : فعلمنا . وقال ابن عقيل : المعنى : فعلنا فعل الخاشي . والثاني : الكراهة ، قاله الأخفش ، والزجاج .

والثاني : أنه الخضر ، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم ، قاله ابن الأنباري . وقد استدل بعضهم على أنه من كلام الخضر بقوله : (فأردنا أن يبدلهما ربهما) . قال الزجاج : المعنى : فأراد الله ، لأن لفظ الخبر عن الله تعالى هكذا أكثر من أن يحصى . ومعنى (يرهقهما) : يحملهما على الرَّهَق ، وهو الجهل . قال أبو عبيدة : « يُرْهِقَهُما » : يغشيَهما . قال سعيد بن جبير : خشينا

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » : ٢٠٥٠/٤ ، وأبو داود في « سننه » رقم (٤٧٠٥) ، والترمذي في « جامعه » : ١٤٤/٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٣٧/٤ وزاد نسبته لعبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » ، وابن مردويه .

أن يحملَها حُبُّه على أن يدخلا في دينه . وقال الزجاج : فرحا به حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي كان فيه هلاكهما ، فرضي امرؤ بقضاء الله [1] ، فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره ، خير له من قضائه فيما يحب .

قوله تعالى : (فأردنا أن يبدلَهما ربهما) قرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم : « أن يُبْدِلَهُما » بالتخفيف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو بالتشديد .

قوله تعالى : (خيراً منه زكاةً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ديناً ، قاله ابن عباس . والثاني : عملاً ، قاله مقاتل . والثالث : صلاحاً ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (وأقربَ رُحْماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « رُحْماً » ساكنة الحاء ، وقرأ ابن عامر : « رُحُماً » مثقلة . وعن أبي عمرو كالقراءتين . وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، وأبو رجاء : « رَحِماً » بفتح الراء ، وكسر الحاء .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أوصل للرحم وأبَرّ للوالدين ، قاله ابن عباس ، وقتادة . وقال الزجاج : أقرب عطفاً ، وأمسّ بالقرابة . ومعنى الرُحْم والرُحُم في اللغة : العطف والرحمة ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ ومنها اللّينُ والرُحُم [2]

والثاني : أقرب أن يُرحَما به ، قاله الفراء . وفيما بُدِّلا به قولان .

---

(١) في « الطبري » ، وابن كثير عن قتادة : فليرض امرؤٌ بقضاء الله .

(٢) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » : ١/٤١٣ ، و « القرطبي » : ١١/٣٧ ، و « اللسان » و « التاج » : رحم .

أحدهما : جارية ، قاله الأكثرون . وروى عطاء عن ابن عباس ، قال : أبدلهما به جارية ولدت سبعين نبيّاً .

والثاني : غلام مسلم ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة) يعني : القريةَ المذكورة في قوله : (أتيا أهل قرية) ، قال مقاتل : واسمهما : أصرم ، وصريم .

قوله تعالى : (وكان تحته كنزٌ لهما) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ذهباً وفضة ، رواه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ [١] . وقال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة : كان مالاً .

والثاني : أنه كان لوحاً من ذهب ، فيه مكتوب : عجباً لمن أيقن بالقدر ثم هو يَنْصَب ، عجباً لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجباً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجباً لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، عجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل ، عجباً لمن رأى الدنيا وتقلّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها ، أنا الله الذي لا إله إلا أنا ، محمد عبدي ورسولي ؛ وفي الشّق الآخر : أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، خلقتُ الخير والشّر ، فطوبى لمن خلقتُه للخير وأجريتُه على يديه ، والويل لمن خلقتُه للشر وأجريتُه على يديه ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن الأنباري : فسُمِّي كنزاً من جهة الذّهب ، وجعل اسمه هو المغلّب .

والثالث : كنز علم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد : صُحُف فيها عِلْم ، وبه قال سعيد بن جبير ، والسدي . قال ابن الأنباري : فيكون المعنى على هذا القول : كان تحته مثل الكنز ، لأنه يُتعجّل من نفعه أفضل مما

---

(١) رواه الترمذي : ٢/١٤٤ من حديث مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، ورواه الحاكم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

يُنال من الأموال . قال الزجاج : والمعروف في اللغة : أن الكنز إذا أُفرد ، فمعناه : المال المدفون المدّخَر ، فاذا لم يكن المال ، قيل : عنده كنز علم ، وله كنز فهم ، والكنز هاهنا بالمال أشبه ، وجائز أن يكون الكنز كان مالاً ، مكتوب فيه علم ، على ماروي ، فهو مال وعِلْم عظيم .

قولهتعالى : (وكان أبوهما صالحاً) قال ابن عباس : حُفِظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاحاً . وقال جعفر بن محمد عليه السلام : كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء . وقال مقاتل : كان أبوهما ذا أمانة .

قولهتعالى : (فأراد ربُّك) قال ابن الأنباري : لما كان قوله : « فأردتُ » « وأردنا » كل واحد منهما يصلح أن يكون خبراً عن الله عز وجل ، وعن الخضر ، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه ، ويزيلها عن غيره ، ويكشف البُغية من اللفظتين الأولَيين . وإنما قال : « فأردتُ » « فأردنا » « فأراد ربُّك » ، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتفاقه مع تساوي المعاني ، لأنه أعذب على الألسن ، وأحسن موقعاً في الأسماع ، فيقول الرجل : قال لي فلان كذا ، وأنبأني بما كان ، وخبَّرني بما نال . فأما « الأَشُدّ » فقد سبق ذكره في مواضع [الأنعام: ١٥٢ ، ويوسف : ٢٢ ، والاسراء : ٣٤] ولو أن الخضر لم يُقِم الحائط لنُقض وأُخِذ ذلك الكنز قبل بلوغهما .

قولهتعالى : (رحمةً من ربك) أي : رحمهما الله بذلك . (وما فعلتُه عن أمري) قال قتادة : كان عبداً مأموراً [١] .

فأما قوله : (تَسْطِع) فان « استطاع » و « اسطاع » بمعنى واحد .

---

(١) وهذا يدل على أنه كان نبياً ، وأن ماصدر منه كان بوحي من الله عز وجل . قال الطبري : وما فعلت ياموسى جميع الذي رأيتني فعلته ، عن رأيي ومن تلقاء نفسي ، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به . وانظر الصفحة (١٦١) .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً . فَأَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن ذي القرنين) قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) [الاسراء : ٨٥] [١] .

واختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال .

أحدها : عبد الله ، قاله علي عليه السلام ، وروي عن ابن عباس أنه عبد الله ابن الضحاك . والثاني : الاسكندر ، قاله وهب . والثالث : عيَّاش ، قاله محمد بن علي ابن الحسين . والرابع : الصعب بن جابر بن القلمس ، ذكره ابن أبي خيثمة .

وفي علَّة تسميته بذي القرنين عشرة أقوال .

أحدها : أنه دعا قومه إلى الله تعالى ، فضربوه على قرنه فهلك ، فغبر زماناً ، ثم بعثه الله ، فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فهلك ، فذانك قرناه ، قاله علي عليه السلام . والثاني : أنه سمي بذي القرنين ، لأنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . والرابع : لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس ، فقصَّ ذلك على قومه ، فسمِّي بذي القرنين . والخامس : لأنه

---

(١) انظر القول الثاني في الصفحة (٨١) من هذا الجزء .

مَلَك الروم وفارس . والسادس : لأنه كان في رأسه شبه القرنين ، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبّه . والسابع : لأنه كانت له غديرتان من شعر ، قاله الحسن . قال ابن الأنباري : والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين ، وجميرتين ، وقرنين ؛ قال : ومن قال : سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم ، قال : لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما : قرنان . والثامن : لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف . والتاسع : لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس ، وهو حيّ . والعاشر : لأنه سلك الظلمة والنور ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو إسحاق الثعلبي .

واختلفوا هل كان نبيّاً ، أم لا ؛ على قولين .

أحدهما : أنه كان نبيّاً ، قاله عبد الله بن عمرو ، والضحاك بن مزاحم .

والثاني : أنه كان عبداً صالحاً [1] ، ولم يكن نبيّاً ، ولا مَلَكاً ، قاله علي عليه السلام . وقال وهب : كان ملكاً ، ولم يوح إليه .

وفي زمان كونه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه من القرون الأُوَل من ولد يافث بن نوح ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : أنه كان بعد ثمود ، قاله الحسن . ويقال : كان عمره ألفاً وستمائة سنة .

والثالث : [أنه] كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، قاله وهب .

قوله تعالى : (سأتلو عليكم منه ذِكْراً) أي : خبراً يتضمن ذِكْره . (إنا مكّنّا له في الأرض) أي : سهّلنا عليه السَّير فيها . قال علي عليه السلام : إنه أطاع الله ، فسخّر له السحاب فحمله عليه ، ومَدّ له في الأسباب ، وبسط له النُّور ، فكان

(١) ذكر ابن جرير الطبري عن أبي الطفيل قال : سمعت علياً وسألوه عن ذي القرنين ، أنبياً كان ؟ قال : كان عبداً صالحاً .

الليل والنهار عليه سواء . وقال مجاهد : مَلَكَ الأرضَ أربعةٌ : مؤمنان، وكافران ؛ فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ؛ والكافران : النمرود ، وبختنصر .

قوله تعالى : (وآتيناه من كل شيء سبباً) قال ابن عباس : عِلْماً يتسبب به إلى مايريد . وقيل : هو العِلْم بالطُّرق والمسالك .

قوله تعالى : (فأتبع سبباً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « فاتَّبع سبباً » « ثم اتَّبع سبباً » « ثم اتَّبع سبباً » مشددات التاء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « فأتبع سبباً » « ثم أتبع سبباً » « ثم أتبع سبباً » مقطوعات . قال ابن الأنباري : من قرأ « فاتَّبع سبباً » فمعناه : قفا الأثر ، ومن قرأ « فأتبع » فمعناه : لحق ؛ يقال: اتَّبَعَني فلان ، أي : تَبِعَني ، كما يقال : ألْحَقَني فلان ، بمعنى : لَحِقَني . وقال أبو علي : « أتبع » تقديره : أتبع سبباً سبباً ، فأتبع ماهو عليه سبباً ، والسبب : الطريق ، والمعنى : تبع طريقاً يؤدّيه إلى مَغْرِب الشمس . وكان إذا ظهر على قوم أخذ منهم جيشاً فسار بهم إلى غيرهم .

قوله تعالى : (وجدها تغرب في عين حمئة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « حمئة » ، وهي قراءة [ابن عباس . وقرأ] ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « حامية » ، وهي قراءة عمرو ، وعلي ، وابن مسعود ، والزبير ، ومعاوية ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، وعكرمة ، والنخعي ، وقتادة ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، والأعمش ، كلُّهم لم يهمز . قال الزجاج : فمن قرأ : « حمئة » أراد في عَيْنٍ ذاتِ حَمْأَة . يقال : حَمَأْتُ البئر : إذا أخرجتَ حَمْأتها ؛ وأحمأتُها : إذا ألقيتَ فيها الحَمْأَة . [وحمئت] فهي حمئة : إذا صارت فيها الحَمْأَة . ومن قرأ : « حامية » بغير همز ، أراد : حارّة . وقد تكون حارَّة ذاتَ حَمْأَة . وروى قتادة عن الحسن ، قال :

وجدها تَغْرُب في ماء يغلي كغليان القدور (ووجد عندها قَوْماً) لباسهم جلود السِّباع ، وليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس من الدوابّ إذا غربت نحوها ، وما لفظت العين من الحيتان إذا وقعت فيها الشمس . وقال ابن السائب : وجد عندها قوماً مؤمنين وكافرين ، يعني عند العين . وربما توهَّم متوهِّم أن هذه الشمس على عِظَم قدْرها تغوص بذاتها في عين ماء ، وليس كذلك . فانها أكبر من الدنيا مراراً ، فكيف تَسَعُها عين [ماء ؟! . وقيل : إن الشمس بقدر الدنيا مائة وخمسين مَرَّة ، وقيل : بقدر الدنيا مائة وعشرين مَرَّة ، والقمر بقدر الدنيا ثمانين مرة] . وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر الذي لا يرى طَرَفه أن الشمس تغيب في الماء ، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عيناً حَمِئة ليس بعدها أحد .

قوله تعالى : (قلنا ياذا القرنين) فمن قال : إنه نبيّ ، قال : هذا القول وحي ؛ ومن قال : ليس بنبي ، قال : هذا إلهام .

قوله تعالى : (إما أن تُعَذِّب) قال المفسرون : إما أن تقتلهم إن أبَوْا ما تدعوهم إليه ، وإما أن تأسرهم ، فتبصِّرهم الرشد . (قال أمّا مَنْ ظَلَم) أي : أشرك (فسوف نُعَذِّبُه) بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك . وقال الحسن : كان يطبخهم في القدور ، (ثم يُرَدُّ إلى ربِّه) بعد العذاب (فيعذبه عذاباً نُكْراً) بالنار .

قوله تعالى : (فله جزاءً الحسنى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « جزاءُ الحسنى » برفع مضاف . قال الفراء : « الحسنى » : الجنة ، وأضيف الجزاء إليها ، وهي الجزاء ، كقوله : (إنه لَحَقُّ اليقين) [الحاقة : ٥١] و (دينُ القيِّمة) [البيّنة : ٥] (ولدار الآخرة) [النحل : ٣٠] . قال أبو علي الفارسي : المعنى : فله جزاء الخلال الحسنى ، لأن الإيمان والعمل الصالح خِلال . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ، ويعقوب : « جزاءً »

بالنصب والتنوين ؛ قال الزجاج : وهو مصدر منصوب على الحال ، المعنى : فله الحسنى مَجْزِيّاً بها جزاءً . وقال ابن الأنباري : وقد يكون الجزاء غير الحسنى إذا تأوّل الجزاء بأنه الثواب ؛ والحسنى : الحسنة المكتسبة في الدنيا ، فيكون المعنى : فله ثواب ما قدّم من الحسنات .

قوله تعالى : (وسنقول له من أمرنا يُسْراً) أي : نقول له قولاً جميلاً .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾

قوله تعالى : (ثم أَتْبَعَ سبباً) أي : طريقاً آخر يوصله إلى المَشْرِق . قال قتادة : مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسرابٍ عراةً ، ليس لهم طعام إلا ما أحرقت الشمس إذا طلعت ، فإذا توسطت السماء خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم مما أحرقته الشمس . وبلغنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ، فيقال : إنهم الزنج . قال الحسن : كانوا إذا غربت الشمس خرجوا يتراعَون كما يتراعى الوحش . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : « مَطْلَع الشمس » بفتح اللام . قال ابن الأنباري : ولا خلاف بين أهل العربية في أن المَطْلِع ، والمَطْلَع كلاهما يعنى بهما المكانُ الذي تطلع منه الشمس . ويقولون : ما كان على فَعَل يفْعُل ، فالمصدر واسم الموضع يأتيان على المَفْعَل ، كقولهم : المَدْخَل ، للدخول ، والموضع الذي يُدخَل منه ، إلا أحد عشر حرفاً جاءت مكسورة إذا أريد بها المواضع ، وهي : المَطْلِع ، والمَسْكِن ، والمَنْسِك ، والمَشْرِق ، والمَغْرِب ، والمَسْجِد ، والمَنْبِت ، والمَجْزِر ، والمَفْرِق ، والمَسْقِط ،

والمَنْبِل ، الموضع الذي تضع فيه الناقة ؛ وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً سُمع فيهن الكسر والفتح : المَطْلِع ، والمَطْلَع . والمَنْسِك ، والمَنْسَك . والمَجْزِر ، والمَجْزَر . والمَسْكِن ، والمَسْكَن . والمَنْبِت ، والمَنْبَت ؛ فقرأ الحسن على الأصل من احتمال المَفْعل الوجهين الموصوفين [بفتح العين وكسرها] ، وقراءة العامة على اختيار العرب وما كثر على ألسنتها ، وخصت المَوْضِع بالكسر ، وآثرت المصدر بالفتح . قال أبو عمرو : المطلِع ، بالكسر : الموضع الذي تطلع فيه ؛ والمطلَع ، بالفتح : الطُّلوع ؛ قال ابن الأنباري : هذا هو الأصل ، ثم إن العرب تتسع فتجعل الاسم نائباً عن المصدر ، فيقرؤون : (حتى مَطْلِع الفجر) [القدر : ٥] بالكسر وهم يعنون الطُّلوع ؛ ويقرأ من قرأ (مَطْلَع الشمس) بالفتح على أنه موضع بمنزلة المدخل الذي هو اسم للموضع الذي يدخل منه .

قوله تعالى : (كذلك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : كما بلغ مَغْرِب الشمس بلغ مطلعها .

والثاني : أتبع سبباً كما أتبع سبباً .

والثالث : كما وجد أولئك عند مَغْرِب الشمس وحكم فيهم ، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم .

والرابع : أن المعنى : كذلك أمرُهم كما قصصنا عليك ؛ ثم استأنف فقال : (وقد أحطنا بما لديه) أي : بما عنده ومعه من الجيوش والعدد . وحكى أبو سليمان الدمشقي : « بما لديه » أي : بما عند مطلع الشمس . وقد سبق معنى الخُبْر [الكهف : ٦٨] .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً . قَالَ مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً . قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾

قوله تعالى : (ثم أتبع سبباً) أي : طريقاً ثالثاً بين المَشْرِق والمَغْرِب (حتى إذا بلغ بين السدين) قال وهب بن منبه : هما جبلان منيفان في السماء ، من ورائهما البحر ، ومن أمامهما البلدان ، وهما بمنقطَع أرض التُّرك مما يلي بلاد أرمينية . وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس قال : الجبلان من قِبَل أرمينية وأذربيجان . واختلف القراء في « السدّين » فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم بفتح السين . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي بضمها .

وهل المعنى واحد، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه واحد . قال ابن الاعرابي : كل ما قابلك فسَدَّ ما وراءه ، فهو سَدٌّ ، وسُدٌّ ، نحو : الضَّعف والضُّعف ، والفَقر والفُقر . قال الكسائي ، وثعلب : السَّد والسُّد لغتان بمعنى واحد ، وهذا مذهب الزجاج .

والثاني : أنهما يختلفان .

وفي الفرق بينهما قولان .

أحدهما : أن ما هو من فعل الله تعالى فهو مضموم ، وما هو من فعل

الآدميين فهو مفتوح ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وأبو عبيدة . قال الفراء : وعلى هذا رأيت المشيخة وأهل العلم من النحويين .

والثاني . أن السَّد ، بفتح السين : الحاجز بين الشيئين ، والسُدُّ ، بضمها : الغشاوة في العَيْن ، قاله أبو عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : (وَجد من دونهما) يعني : أمام السدين (قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يَفْقَهُون قولاً » بفتح الياء ، أي : لا يكادون يفهمونه . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : معناه أنهم يفهمون بعد إبطاءٍ ، وهو كقوله : (وما كادوا يفعلون) [البقرة : ٧١] . قال المفسرون : وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يُفْقِهُون » بضم الياء ، أراد : يُفْهِمُون غيرهم . وقيل : كلَّم ذا القرنين عنهم مترجِمون ترجموا .

قوله تعالى : (إن يأجوج ومأجوج) هما : اسمان أعجميان ، وقد همزهما عاصم . قال الليث : الهمز لغة رديئة . قال ابن عباس : يأجوج رجل ، ومأجوج رجل ، وهما ابنا يافث بن نوح عليه السلام ، فيأجوج ومأجوج عشرة أجزاء ، وولد آدم كلهم جزء ، وهم شِبْر وشِبْران وثلاثة أشبار . وقال عليّ عليه السلام : منهم مَنْ طوله شِبْر ، ومنهم من هو مُفْرِط في الطُول ، ولهم من الشَّعر ما يواريهم من الحَرّ والبَرْد . وقال الضحاك : هم جيل من التُرك . وقال السدي : التُرك سريّة من يأجوج ومأجوج خرجت تُغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السَّد ، فبقيت خارجه . وروى شقيق عن حذيفة ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن يأجوج ومأجوج ، فقال : « يأجوج أُمَّة ، ومأجوج أُمَّة ، كل أُمَّة أربعمائة [ألف] أُمَّة ، لا يموت الرجُل منهم حتى ينظر إلى ألف ذَكَر بين يديه من صُلْبه كُلٌّ قد

حمل السلاح ؛ قلت : يارسول الله ، صِفْهُم لنا ، قال : « هم ثلاثة أصناف ، صنف منهم أمثال الأرز » ؛ قلت : يارسول الله : وما الارز ؟ قال : « شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء ؛ وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل ولاحديد ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ، ويلتحف بالأخرى ولا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدِّمتهم بالشام ، وساقتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية » [١] .

قوله تعالى : (مُفْسِدون في الأرض) في هذا الفساد أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يفعلون فِعْل قوم لوط ، قاله وهب بن منبِّه .

والثاني : أنهم كانوا يأكلون الناس ، قاله سعيد بن عبد العزيز .

والثالث : يُخرِجون إلى الأرض الذين شكَوْا منهم أيام الربيع ، فلا يَدَعون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم ، قاله ابن السائب .

والرابع : كانوا يقتلون الناس ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فهل نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « خَرجاً » بغير ألف . وقرأ حمزة ، والكسائي : « خراجاً » بألف . وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد ، قاله أبو عبيدة ، والليث .

والثاني : أن الخَرْجَ : ما تبرعت به ، والخراج : ما لزمك أداؤه ، قاله أبو عمرو بن العلاء . قال المفسرون : المعنى : هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجُعل لك ؟

---

(١) أورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٥٠ من رواية ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عدي ، وابن عساكر ، وابن النجار عن حذيفة رضي الله عنه .

قوله تعالى : (ما مكَّنّي) وقرأ ابن كثير : « مكّنني » بنونين ، وكذلك هي في مصاحف مكة . قال الزجاج : من قرأ : « مكَّنِّي » بالتشديد ، أدغم النون في النون لاجتماع النونين . ومن قرأ : « مكّنني » أظهر النونين ، لأنهما من كلمتين ، الأولى من الفعل ، والثانية تدخل مع الاسم المضمر .

وفي الذي أراد بتمكينه منه قولان .

أحدهما : أنه العِلْم بالله ؛ وطلب ثوابه .

والثاني : ما ملك من الدنيا . والمعنى : الذي أعطاني الله خير مما تبذلون لي .

قوله تعالى : (فأعينوني بِقُوَّة) فيها قولان .

أحدهما : أنها الرجال ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

والثاني : الآلة ، قاله ابن السائب . فأما الرَّدْم ، فهو : الحاجز ؛ قال الزجاج : والرَّدْم في اللغة أكبر من السدّ ، لأن الرَّدْم : ما جُعل بعضه على بعض ، يقال : ثوب مُرَدَّم : إذا كان قد رقّع رقعة فوق رقعة .

قوله تعالى : (آتوني زُبَرَ الحديد) قرأ الجمهور : « ردماً آتوني » أي : أعطوني . وروى أبو بكر عن عاصم : « ردمٍ ايتوني » بكسر التنوين ، أي : جيئوني بها . قال ابن عباس : احملوها إليَّ . وقال مقاتل : أعطوني . وقال الفراء : المعنى : إيتوني بها ، فلما ألقيت الياء زيدت ألف . فأما الزُّبُر ، فهي : القِطَع ، واحدتها : زُبْرَة ؛ والمعنى : فأتوه بها فبناه ، (حتى إذا ساوى) وروى أبان « إذا سوّى » بتشديد الواو من غير ألف . قال الفراء : ساوى وسوّى سواء . واختلف القراء في (الصَّدَفَين) فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « الصُّدُفَين » بضم الصاد والدال ، وهي : لغة حِمْيَر . وروى أبو بكر والمفضل عن عاصم : « الصُّدْفين » بضم الصاد وتسكين الدال . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ،

وحفص عن عاصم ، وخلف ، بفتح الصاد والدال جميعاً ، وهي لغة تميم ، واختارها ثعلب . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن يعمر : « الصَّدُفين » بفتح الصاد ورفع الدال . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران ، والزهري ، والجحدري برفع الصاد وفتح الدال . قال ابن الأنباري : ويقال : صُدَف ، على مثال نُغَر ، وكل هذه لغات في الكلمة . قال أبو عبيدة : الصَّدَفان : جَنْبا الجبل . قال الأزهري : يقال لجانبي الجبل : صَدَفان ، إذا تحاذيا ، لتصادفهما ، أي : لتلاقيهما . قال المفسرون : حشا ما بين الجبلين بالحديد ، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم ، ووضع عليها المنافيخ ، ثم (قال انفخوا) فنفخوا (حتى إذا جعله) يعني : الحديد ، وقيل : الهاء ترجع إلى ما بين الصدفين (ناراً) أي : كالنار ، لأن الحديد إذا أحمي بالفحم والمنافيخ صار كالنار ، (قال آتوني) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « آتوني » ممدودة ، والمعنى : أعطوني . وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « إيتوني » مقصورة ؛ والمعنى : جيئوني به أُفرغه عليه .

وفي القِطْر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النحاس ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء ، والزجاج . والثاني : أنه الحديد الذائب ، قاله أبو عبيدة . والثالث : الصُّفْر المُذاب ، قاله مقاتل . والرابع : الرصاص ، حكاه ابن الأنباري . قال المفسرون : أذاب القِطْر ثم صبَّه عليه ، فاختلط والتصق بعضه ببعض حتى صار جبلاً صلداً من حديد وقِطْر . قال قتادة : فهو كالبرد المحبر ، طريقة سوداء وطريقة حمراء .

قوله تعالى : (فما اسطاعوا) أصله : فما « استطاعوا » فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبُّوا التخفيف فحذفوا . قال ابن الأنباري : إنما تقول العرب : اسطاع ، تخفيفاً ، كما قالوا : سوف يقوم ، وسيقوم ، فأسقطوا الفاء .

قوله تعالى : (أن يَظْهَروه) أي : يعلوه ؛ يقال : ظهر فلان فوق البيت : إذا علاه ، والمعنى : ماقدروا أن يعلوه لارتفاعه وامِّلاسه (وما استطاعوا له نقباً) من أسفله ، لشدته وصلابته . وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج لَيحفرون السدَّ كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه ، فيرونه كأشد ماكان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم على الناس ، حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً إن شاء الله ، ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس » وذكر باقي الحديث[1] ؛ وقد ذكرت هذا الحديث بطوله وأشباهه في كتاب « الحدائق » فكرهت التطويل هاهنا .

قوله تعالى : (قال هذا رحمة من ربّي) لمّا فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا . وفيما أشار إليه قولان .

---

(١) رواه الامام أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتتمة الحديث : « فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً (دود يكون في أنوف الابل والغنم) في رقابهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » ، ورواه الترمذي في « جامعه » : ٢/١٤٤ وقال : هذا حديث حسن غريب ، وإنما نعرفه من هذا الوجه مثل هذا ، ورواه ابن ماجه في « سننه » رقم (٤٠٨٠) قال في « الزوائد » عنه : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه الابهام والتي تليها ، فقالت زينب : فقلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » . وانظر « صحيح مسلم » : ٤/٢٢٥٤ وما ذكر فيه من فتنة يأجوج ومأجوج .

أحدهما : أنه الرَّدم ، قاله مقاتل ؛ قال : فالمعنى : هذا نِعْمة من ربِّي على المسلمين لئلا يخرجوا إليهم .

والثاني : أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فاذا جاء وعد ربِّي) فيه قولان .

أحدهما : القيامة . والثاني : وعده لخروج يأجوج ومأجوج .

قوله تعالى : ((جعله دكّاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « دكّاً » منوناً غير مهموز ولا ممدود . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « دكّاء » ممدودة مهموزة بلا تنوين . وقد شرحنا معنى الكلمة في (الأعراف : ١٤٣) .

قوله تعالى : (وكان وعد ربي حقاً) أي : بالثواب والعقاب .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً . وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً . الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾

قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) في المشار إليهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم يأجوج ومأجوج . ثم في المراد بـ « يومئذ » قولان . أحدهما : أنه يوم انقضى أمر السدِّ ، تُركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم ؛ وقيل : ماجوا متعجبين من السدِّ . والثاني : أنه يوم يخرجون من السدِّ تُركوا يموج بعضهم في بعض .

والثاني : أنهم الكفار .

والثالث : أنهم جميع الخلائق : الجن والإنس يموجون حيارى . فعلى هذين القولين ، المراد باليوم المذكور يوم القيامة .

قوله تعالى : (ونُفخ في الصُّور) هذه نفخة البعث . وقد شرحنا معنى « الصُّور » في (الأنعام : ٧٣) .

قوله تعالى : (وعرضنا جهنم) أي : أظهرناها لهم حتى شاهدوها .

قوله تعالى : (الذين كانت أعينهم) يعني : أعين قلوبهم (في غِطاءٍ) أي : في غفلةٍ (عن ذِكْري) أي : عن توحيدي والإيمان بي وبكتابي (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) هذا لعداوتهم وعنادهم وكراهتهم ما يُنْذَرون به ، كما تقول لمن يكره قولك : ما تقدر أن تسمع كلامي .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾

قوله تعالى : (أفحسب الذين كفروا) أي : أفظَنَّ المشركون (أن يتخذوا عبادي) في هؤلاء العباد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله ابن عباس . والثاني : الأصنام ، قاله مقاتل . والثالث : الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (من دونيَ) فتح هذه الياء نافع ، وأبو عمرو . وجواب الاستفهام في هذه الآية محذوف ، وفي تقديره قولان .

أحدهما : أفحسبوا أن يتخذوهم أولياء ، كلا بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم .

والثاني : أن يتخذوهم أولياء ولا أغضبُ ولا أعاقبُهم . وروى أبان عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : « أفَحَسْبُ » بتسكين السين وضم الباء ، وهي قراءة علي عليه السلام ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وابن محيصن ؛ ومعناها : أفيكفيهم أن يتخذوهم أولياء ؟ .

فأما النُّزُل ففيه قولان .

أحدها : أنه ما يُهيَّأ للضيف والعسكر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : أنه المنزل ، قاله الزجاج .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَزْناً . ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾

قوله تعالى : (قل هل نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالاً) فيهم قولان .

أحدها : أنهم القسّيسون والرهبان ، قاله علي عليه السلام ، والضحاك .

والثاني : اليهود والنصارى ، قاله سعد بن أبي وقاص .

قوله تعالى : (أعمالاً) منصوب على التميز ، لأنه لما قال : « بالأخسرين » كان ذلك مبهماً لا يدل على ما خسروه ، فبيّن ذلك في أي نوع وقع .

قوله تعالى : (الذين ضل سعيهم) أي : بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا ، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح ، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم ، وأتباعُهم مقلِّدون بغير دليل . (أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم) جحدوا دلائل توحيده ، وكفروا بالبعث والجزاء ، وذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ والقرآن ، صاروا كافرين بهذه الأشياء (فحبطت أعمالهم) أي : بطل اجتهادهم ، لأنه خلا عن الإيمان (فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً) وقرأ ابن مسعود ، والجحدري : « فلا يُقيم » بالياء .

وفي معناه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما يثقل الميزان بالطاعة ، وإنما توزن الحسنات والسيئات ، والكافر لا طاعة له .

والثاني : أن المعنى : لا نُقيم لهم قَدْراً . قال ابن الأعرابي في تفسير هذه الآية : يقال : ما لفلان عندنا وزن ، أي : قَدْر ، لخسَّته . فالمعنى : أنهم لا يُعتدُّ بهم ، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة . وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة ، اقرؤوا إن شئتم : (فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزنا) »[1] .

والثـالث : أنه قال : « فلا نقيم لهم » لأن الوزن عليهم لا لهم ؛ ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ذلك جزاؤهم) أي : الأمر ذلك الذي ذكرت من بطلان عملهم وخِسَّة قدرهم ، ثم ابتدأ فقال : (جزاؤهم جهنم) ، وقيل : المعنى : ذلك التصغير لهم ، وجزاؤهم جهنم ، فأضمرت واو الحال .

قوله تعالى : (بما كفروا) أي : بكفرهم واتخاذهم (آياتي) التي أنزلتها (ورُسُلي هزواً) أي : مهزوءاً به .

---

(١) ذكره الحافظ في « الفتح » : ٨/٣٢٤ من رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ « الطويل العظيم الأكول الشروب » . وأورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٥٤ من رواية ابن عدي ، والبيهقي في « شعب الإيمـان » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليؤتين يوم القيـامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب ، فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) » . ورواه البخـاري : ٨/٣٢٤ ، ومسلم : ٤/٢١٤٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » وقال : « اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾

قوله تعالى : (كانت لهم جنات الفردوس) قال ابن الأنباري : كانت لهم في علم الله قبل أن يُخلَقوا . وروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « جِنانُ الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيها ، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[1] . وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، الفردوس أعلاها ، ومنها تفجَّر أنهار الجنة ، فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس »[2] . قال أبو أمامة : الفردوس سرّة الجنة . قال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية . وقال كعب ، والضحاك : « جنات الفردوس » : جنات الأعناب . قال الكلبي ، والفراء : الفردوس : البستان الذي فيه الكرم . وقال المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ،

(١) لفظه في البخاري : ٨/٤٧٩ ، ومسلم : ١/١٦٣ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « جنتان من فضة ، آنيتها ومافيها ، وجنتان من ذهب ، آنيتها ومافيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي رواية الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني في أول هذا الحديث : « جنان الفردوس أربع ، ثنتان من ذهب . . . » الخ .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » ، والترمذي : ٢/٧٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي في « البعث » ، وابن مردويه . ورواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة بلفظ : « إذا سألتم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس ، فانه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

والأغاب عليه العنب . وقال ثعلب : كل بستان يحوّط عليه فهو فردوس ، قال عبد الله بن رواحة :

في جنانِ الفردوسِ ليسَ يخافو ... ن خروجاً عنها ولا تحويلا

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال الزجاج : الفردوس أصله رومي أعرب ، وهو البستان ، كذلك جاء في التفسير ، وقد قيل : الفردوس تعرفه العرب ، وتسمي الموضع الذي فيه كرم : فردوساً . وقال أهل اللغة : الفردوس مذكّر ، وإنما أنث في قوله تعالى : (يَرِثون الفردوس هم فيها خالدون) [المؤمنون : ١١] لأنه عنى به الجنة . وقال الزجاج : وقيل : الفردوس : الأودية التي تنبت ضروباً من النبت ، وقيل : هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، قال : والفردوس أيضاً بالسريانية كذا لفظه : فردوس ، قال : ولم نجده في أشعار العرب إلا في شعر حسان ، وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل مايكون في البساتين ، لأنه عند أهل كل لغة كذلك ، وبيت حسان :

فَإنَّ ثَوَابَ اللهِ كلَّ مُوَحِّدٍ ... جِنَانٌ مِنَ ٱلفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدِ [1]

وقال ابن الكلبي باسناده : الفردوس : البستان بلغة الروم ، وقال الفراء : وهو عربي أيضاً ، والعرب تسمي البستان الذي فيه الكرم فردوساً . وقال السدي : الفردوس أصله بالنبطية « فرداسا » . وقال عبد الله بن الحارث : الفردوس : الأعناب . وقد شرحنا معنى قوله : « نُزُلاً » آنفاً [2] .

قوله تعالى : (لايبغون عنها حِوَلاً) قال الزجاج : لايريدون عنها تحوُّلاً ،

---

(١) ديوانه : ١٥٠ ، و « البحر » : ٦/١٦٨ ، و « روح المعاني » : ١٦/٤٧ ، و « اللسان » و « التاج » : فردس .

(٢) قد مر تفسيره في الصفحة ١٩٧ .

يقال : قد حال من مكانه حِوَلاً ، كما قالوا في المصادر : صَغُر صِغَراً ، وعَظُم عِظَماً ، وعادَني حُبُّها عِوَداً ؛ قال : وقد قيل أيضاً : إن الحِوَل : الحيلة ، فيكون المعنى : لايحتالون مَنْزِلاً غيرها .

فان قيل : قد عُلِم أن الجنة كثيرة الخير ، فما وجه مدحها بأنهم لايبغون عنها حِوَلاً ؟

فالجواب : أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لايوافقه ، فيحب أن ينتقل إلى دار أخرى ، وقد يملّ ، والجنة على خلاف ذلك .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾

قوله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي) سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) [الاسراء : ٨٥] قالت اليهود : كيف وقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . ومعنى الآية : لو كان ماء البحر مداداً يُكتَب به . قال مجاهد : [والمعنى] : لو كان البحر مداداً للقلم ، والقلم يكتب . وقال ابن الأنباري : سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء . وقرأ الحسن ، والأعمش : « مدداً لكلمات ربّي » بغير ألف .

قوله تعالى : (قبل أن تنفَد كلمات ربي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : « تنفد » بالتاء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « ينفد » بالياء . قال أبو علي : التأنيث أحسن ، لأن المُسنَد إليه الفعلُ مؤنث ، والتذكير حسن ، لأن التأنيث ليس بحقيقي ، وإنما لم تنفد كلمات الله ، لأن كلامه صفة من صفات

ذاته ، ولا يتطرق على صفاته النفاد ، (ولو جئنا بمثله) أي : بمثل البحر (مدداً) أي : زيادة ؛ والمدد : كل شيء زاد في شيء .

فان قيل : لم قال في أول الآية : « مداداً » وفي آخرها : « مدداً » وكلاهما بمعنى واحد ، واشتقاقهما غير مختلف ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : لما كان الثاني آخر آية ، وأواخر الآيات هاهنا أتت على الفُعُل ، والفِعَل ، كقوله : « نُزُلاً » « هُزُواً » « حِوَلاً » كان قوله : « مَدَداً » أشبه بهؤلاء الألفاظ من المداد ، واتفاقُ المقاطع عند أواخر الآي ، وانقضاء الأبيات ، وتمام السجع والنثر ، أخف على الألسن ، وأحلى موقعاً في الأسماع ، فاختلفت اللفظتان لهذه [العلة] . وقد قرأ ابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، وأبو رجاء ، وقتادة ، وابن محيصن : « ولو جئنا بمثله مداداً » فحملوها على الأولى ، ولم ينظروا إلى المقاطع . وقراءة الأوَّلِين أبْيَن حُجَّة ، وأوضح منهاجاً .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

قوله تعالى : (قل إنما أنا بَشَر مِثْلُكم) قال ابن عباس : علَّم الله تعالى رسوله التواضع لئلا يزهى على خلقه ، فأمره أن يُقِرَّ على نفسه بأنه آدمي كغيره ، إلا أنه أُكرم بالوحي .

قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربّه) سبب نزولها أن جندب بن زهير الغامدي [1] قال لرسول الله ﷺ : إني أعمل العمل [لله تعالى] فاذا اطّلع عليه

---

(١) في الأصل و « القرطبي » : « العامري » وما أثبتناه من « الاصابة » ، و « أسباب النزول » للواحدي ، وكتب التفسير .

سرَّني ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله طيِّب لا يقبل إلا الطيِّب ، ولا يقبل ما روئي فيه » فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن عباس [١] . وقال طاووس : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أُحب الجهاد [في سبيل الله] وأُحب أن يُرى مكاني ، فنزلت هذه الآية [٢] . وقال مجاهد : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني أتصدق ، وأصل الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيُذكَر ذلك منِّي وأُحمَد عليه فيسرُّني ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية [٣] .

وفي قوله : (فمن كان يرجو) قولان . أحدهما : يخاف ، قاله ابن قتيبة . والثاني : يأمل ، وهو اختيار الزجاج . وقال ابن الأنباري : المعنى : فمن كان يرجو لقاء ثواب ربِّه . قال المفسرون : وذلك يوم البعث والجزاء . (فَلْيعمل عملاً صالحاً) لا يرائي به (ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً) قال سعيد ابن جبير : لا يرائي . قال معاوية بن أبي سفيان : هذه آخر آية نزلت من القرآن [٤] .

★ ★ ★

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » عن ابن عباس ١٧٢ بدون سند .

(٢) وكذلك ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٧٢ عن طاووس بدون سند . وقد ذكره الطبري في « تفسيره » : ١٦/٤٠ من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس مرسلاً ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٣/١٠٨ من رواية ابن أبي حاتم عن طاووس مرسلاً بنحوه ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٤/٢٥٥ كذلك عن طاووس مرسلاً ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في « الاخلاص » ، والطبراني ، والحاكم . وقال السيوطي في آخره : وأخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقي ، موصولاً عن طاووس عن ابن عباس .

(٣) الواحدي : ١٧٢ عن مجاهد بدون سند .

(٤) قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ٣/١١٠ : وهذا أثر مشكل ، فان هذه الآية آخر سورة (الكهف) و (الكهف) كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على مافهمه ، والله أعلم .

سورة مريم

وهي مكية باجماعهم من غير خلاف علمناه . وقال مقاتل : هي مكية غير سجدتها ، فانها مدنية . وقال هبة الله المفسّر : هي مكية غير آيتين منهـا ، قوله : (فخلف من بعدهم خلف) والتي تليها [مريم : ٥٩ ، ٦٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ . ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾

قوله تعالى : (كهيعص) قرأ ابن كثير : « كهيعص ذِكْر » بفتح الهـاء والياء وتبيين الدال التي في هجاء « صاد » . وقرأ أبو عمرو : « كهيعص » بكسر الهاء وفتح الياء ويدغم الدال في الذال ، وكان نافع يلفظ بالهاء والياء بين الكسر والفتح ، ولا يدغم الدال التي في هجاء « صاد » في الذال من « ذِكْر » . وقرأ أبو بكر عن عاصم ، والكسائي ، بكسر الهاء والياء ، إلا أن الكسائي لايبيّن الدال ، وعاصم

يُبيِّنها . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، بفتح الهاء وكسر الياء ويدغمان . وقرأ أُبيّ بن كعب : « كهيعص » برفع الهاء وفتح الياء . وقد ذكرنا في أول « البقرة » مايشتمل على بيان هذا الجنس . وقد خصّ المفسرون هذه الحروف المذكورة هاهنا بأربعة أقوال .

أحدها : أنها حروف من أسماء الله تعالى ، قاله الأكثرون . ثم اختلف هؤلاء في الكاف من أي اسم هو ، على أربعة أقوال . أحدها : أنه من اسم الله الكبير . والثاني : من الكريم . والثالث : من الكافي ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس . والرابع : أنه من الملك ، قاله محمد بن كعب . فأما الهاء ، فكلّهم قالوا : هي من اسمه الهادي ، إلا القرظي فانه قال : من اسمه الله . وأما الياء ، ففيها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها من حكيم . والثاني : من رحيم . والثالث : من أمين ، روى هذه الأقوال الثلاثة سعيد بن جبير عن ابن عباس . فأما العين ، ففيها أربعة أقوال . أحدها : أنها من عليم . والثاني : من عالم . والثالث : من عزيز ، رواها أيضاً سعيد [بن جبير] عن ابن عباس . والرابع : أنها من عدل ، قاله الضحاك . وأما الصاد ، ففيها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها من صادق . والثاني من صدوق ، رواها سعيد [بن جبير] أيضاً عن ابن عباس . والثالث : من الصمد ، قاله محمد بن كعب .

والقول الثاني : أن « كهيعص » قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال : هو اسم من أسماء الله تعالى . وروي عنه أنه كان يقول : [يا] كهيعص اغفرلي . قال الزجاج : والقَسَم بهذا والدعاء لايدل على أنه اسم واحد ، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله فدعا بها ، فكأنه قال : يا كافي ،

ياهادي ، ياعالم ، ياصادق ، وإذا أقسم بهـا ، فكأنه قال : والكافي الهادي العالم الصادق ، وأُسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهجٍ ، النيّة فيها الوقف .

والثالث : أنه اسم للسورة ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والرابع : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

فان قيل : لم قالوا : ها يا ، ولم يقولوا في الكاف : كا ، وفي العين : عـا ، وفي الصاد : صا ، لتتفق المباني كما اتفقت العلل ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : حروف المعجم التسعة والعشرون تجري مجرى الرسالة والخطبة ، فيستقبحون فيها اتفاق الألفاظ واستواء الأوزان، كما يستقبحون ذلك في خطبهم ورسائلهم ، فيغيّرون بعض الكلِم ليختلف الوزن وتتغيَّر المباني ، فيكون ذلك أعذب على الألسن وأحلى في الأسماع .

قوله تعالى : (ذِكْر رحمة ربك) قال الزجاج : الذِّكر مرفوع بالمُضمَر ، المعنى : هـذا الذي تتلو عليك ذِكْر رحمة ربِّك عبدَه . قـال الفراء : وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى : ذِكْر ربِّك عبده بالرحمة ، و « زكريا » في موضع نصب .

قوله تعالى : (إذ نادى ربَّه) النداء هاهنا بمعنى الدعاء .

وفي علة إخفائه لذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : ليبعد عن الرياء ، قاله ابن جريج .

والثاني : لئلا يقول الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبَر ، قاله مقاتل .

والثالث : لئلا يعاديه بنو عمه ، ويظنوا أنه كره أن يلوا مكانه بعده، ذكره

أبو سليمان الدمشقي . وهذه القصة تدل على أن المستحب إسرار الدعاء ، ومنه الحديث : « إنكم لا تدعون أصمّ » (١) .

قوله تعالى : (قال ربِّ إني وهن العظم منّي) وقرأ معاذ القارىء ، والضحاك : « وَهُن » بضم الهاء ، أي : ضَعُف . قال الفراء وغيره : وَهَن العظم ، ووَهِن ، بفتح الهاء وكسرها ؛ والمستقبل على الحالين كليهما : يَهِن . وأراد أن قوّة عظامه قد ذهبت لِكبَره ؛ وإنما خصّ العظم ، لأنه الأصل في التركيب . وقال قتادة : شكا ذهاب أضراسه .

قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) يعني : انتشر الشيب فيه ، كما ينتشر شعاع النار في الحطب ، وهذا من أحسن الاستعارات . (ولم أكن بدعائك) أي : بدعائي إياكَ (ربِّ شقياً) أي : لم أكن أتعب بالدعاء ثم أُخيَّب ، لأنك قد عودتَني الإجابة ؛ يقال : شقي فلان بكذا : إذا تعب بسببه ، ولم ينل مراده .

قوله تعالى : (وإني خِفتُ الموالي) يعني : الذين يلونه في النسب ، وهم بنو العم والعَصبة (من ورائي) أي : من بعد موتي .

وفي ما خافهم عليه قولان .

أحدهما : أنه خاف أن يَرِثوه ، قاله ابن عباس .

---

(١) هو جزء من حديث رواه البخاري في « صحيحه » : ٩٤/٦ ، ومسلم : ٢٠٧٦/٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه في البخاري : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فانكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب » . ومعنى « اربعوا على أنفسكم » : ارفقوا بأنفسكم ، واخفضوا أصواتكم ، فان رفع الصوت إنما يفعله الانسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائب ، بل هو سميع قريب .

فان اعترض عليه معترض ، فقال : كيف يجوز لنبيّ أن يَنْفَس على قراباته بالحقوق المفروضة لهم بعد موته؟

فعنه جوابان . أحدهما : أنه لما كان نبيّاً ، والنبيّ لايورث ، خاف أن يرثوا ماله فيأخذوا مالا يجوز لهم . والثاني : أنه غلب عليه طبع البشر ، فأحبّ أن يتولّى مالَه ولدُه ، ذكرهما ابن الأنباري .

قلت : وبيان هذا أنه لابد أن يتولّي ماله وإن لم يكن ميراثاً ، فأحبّ أن يتولاه ولده .

والقول الثاني : أنه خاف تضييعهم الدّين ونبذهم إيّاه ، ذكره جماعة من المفسرين .

وقرأ عثمان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، وابن جبير ، ومجاهد ، وابن أبي شريح عن الكسائي : « خَفَّت » بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى « قلَّت » ؛ فعلى هذا يكون إنما خاف على علمه ونبوّته ألاّ يُورَثا فيموت العِلْم . وأسكن ابن شهاب الزهري ياء « الموالِيْ » .

قوله تعالى : (من ورائي) أسكن الجمهور هذه الياء ، وفتحها ابن كثير في رواية قنبل . وروى عنه شبل : « ورايْ » مثل « عصايْ » .

قوله تعالى : (فَهَبْ لي من لدنك) أي : من عندك (وليّاً) أي : ولداً صالحاً يتولاّني .

قوله تعالى : (يَرِثني ويرث من آل يعقوب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : « يَرِثُني ويَرِثُ » برفعهما . وقرأ أبو عمرو ، والكسائي : « يَرِثْني ويَرِثْ » بالجزم فيهما . قال أبو عبيدة : من قرأ بالرفع ،

فهو على الصفة للوليّ ؛ فالمعنى : هب لي وليّاً وارثاً ، ومن جزم ، فعلى الشرط والجزاء ، كقولك : إن وهبتَه لي ورثني .

وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال .

أحدها : يَرِثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوَّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال أبو صالح .

والثاني : يَرِثني العِلْم ، ويَرِث من آل يعقوب المُلْكَ ، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العِلْم دون المُلْك ، وهذا مرويّ عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : يَرِثني نبوَّتي وعِلْمي ، ويَرِث من آل يعقوب النبوَّة أيضاً ، قاله الحسن .

والرابع : يَرِثني النبوَّة ، ويرث من آل يعقوب الأخلاق ، قاله عطاء . قال مجاهد : كان زكريا من ذرية يعقوب ، وزعم الكلبي أن آل يعقوب كانوا أخواله ، وأنه ليس يعقوب أبي يوسف . وقال مقاتل : هو يعقوب بن ماثان ، وكان يعقوب هذا وعمران ـ أبو مريم ـ أخوين .

والصحيح : أنه لم يُرِد ميراثَ المال لوجوه .

أحدها : أنه قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورَث ، ماتركناه صدقة »[1] .

---

(١) رواه البخاري : ١٢/٤ ، ومسلم : ٣/١٣٧٩ بلفظ « لانورث ماتركنا صدقة » . ورواه الترمذي باللفظ الذي ذكره المؤلف « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

والثاني : [أنه] لايجوز أن يتأسّف نبيّ الله على مصير ماله بعد موته إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً .

والثالث : أنه لم يكن ذا مال . وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أن زكريا كان نجاراً (١) .

قوله تعالى : (واجعله ربّ رضيّاً) قال اللغويون : أي : مرضيّاً ، فصُرِف عن مفعول إلى فعيل ، كما قالوا : مقتول وقتيل .

﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً . قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً . قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾

قوله تعالى : (يازكريا إنا نبشرك) في الكلام إضمار ، تقديره : فاستجاب الله له فقال « يازكريّا إنا نبشّرك » . وقرأ حمزة : « نَبْشُرك » بالتخفيف . وقد شرحنا هذا في (آل عمران : ٣٩) .

قوله تعالى : (لم نجعل له من قبلُ سَمِيّاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لم يُسمَّ يحيى قبله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، وابن زيد ، والأكثرون .

فان اعترض معترض ، فقال : ماوجه المِدْحَة باسم لم يُسمَّ به أحد قبله ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » رقم (٧٩٣٤) ، ومسلم : ٤/١٨٤٧ ، وابن ماجه رقم (٢١٥٠) .

ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسبَق إليها ؟ فالجواب : أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولّى تسميته ، ولم يَكِل ذلك إلى أبويه ، فسماه باسم لم يُسبَق إليه .

والثاني : لم تلد العواقر مثله ولداً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى : لم نجعل له نظيراً .

والثالث : لم نجعل له من قبل مِثْلاً وشِبْهاً ، قاله مجاهد . فعلى هذا يكون عدم الشَّبَه من حيث أنه لم يعص ولم يهمّ بمعصية . وما بعد هذا مفسر في (آل عمران : ٣٩) إلى قوله : (وكانت امرأتي عاقراً) .

وفي معنى « كانت » قولان .

أحدهما : أنه توكيد للكلام ، فالمعنى : وهي عاقر ، كقوله : (كنتم خير أمّة) [آل عمران : ١١٠] أي : أنتم .

والثاني : أنها كانت منذ كانت عاقراً ، لم يحدُث ذلك بها ، ذكرهما ابن الأنباري ، واختار الأول .

قوله تعالى : (وقد بلغتُ من الكِبَر عتياً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « عُتِيّاً » و « بُكِيّاً » [مريم : ٥٨] و « صُلِيّاً » [مريم : ٧٠] بضم أوائلها . وقرأ حمزة ، والكسائي ، بكسر أوائلها ؛ وافقهما حفص عن عاصم ، إلا في قوله : « بُكِيّاً » فانه ضم أوله . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد : « عُسِيّاً » بالسين قال مجاهد : « عتياً » هو قُحُول العظم . وقال ابن قتيبة : أي : يُبْساً ؛ يقال : عتَا وعسَا بمعنى واحد . قال الزجاج : كل شيء انتهى ، فقد عتَا يعْتُو عِتِيّاً ، وعُتُوّاً ، وعُسُوّاً ، وعُسِيّاً .

قوله تعالى : (قال كذلكَ) أي : الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكِبَر (قال ربُّكَ هو عليَّ هيّن) أي : خَلْقُ يحيى عليَّ سَهْل .

وقرأ معاذ القارىء، وعاصم الجحدري: «هَيْن» باسكان الياء. (وقد خلقتُك مِنْ قَبْلُ) أي: أوجدتُك. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «خَلَقْتُكَ». وقرأ حمزة، والكسائيْ: «خَلَقْنَاكَ» بالنون والألف. (ولم تك شيئاً) المعنى: فخلْقُ الولد، كخلقك. وما بعد هذا مفسر في (آل عمران: ٣٩) إلى قوله: (ثلاثَ ليالٍ سويّاً) قال الزجاج: «سَوِيّاً» منصوب على الحال، والمعنى: تُمْنَعَ عن الكلام وأنت سَوِيٌّ. قال ابن قتيبة: أي: سليماً غير أخرس.

قوله تعالى: (فخرج على قومه) وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته (من المحراب) أي: من مصلاّه، وقد ذكرناه في (آل عمران: ٣٩).

قوله تعالى: (فأوحى إليهم) فيه قولان.

أحدهما: أنه كتب إليهم في كتاب، قاله ابن عباس.

والثاني: أومأ برأسه ويديه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: (أن سَبّحوا) أي: صلّوا (بُكْرة وعَشِيّاً) قد شرحناه في (آل عمران: ٣٩)، والمعنى: أنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بُكْرة وعَشِيّاً؛ فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة.

﴿ يَايَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً. وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيّاً. وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً. وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾

قوله تعالى: (يايحيى) قال الزجاج: المعنى: فوهبنا له يحيى، وقلنا له: يايحيى (خذ الكتاب) يعني: التوراة، وكان مأموراً بالتمسك بها وقال ابن الأنباري:

المعنى : اقبل كُتُبَ الله كلّها إيماناً بها واستعمالاً لأحكامها . وقد شرحنا في (البقرة : ٦٣) معنى قوله : (بقوّة) .

قوله تعالى : (وآتيناه الحُكم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الفهم ، قاله مجاهد . والثاني : اللبّ ، قاله الحسن ، وعكرمة . والثالث : العِلم ، قاله ابن السائب والرابع : حفظ التوراة وعلمها ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقد زدنا هذا شرحاً في سورة (يوسف : ٢٣) . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن [من] قبل أن يحتلم ، فهو ممن أوتيَ الحُكم صبيّاً .

فأما قوله : (صبيّاً) ففي سنّه يوم أوتيَ الحُكم قولان .

أحدهما : أنه سبع سنين ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ [١] .

والثاني : ثلاث سنين ، قاله قتادة ، ومقاتل .

قوله تعالى : (وحناناً من لَدُنّا) قال الزجاج : أي : وآتيناه حناناً . وقال ابن الأنباري : المعنى : وجعلناه حناناً لأهل زمانه .

وفي الحنان ستة أقوال .

أحدها : أنه الرحمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وأنشد :

تَحَنَّنْ عليَّ هَدَاكَ المليك فانّ لكلّ مقامٍ مَقَالاَ [٢]

---

(١) أورده السيوطي في « الدر » : ٢٦٠/٤ من رواية أبي نعيم ، وابن مردويه ، والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى : (وآتيناه الحكم صبياً) قال : أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين .

(٢) البيت للحطيئة ، ديوانه : ٢٢٢ ، و « الكامل » : ٣٤٨ ، و « مجاز القرآن » : ٣/٢ ، و « القرطبي » : ٨٨/١١ ، و « الطبري » : ٣٨/١٦ ، و « البحر المحيط » : ١٧٧/٦ ، و « اللسان » و « التاج » : حنن .

قال : وعامة مايُستعمَل في المنطق على لفظ الاثنين ، قال طرفة :

أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنَا حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ [1]

قال ابن قتيبة : ومنه يقال : تحنَّن عليَّ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها . وقال ابن الأنباري : لم يختلف اللغويون أن الحنان : الرحمة ، والمعنى : فعلنا ذلك رحمةً لأبويه ، وتزكيةً له . والثاني : أنه التعطف من ربِّه عليه ، قاله مجاهد . والثالث : أنه اللِّين ، قاله سعيد بن جبير . والرابع : البَرَكة ، وروي عن ابن جبير أيضاً . والخامس : المَحبَّة ، قاله عكرمة ، وابن زيد . والسادس : التعظيم ، قاله عطاء بن أبي رباح .

وفي قوله : (وزكاة) أربعة أقوال .

أحدها : أنها العمل الصالح ، قاله الضحاك ، وقتادة .

والثاني : أن معنى الزكاة : الصدقة ، فالتقدير : إن الله تعالى جعله صدقة تصدّق بها على أبويه ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن الزكاة : التطهير ، قاله الزجاج .

والرابع : أن الزكاة : الزيادة ، فالمعنى : وآتيناه زيادة في الخير على ما وُصف وذُكر ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (وكان تقياً) قال ابن عباس : جعلته يتّقيني ، ولا يعدل بي غيري .

قوله تعالى : (وبَرّاً بوالديه) أي : وجعلناه بَرّاً بوالديه ، والبَرُّ بمعنى :

---

(١) ديوانه : ٢٠٨ ، و « مجاز القرآن » : ٣/٢ ، و « الكتاب » : ١٤٦ ، و « الكامل » : ٣٤٨ ، و « الطبري » : ٣٨/١٦ ، و « الجمهرة » : ٤٤٩/٣ ، و « الشنتمري » : ١٧٤/١ ، و « القرطبي » : ٨٧/١١ ، و « البحر المحيط » : ١٧٧/٦ ، و « اللسان » و « التاج » : حنن .

البارّ ؛ والمعنى : لطيفاً بهما، محسناً إليهما . والعَصِيّ بمعنى : العاصي . وقد شرحنا معنى الجبّار في (هود : ٥٩) .

قوله تعالى : (وسلام عليه) فيه قولان .

أحدهما : أنه السلام المعروف من الله تعالى . قال عطاء : سلام عليه مِنّي في هذه الأيام ؛ وهذا اختيار أبي سليمان .

والثاني : أنه بمعنى : السلامة ، قاله ابن السائب .

فان قيل : كيف خَصّ التسليم عليه بالأيام ، وقد يجوز أن يولد ليلاً ويموت ليلاً ؟

فالجواب : أن المراد باليوم الحِين والوقت، على ما بينّا في قوله : (اليوم أكملتُ لكم دينكم) [المائدة : ٣] . قال ابن عباس : وسلام عليه حين وُلد . وقال الحسن البصري : التقى يحيى وعيسى ، فقال يحيى لعيسى : أنتَ خير مني ، فقال عيسى ليحيى : بل أنت خير مني ، سلّم الله عليك، وأنا سلّمتُ على نفسي . وقال سعيد بن جبير مثله ، إلا أنه قال : أثنى الله عليك ، وأنا أثنيت على نفسي . وقال سفيان بن عيينة : أوحش مايكون الإنسان في ثلاثة مواطن ، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر لم يره ، فخص الله تعالى يحيى فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً . قَالَتْ أَنَّى

يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾

قوله تعالى : (واذكر في الكتاب) يعني : القرآن (مريمَ إذ انتبذت) قال أبو عبيدة : تنحَّت واعتزلت (مكاناً شرقياً) مما يلي المشرق ، وهو عند العرب خير من الغربيّ .

قوله تعالى : (فاتّخذتْ من دونهم) يعني : أهلها (حجاباً) أي : ستراً وحاجزاً ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ضربت ستراً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن الشمس أظلّتْها ، فلم يرها أحد منهم ، وذلك مما سترها الله به ، و[روي] هذا المعنى عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها اتخذت حجاباً من الجدران ، قاله السدي عن أشياخه .

وفي سبب انفرادها عنهم قولان .

أحدهما : [أنها] انفردت لتطهر من الحيض وتمتشط ، قاله ابن عباس .

والثاني : لتفلّي رأسها ، قاله عطاء .

قوله تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا) وهو جبريل في قول الجمهور . وقال ابن الأنباري : صاحب روحنا ، وهو جبريل . والرُّوح بمعنى : الرَّوْح والفرح ، ثم تضم الراء لتحقيق مذهب الاسم ، وإبطال طريق المصدر ، ويجوز أن يُراد بالرُّوح هاهنا : الوحي وجبريل صاحب الوحي .

وفي وقت مجيئه إليها ثلاثة أقوال .

أحدها : وهي تغتسل . والثاني : بعد فراغها ، ولبسها الثياب . والثالث : بعد دخولها بيتها . وقد قيل : المراد بالروح هاهنا : [الروح] الذي خُلق منه عيسى ، حكاه الزجاج ، والماوردي ، وهو مضمون كلام أُبيّ بن كعب فيما سنذكره عند قوله : (فحملتْه) . قال ابن الأنباري : وفيه بُعد ، لقوله : (فتمثَّل لها بَشَراً سويّاً) ، والمعنى : تصوَّر لها في صورة البَشَر التامّ الخِلْقة . وقال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد قطط حين طرّ شاربه . وقرأ أبو نهيك : « فأرسلنا إليها رَوحنا » بفتح الراء ، من الرَّوْح .

قوله تعالى : (قالت إني أعوذ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيّاً) المعنى : إن كنتَ تتَّقي الله ، فستنتهي بتعوُّذي منك ، هذا هو القول عند المحققين . وحكي عن ابن عباس أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي ، وكان فاجراً ، فظنّتْه إياه ، ذكره ابن الأنباري ، والماوردي . وفي قراءة عليّ عليه السلام ، وابن مسعود ، وأبي رجاء : « إلا أن تكون تقيّاً » .

قوله تعالى : (قال إنما أنا رسول ربّك) أي : فلا تخافي (لِيَهَبَ لك) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « لأهب لك » بالهمز . وقرأ أبو عمرو ، وورش عن نافع : « ليهب لك » بغير همز . قال الزجاج : من قرأ « ليهب » فالمعنى : أرسلني ليهب ، ومن قرأ « لأهب » فالمعنى : أرسلتُ إليكِ لأهب لكِ . وقال ابن الأنباري : المعنى : أرسلني يقول لك : أرسلتُ رسولي إليكِ لأهبَ لكِ .

قوله تعالى : (غلاماً زكيّاً) أي : طاهراً من الذنوب . والبغيّ : الفاجرة الزانية . قال ابن الأنباري : وإنما لم يقل : « بغيَّة » لأنه وصف يغلب على النساء ، فقلَّما تقول العرب : رجل بغيّ ، فيجري مجرى حائض ، وعاقر . وقال غيره :

إنما لم يقل : « بغيّة » لأنه مصروف عن وجهه ، فهو « فعيل » بمعنى : « فاعل » . ومعنى الآية : ليس لي زوج ، ولستُ بزانية ، وإنما يكون الولد من هاتين الجهتين . (قال كذلكِ قال ربُّكِ) قد شرحناه في قصة زكريا ، والمعنى : أنه يسيرٌ عليّ أن أهب لكِ غلاماً من غير أب . (ولنجعله آية للناس) أي : دلالة على قدرتنا كونه من غير أب . قال ابن الأنباري : إنما دخلت الواو في قوله : (ولنجعلَه) لأنها عاطفة لِما بعدها على كلام مضمر محذوف ، تقديره : قال ربُّكِ خَلْقُه عليّ هيّن لننفعكِ به ، ولنجعلَه عبرة .

قوله تعالى : (ورحمةً منّا) أي : لمن تبعه وآمن به (وكان أمراً مقضيّاً) أي : وكان خَلْقُه أمراً محكوماً به ، مفروغاً عنه ، سابقاً في عِلْم الله تعالى كونه .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾

قوله تعالى : (فحملته) يعني : عيسى .

وفي كيفية حملها له قولان .

أحدها : أن جبريل نفخ في جيب دِرعها ، فاستمرّ بها حملها ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس . قال السدي : نفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قُدّامها ، فدخلت النفخة في صدرها فحملت من وقتها .

والثاني : الذي خاطبها هو الذي حملته ، ودخل مِنْ فيها ، قاله أُبيّ بن كعب .

وفي مقدار حَمْلها سبعة أقوال .

أحدها : أنها حين حملت وضعت ، قاله ابن عباس ، والمعنى : أنه ما طال حملها ، وليس المراد أنها وضعته في الحال ، لأن الله تعالى يقول : (فحملته فانتبذت به) ، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباذ به .

والثاني : أنها حملته تسع ساعات ، ووضعت من يومها ، قاله الحسن .

والثالث : تسعة أشهر ، قاله سعيد بن جبير ، وابن السائب [1] .

والرابع : ثلاث ساعات ، حملته في ساعة ، وصوِّر في ساعة ، ووضعته في ساعة ، قاله مقاتل بن سليمان .

والخامس : ثمانية أشهر ، فعاش ، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر ، فكان في هذا آية ، حكاه الزجاج .

والسادس : في ستة أشهر ، حكاه الماوردي .

والسابع : في ساعة واحدة ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (فانتبذت به) يعني بالحَمْل (مكاناً قصيّاً) أي : بعيداً . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : « قاصياً » . قال ابن إسحاق : مشت ستة أميال . قال الفراء : القصيّ والقاصي بمعنى واحد . وقال غير الفراء : القصيّ والقاصي بمنزلة الشهيد والشاهد . وإنما بَعُدت ، فراراً من قومها أن يعيِّروها بولادتها من غير زوج .

قوله تعالى : (فأجاءها المَخاض) وقرأ عكرمة ، وإبراهيم النخعي ، وعاصم الجحدري : « المِخاض » بكسر الميم . قال الفراء : المعنى : فجاء بها المخاض ، فلما أُلقيت الباء ، جُعلت في الفعل ألفاً ، ومثله : (آتنا غداءنا) [الكهف: ٦٢] أي :

---

(١) قال ابن كثير في « تفسيره » ٣/١١٦ : المشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر .

بفدائنا ، ومثله : (آتوني زُبَر الحديد) [الكهف : ٩٦] أي : بزبر الحديد . قال أبوعبيدة : أفعلها من جاءت هي ، وأجاءها غيرها . وقال ابن قتيبة : المعنى : جاء بها ، وألجأها ، وهو من حيث يقال : جاءت بي الحاجة إليك ، وأجاءتني الحاجة إليك ، والمَخاض : الحمل . وقال غيره : المخاض : وجع الولادة . (إلى جِذع النخلة) وهو ساق النخلة ، وكانت نخلة يابسة في الصحراء ، ليس لها رأس ولا سعف . (قالت ياليتني مُتْ قبل هذا) اليوم ، أو هذا الأمر . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : « مِتْ » بكسر الميم .

وفي سبب قولها هذا قولان .

أحدهما : أنها قالته حياءً من الناس . والثاني . لئلا يأثموا بقذفها .

قوله تعالى : (وكنتُ نسياً منسيّاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، بكسر النون ، وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « نَسياً » بفتح النون . قال الفراء : وأصحاب عبد الله يقرؤون : « نَسياً » بفتح النون ، وسائر العرب بكسرها ، وهما لغتان ، مثل الجَسر والجِسر ، والوَتر والوِتر ، والفتح أحب إليّ . قال أبو علي الفارسي : الكسر على اللغتين . وقال ابن الأنباري : من كسر النون قال : النِسي : اسم لما يُنسى ، بمنزلة البِغض اسم لما يُبْغَض ، والسِّب اسم لما يُسَب . والنَسي بفتح النون : اسم لما يُنسى أيضاً على أنه مصدر ناب عن الاسم ، كما يقال : الرجل دَنِف ، ودَنَف . فالمكسور : هو الوصف الصحيح ، والمفتوح : مصدر سدَّ مسدَّ الوصف . ويمكن أن يكون النِسي والنَسي اسمين لمعنىً ، كما يقال : الرِّطل والرَّطل .

وللمفسرين في قوله تعالى : (نسياً منسيّاً) خمسة أقوال .

أحدها : ياليتي لم أكن شيئاً ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وابن زيد .

والثاني : «وكنت نسياً منسياً» أي : دم حيضة ملقاة ، قاله مجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة . قال الفراء : النّسي : ماتلقيه المرأة من خرق اعتلالها . وقال ابن الأنباري : هي خرق الحيض تلقيها المرأة فلا تطلبها ولا تذكرها .

والثالث : [أنه من] السقط ، قاله أبو العالية ، والربيع .

والرابع : أن المعنى : ياليتي لايُدرى من أنا ، قاله قتادة .

والخامس : أنه الشيء التافه يرتحل عنه القوم ، فيهون عليهم فلا يرجعون إليه ، قاله ابن السائب . وقال أبو عبيدة : النِسي ، والمنسي : ماينسى من إداوة وعصا . يعني أنه ينسى في المنزل ، فلا يرجع إليه لاحتقار صاحبه إياه . وقال الكسائي : معنى الآية : ليتني كنت ماإذا ذُكر لم يُطلب .

قوله تعالى : (فناداها من تحتها) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « مَن تحتها » بفتح الميم ، والتاء . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « مِن تحتِها » بكسر الميم ، والتاء . فمن قرأ بكسر الميم ، ففيه وجهان . أحدهما : ناداها الملك من تحت النخلة . وقيل : كانت على نشَز ، فناداها الملك أسفل منها . والثاني : ناداها عيسى لما خرج من بطنها . قال ابن عباس : كلُّ ما رفعت إليه طرفك ، فهو فوقك ، وكلُّ ما خفضت إليه طرفك ، فهو تحتك . ومن قرأ بفتح الميم ، ففيه الوجهان المذكوران . وكان الفراء يقول : ماخاطبها إلا الملَك على القراءتين جميعاً .

قوله تعالى : (قد جعل ربُّكِ تحتكِ سرياً) فيه قولان .

أحدهما : أنه النهر الصغير ، قاله جمهور المفسرين ، واللغويون ، قال أبو صالح ، وابن جريج : هو الجدول بالسريانية .

والثاني : أنه عيسى كان سرياً من الرجال ، قاله الحسن ، وعكرمة ، [وابن زيد] . قال ابن الأنباري : وقد رجع الحسن عن هذا القول إلى القول الأول ، ولو كان وصفاً لعيسى ، كان غلاماً سرياً أو سوياً من الغلمان ، وقلَّما تقول العرب : رأيت عندك نبيلاً ، حتى يقولوا : رجلاً نبيلاً .

فان قيل : كيف ناسب تسليتها أن قيل : لا تحزني ، فهذا نهر يجري ؟

فالجواب من وجهين . أحدهما : أنها حزنت لجدب مكانها الذي ولدت فيه ، وعدمِ الطعام والشراب والماء الذي تتطهر به ، فقيل : لا تحزني قد أجرينا لك نهراً ، وأطلعنا لك رطباً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها حزنت لِما جرى عليها من ولادة ولد عن غير زوج ، فأجرى الله تعالى لها نهراً ، فجاءها من الأردنّ ، وأخرج لها الرُّطب من الشجرة اليابسة ، فكان ذلك آية تدل على قدرة الله تعالى في إيجاد عيسى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وهزِّي إليك) الهزْ : التحريك .

والباء في قوله تعالى : (بجذع النخلة) فيها قولان .

أحدهما : أنها زائدة مؤكدة ، كقوله تعالى : (فليمدد بسبب إلى السماء) [الحج : ١٥] قال الفراء : معناه : فليمدد سبباً . والعرب تقول : هزَّه ، وهزَّ به ، وخذ الخطام ، وخذ بالخطام ، وتعلَّق زيداً ، وتعلَّق به . وقال أبو عبيدة : هي مؤكدة ، كقول الشاعر :

نَضْرِبُ بالسَّيفِ ونرجو بالفرَجِ [1]

---

(١) هذا الشطر من الرجز لراجز من بني جعدة ، وهو في « الاقتضاب » : ٤٥٨ ، و « شواهد المغني » : ١١٤٠ ، و « الخزانة » : ١٥٩/٤ .

والثاني : أنها دخلت على الجذع لتلصقه بالهزّ ، فهي مفيدة للالصاق ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (تساقط) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تَسّاقط » بالتاء مشددة السين . وقرأ حمزة ، وعبد الوارث : « تَسَاقط » بالتاء مفتوحة مخففة السين . وقرأ حفص عن عاصم : « تُساقِط » بضم التاء وكسر القاف مخففة السين . وقرأ يعقوب ، وأبو زيد عن المفضل : « يَسّاقَط » بالياء مفتوحةً وتشديد السين وفتح القاف . فهذه القرآآت المشاهير . وقرأ أُبَيْ بن كعب ، وأبو حيوة : « تَسْقُط » بفتح التاء وسكون السين ورفع القاف . وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعائشة ، والحسن : « يُساقِط » بألف وتخفيف السين ورفع الياء وكسر القاف . وقرأ الضحاك ، وعمرو بن دينار : « يُسْقِط » برفع الياء وكسر القاف مع سكون السين وعدم الألف . وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو عمران الجوني مثله ، إلا أنه بالتاء . وقرأ معاذ القارىء ، وابن يعمر مثله ، إلا أنه بالنون . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عبلة : « يَسْقُط » بالياء مفتوحة مع سكون السين ورفع القاف . وقرأ أبو السماك العدوي ، وابن حزام : « تتساقط » بتاءين مفتوحين وبألف . وقال الزجاج : من قرأ «يسّاقط» فالمعنى : يتساقط ، فأدغمت التاء في السين . ومن قرأ « تسّاقط » ، فكذلك أيضاً ، وأنث لأن لفظ النخلة يؤنث . ومن قرأ « تساقط » بالتاء والتخفيف ، فانه حذف من « تتساقط » اجتماع التاءين . ومن قرأ « يُساقط » ذهب إلى معنى : يُساقط الجذع عليك . ومن قرأ « نُساقط » بالنون ، فالمعنى : نحن نُساقط عليك ، فنجعله لك آية ، والنحويون يقولون :

إن « رطباً » منصوب على التمييز إذا قلت : يسَّاقط أو ينساقط ، المعنى : يتساقط الجزع رطباً . وإذا قلت : تسَّاقط بالتاء ، فالمعنى : تتساقط النخلة رطباً .

قوله تعالى : (جَنِيّاً) قال الفراء : الجَنِيّ : المجتنى ، وقال ابن الأنباري : هو الطريُّ ، والأصل : مجنوٌّ ، صُرف من مفعول إلى فعيل ، كما يقال : قديد ، وطبيخ . وقال غيره : هو الطريّ بغباره : ولم يكن لتلك النخلة رأس ، فأنبته الله تعالى ، فلما وضعت يدها عليها ، سقط الرطب رَطْباً . وكان السلف يستحبُّون للنفساء الرطب من أجل مريم عليها السلام .

قوله تعالى : (فكلي) أي : من الرطب (واشربي) من النهر (وقَرِّي عينا) بولادة عيسى عليه السلام . قال الزجاج : يقال : قَرِرت به عيناً أقَر ، بفتح القاف في المستقبل ، وقَرِرت في المكان أقِر ، بكسر القاف ، و « عيناً » : منصوب على التمييز . وروى ابن الأنباري عن الأصمعي أنه قال : معنى « وقرِّي عيناً » ، ولتبرد دمعتك ، لأن دمعة الفرح باردة ، ودمعة الحزن حارَّة . واشتقاق « قرِّي » من القَرور ، وهو الماء البارد . وقال لنا أحمد بن يحيى : تفسير « قرِّي عيناً » بلغتِ غاية أملك حتى تقرَّ عينك من الاستشراف إلى غيره ، واحتج بقول عمرو بن كلثوم :

بيوم كريهةٍ ضرباً وطعناً أقرَّ به مواليك العيونا [1]

أي : ظفروا وبلغوا منتهى أمنيتهم ، فقرَّت عينهم من تطلّع إلى غيره .

قوله تعالى : (فإما تَرَيِنَّ) وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، والضحاك ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : « ترئِنَّ » بهمزة مكسورة من غير ياء . أي : إن رأيتِ من البشر أحداً فقولي ؛ وفيه إضمار تقديره : فسألك عن أمر ولدك . (فقولي إنّي نذرتُ للرحمن صوماً) فيه قولان .

---

(١) « مختار الشعر الجاهلي » : ٢/٣٦٢ ، « اللسان » : قرر .

أحدهما : صمتاً ، قاله ابن عباس ، وأنس بن مالك ، والضحاك ؛ وكذلك قرأ أُبيّ بن كعب ، وأنس بن مالك ، وأبو رزين العقيلي : « صمتاً » مكان قوله : « صوماً » . وقرأ ابن عباس : صياماً [١] .

والثاني : صوماً عن الطعام والشراب والكلام ، قاله قتادة . وقال ابن زيد : كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الكلام كما يصوم عن الطعام ، إلا من ذِكْر الله عز وجل . قال السدي : فأذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت . قال ابن مسعود : أُمِرتْ بالصمت ، لأنها لم تكن لها حُجَّة عند الناس ، فأُمرتْ بالكفِّ عن الكلام ليكفيَها الكلامَ ولدُها مما يُبرِّىء به ساحتها . وقيل : كانت تُكلِّم الملائكة ولا تكلِّم الإنس . قال ابن الأنباري : الصوم في لغة العرب على أربعة معانٍ ، يقال : صوم لترك الطعام والشراب ، وصوم للصمت ، وصوم لضرب من الشجر ، وصوم لذَرْق النعام .

واختلف العلماء في مقدار سنِّ مريم يوم ولادتها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها وَلدت وهي بنت خمس عشرة سنة ، قاله وهب بن منبِّه .

والثاني : بنت اثنتي عشرة سنة ، قاله زيد بن أسلم .

والثالث : بنت ثلاث عشرة سنة ، قاله مقاتل .

﴿ فأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً . يَاأُخْتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً . وَجَعَلَنِي

(١) وفي النسخة الاستنبولية : وقرأ ابن مسعود : « وصياماً » والذي في « البحر المحيط » و « روح المعاني » وقرأ زيد بن علي « صياماً » .

مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾

قوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله) قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أتتهم به بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها . وقال في رواية الضحاك : انطلق قومها يطلبونها ، فلما رأتهم حملت عيسى فتلقَّتهم به ، فذلك قوله تعالى : (فأتتْ به قومها تحمله) .

فان قيل : « أتت به » يغني عن « تحمله » فلا فائدة للتكرير .

فالجواب : أنه لما ظهرت منه آيات ، جاز أن يتوهَّم السامع « فأتت به » أن يكون ساعياً على قدميه ، فيكون سعيه آيةً كنطقه ، فقطع ذلك التوهُّمَ ، وأعلم أنه كسائر الأطفال ، وهذا مثل قول العرب : نظرت إلى فلان بعيني ، فنفَوْا بذلك نظر العطف ؛ والرحمة ، وأثبتوا [أنه] نظرُ عيْنٍ . وقال ابن السائب : لما دخلت على قومها بَكَوْا ، وكانوا قوماً صالحين ؛ و (قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريّاً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : شيئاً عظيماً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . قال الفراء : الفريْ : العظيم ، والعرب تقول : تركته يفري الفريَّ ، إذا عمل فأجاد العمل ففَضَلَ الناس ، قيل هذا فيه ، قال النبي ﷺ : « فما رأيت عبقرياً يفري فرْيَ عمر »[١] .

والثاني : عَجباً فائقاً ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : شيئاً مصنوعاً ، ومنه يقال : فريت الكذب ، وافتريته ، قاله اليزيدي .

(١) البخاري : ٣٦/٧ ، ومسلم : ١٨٦٢/٤ ، ومعناه : لم أر سيداً يعمل عمله ويقطع قطعه .

قوله تعالى : (ياأخت هارون) في المراد بهارون هذا خمسة أقوال .

أحدها : أنه أخ لها من أمِّها ، وكان من أمثل فتى في بني إسرائيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال الضحاك : كان من أبيها وأمّها .

والثاني : أنها كانت من بني هارون ، قاله الضحاك عن ابن عباس . وقال السدي : كانت من بني هارون أخي موسى عليهما السلام ، فنُسبت إليه ، لأنها من ولده .

والثالث : أنه رجل صالح كان في بني إسرائيل ، فشبَّهوها به في الصلاح ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وقتادة ، ويدل عليه ماروى المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : ألستم تقرؤون : « ياأخت هارون » وقد علمتم ماكان بين موسى وعيسى ؟ فلم أدرِ ما أجيبهم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه ، فقال : « ألا أخبرتَهم أنهم كانوا يسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلَهم » [1] .

والرابع : أن قوم هارون كان فيهم ُفسَّاق وُزناةٌ ، فنسبوها إليهم ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : أنه رجل من ُفسَّاق بني إسرائيل شبَّهوها به ، قاله وهب بن منبِّه .

---

(١) وعلى هامش نسخة الرباط : أخرجه مسلم في « صحيحه » ومن طريقه البغوي في « شرح السنة » في كتاب الاستئذان في باب التسمية باسم النبي ﷺ اهـ . وهو في مسلم في كتاب الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان مايستحب من الأسماء (٣/١٦٨٥) بمعناه ، ورواه أحمد في « المسند » : ٤/٢٥٢ ، ولفظه قريب من رواية المصنف ، ورواه الترمذي في « التفسير » : (٢/١٤٤) ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

فعلى هذا يخرج في معنى « الأُخت » قولان .

أحدهما : أنها الأُخت حقيقة . والثاني : المشابهة ، لا المناسبة ، كقوله تعالى : (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) [الزخرف : ٤٨] .

قوله تعالى : (ما كان أبوكِ) يعنون : عِمران (امرأ سَوْءٍ) أي : زانياً (وما كانت أُمُّكِ) حنَّة (بَغِيّاً) أي : زانية ، فمن أين لكِ هذا الولد ؟!

قوله تعالى : (فأشارت) أي : أومأت (إليه) أي : إلى عيسى فتكلَّم . وقيل المعنى : أشارت إليه أنْ كلِّموه . وكان عيسى قد كلَّمها حين أتت قومها ، وقال : يا أُماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه ، فلما أشارت أن كلِّموه ، تعجَّبوا من ذلك ، و (قالوا كيف نكلِّم من كان) وفيها [١] أربعة أقوال .

أحدها : أنها زائدة ، فالمعنى : كيف نكلِّم صبياً في المهد ؟!

والثاني : أنها في معنى : وقع ، وحدث .

والثالث : أنها في معنى الشرط والجزاء ، فالمعنى : من يكن في المهد صبياً ، فكيف نكلِّمه ؟! حكاها الزجاج ، واختار الأخير منها ؛ قال ابن الأنباري : وهذا كما تقول : كيف أعظ من كان لايقبل موعظتي ؟! أي : من يكن لايقبل ، والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء .

والرابع : أن « كان » بمعنى : صار ، قاله قطرب .

وفي المراد بالمهد قولان . أحدهما : حِجْرُها ، قاله نوفٌ ، وقتادة ، والكلبي . والثاني : سرير الصبي المعروف ، حكاه الكلبي أيضاً .

قال السدي : فلما سمع عيسى كلامهم ، لم يزد على أن ترك الرَّضاع ، وأقبل عليهم بوجهه ، فقال : إني عبد الله . قال المفسرون : إنما قدَّم ذِكر العبودية ، ليُبطلَ قول من ادَّعى فيه الربوبية .

---

(١) أي : لفظة « كان » .

وفي قوله : (آتانيَ الكتاب) أسكن هذه الياء حمزة . وفي معنى الآية قولان .

أحدها : أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقيل : علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه .

والثاني : قضى أن يؤتيني الكتاب ، قاله عكرمة .

وفي « الكتاب » قولان . أحدها : أنه التوراة . والثاني : الإنجيل .

قوله تعالى : (وجعلني نبيّاً) هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إيّاه مما سيظهر ويكون . وقيل : المعنى : يؤتيني الكتاب ويجعلني نبيّاً إذا بلغتُ ؛ فحلّ الماضي محلّ المستقبل ، كقوله تعالى : (وإذ قال الله ياعيسى) [المائدة : ١١٦] .

وفي وقت تكليمه لهم قولان .

أحدها : أنه كلّمهم بعد أربعين يوماً . والثاني : في يومه . وهو مبنيٌّ على ماذكرنا من الزمان الذي غابت عنهم فيه مريم .

قوله تعالى : (وجعلني مباركاً أينما كنتُ) روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ في هذه الآية قال : « نفّاعاً حيثما توجهت »[1] . وقال مجاهد : معلّماً للخير .

وفي المراد « بالزكاة » قولان .

أحدها : زكاة الأموال ، قاله ابن السائب . والثاني : الطهارة ، قاله الزجاج .

---

(١) في الطبري وابن كثير عن مجاهد : نفّاعاً . وقال السيوطي في « الدر » ٤/٢٧٠ : أخرج الاسماعيلي في « معجمه » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن لال في « مكارم الأخلاق » ، وابن مردويه ، وابن النجار في « تاريخه » ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « قول عيسى عليه السلام : وجعلني مباركاً أينما كنت ، قال : جعلني نفّاعاً للناس أين اتجهت » .

قوله تعالى : (وبَرّاً بوالدتي) قال ابن عباس : لمّا قال هذا ، ولم يقل : « بوالديّ » علموا أنه وُلد من غير بَشَر .

قوله تعالى : (ولم يجعلني جباراً) أي : متعظّماً (شقياً) عاصياً لربه (والسَّلام عليّ يومَ وُلدتُ) قال المفسرون : السلامة عليّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرّني شيطان . وقد سبق تفسير الآية [مريم : ١٥] .

فان قيل : لم ذكر هاهنا « السلام » بألف ولام ، وذكره في قصة يحيى بلا ألف ولام ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه لمّا جرى ذِكر السلام قبل هذا الموضع بغير ألف ولام ، كان الأحسن أن يَرِد ثانية بألف ولام ، هذا قول الزجاج .

وقد اعتُرِض على هذا القول ، فقيل : كيف يجوز أن يعطف هذا وهو قول عيسى ، على الأول وهو قول الله عز وجل ؟ !

وقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : عيسى إنما يتعلّم من ربّه ، فيجوز أن يكون سمع قول الله في يحيى ، فبنى عليه وألصقه بنفسه ، ويجوز أن يكون الله عز وجل عرّف السلام الثاني لأنه أتى بعد سلام قد ذكره ، وأجراه عليه غير قاصدٍ به إتباع اللفظ المحكيّ ، لأن المتكلِّم ، له أن يغيّر بعض الكلام الذي يحكيه ، فيقول : قال عبد الله : أنا رَجُل منصف ، يريد : قال لي عبد الله : أنتَ رَجُل منصف .

والجواب الثاني : أن سلاماً والسلام لغتان بمعنى واحد ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ذلك عيسى بن مريم) قال الزجاج : أي ، ذلك الذي قال : إني عبد الله ، هو ابن مريم ، لا ماتقول النصارى : إنه ابن الله ، وإنه إِلٰه .

قوله تعالى : (قولَ الحق) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : « قولُ الحق » برفع اللام . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، ويعقوب : بنصب اللام . قال الزجاج : من رفع « قولُ الحق » فالمعنى : هو قولُ الحق ، يعني هذا الكلام ؛ ومن نصب ، فالمعنى : أقول قول الحقّ . وذكر ابن الأنباري في الآية وجهين .

أحدها : أنه لما وُصف بالكلمة جاز أن يُنعت بالقول .

والثاني : أن في الكلام إضماراً ، تقديره : ذلك نبأُ عيسى ، ذلك النبأ قول الحق .

قوله تعالى : (الذي فيه يمترون) أي : يشكّون . قال قتادة : امترت اليهود فيه والنصارى ، فزعم اليهود أنه ساحر ، وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة . قرأ أبو مجلز ، ومعاذ القارئ ، وابن يعمر ، وأبو رجاء : « تمترون » بالتاء .

قوله تعالى : (ما كان لله أن يتّخذ من ولد) قال الزجاج : المعنى : أن يتخذ ولداً . و « مِنْ » مؤكّدة تدل على نفي الواحد والجماعة ، لأن للقائل أن يقول : ما اتخذت فرساً ، يريد : اتخذت أكثر من ذلك ، وله أن يقول :

ما اتخذت فرسين ولا أكثر ، يريد : اتخذت فرساً واحداً ؛ فاذا قال : ما اتخذت من فرس ، فقد دلّ على نفي الواحد والجميع .

قوله تعالى : (كن فيكون) وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : « فيكونَ » بالنصب ، وقد ذكرنا وجهه في (البقرة : ١١٧) .

قوله تعالى : (وإنّ الله ربّي وربّكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وأنّ الله » بنصب الألف . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « وإن الله » بكسر الألف . وهذا من قول عيسى ؛ فمن فتح ، عطفه على قوله : (وأوصاني بالصّلاة والزّكاة) وبأن الله ربّي ؛ ومن كسر ، ففيه وجهان .

أحدهما : أن يكون معطوفاً على قوله : (إنّي عبد الله) .

والثاني : أن يكون مستأنفاً .

﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاختلف الأحزاب مِنْ بينهم) قال المفسرون : « مِنْ » زائدة ، والمعنى : اختلفوا بينهم . وقال ابن الأنباري : لما تمسّك المؤمنون بالحق ، كان اختلاف الأحزاب بين المؤمنين مقصوراً عليهم .

وفي الأحزاب قولان .

أحدها : أنهم اليهود والنصارى ، فكانت اليهود تقول : إنه لغير رِشْدَةٍ[1] ، والنصارى تدّعي فيه ما لا يليق به .

(١) يقال : هذا ولد رِشدة : إذا كان لنكاح صحيح ، ويقال في ضده : ولد زنية .

والثاني : أنهم فِرَق النصارى ، قال بعضهم : هو الله ، وقال بعضهم : ابن الله ، وقال بعضهم : ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : (فويل للذين كفروا) بقولهم في المسيح (مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ) أي : من حضورهم ذلك اليوم للجزاء .

قوله تعالى : (أَسْمِعْ بهم وَأَبْصِرْ) فيه قولان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الخبر ؛ فالمعنى : ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة ، سمعوا وأبصروا حين لم ينفعهم ذلك لأنهم شاهدوا من أمر الله ما لا يحتاجون معه إلى نظر وفِكر فعلموا الهدى وأطاعوا ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أَسْمِعْ بحديثهم اليوم ، وأَبصِرْ كيف يُصنَع بهم (يوم يأتوننا) ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : (لكن الظالمون) يعني : المشركين والكفار (اليومَ) يعني : في الدنيا (في ضلال مبين) .

قوله تعالى : (وأَنْذِرهم) أي : خوِّف كفّار مكة (يومَ الحسرة) يعني : يوم القيامة يتحسَّر المسيء إذ لم يُحْسِن ، والمقصِّر إذ لم يَزْدَدْ من الخير .

وموجبات الحسرة يوم القيامة كثيرةٌ ، فمن ذلك ما روى أبو سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، قيل : يا أهل الجنة ، فيشرئبُّون [1] وينظرون ، وقيل : يا أهل النار ، فيشرئبُّون وينظرون ، فيُجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيقال لهم : هل تعرفون هذا ؟

(١) يشرئبون : يرفعون رؤوسهم إلى المنادي .

فيقولون : هذا الموت ، فيُذبَح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ؛ ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وأنذِرهم يومَ الحسرة إذْ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) »[١] .

قال المفسرون : فهذه هي الحسرة إذا ذُبِح الموت ، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار .

ومن موجبات الحسرة ، ما روى عديٌّ بن حاتم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يؤتى يوم القيامة بناسٍ إلى الجنة ، حتى إذا دَنَوْا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها ، نودوا : أن اصرفوهم عنها ، لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرةٍ مَا رَجَعَ الأوَّلُون بِمثلها ، فيقولون : يا ربنا لو أدخلتَنا النار قبل أن تُرِيَنا ما أريتَنا كان أهون علينا ؛ قال : ذلك أردتُ بكم ، كنتم إذا خَلَوْتُمْ بارزتموني بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم ، هِبتم الناس ولم تهابوني ، وأجللتم الناس ولم تُجِلُّوني ، تركتم للناس ولم تتركوا لي ، فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب »[٢] .

ومن موجبات الحسرة ما روي عن ابن مسعود قال : ليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة ، وبيت في النار ، ثم يقال : يعني لهؤلاء : لو عملتم ، ولأهل الجنة : لولا أن منَّ الله عليكم .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٩/٣ ، والبخاري : ٣٢٥/٨ ، ومسلم : ٢١٨٨/٤ ، والترمذي ١٤٤/٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٧١/٤ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه .

(٢) ذكره الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » باب الترهيب من الرياء من رواية الطبراني في « الكبير » والبيهقي ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

ومن موجبات الحسرة : قطع الرجاء عند إطباق النار على أهلها .

قوله تعالى : (إذْ قُضي الأمر) قال ابن الأنباري : « قُضي » في اللغة بمعنى : أُتقن وأُحكم ، وإنما سمِّي الحاكم قاضياً ، لإتقانه وإحكامه ما ينفّذ . وفي الآية اختصار ، والمعنى : إذ قضي الأمر الذي فيه هلاكهم .

وللمفسرين في الأمر قولان .

أحدهما : أنه ذبح الموت ، قاله ابن جريج ، والسدي . والثاني : أن المعنى : قُضي العذاب لهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وهم في غفلة) أي : هم في الدنيا في غفلة عما يُصنَع بهم ذلك اليوم (وهم لا يؤمنون) بما يكون في الآخرة .

قوله تعالى : (إنّا نحن نرث الأرض) أي : نُميت سكّانها فنرثها (ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعون) بعد الموت .

فان قيل : ما الفائدة في « نحن » وقد كفت عنها « إنّا » ؟

فالجواب : أنه لما جاز في قول المعظَّم : « إنّا نفعل » أن يوهم أن أتباعه فعلوا ، أبانت « نحن » بأن الفعل مضاف إليه حقيقة .

فان قيل : فلم قال : « ومَنْ عليها » وهو يرث الآدميين وغيرهم ؟!

فالجواب : أن « مَنْ » تختص أهل التمييز ، وغيرُ المميِّزين يدخلون في معنى الأرض ويجرون مجراها ، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً .

يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَاأَبَتِ لاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً . يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾

قوله تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم) أي : اذكر لقومك قصته . وقد سبق معنى الصِّدِّيق [في النساء : ٦٩] .

قوله تعالى : (ولا يغني عنكَ شيئاً) أي : لايدفع عنكَ ضرّاً .

قوله تعالى : (إِني قد جاءني من العِلْم) بالله والمعرفة (مالم يأتك) .

قوله تعالى : (لاتعبد الشيطان) أي : لاتُطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي . وقد شرحنا معنى « كان » آنفاً . و (عَصيّاً) أي : عاصياً ، فهو « فعيل » بمعنى « فاعل » .

قوله تعالى : (إني أخاف أن يمَسَّكَ عذاب من الرحمن) قال مقاتل : في الآخرة ؛ وقال غيره : في الدنيا ، (فتكونَ للشيطان وليّاً) أي : قريناً في عذاب الله ، فجرت المقارنة مجرى الموالاة . وقيل : إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه ، لأنه

حين خرج من النار قال له : نِعْمَ الإلَه إلهك يا إبراهيم ، فحينئذ أقبل يعظه ، فأجابه أبوه : (أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم) ! أي : أتارك عبادتها أنت ؟ ! (لئن لم تنته) عن عيبها وشتمها (لأرجمنَّك) وفيه قولان .

أحدهما : بالشتم والقول ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : بالحجارة حتى تتباعدَ عني ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (واهجرني ملياً) فيه قولان .

أحدها : اهجرني طويلاً ، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والفرَّاء ، والأكثرون . قال ابن قتيبة : اهجرني حيناً طويلاً ، ومنه يقال : تَمَلَّيت حبيبك .

والثاني : اجتنبني سالماً قبل أن تصيبَك عقوبتي ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك ؛ فعلى هذا يكون من قولهم : فلان مليٌّ بكذا وكذا : إذا كان مضطلعاً به ، فالمعنى : اهجرني وعرضك وافر ، وأنت سليم من أذايَ ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : (قال سلام عليكَ) أي : سَلِمتَ من أن أُصيبَك بمكروه ، وذلك أنه لم يؤمَر بقتاله على كفره ، (سأستغفر لكَ ربّي) فيه قولان .

أحدها : أن المعنى : سأسأل الله لك توبةً تنال بها مغفرته .

والثاني : أنه وعده الاستغفار وهو لا يعلم أن ذلك محظور في حقّ المُصِرّين على الكفر ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (إنه كان بي حفياً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لطيفاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال ابن زيد ، والزجاج .

والثاني : رحيماً ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : بارّاً عوّدني منه الإجابة إذا دعوتُه ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (وأعتزِلُكم) أي : وأتنحّى عنكم ، (و) أعتزلُ (ما تدعون من دون الله) يعني : الأصنام .

وفي معنى « تَدْعُون » قولان .

أحدها : تَعْبُدون .

والثاني : أن المعنى : وما تدعونه ربّاً ، (وأدعو ربّي) أي : وأعبُده (عسى ألّا أكون بدعاء ربّي شقيّاً) أي : أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شَقِيتُم أنتم بعبادة الأصنام ، لأنها لا تنفعهم ولا تُجيب دعاءهم (فلما اعتزلهم) قال المفسرون : هاجر عنهم إلى أرض الشام ، فوهب الله له إسحاق ويعقوب ، فآنس الله وحشته عن فراق قومه بأولادٍ كرامٍ . قال أبو سليمان : وإنما وهب له إسحاق ويعقوب بعد إسماعيل .

قوله تعالى : (وكلاًّ) أي : وكلاًّ من هذين . وقال مقاتل : « وكلاًّ » يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب (جعلناه نبيّاً) .

قوله تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا) قال المفسرون : المال والولد والعِلْم والعمل ، (وجعلنا لهم لسان صِدْق عليّاً) قال ابن قتيبة : أي : ذِكْراً حَسَناً في النّاس مرتفعاً ، فجميع أهل الأديان يتولّون إبراهيم وذريّته ويُثنون عليهم ، فوضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان [1] .

---

(١) في عبارة الأصل هنا تقديم وتأخير ، وهذا نصها : [(وجعلنا لهم لسان صدق) ـــ

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً . وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً . وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾

قوله تعالى : (إنه كان مخلصاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : « مُخْلِصاً » بكسر اللام . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بفتح اللام . قال الزجاج : المُخْلِص ، بكسر اللام : الذي وحَّد الله ، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غيرَ دَنِسة ، والمُخْلَص ، بفتح اللام : الذي أخلصه الله ، وجعله مختاراً خالصاً من الدَّنَس .

قوله تعالى : (وكان رسولاً) قال ابن الأنباري : إنما أعاد « كان » لتفخيم شأن النبيّ المذكور .

قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطُّور) أي : من ناحية الطُّور ، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زَبير . قال ابن الأنباري : [إنما] خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم ، ومن كلامهم : عن يمين القِبلة وشمالها ، يعنون : مما يلي يمين المستقبِل لها وشماله ، فنقلوا الوصف إلى ذلك اتساعاً عند انكشاف المعنى ، لأن الوادي لا يَدَ لَهُ فيكون له يمين . وقال المفسرون : جاء النداء عن يمين موسى ، فلهذا قال : « الأيمنِ » ، ولم يُرِد به يمين الجبل .

قوله تعالى : (وقرَّبناه نجيّاً) قال ابن الأنباري : معناه : مناجياً ، فعبَّر

ـــ أي : ذِكراً حسَناً في الناس مرتفعاً ، فجميع أهل الأديان يتولَّون إبراهيم وذريته ويثنون عليهم ، قال ابن قتيبة : فوضع اللسان مكان القول ، لأن القول يكون باللسان . اهـ] وابن قتيبة لم يقل سوى هذه العبارة : « أي : ذِكراً حسناً في الناس مرتفعاً » ، فقدَّمنا جملة « قال ابن قتيبة » على قوله ، حتى تستقيم العبارة .

« فَعيل » عن « مُفَاعِل » ، كما قالوا : فلان خليطي وعشيري : يعنون : مخالطي ومُعاشري . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : « وقرّبناه » قال : حتى سمع صريف القلم حين كتب له في الألواح .

قوله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا) أي : من نعمتنا عليه إذ أجبنا دعاءه حين سأل أن نجعل معه أخاه وزيراً له .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً . وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾

قوله تعالى : (إنه كان صادق الوعد) هذا عامّ فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس . وقال مجاهد : لم يَعِد ربَّه بوعدٍ قطُّ إلا وفى له به .

فان قيل : كيف خُصَّ بصدق الوعد إسماعيل ، وليس في الأنبياء من ليس كذلك ؟

فالجواب : أن إسماعيل عانى [في الوفاء] بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فأُثني عليه بذلك . وذكر المفسرون : أنه كان بينه وبين رجل ميعاد ، فأقام ينتظره مدة فيها لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أقام حَوْلاً ، قاله ابن عباس . والثاني : اثنين وعشرين يوماً ، قاله الرقاشي . والثالث : ثلاثة أيام ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وكان رسولاً) إلى قومه ، وهم جُرْهُم . (وكان يأمر أهله) قال مقاتل : يعني : قومه . وقال الزجاج : أهله : جميعُ أُمَّته . فأما الصلاة والزكاة ، فهما العبادتان المعروفتان .

قوله تعالى : (ورفعناه مكاناً عَلِيّاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه في السماء الرابعة ، روى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله ﷺ في حديث المعراج : أنه رأى إدريس في السماء الرابعة [1] ، وبهذا قال أبو سعيد الخدريّ ، ومجاهد ، وأبو العالية .

والثاني : أنه في السماء السادسة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك [2] .

والثالث : أنه في الجنة ، قاله زيد بن أسلم ، وهذا يرجع إلى الأول ، لأنه قد روي أن الجنة في السماء الرابعة .

والرابع : أنه في السماء السابعة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي [3] .

وفي سبب صعوده إلى السماء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان يصعد له من العمل مثلُ ما يصعد لجميع بني آدم ؛ فأحبَّه مَلَكُ الموت ، فاستأذن اللهَ في خُلَّته ، فأذن له ، فهبط إليه في صورة آدمي ،

---

(١) البخاري : ٢١٧/٦ ، ومسلم : ١٥٠/١ .

(٢) وعلى هامش نسخة الرباط بخط مغربي : أخرج الحاكم في « المستدرك » ـ وقال الذهبي : إسناده مظلم لاتقوم به حجة ـ ، عن الحسن بن سمرة أنه قال : كان نبي الله إدريس أبيض طويلاً ، ضخم البطن ، عريض الصدر ، قليل شعر الجسد ، كثير شعر الرأس ، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى ، وكان في صدره نكتة بياض من غير برص ، فلما رأى الله من أهل الأرض مارأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله ، رفعه إلى السماء السادسة [فهو] حيث يقول : (ورفعناه مكاناً علياً) [مريم : ٥٧] ، فهذا يدل على فرض صحته أنه رفع حياً ، والله أعلم أنّى ذلك كان . اهـ . والحديث في « المستدرك » : (٥٤٩/٢) .

(٣) والقول الأول هو الصحيح .

وكان يصحبه ، فلما عرفه ، قال : إنّي أسألك حاجة ، قال : ما هي ؟ قال : تذيقني الموت ، فلعلّي أعلم ما شدَّته فأكون له أشدّ استعداداً ؛ فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعةً ثم أرْسِله ، ففعل ، ثم قال : كيف رأيتَ ؟ قال : كان أشدَّ مما بلغني عنه ، وإني أُحب أن تريَني النار ، قال : فحمله ، فأراه إيّاها ؛ قال : إني أُحِبُّ أن تريَني الجنة ، فأراه إياها ، فلما دخلها وطاف فيها ، قال له ملك الموت : اخرج ، فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يُخرجني ؛ فبعث الله ملَكاً فحكم بينهما ، فقال : ماتقول ياملَك الموت ؟ فقصَّ عليه ماجرى ؛ فقال : ماتقول ياإدريس ؟ قال : إن الله تعالى قال : (كُلُّ نَفْس ذائقة الموت) [آل عمران: ١٨٥] ، وقد ذُقتُه ، وقال : (وإن منكم إلا واردها) [مريم: ٧١] ، وقد وردتُها ، وقال لأهل الجنة : (وماهم منها بِمُخْرَجِين) [الحجر: ٤٨] ، فوالله لا أخرج حتى يكون الله يُخرجني ؛ فسمع هاتفاً من فوقه يقول : باذني دخل ، وبأمري فعل ، فخلِّ سبيله ؛ هذا معنى مارواه زيد بن أسلم مرفوعاً إلى النبي ﷺ (١) .

فان سأل سائل فقال : من أين لإدريس هذه الآيات ، وهي في كتابنا ؟ ! فقد ذكر ابن الأنباري عن بعض العلماء ، قال : كان الله تعالى قد أعلم إدريس بما ذكر في القرآن من وجوب الورود ؛ وامتناع الخروج من الجنة ، وغير ذلك ، فقال ماقاله بعلم .

والثاني : أن ملَكاً من الملائكة استأذن ربه أن يهبط إلى إدريس ، فأذن له ، فلما عرفه إدريس ، قال : هل بينك وبين ملك الموت قرابة ؟ قال : ذاك أخي من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعني عند ملك الموت ؟ قال : سأكلّمه فيك ،

(١) ذكر السيوطي في « الدر » : ٤/٢٧٤ بهذا المعنى خبراً طويلاً ، من رواية ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث إلى النبي ﷺ ، والله أعلم بصحته .

فيرفق بك ، اركب بين جناحيّ ، فركب إدريس ، فصعد به إلى السماء ، فلقي ملك الموت ، فقال : إن لي إليك حاجة ، قال : أعلم ماحاجتك ، تكلّمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجَله إلا نصف طرفة عين ؟! فمات إدريس بين جناحي المَلَك ، رواه عكرمة عن ابن عباس (١). وقال أبو صالح عن ابن عباس : فقبض ملك الموت روح إدريس في السماء السادسة .

والثالث : أن إدريس مشى يوماً في الشمس ، فأصابه وهجها ، فقال : اللهم خفِّف ثقلها عمَّن يحملها ، يعني به الملك الموكَّل بالشمس ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرِّها مالايعرف ، فسأل الله عز وجل عن ذلك ، فقال : إن عبدي إدريس سألني أن أُخفِّف عنكَ حملها وحرَّها ، فأجبْتُه ، فقال : يارب اجمع بيني وبينه ، واجعل بيننا خُلَّة ، فأَذِن له ، [فأتاه] ، فكان مما قال له إدريس : اشفع لي إلى ملك الموت ليؤخِّرَ أجَلي ، فقال : إن الله لايؤخِّر نفساً إذا جاء أجَلُها ، ولكن أُكلِّمه فيك ، فما كان مستطيعاً أن يفعل بأحد من بني آدم فعل بك ، ثم حمله الملك على جناحه ، فرفعه إلى السماء ، فوضعه عند مطالع الشمس ، ثم أتى ملكَ الموت فقال : إن لي إليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفَّعَ بي إليك لتؤخِّر أجَلَه ، قال : ليس ذاك إليّ ، ولكن إن أحببتَ أعلمتُه متى يموت ، فنظر في ديوانه ، فقال : إنك كلّمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً ، ولا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس ، فقال : إني أتيتك وتركته هناك ، قال : انطلق ، فما أراك تجده إلا ميتاً ، فوالله مابقي من أجله شيء ، فرجع الملك فرآه ميتاً . وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وكعب في آخرين (٢). فهذا القول والذي قبله يدّلان على أنه ميت ، والقول الأوّل يدل على أنه حيّ .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٢٧٤ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر نحوه: هذا من أخبار كعب من الاسرائيليات، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا . جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا . وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

قوله تعالى : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) يعني الذين ذُكِرهم من الأنبياء في هذه السورة (من ذُرِّيَّة آدم) يعني إدريس (وممن حَمَلْنا مع نوح) يعني إبراهيم ، لأنه من ولد سام بن نوح (ومن ذرية إبراهيم) يريد : إسماعيل وإسحاق ويعقوب (وإسرائيل) يعني : ومن ذرية إسرائيل ، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .

قوله تعالى : (وممن هَدَينا) أي : هؤلاء كانوا ممن أرشَدْنا ، (واجتبَيْنا) أي : واصطَفَيْنا .

قوله تعالى : (خرُّوا سُجَّداً) قال الزجاج : « سُجَّداً » حال مقدَّرة ، المعنى : خرُّوا مقدِّرين السجود ، لأن الإنسان في حال خروره لايكون ساجداً ،

فـ « سُجَّداً » منصوب على الحال ، وهو جمع ساجد (وبُكِيّاً) معطوف عليه ، وهو : جمع باكٍ ، فقد بيَّن الله تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله سجدوا وَبَكَوْا من خشية الله .

قوله تعالى : (فخلف من بعدهم خَلْفٌ) قد شرحناه في (الأعراف : ١٦٩) .

وفي المراد بهذا الخَلْف ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم اليهود ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : اليهود والنصارى ، قاله السدي . والثالث : أنهم من هذه الأُمَّة ، يأتون عند ذهاب صالحي أُمة محمد ﷺ يتبارَوْن بالزنا ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقّة زناة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : (أضاعوا الصلاة) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، والحسن البصري : « الصلوات » على الجمع .

وفي المراد باضاعتهم إياها قولان .

أحدها : أنهم أخَّروها عن وقتها ، قاله ابن مسعود ، والنخعي ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن مخيمرة .

والثاني : تركوها ، قاله القرظي ، واختاره الزجاج .

قوله تعالى : (واتَّبعوا الشهوات) قال أبو سليمان الدمشقي : وذلك مثل استماع الغناء ، وشرب الخمر ، والزنا ، واللهو ، وما شاكل ذلك مما يقطع عن أداء فرائض الله عز وجل .

قوله تعالى : (فسوف يلقون غيّاً) ليس معنى هذا اللقاء مجرد الرؤية ، وإنما المراد به الاجتماع والملابسة مع الرؤية .

وفي المراد بهذا الغيّ ستة أقوال .

أحدها : أنه وادٍ في جهنم ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ [١]، وبه قال كعب . والثاني : أنه نهر في جهنم ، قاله ابن مسعود . والثالث : أنه الخسران ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والرابع : أنه العذاب ، قاله مجاهد . والخامس : أنه الشرّ ، قاله ابن زيد ، وابن السائب . والسادس : أن المعنى : فسوف يلقون مجازاة الغي ، كقوله : (يلقَ أثاماً) [الفرقان : ٦٨] أي : مجازاة الآثام ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (إلا من تاب وآمن) فيه قولان .

أحدهما : تاب من الشرك ، وآمن بمحمد ﷺ ، قاله مقاتل .

والثاني : تاب من التقصير في الصلاة ، وآمن من اليهود والنصارى .

قوله تعالى : (جناتِ عدن) وقرأ أبو رزين العقيلي ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « جناتُ » برفع التاء . وقرأ الحسن البصري ، والشعبي ، وابن السميفع : « جنةُ عدنٍ » على التوحيد مع رفع التاء . وقرأ أبو مجلز ، وأبو المتوكل الناجي : « جنةَ عدن » على التوحيد مع نصب التاء . وقوله : (التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب) أي : وعدهم بها ، ولم يرَوْها ، فهي غائبة عنهم .

قوله تعالى : (إنه كان وعده مأتياً) فيه قولان .

أحدهما : آتياً ، قال ابن قتيبة : وهو « مفعول » في معنى « فاعل » ، وهو قليل أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به . وقال الفراء : إنما لم يقل : آتياً ، لأن

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٧٨/٤ من رواية ابن مردويه من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ .

كل ما أتاك ، فأنت تأتيه ؛ ألا ترى أنك تقول : أتيت على خمسين سنة ، وأتت عليَّ خمسون [سنة] ؟ .

والثاني : مبلوغاً إليه ، قاله ابن الأنباري . وقال ابن جريج: « وعده » هاهنا : موعوده ، وهو الجنة ، و « مأتيّاً » : يأتيه أولياؤه .

قوله تعالى : (لايسمعون فيها لغواً) فيه قولان .

أحدها : أنه التخالف عند شرب الخمر ، قاله مقاتل .

والثاني : مايلغى من الكلام ويؤثم فيه ، قاله الزجاج . وقال ابن الأنباري : اللغو في العربية : الفاسد المطَّرَح .

قوله تعالى : (إلا سلاماً) قال أبو عبيدة : السلام ليس من اللغو ، والعرب تستثني الشيء بعد الشيء وليس منه ، وذلك أنها تضمر فيه ، فالمعنى : إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً . وقال ابن الأنباري : استثنى السلام من غير جنسه ، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود ، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام ، فليس يسمعون لغواً البتَّة ، وكذلك قوله : (فانهم عدوٌ لي إلا ربَّ العالمين) [الشعراء : ٧٧] ، إذا لم يخرج من عداوتهم لي غير رب العالمين ، فكلُّهم عدو .

وفي معنى هذا السلام قولان .

أحدها : أنه تسليم الملائكة عليهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم لايسمعون إلا مايسلِّمهم ، ولا يسمعون مايؤثمهم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بُكْرة وعَشِيّاً) قال المفسرون : ليس في الجنة بُكْرة ولا عشيَّة ، ولكنَّهم يُؤْتَوْن برزقهم - على مقدار ما كانوا يعرفون - في الغداة والعشي . قال الحسن : كانت العرب لاتعرف شيئاً من العيش أفضل من الغداء والعشاء ، فذكر الله لهم ذلك . وقال قتادة : كانت العرب إذا أصاب أحدُهم

الغداء والعشاء أعجب به ، فأخبر الله أن لهم في الجنة رزقهم بكرة وعشيّاً على قدر ذلك الوقت ، وليس ثَمَّ ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونُور . وروى الوليد ابن مسلم ، قال : سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى : (بُكْرة وعشيّاً) فقال : ليس في الجنة ليل ولا نهار ، هم في نور أبداً ، ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بارخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب .

قوله تعالى : (تلك الجنة) الإشارة إلى قوله : (فأولئك يدخلون الجنة) .

قوله تعالى : (نُورِث) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة ، وابن أبي عبلة : بفتح الواو وتشديد الراء . قال المفسرون : ومعنى « نورث » : نعطي المساكن التي كانت لأهل النار - لو آمنوا - للمؤمنين . ويجوز أن يكون معنى « نورث » : نعطي ، فيكون كالميراث لهم من جهة أنها تمليك مستأنف . وقد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) .

قوله تعالى : (وما نتنزّل إلا بأمر ربّك) وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر : « وما يَتنزّل » بياء مفتوحة .

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ قال : « ياجبريل مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس (١) .

(١) رواه أحمد في « المسند » رقم (٢٠٤٣) ، والبخاري : ٣٢٦/٨ ، والترمذي : ١٤٥/٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٧٨/٤ وزاد نسبته لمسلم ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في « الدلائل » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعند أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم زيادة في آخر الحديث « فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ » . ولم نجد الحديث في « صحيح مسلم » كما قال السيوطي .

والثاني : أن المَلَك أبطأ على رسول الله ﷺ ثم أتاه ، فقال : لعلّي أبطأتُ ، قال : « قد فعلتَ » ، قال : ومالي لا أفعل ، وأنتم لاتتسوّكون ، ولا تقصّون أظفاركم ، ولا تُنقّون براجمكم ، فنزلت الآية ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : البراجم عند العرب : الفصوص التي في فصول ظهور الأصابع ، تبدو إذا جُمعت ، وتغمض إذا بُسطت . والرواجب: مابين البراجم ، بين كل برجمتين راجبة .

والثالث : أن جبريل احتبس عن النبي ﷺ حين سأله [قومه] عن قصة أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والروح ، فلم يدر مايجيبهم ، ورجا أن يأتيَه جبريل بجواب ، فأبطأ عليه ، فشق على رسول الله ﷺ مشقّة شديدة ، فلما نزل جبريل قال له : « أبطأتَ عليّ حتى ساء ظني ، واشتقتُ إليك » ، فقال جبريل : إنّي كنتُ أشوَق ، ولكنّي عبدٌ مأمور ، إذا بُعثتُ نزلتُ ، وإذا حُبستُ احتبستُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة ، وقتادة ، والضحاك [1] .

وفي سبب احتباس جبريل عن رسول الله ﷺ قولان .

أحدهما : لامتناع أصحابه من كمال النظافة ، كما ذكرنا في حديث مجاهد .

والثاني : لأنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف ، فقال : « غداً أخبركم » ، ولم يقل : إن شاء الله ؛ وقد سبق هذا في سورة (الكهف : ٢٤) .

وفي مقدار احتباسه عنه خمسة أقوال .

أحدها : خمسة عشر يوماً ؛ وقد ذكرناه في (الكهف) عن ابن عباس . والثاني : أربعون يوماً ، قاله عكرمة ، ومقاتل . والثالث : اثنتا عشرة ليلة ، قاله مجاهد . والرابع : ثلاثة أيام ، حكاه مقاتل . والخامس : خمسة وعشرون يوماً ،

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٧٣ ، وذكره ابن كثير : ٣/١٣٠ مختصراً من رواية ابن أبي حاتم عن عكرمة ، وقال : وهو غريب .

حكاه الثعلبي . وقيل : إن سورة (الضحى) نزلت في هذا السبب . والمفسرون على أن قوله : « وما تتنزل إلا بأمر ربِّك » قول جبريل . وحكى الماوردي : أنه قول أهل الجنة إذا دخلوها ، فالمعنى : ماننزل هذه الجنان إلا بأمر الله . وقيل : ماننزل موضعاً من الجنة إلا بأمر الله .

وفي قوله : (مابين أيدينا وما خلفنا) قولان .

أحدها : مابين أيدينا : الآخرة ، وما خلفنا : الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، ومقاتل .

والثاني : مابين أيدينا : مامضى من الدنيا ، وما خلفنا : من الآخرة ، فهو عكس الأول ، قاله مجاهد . وقال الأخفش : مابين أيدينا : قبل أن نُخلَق ، وما خلفنا : بعد الفناء .

وفي قوله تعالى : (وما بين ذلك) ثلاثة أقوال .

أحدها : مابين الدنيا والآخرة ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : مابين النفختين ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية .

والثالث : حين كوَّنَنا ؛ قاله الأخفش . قال ابن الأنباري : وإنما وحَّد ذلك ، والإشارة إلى شيئين ، أحدهما : « مابين أيدينا » والثاني : « ماخلفنا » ، لأن العرب توقع ذلك على الاثنين والجمع .

قوله تعالى : (وما كان ربك نَسِيّاً) النَّسِيُّ ، بمعنى الناسي .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : ماكان تاركاً لك منذ أبطأ الوحي عنك ، قاله ابن عباس . وقال مقاتل : مانسيك عند انقطاع الوحي عنك .

والثاني : أنه عالم بما كان ويكون ، لاينسى شيئاً ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فاعبُده) أي : وحّده ، لأن عبادته بالشِّرك ليست عبادة ، (واصطبر لعبادته) أي : اصبر على توحيده ؛ وقيل : على أمره ونهيه .

قوله تعالى : (هل تعلم له سميّاً) روى هارون عن أبي عمرو أنه كان يُدغم « هل تعلم » ، ووجهه أن سيبويه يجيز إدغام اللام في التاء والثاء والدال والزاي والسين والصاد والطاء ، لأن آخر مخرج من اللام قريب من مخارجهن . قال أبو عبيدة : إذا كان بعد « هل » تاء ، ففيه لغتان ، بعضهم يُبين لام « هل » ، وبعضهم يدغمها .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : مِثْلاً وشبهاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : هل تعلم أحداً يسمّى « اللهَ » غيرُه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له : خالق وقادر ، إلا هو ، قاله الزجاج .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً . فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً . ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيّاً . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً . وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً ﴾

قوله تعالى : (ويقول الإنسان) سبب نزولها أن أُبيَّ بن خلف أخذ عظماً

بالياً ، فجعل يفتّه بيده ويذريه في الريح ويقول : زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس [١] . وروى عطاء عن ابن عباس : أنه الوليد بن المغيرة .

قوله تعالى : (لسوف أُخْرَجُ حَيّاً) إن قيل : ظاهره ظاهر سؤال ، فأين جوابه ؟ فمنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري .

أحدها : أن ظاهر الكلام استفهام ، ومعناه معنى جحد وإنكار ، تلخيصه : لستُ مبعوثاً بعد الموت .

والثاني : أنه لمّا استفهم بهذا الكلام عن البعث ، أجابه الله عز وجل بقوله : (أوَلا يَذْكُرُ الإنسان) ، فهو مشتمل على معنى : نعم ، وأنت مبعوث .

والثالث : أن جواب سؤال هذا الكافر في (يس : ٧٨) عند قوله تعالى : (وضرب لنا مَثَلاً) ، ولا يُنكَر بُعْد الجواب ، لأن القرآن كلّه بمنزلة الرسالة الواحدة ، والسورتان مكيّتان .

قوله تعالى : (أولا يَذكر الإنسانُ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بفتح الذال مشددة الكاف . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : « يَذْكُرُ » ، ساكنة الذال خفيفة . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل الناجي : « أوَلا يتذكّر الإنسان » بياء وتاء . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن : « يذْكُر » بياء من غير تاء ساكنة الذال مخففة مرفوعة الكاف ، والمعنى : أوَلا يتذكّر هذا الجاحد أوّل خلقه ، فيستدل بالابتداء على الإعادة ؟ ! (فوربك لنحشرنّهم) يعني : المكذّبين بالبعث (والشياطينَ) أي : مع الشياطين ، وذلك أن كل كافر يُحشَر مع شيطانه في سلسلة ، (ثم لنُحْضِرَنّهم

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٧٣ عن الكلبي .

حول جهنَّم) قال مقاتل : أي : في جهنم ، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخلَه ، تقول : جلس القوم حول البيت : إذا جلسوا داخله مطيفين به . وقيل : يجثون حولها قبل أن يدخلوها .

فأما قوله : (جِثِيّاً) فقال الزجاج : هو جمع جاثٍ ، مثل قاعدٍ وقعودٍ ، وهو منصوب على الحال ، والأصل ضم الجيم ، وجاء كسرها إتباعاً لكسرة الثاء . وللمفسرين في معناه خمسة أقوال .

أحدها : قعوداً ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : جماعات جماعات ، روي عن ابن عباس أيضاً . فعلى هذا هو جمع جثوة [1] وهي المجموع من التراب والحجارة . والثالث : جثيّاً على الرُّكَب ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والزجاج . والرابع : قياماً ، قاله أبو مالك . والخامس : قياماً على رُكَبهم ، قاله السدي ، وذلك لضيق المكان بهم .

قوله تعالى : (لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كل شيعة) أي : لنأخذنّ من كل فِرقة وأُمَّة وأهل دين (أيُّهم أشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً) أي : أعظمهم له معصية ، والمعنى : أنه يُبدَأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جُرْماً ، والرؤوس القادة في الشرِّ . قال الزجاج : وفي رفع « أيُّهم » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على الاستئناف ، ولم تعمل : « لننزعنّ » شيئاً ، هذا قول يونس .

والثاني : أنه على معنى الذي يقال لهم : أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيّاً ؟ قاله الخليل ، واختاره الزجاج ، وقال : التأويل : لننزعنّ الذي من أجل عُتُوِّه يقال : أيُّ هؤلاء أشَدُّ عِتِيّاً ؟ وأنشد :

---

(١) مثلثة الجيم .

وَلَقَدْ أَبِيتُ عن الفَتَاةِ بِمَنْزِلٍ فأبيت لاحَرِج ولا محروم [1]

المعنى : أبيت بمنزلة الذي يقال له : لاهو حَرِج ولا محروم .

والثالث : أن « أيهم » مبنية على الضم ، لأنها خالفت أخواتها ، فالمعنى : أيهم هو أفضل . وبيان خلافها لأخواتها أنك تقول : اضرب أيهم أفضل ، ولا يَحْسُن : اضرب مَنْ أفضل ، حتى تقول : من هو أفضل ، ولا يَحْسُن : كُلْ ما أطيب ، حتى تقول : ماهو أطيب ، ولاخُذْ ما أفضل ، حتى تقول : الذي هو أفضل ، فلما خالفت « ما » و « مَنْ » و « الذي » بُنيت على الضم ، قاله سيبويه .

قوله تعالى : (هُمْ أَوْلَى بها صِلِيّاً) يعني : أن الأَوْلى بها صِلِيّاً الذين هم أشدُّ عِتِيّاً ، فيُبْتَدَأُ بهم قبل أتباعهم . و « صِلِيّاً » : منصوب على التفسير ، يقال : صَلِي النار يصلاها : إذا دخلها وقاسى حَرَّها .

قوله تعالى : (وإنْ منكم إلا واردها) في الكلام إضمار تقديره : وما منكم أحد إلا وهو واردها .

وفيمن عُني بهذا الخطاب قولان .

أحدهما : أنه عامّ في حق المؤمن والكافر ، هذا قول الأكثرين . وروي عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية للكفار . وأكثر الروايات عنه كالقول الأول . قال ابن الأنباري : ووجه هذا أنه لما قال : « لنُحْضِرَنَّهم » وقال : « أيهم أشدُّ

---

(١) البيت في « القرطبي » : ١١/١٣٣ » و « روح المعاني » : ١٦/١١٠ وروايته فيها : ولقد أبيتُ من الفتاة ، ولفظه في نسخة الرباط :

ولقد أتيت على الفتـــاة بمنزل فـــأتيت لاحرج ولا محروم

المعنى : أتيت . . . الخ .

على الرحمن عِتِيّاً » كان التقدير : وإن منهم ، فأبدلت الكاف من الهاء ، كما فعل في قوله : (إنّ هذا كان لكم جزاءً) [الانسان : ٢٢] المعنى : كان لهم ، لأنه مردود على قوله : (وسقاهم ربُّهم) [الانسان : ٢١] ، وقال الشاعر :

شَطَّتْ مزارَ العاشقين فأصبحتْ عَسِراً عليّ طلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ [1]

أراد : طلابها . وفي هذا الورود خمسة أقوال .

أحدها : أنه الدخول . روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الورود : الدخول لايبقى بَرّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار - أو قال : لجهنم - ضجيجاً من بردهم » [2] . وروي عن ابن عباس أنه سأله نافع بن الأزرق عن هذه الآية ، فقال له : « أمّا أنا وأنت فسندخلها ، فانظر أيُخرجنا الله عز وجل منها ، أم لا ؟ فاحتج بقوله تعالى (فأوردهم النار) [هود : ٩٨] وبقوله تعالى : (أنتم لها واردون) [الأنبياء : ٩٨] . وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول : أُنبئت أني وارد ، ولم أُنبَّأ أني صادر . وحكى الحسن البصري : أن رجلاً قال لأخيه : ياأخي هل أتاك أنك واردٌ النار ؟ قال : نعم ؛ قال : فهل أتاك أنك خارجٌ منها ؟ قال : لا ؛ قال : ففيم الضحك ؟! وقال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قالوا : ألم يَعِدْنا رَبُّنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم : بلى ، ولكن مررتم بها وهي خامدة .

وممن ذهب إلى أنه الدخول : الحسن في رواية ، وأبو مالك .

---

(١) البيت تقدم في ج ٣ / ٣٩٣ .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » عن جابر رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه ، وذكر السيوطي في « الدر » ٤/٢٨٠ وزاد نسبته لعبيد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » .

وقد اعتُرِض على أرباب هذا القول بأشياء. فقال الزجاج: العرب تقول: وردت بلد كذا، ووردت ماء كذا: إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا، ومنه قوله تعالى: (ولما ورد ماء مدين) [القصص: ٢٣]، والحجة القاطعة في هذا القول قوله تعالى: (أولئك عنها مبعَدون. لا يسمعون حسيسها) [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]، وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ (١)

أي: لما بلغن الماء قمن عليه.

قلت: وقد أجاب بعضهم عن هذه الحجج، فقال: أما الآية الأولى، فان موسى لما أقام حتى استقى الماء وسقى الغنم، كان بلبثه ومباشرته كأنه دخل؛ وأما الآية الأخرى: فانها تضمنت الإخبار عن أهل الجنة حين كونهم فيها، وحينئذ لا يسمعون حسيسها. وقد روينا آنفاً عن خالد بن معدان أنهم يمرُّون بها، ولا يعلمون.

والثاني: أن الورود: المرُّ عليها، قاله عبد الله بن مسعود، وقتادة. وقال ابن مسعود: يَرِد الناس النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولـهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحُضْر الفرس (٢) [ثم كالراكب في رحله]، ثم كشدِّ الرحل، ثم كمشيه (٣).

والثالث: أن ورودها: حضورها، قاله عبيد بن عمير.

والرابع: أن ورود المسلمين: المرور على الجسر، وورود المشركين: دخولها. قاله ابن زيد.

---

(١) « شرح ديوان زهير »: ١٣، و « القرطبي »: ١١/١٣٧، و « اللسان » و « التاج »: ورق.

(٢) أي: كعدو الفرس. (٣) وقد روي مرفوعاً وموقوفاً.

والخامس : أن ورود المؤمن إليها : ما يصيبه من الحمّى في الدنيا ، روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال : الحمّى حظّ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ : « وإنْ منكم إلا واردها » فعلى هذا مَن حُمَّ من المسلمين ، فقد وردها .

قوله تعالى : (كان على ربك) يعني : الورود (حتماً) والحتم : ايجاب القضاء ، والقطع بالأمر . والمقضيُّ : الذي قضاه الله تعالى ، والمعنى : إنه حتم ذلك وقضاه على الخلق .

قوله تعالى : (ثم ننجّي الذين اتّقَوْا) وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، وابن يعمر ، وابن أبي ليلى ، وعاصم الجحدري : « ثَمَّ » بفتح الثاء . وقرأ الكسائي ، ويعقوب : « نُنْجي » مخففة . وقرأت عائشة ، وأبو بحرية ، [وأبو الجوزاء الربعي : « ثم يُنجي » بياء مرفوعة قبل النون خفيفة الجيم مكسورة . وقرأ أُبيّ بن كعب] ، وأبو مجلز ، وابن السميفع ، وأبو رجاء : « ننحّي » بحاء غير معجمة مشددة . وهذه الآية يحتج بها القائلون بدخول جميع الخلق ، لأن النجاة : تخليص الواقع في الشيء ، ويؤكّده قوله تعالى : (ونذر الظالمين فيها) ولم يقل : ونُدخلهم ؛ وإنما يقال : نذَر ونترك لمن قد حصل في مكانه . ومن قال : إن الورود للكفار خاصة ، قال : معنى هذا الكلام : نخرج المتّقين من جملة من يدخل النار . والمراد بالمتقين : الذين اتّقَوْا الشرك ، وبالظالمين : الكفار . وقدسبق معنى قوله تعالى : (جِثِيّاً) [مريم:٦٨] .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾

قوله تعالى : (وإذا تُتلى عليهم) يعني : المشركين (آياتنا) يعني : القرآن

(قال الذين كفروا) يعني : مشركي قريش (للذين آمنوا) أي : لفقراء المؤمنين (أيُّ الفريقين خيرٌ مَقاماً) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم [مَقاماً] بفتح الميم وقرأ ابن كثير بضم الميم . قال أبو علي الفارسي : المقام : اسم المثوى ، إن فُتحت الميم أو ضُمَّتْ .

قوله تعالى : (وأحسن ندِيّاً) والندِيُّ والنادي : مجلس القوم ومجتمعهم . وقال الفراء : الندِيُّ والنادي ، لغتان . ومعنى الكلام : أنحن خير ، أم أنتم ؛ فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس ، فأجابهم الله تعالى فقال : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وقد بينا معنى القرن في (الأنعام : ٦) وشرحنا الأثاث في (النحل : ٨٠) .

فأما قوله تعالى : (وَرِئْياً) فقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « ورِئْياً » بهمزة بين الراء والياء في وزن : « رِعيا » ؛ قال الزجاج : ومعناها : منظراً ، من « رأيت » .

وقرأ نافع ، وابن عامر : « رِيّاً » بياء مشددة من غير همز ؛ قال الزجاج : لها تفسيران . أحدهما : أنها بمعنى الأولى . والثاني : أنها من الرِّيّ ، فالمعنى : منظرهم مرتوٍ من النعمة ، كأن النعيم بيِّنٌ فيهم .

وقرأ ابن عباس ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي سريج عن الكسائي : « زِيّاً » بالزاي المعجمة مع تشديد الياء من غير همز . قال الزجاج : ومعناها : حسن هيئتهم .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً . وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً ﴾

قوله تعالى : (قل من كان في الضلالة) أي : في الكفر والعمى عن التوحيد (فليمدد له الرحمن) قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه الخبر ، والمعنى : أن الله تعالى جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها . قال ابن الأنباري : خاطب الله العرب بلسانها ، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر ، يقول أحدهم : إن زارنا عبد الله فلنُكرِمْه ، يقصد التوكيد ، وينبّه على أني ألزم نفسي إكرامه ؛ ويجوز أن تكون اللام لام الدعاء على معنى : قل يا محمد : مَنْ كان في الضلالة فاللّهم مُدَّ له في النِعَم مَدّاً[1] . قال المفسرون : ومعنى مدِّ الله تعالى له : إمهالُه في الغَيِّ . (حتى إذا رأوا) يعني الذين مَدَّهم في الضلالة . وإنما أخبر عن الجماعة ، لأن لفظ « مَن » يصلح للجماعة . ثم ذكر مايوعدون فقال : (إمَّا العذاب) يعني : القتل ، والأسر (وإمَّا الساعة) يعني : القيامة وما وُعدوا فيها من الخلود في النار (فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً) في الآخرة ، أهم ، أم المؤمنون ؛ لأن مكان هؤلاء الجنة ، ومكان هؤلاء النار ، (و) يعلمون بالنصر والقتل من (أضعف جنداً) جندهم ، أم جند رسول الله ﷺ . وهذا ردٌّ عليهم في قولهم : (أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيّاً) .

قوله تعالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) فيه خمسة أقوال .

أحدها : ويزيد الله الذين اهتدَوا بالتوحيد إيماناً . والثاني : يزيدهم بصيرةً في دينهم . والثالث : يزيدهم بزيادة الوحي إيماناً ، فكلما نزلت سورة زاد إيمانهم . والرابع : يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ . والخامس : يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ . قال الزجاج : المعنى : إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً ، كما جعل جزاء الكافر أن يمدَّه في ضلالته .

قوله تعالى : (والباقيات الصالحات) قد ذكرناها في سورة (الكهف : ٤٦) .

(١) في النسخة الاستنبولية : فاللهم مدَّ له في العمر مدّاً .

قوله تعالى : (وخيرٌ مردّاً) المردُّ هاهنا مصدر مثل الردّ ، والمعنى : وخيرٌ ردّاً للثواب على عاملها ، فليست كأعمال الكفار التي خسروها فبطلت .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً . كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَايَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً . وَنَرِثُهُ مَايَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾

قوله تعالى : (أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا) في سبب نزولها قولان .

أحدها : ماروى البخاري ومسلم في « الصحيحين » من حديث مسروق عن خَبَّاب [بن الأرتِّ] قال : كنت رجلاً قَيْناً [أي : حداداً] وكان لي على العاص بن وائل دَيْن ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : [لا] والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ، ثم تُبعث . قال : فاني إذا مِتُّ ثم بُعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد ، فأعطيتك ، فنزلت فيه هذه الآية ، إلى قوله تعالى : (فرداً) [(١)] .

والثاني : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، وهذا مروي عن الحسن . والمفسرون على الأول .

قوله تعالى : (لَأُوتَيَنَّ مالاً وولداً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : بفتح الواو . وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الواو . وقال الفراء : وهما لغتان ، كالعُدم ، والعَدم ، وليس بجمع ، وقيس تجعل الوُلد جمعاً ، والوَلد ، بفتح الواو ، واحداً .

وأين زعم هذا الكافر أن يؤتى المال والولد؟ فيه قولان . أحدها : أنه أراد في الجنة على زعمكم . والثاني : في الدنيا . قال ابن الأنباري : وتقدير الآية : أرأيته مصيباً؟!

(١) « البخاري » : ٣٢٦/٨ ، و « مسلم » ٢١٥٣/٤ ، ورواه أحمد في « المسند » : ١١٠/٥ ، و « الترمذي » : ١٤٥/٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قوله‌تعالى : (أطَّلَعَ الغيبَ) قال ابن عباس في رواية : أعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو ، أم لا ؟! وقال في رواية أخرى : أنَظَر في اللوح المحفوظ ؟!

قوله‌تعالى : (أم اتَّخذ عند الرحمن عهداً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أم قال : لا إله إلا الله ، فأرحمه بها ؟! قاله ابن عباس . والثاني : أم قدَّم عملاً صالحاً ، فهو يرجوه ؟! قاله قتادة . والثالث : أم عهد إليه أنه يدخله الجنة ؟! قاله ابن السائب .

قوله‌تعالى : (كلاَّ) أي : ليس الأمر على ماقال من أنه يؤتَى المال والولد . ويجوز أن يكون معنى « كلاَّ » أي : إنه لم يطَّلع الغيبَ ، ولم يتخذ عند الله عهداً . (سنكتب مايقول) أي : سنأمر الحفظة بإثبات قوله عليه لنجازيَه به ، (ونَمُدُّ له من العذاب مَدّاً) أي : نجعل بعض العذاب على إثر بعض . وقرأ أبو العالية الرياحي ، وأبو رجاء العطاردي : « سيكتب » « ويرثه » بياء مفتوحة .

قوله‌تعالى : (ونرثه مايقول) فيه قولان .

أحدهما : نرثه مايقول أنه له في الجنة ، فنجعله لغيره من المسلمين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره الفراء .

والثاني : نرث ماعنده من المال ، والولد ، بإهلاكنا إياه ، وإبطال ملكه ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة . قال الزجاج : المعنى : سنسلبه المال والولد ، ونجعله لغيره .

قوله‌تعالى : (ويأتينا فرداً) أي : بلا مال ولا ولد .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً . أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا

الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً . فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾

قوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة) يعني : المشركين عابدي الأصنام (ليكونوا لهم عِزّاً) قال الفراء : ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة .

قوله تعالى : (كلاَّ) أي : ليس الأمر كما قدَّروا ،(سيكفرون) يعني الأصنام بجحد عبادة المشركين ، كقوله تعالى : (ما كانوا إيانا يعبدون) [القصص : ٦٣] لأنها كانت جماداً لا تعقل العبادة،(ويكونون) يعني : الأصنام (عليهم) يعني: المشركين (ضِدّاً) أي : أعواناً عليهم في القيامة ، يكذِّبونهم ويلعنونهم .

قوله تعالى : (ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين) قال الزجاج : في معنى هذا الإرسال وجهان .

أحدهما : خلَّينا بين الشياطين وبين الكافرين فلم نعصمهم من القبول منهم .

والثاني ، وهو المختار : سلَّطناهم عليهم ، وقيَّضْناهم لهم بكفرهم .(تَؤُزُّهم أزّاً) أي : تزعجهم إزعاجاً حتى يركبوا المعاصي . وقال الفراء : تزعجهم إلى المعاصي ، وتغريهم بها . قال ابن فارس : يقال : أزَّه على كذا : إذا أغراه به ، وأزَّتْ القِدْر : غَلَتْ .

قوله تعالى : (فلا تعجل عليهم) أي : لا تعجل بطلب عذابهم . وزعم بعضهم أن هذا منسوخ بآية السيف ، وليس بصحيح ،(إنما نَعُدُّ لهم عدّاً) في هذا المعدود ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أنفاسهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال طاووس ، ومقاتل .

والثاني : الأيام ، والليالي ، والشهور ، والسنون ، والساعات ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنها أعمالهم ، قاله قطرب .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْداً . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً . لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾

قوله تعالى : (يوم نحشر المتقين) قال بعضهم : هذا متعلق بقوله : « ويكونون عليهم ضداً ، يوم نحشر المتقين » وقال بعضهم : تقديره : اذكر لهم يوم نحشر المتقين ، وهم الذين اتَّقَوْا الله بطاعته واجتناب معصيته . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « يَوم يَحشُر » بياء مفتوحة ورفع الشين « ويَسُوق » بياء مفتوحة ورفع السين . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن البصري ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل الناجي : « يوم يُحشَر » بياء مرفوعة وفتح الشين « المتقون » رفعاً « ويُسَاق » بألف وياء مرفوعة « المجرمون » بالواو على الرفع . والوفد : جمع وافد ، مثل : ركْبٌ ، ورَاكِب ، وصَحْب ، وصاحِب . قال ابن عباس ، وعكرمة ، والفراء : الوفد : الركبان . قال ابن الأنباري : الركبان عند العرب : ركّاب الإبل .

وفي زمان هذا الحشر قولان .

أحدها : أنه من قبورهم إلى الرحمن ، قاله علي بن أبي طالب .

والثاني : أنه بعد الحساب ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (ونسوق المجرمين) يعني : الكافرين (إلى جهنم وِرداً) قال

ابن عباس ، وأبو هريرة ، والحسن : عِطَاشاً . قال أبو عبيدة : الوِرد : مصدر الورود . وقال ابن قتيبة : الوِرد : جماعة يَرِدون الماء ، يعني : أنهم عطاش ، لأنه لا يَرِد الماءَ إلا العطشان . وقال ابن الأنباري : معنى قوله : « وِرْداً » : واردين .

قوله تعالى : (لا يملكون الشفاعة) أي : لا يشفعون ، ولا يُشفَع لهم .

قوله تعالى : (إلا من اتَّخذ عند الرحمن عهداً) قال الزجاج : جائز أن يكون « مَن » في موضع رفع على البدل من الواو والنون ، فيكون المعنى : لا يملك الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ؛ وجائز أن يكون في موضع نصب على استثناء ليس من الأول ، فالمعنى : لا يملك الشفاعة المجرمون ، ثم قال : « إلا » على معنى « لكن » (مَن اتخَذ عند الرحمن عهداً) فانه يملك الشفاعة . والعهد هاهنا : توحيد الله والإيمان به . وقال ابن الأنباري : تفسير العهد في اللغة : تقدمة أمر يُعْلَم ويُحْفَظ ، من قولك : عهدت فلاناً في المكان ، أي : عرفته ، وشهدته .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْداً ﴾

قوله تعالى : (وقالوا اتَّخذ الرحمن ولداً) يعني : اليهود ، والنصارى ، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيئاً إدّاً) أي : شيئاً عظيماً من الكفر . قال أبو عبيدة : الإدُّ ، والنُّكْر : الأمر المتناهي العِظَم .

قوله تعالى : (تكاد السموات يتفطَّرن) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ،

وابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : « تكاد » بالتاء . وقرأ نافع ، والكسائي : « يكاد » بالياء . وقرءا جميعاً : « يتفطرن » بالياء والتاء مشددة الطاء ، وافقهما ابن كثير ، وحفص عن عاصم في « يتفطّرن » وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « ينفطرن » بالنون . وقرأ حمزة ، وابن عامر في (مريم) مثل أبي عمرو ، وفي (عسق : ٥) مثل ابن كثير . ومعنى « يتفطّرن منه » : يقارب الانشقاق من قولكم . قال ابن قتيبة : وقوله تعالى : « هدّاً » أي : سقوطاً .

قوله تعالى : (أن دَعَوْا) قال الفراء : من أن دعوا ، وَلأَن دعوا . وقال أبو عبيدة : معناه : أن جعلوا ، وليس هو من دعاء الصوت ، وأنشد :

ألا رُبَّ مَنْ تَدْعُو نَصيحاً وإن تَغِبْ
تَجِدْهُ بغَيْبٍ غيرَ مُنْتَصِحِ الصَّدْرِ[1]

قوله تعالى : (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) أي : ما يصلح له ، ولا يليق به اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي مجانسة ، وكل متخذ ولداً يتخذه من جنسه ، والله تعالى منزّهٌ عن أن يجانس شيئاً ، أو يجانسه ، فمحال في حقه اتخاذ الولد ، (إن كلُّ) أي : ما كل (مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن) يوم القيامة (عبداً) ذليلاً خاضعاً . والمعنى : أن عيسى وعزيراً والملائكة عبيد له . قال القاضي أبو يعلى : وفي هذا دلالة على أن الوالد إذا اشترى ولده ، لم يبق ملكه عليه ، وإنما يعتق بنفس الشراء ، لأن الله تعالى نفى البُنُوَّة لأجل العبودية ، فدل على أنه لا يجتمع بنوّةٌ وَرِقٌّ .

قوله تعالى : (لقد أحصاهم) أي : علم عددهم (وعدّهم عدّاً) فلا يخفى

(١) « الطبري » : ١٦/١٣١ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٢ ، و « اللسان » : دعا .

عليه مبلغ جميعهم مع كثرتهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) بلا مال، ولا نصير يمنعه.

فان قيل: لأيّة علّة وحّد في «الرحمن» و«آتيه» وجمع في العائد في «أحصاهم، وعدّهم».

فالجواب: أن لكل لفظ توحيد، وتأويل جمع، فالتوحيد محمول على اللفظ، والجمع مصروف إلى التأويل.

﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً. فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾

قوله تعالى: (سيجعل لهم الرحمن وُدّاً) قال ابن عباس: نزلت في علي عليه السلام، وقال معناه: يحبّهم، ويُحبّبهم إلى المؤمنين. قال قتادة: يجعل لهم وُدّاً في قلوب المؤمنين. ومن هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً قال: ياجبريل، إني أُحب فلاناً فأحبّوه، فينادي جبريل في السموات: إن الله يحب فلاناً فأحبّوه، فيلقى حبّه على أهل الأرض فيُحَبّ»، وذكر في البغض مثل ذلك [1]. وقال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى

---

(1) «البخاري»: ٦/٢٢٠ و ١٠/٣٨٦، وليس فيه ذكر البغض مثل ذلك، ورواه «مسلم»: ٤/٢٠٣٠، ولفظه عنده بتمامه: «إن الله إذا أحب عبداً، دعا جبريلَ فقال: إني أحب فلاناً، فأحبّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الارض، وإذا أبغض الله عبداً، دعا جبريلَ، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الارض».

الله عز وجل ، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم .

قوله تعالى : (فإنما يسَّرناه بلسانك) يعني : القرآن . قال ابن قتيبة : أي ، سهَّلناه ، وأنزلناه بلغتك . واللُّدُّ ، جمع أَلَدّ ، وهو الخَصِمُ الجَدِل .

قوله تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم) هذا تخويف لكفار مكة (هل تُحِسُّ منهم من أحد) قال الزجاج : أي : هل ترى ، يقال : هل أحسستَ صاحبَك ، أي : هل رأيتَه؟ والرِّكز : الصوت الخفيُّ ؛ وقال ابن قتيبة : الصوتُ الذي لا يُفْهَم ، وقال أبو صالح : حركة ، [والله تعالى أعلم] .

* * *

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾

وهي مكية كلها بإجماعهم . وفي سبب نزول (طه) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله ﷺ كان يراوح بين قدميه ، يقوم على رِجْل ، حتى نزلت هذه الآية ، قاله [علي] عليه السلام [1] .

والثاني : أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام ، فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك [2] .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٨٨/٤ من رواية البزار عن علي رضي الله عنه .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي ١٧٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٨٩/٤ من رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك .

والثالث : أن أبا جهل ، والنضر بن الحارث ، والمطعم بن عدي ، قالوا لرسول الله ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل[1] .

وفي « طه » قراءات . قرأ ابن كثير ، وابن عامر : « طَهَ » بفتح الطاء والهاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر الطاء والهاء . وقرأ نافع : « طه » بين الفتح والكسر ، وهو إلى الفتح أقرب ؛ كذلك قال خلف عن المسيّبي . وقرأ أبو عمرو : بفتح الطاء وكسر الهاء ، وروى عنه عباس مثل حمزة . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين العقيلي ، وسعيد بن المسيب ، وأبو العالية : بكسر الطاء وفتح الهاء . وقرأ الحسن : « طَهْ » بفتح الطاء وسكون الهاء . وقرأ الضحاك ، وورِّق : « طِهْ » بكسر الطاء وسكون الهاء .

واختلفوا في معناها على أربعة أقوال .

أحدها : أن معناها : يا رجل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ؛ واختلف هؤلاء بأيِّ لغة هي ، على أربعة أقوال . أحدها : بالنبطيّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير في رواية ، والضحاك . والثاني : بلسان عكّ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : بالسريانية ، قاله عكرمة في رواية ، وسعيد بن جبير في رواية ، وقتادة . والرابع : بالحبشية ، قاله عكرمة في رواية . قال ابن الأنباري : ولغة قريش وافقت هذه اللغة في المعنى .

والثاني : أنها حروف من أسماء . ثم فيها قولان . أحدهما : أنها من أسماء الله تعالى . ثم فيها قولان . أحدهما : أن الطاء من اللطيف ، والهاء من الهادي ، قاله ابن مسعود ، وأبو العالية ، والثاني : أن الطاء افتتاح اسمه « طاهر » و « طيّب »

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٧٤ .

والهاء افتتاح اسمه « هادي » قاله سعيد بن جبير . والقول الثاني : أنها من غير أسماء الله تعالى . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن الطاء من طابة، وهي مدينة رسول الله ﷺ ، والهاء من مكة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . والثاني : أن الطاء : طرب أهل الجنة ، والهاء : هوان أهل النار . والثالث : أن الطاء في حساب الجُمل تسعة ، والهاء خمسة ، فتكون أربعة عشر . فالمعنى : يا أيها البدر ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، حكى القولين الثعلبي .

والثالث : أنه قَسَم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقد شرحنا معنى كونه اسماً في فاتحة (مريم) . وقال القرظي : أقسم الله بطَوْله وهدايته ؛ وهذا القول قريب المعنى من الذي قبله .

والرابع : أن معناه : طأِ الأرض بقدميك ، قاله مقاتل بن حيان [1] .

ومعنى قوله (لتشقى) : لتتعب وتبلغ من الجهد ما قد بلغتَ ، وذلك أنه اجتهد في العبادة وبالغ ، حتى إنه كان يراوح بين قدميه لطول القيام ، فأُمِر بالتخفيف .

قوله تعالى : (إلاّ تَذْكِرَةً) قال الأخفش : هو بدل من قوله : « لتشقى » ، ما أنزلناه إلا تذكرةً ، أي : عظةً .

قوله تعالى : (تنزيلاً) قال الزجاج : المعنى : أنزلناه تنزيلاً ، و (العُلى) جمع العُليا ، تقول : سماء عُليا ، وسماوات عُلى ، مثل الكُبرى ، والكُبَر . فأما « الثرى » فهو التراب النديّ ، والمفسرون يقولون : أراد الثرى الذي تحت الأرض السابعة .

قوله تعالى : (وإن تجهر بالقول) أي : ترفع صوتك (فانه يعلم السِّرَّ) والمعنى : لا تجهد نفسك برفع الصوت ، فان الله يعلم السرّ .

---

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه ، قول من قال : معناه : يارجل ، لأنها كلمة معروفة في عكّ فيما بلغني ، وأن معناها فيهم : يارجل .

وفي المراد بـ « السِّرَّ وأخفى » خمسة أقوال .

أحدها : أن السرّ : ما أسره الإنسان في نفسه ، وأخفى : ما لم يكن بَعْدُ وسيكون ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : أن السرّ : ما حدَّثتَ به نفسك ، وأخفى : ما لم تلفظ به ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أن السرّ : العمل الذي يُسِرُّه الإنسان من الناس ، وأخفى منه : الوسوسةُ ، قاله مجاهد .

والرابع : أن معنى الكلام : يعلم إسرار عباده ، وقد أخفى سرَّه عنهم فلا يُعْلَم ، قاله زيد بن أسلم ، وابنه .

والخامس : يعلم ما أسرَّه الإنسان إلى غيره ، وما أخفاه في نفسه ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (له الأسماء الحسنى) قد شرحناه في (الأعراف : ١٨٠) .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ . إِذْ رَآ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً . فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِيَ يَامُوسَىٰ . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

قوله تعالى : (وهل أتاكَ حديث موسى) هذا استفهام تقرير ، ومعناه : قد أتاك . قال ابن الأنباري : وهذا معروف عند اللغويين أن تأتي « هل »

معبرة عن « قد » ، فقد قال رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب : « اللهم هل بلّغتُ »[١] ، يريد : قد بلّغت .

قال وهب بن منبّه : استأذن موسى شعيباً عليهما السلام في الرجوع إلى والدته ، فأذن له ، فخرج بأهله ، فوُلد له في الطريق في ليلة شاتية ، فقدح فلم يُور الزِّناد ، فبيناهو في مزاولة ذلك ، أبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق ؛ وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله في كتاب « الحدائق » فكرهنا إطالة التفسير بالقصص ، لأن غرضنا الاقتصار على التفسير ليسهل حفظه[٢] . قال المفسرون : رأى نوراً ، ولكن أخبر بما كان في ظن موسى . (فقال لأهله) يعني : امرأته (امكثوا) أي : أقيموا مكانكم . وقرأ حمزة : « لأَهْلِهُ امْكُثُوا » بضم الهاء هاهنا وفي (القصص : ٢٩) . (إنِّي آنستُ ناراً) قال الفراء : إني وجدت ، يقال : هل آنستَ أحداً ، أي : وجدتَ ؟ وقال ابن قتيبة : « آنستُ » بمعنى أبصرتُ . فأما القَبَس ، فقال الزجاج : هو ما أخذته من النار في رأس عود أو في رأس فتيلة .

قوله تعالى : (أو أجِدُ على النّار هدىً) قال الفراء : أراد : هادياً ، فذكره بلفظ المصدر . قال ابن الأنباري : يجوز أن تكون « على » هاهنا بمعنى « عند » ،

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » : ٣/٤٥٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ » قالوا : يوم حرام ، قال : « فأي بلد هذا ؟ » قالوا : بلد حرام ، قال : « فأي شهر هذا ؟ » قالوا : شهر حرام ، قال : « فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » ، فأعادها مراراً ، ثم رفع رأسه فقال : « اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت » ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فوالذي نفسي بيده ، إنها لوصيته إلى أمته ، « فليبلغ الشاهد الغائب لاترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ورواه أحمد في « المسند » ومسلم بلفظ آخر .

(٢) ذكره بطوله السيوطي في « الدر » : ٤/٢٩٠ من رواية أحمد في « الزهد » ، وعبد ابن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه .

وبمعنى « مع »، وبمعنى الباء . وذكر أهل التفسير أنه كان قد ضَلَّ الطريق ، فعلم أن النار لاتخلو من مُوقِد . وحكى الزجاج : أنه ضل عن الماء ، فرجا أن يجد من يهديه الطريق أو يدلّه على الماء .

قوله تعالى : (فلما أتاها) يعني : النار (نودي يا موسى إنّي أنا ربُّك) إنما كرَّر الكناية ، لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإزالة الشبهة ، ومثله (إنّي أنا النذير المبين) [الحجر : ٨٩] . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر : « أنّيَ » بفتح الألف والياء . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « إنّي » بكسر الألف ، إلا أن نافعاً فتح الياء . قال الزجاج : من قرأ : « أنّي أنا » بالفتح ، فالمعنى : نودي [بأني أنا ربك ، ومن قرأ بالكسر ، فالمعنى : نودي] يا موسى ، فقال الله : إنّي أنا ربُّك .

قوله تعالى : (فاخلع نعليكَ) في سبب أمره بخلعها قولان .

أحدهما : أنهما كانا من جلدِ حمارٍ ميت ، رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ [(١)] ، وبه قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعكرمة .

والثاني : أنهما كانا من جلد بقرة ذُكّيت ، ولكنه أُمر بخلعهما ليباشر تراب الأرض المقدسة ، فتناله بركتها ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

قوله تعالى : (إنّكَ بالواد المقدَّس) فيه قولان قد ذكرناهما في (المائدة : ٢١) عند قوله : (الأرضَ المقدسةَ) .

---

(١) أخرجه الترمذي : ٢٠٦/١ وقال : هذا حديث غريب ، لانعرفه إلا من حديث حميد الأعرج ، وحميد هو ابن علي الأعرج الكوفي ، منكر الحديث ، وذكره الطبري : ١٤٤/١٦ وقال : في إسناده نظر يجب التثبت فيه .

قوله تعالى : (طُوى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « طُوى وأنا » غير مُجْراة [١] . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « طُوىً » مُجْراة [٢] ؛ وكلُّهم ضم الطاء . وقرأ الحسن ، وأبو حيوة : « طِوىً » بكسر الطاء مع التنوين . وقرأ عليّ بن نصر عن أبي عمرو : « طِوى » بكسر الطاء من غير تنوين . قال الزجاج : في « طُوى » أربعة أوجه . طُوى ، بضم أوَّله من غير تنوين وبتنوين . فمن نوَّنه ، فهو اسم الوادي . وهو مذكَّر سمي بمذكَّر على فُعَلٍ نحو حُطَمٍ وصُرَدٍ ، ومن لم ينوِّنه ترك صرفه من جهتين .

إحداهما : أن يكون معدولاً عن طاوٍ ، فيصير مثل « عُمَرَ » المعدول عن عامر ، فلا ينصرف كما لا ينصرف « عُمَر » .

والجهة الثانية : أن يكون اسماً للبقعة ، كقوله : (في البقعة المباركة) [القصص: ٣٠] ، وإذا كُسِر ونوِّن فهو مثل مِعىً . والمعنى : المقدَّس مَرَّة بعد مَرَّة ، كما قال عدي بن زيد :

أعاذِلَ ، إنَّ اللَّومَ في غيْرِ كُنْهِهِ

عَليَّ طوىً مِن غيِّك المُتَردِّدِ [٣]

أي : اللوم المكرَّر عليَّ ؛ ومن لم ينوِّن جعله اسماً للبقعة .

[وللمفسرين في معنى « طوىً » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم الوادي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أن معنى « طوى » : طأِ الوادي ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وعن مجاهد كالقولين .

---

(١) أي : غير مصروفة . (٢) أي : مصروفة .

(٣) « الطبري » : ١٦/١٤٥ ، و « مجاز القرآن » ٢/١٦ ، و « اللسان » : طوى ، و « التاج » : ثنى .

والثالث : أنه قدّس مرتين ، قاله الحسن ، وقتادة] .

قوله تعالى : (وأنـا اخترتُك) أي : اصطفيتُك . وقرأ حمزة ، والمفضل : « وأنّا » بالنون المشددة « اخترناكَ » بألف . (فاستمع لِما يوحىٰ) أي : للذي يوحىٰ . قال ابن الأنباري : الاستماع هاهنا محمول على الإنصات ، المعنى : فأنصت لوحيي ، والوحي هاهنا قوله : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) أي : وحّدني ، (وأقم الصلاة لِذِكْرِي) فيه قولان .

أحدها : أقم الصلاة متى ذكرتَ أن عليكَ صلاةً ، سواء كنتَ في وقتها أو لم تكن ، هذا قول الأكثرين . وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها غير ذلك ، وقرأ : (أَقِم الصَّلاة لِذِكْرِي) »[1] .

والثاني : أقم الصلاة لتَذْكُرَني فيها ، قاله مجاهد . وقيل : إن الكلام مردود على قوله : (فاستمع) ، فيكون المعنى : فاستمع لما يوحىٰ ، واستمع لِذِكْرِي . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع : « وأقم الصلاة للذِّكْرىٰ » بلامين وتشديد الذال .

قوله تعالى : (أكادُ أخفيها) أكثر القراء على ضم الألف .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أكاد أخفيها من نفسي ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومحمد بن عليّ : أكاد أخفيها من نفسي ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب « مواقيت الصلاة » ، باب من نسي صلاة فليصل ، ورواه مسلم ٤٧٧/١ ، وأبو داود رقم (٤٤٢) .

قال الفراء : المعنى : فكيف أُظهركم عليها ؟ !قال المبرّد : وهذا على عادة العرب ، فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمتُه حتى مِنْ نَفْسي ، أي : لم أُطلع عليه أحداً .

والثاني : أن الكلام تم عند قوله : « أكاد » ، وبعده مضمر تقديره : أكاد آتي بها ، والابتداء : أخفيها ، قال ضابىء البرجمي :

هَمَمْتُ ولَم أفعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَني
تَرَكْتُ على عُثْمانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ [1]

أراد : كدتُ أفعل .

والثالث : أن معنى « أكاد » : أريد ، قال الشاعر :

كادَتْ وكِدْتُ وتِلكَ خَيْرُ إرادَةٍ
لَوْ عادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبابَةِ ما مَضَى [2]

معناه : أرادت وأردتُ ، ذكرها ابن الأنباري .

فإن قيل : فما فائدة هذا الإخفاء الشديد ؟

فالجواب : أنه للتحذير والتخويف ، ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوُّه كان أشد حذراً . وقرأ سعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير ، وأبو رجاء العطاردي ، وحميد بن قيس : « أَخفيها » بفتح الألف . قال الزجاج : ومعناه : أكاد أُظهرها ، قال امرؤ القيس :

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ وإنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُدِ [3]

(١) « الطبري » : ١٦/١٥٢ ، و « القرطبي » : ١١/١٨٣ ، و « البحر » : ٦/٢٣٣ .

(٢) البيت غير منسوب في « الطبري » : ١٦/١٥١ ، و « القرطبي » : ١١/١٨٤ ، و « اللسان » ، و « التاج » : كود .

(٣) البيت لامرىء القيس ، ديوانه : ١٨٦ ، و « الطبري » : ١٦/١٥٠ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٧ ، و « القرطبي » : ١١/١٨٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : خفا . وقوله : —

أي : إن تدفنوا الداء لا نُظهره . قال : وهذه القراءة أبْيَن في المعنى ، لأنْ معنى « أكاد أُظهرها » : قد أخفيتُها وكدت أُظهرها . (لتُجزى كُلُّ نَفْسٍ بما تسعى) أي : بما تعمل . و « لتُجزى » متعلق بقوله : « إن الساعة آتية » لتجزى ، ويجوز أن يكون على « أقم الصلاة لذكري » لتجزى .

قوله تعالى : (فلا يصدَّنَّك عنها) أي : عن الإيمان بها (من لا يؤمِنُ بها) أي : من لا يُؤمِن بكونها ؛ والخطاب للنبي ﷺ خطاب لجميع أُمَّته ، (واتَّبَعَ هواه) أي : مُراده وخالف أمر الله عز وجل ،(فتردى) أي : فتَهلِك ؛ قال الزجاج : يقال : رَدِي يَرْدَى : إذا هلك .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ . قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَىٰ . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ . لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾

قوله تعالى : (وما تلك بيمينكَ) قال الزجاج : « تلك » اسم مبهم يجري مجرى « التي » ، والمعنى : ما التي بيمينك ؟

قوله تعالى : (أتوكَّأُ عليها) التوكُّؤ : التحامل على الشيء (وأهُشُّ بها) قال الفراء : أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه غنمي ؛ قال الزجاج : واشتقاقه من أنّي أُحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان . والمآرب : الحاجات ، واحدها : مأْرُبَة ، ومأْرَبَة . وروى قتيبة ، وورش : « مآرب » بإمالة الهمزة .

ـــ لا نَخفيه ، بفتح النون ، أي : لا نُظهره ، وكذا قرئ قوله تعالى : (أكاد أخفيها) أي : أظهرها .

فان قيل : ما الفائدة في سؤال الله تعالى له : « وما تلك بيمينك » وهو يعلم ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الاستفهام ، ومجراه مجرى السؤال ، ليجيب المخاطَب بالإقرار به ، فتثبت عليه الحجة باعترافه فلا يمكنه الجحد ، ومثله في الكلام أن تقول لمن تخاطبه وعندك ماء : ما هذا ؟ فيقول : ماء ، فتضع عليه شيئاً من الصبغ ، فان قال : لم يزل هكذا ، قلت له : ألست قد اعترفت بأنه ماء ؟ فتثبت عليه الحجة ، هذا قول الزجاج . فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرَّر موسى أنها عصاً لمّا أراد أن يريَه من قدرته في انقلابها حيَّة ، فوقع المُعْجِز بها بعد التثبت في أمرها .

والثاني : أنه لما اطَّلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم ، أراد أن يؤانسه ويخفف عنه ثِقَل ما كان فيه من الخوف ، فأجرى هذا الكلام للاستئناس ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فان قيل : قد كان يكفي في الجواب أن يقول : « هي عصاي » ، فما الفائدة في قوله : « أتوكّأُ عليها » إلى آخر الكلام ، وإنما يُشرح هذا لمن لا يعلم فوائدها ؟ فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه أجاب بقوله : « هي عصاي » ، فقيل له : ما تصنع بها ؟ فذكر باقي الكلام جواباً عن سؤال ثانٍ ، قاله ابن عباس ، ووهب .

والثاني : أنه إنما أظهر فوائدها ، وبيَّن حاجته إليها ، خوفاً [من] أن يأمره بالقائها كالنعلين ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنه بيَّن منافعها لئلا يكون عابثاً بحملها ، قاله الماوردي .

فان قيل : فلم اقتصر على ذِكْر بعض منافعها ولم يُطِل الشرح ؟ فمنه [ثلاثة] أجوبة .

أحدها : أنه كره أن يشتغل عن كلام الله بتعداد منافعها .

والثاني : استغنى بعلم الله فيها عن كثرة التعداد .

والثالث : أنه اقتصر على اللازم دون العارض .

وقيل : كانت تضيء له بالليل ، وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا اشتهى الثمار [١] .

وفي جنسها قولان .

أحدها : أنها كانت من آس الجنة ، قاله ابن عباس . والثاني : [أنها] كانت من عوسج .

فان قيل : المآرب جمع ، فكيف قال : « أخرى » ولم يقل : « أُخَر » ؟

فالجواب : أن المـآرب في معنى جماعة ، فكأنه قال : جماعة من الحـاجات أخرى ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (قال ألقها يا موسى) قال المفسرون : ألقاها ، ظنّاً منه أنه قد أمر برفضها ، فسمع حِسّاً فالتفتَ فاذا هي كأعظم ثعبـان تمر بالصخرة العظيمة فتبتلعها ، فهرب منها .

وفي وجه الفائدة في إظهار هذه الآية ليلة المخاطبة قولان .

أحدهما : لئلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون .

والثاني : ليريَه أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك ، فكما ذلّلْتُ لك الأعظم وهو الحية ، أُذلّلُ لكَ الأدنى .

---

(١) قال ابن كثـير في « تفسيره » : ٣/١٤٥ : وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المـآرب التي أبهمت ، فقيل : كانت تضيء بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً ، فما كان يفرّ منها هارباً ، ولكن كل ذلك من الأخبار الاسرائيلية ، وكذلك قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه السلام ، وقول الآخر : إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة .

ثم إن الله تعالى أمره بأخذها وهي على حالها حيَّة ، فوضع يده عليها فعادت عصاً ، فذلك قوله : (سنُعيدها سيرتَها الأُولى) قال الفراء : طريقتها ، يقول : تردُّها عصى كما كانت . قال الزجاج : و « سيرتَها » منصوبة على إسقاط الخافض وإفضاء الفعل إليها ، المعنى : سنُعيدها إلى سيرتَها .

فان قيل : إنما كانت العصا واحدة ، وكان إلقاؤها مرَّة ، فما وجه اختلاف الأخبار عنها ، فانه يقول في (الأعراف : ١٠٧) : (فاذا هي ثُعبان مُبين) ، وهاهنا : « حية » ، وفي مكان آخر : (كأنها جانّ) [النمل : ٢٠] ، والجانّ ليست بالعظيمة ، والثعبان أعظم الحيات ؟

فالجواب : أن صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها ، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها ، والحيّة اسم يقع على الصغير والكبير والذكر والأنثى . وقال الزجاج : خَلْقُها خَلْق الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها وخِفَّتها كاهتزاز الجانّ وخِفَّته .

قوله تعالى : (واضمم يدكَ إلى جناحكَ) قال الفراء : الجناح من أسفل العَضُد إلى الإبط .

وقال أبو عبيدة : الجناح ناحية الجَنْب ، وأنشد :

أُضمُّهُ للصَّدْر والجَناحِ [1]

قوله تعالى : (تَخْرُجْ بيضاءَ من غير سوء) أي : من غير بَرَص (آيةً أُخرى) أي : دلالة على صدقك سوى العصا . قال الزجاج : ونصب « آيةً » على معنى : آتيناك آية ، أو نؤتيك [آية] .

قوله تعالى : (لنريك من آياتنا الكبرى) .

(١) الرجز غير منسوب في : « الطبري » : ١٥٧/١٦ ، و « مجاز القرآن » : ١٨/٢ ، و « القرطبي » : ١٩١/١١ .

إن قيل : لِمَ لم يقل : « الكُبَر » فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه كقوله : (مآرب أخرى) وقد شرحناه ، هذا قول الفراء .

والثاني : أن فيه إضماراً تقديره : لنريك من آياتنا الآية الكبرى . وقال أبو عبيدة : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : لنريك الكبرى من آياتنا .

والثالث : إنما كان ذلك لوفاق رأس الآي ، حكى القولين الثعلبي .

﴿ إذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَىٰ . قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي . هَٰرُونَ أخِي . أُشْدُدْ بِهِ أزْرِي . وَأشْرِكْهُ فِي أمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (إنه طغى) أي : جاوز الحدَّ في العصيان .

قوله تعالى : (اشرح لي صدري) قال المفسرون : ضاق موسى صدراً بما كلّف من مقاومة فرعون وجنوده ، فسأل الله تعالى أن يُوسّع قلبه للحق حتى لا يخاف فرعونَ وجنوده . ومعنى قوله : (يسّر لي أمري) : سهّل عليَّ ما بعثتَني له . (واحلُل عُقدة من لساني) قال ابن قتيبة : كانت فيه رُتّة[١] . قال المفسرون : كان فرعون قد وضع موسى في حِجره وهو صغير ، فجرَّ[٢] لحية فرعون بيده ، فهمَّ بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل ، وسأُريك بيان ذلك ، قدّم إليه جمرتين ولؤلؤتين ، فان اجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، فأخذ موسى جمرة فوضعها في فيه فأحرقت لسانه وصار فيه عقدة ، فسأل حلّها ليفهموا كلامه[٣] .

(١) الرُّتّة ، بالضم : عجلة في الكلام ، وقلّة أناة ، وقيل : هو أن يقلب اللام ياء .
(٢) في الأصل : فمد ، وستأتي بعد قليل « جر » .
(٣) وقد استجاب الله له ذلك في قوله : (قد أوتيت سؤلك ياموسى) .

وأما الوزير ، فقال ابن قتيبة : أصل الوِزَارة من الوِزْر وهو الحِمْل ، كأن الوزير قد حمل عن السلطان الثِقْل . وقال الزجاج : اشتقاقه من الوَزَر ، والوَزَر : الجبل الذي يُعتصم به ليُنجى من الهلكة ، وكذلك وزير الخليفة ، معناه : الذي يعتمد عليه في أموره ويلتجىء إلى رأيه . ونصب « هارون » من جهتين . إحداهما : أن تكون « اجعل » تتعدى إلى مفعولين ، فيكون المعنى : اجعل هارون أخي وزيري ، فينتصب « وزيراً » على أنه مفعولٌ ثانٍ . ويجوز أن يكون « هارون » بدلاً من قوله : (وزيراً) ، فيكون المعنى : اجعل لي وزيراً من أهلي ، [ثم] أبدل هارون من وزير ؛ والأول أجود . قال الماوردي : وإنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً ، لأنه لم يُرِد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوّة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزر من غير مسألة . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتح ياء « أخيَ » .

قوله تعالى : (أشْدُدْ به أزري) قال الفراء : هذا دعاء من موسى ، والمعنى : اشْدُد به ياربِّ أزري ، وأشْرِكه يارب في أمري . وقرأ ابن عامر : « أشدد » بالألف مقطوعة مفتوحة ، « وأُشرِكه » بضم الألف ، وكذلك يبتدىء بالألفين . قال أبو علي : هذه القراءة على الجواب والمجازاة ، والوجه الدعاء دون الإخبار ، لأن ماقبْله دعاء ، ولأن الإشراك في النبوّة لايكون إلا من الله عز وجل . قال ابن قتيبة : والأَزْر : الظهر ، يقال : آزرت فلاناً على الأمر ، أي : قوّيته عليه وكنت له فيه ظَهْراً .

قوله تعالى : (وأشْرِكه في أمري) أي : في النبوّة معي (كي نسبّحك) أي : نصلّي لكَ (ونَذْكُرَكَ) بألسنتنا حامدين لك على ما أوليتنا من نِعَمِكَ (إنّكَ كُنْتَ بنا بصيراً) أي : عالِماً إذ خَصَصْتَنا بهذه النِعَم ،

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ . وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَايُوحَىٰ . أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَىٰ . وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي . اِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾

قوله تعالى : (قال قد أُوتيتَ سؤلك) قال ابن قتيبة : أي : طَلِبَتَكَ ، وهو « فُعْل » من « سألت » ، أي : أُعطيتَ ماسألتَ .

قوله تعالى : (ولقد مَنَنّا عليكَ) أي : أنعمنا عليكَ (مَرَّة أخرى) قبل هذه المَرَّة . ثم بيَّن متى كانت بقوله : (إذ أوحينا إلى أُمّك مايوحى) أي : ألهمناها مايُلهم مما كان سبباً لنجاتك ، ثم فسر ذلك بقوله : (أن اقذفيه في التابوت) وقذف الشيء : الرمي به .

فإن قيل : مافائدة قوله : « مايوحى » وقد علم ذلك ؟ فقد ذكر عنه ابن الأنباري جوابين .

أحدهما : أن المعنى : أوحينا إليها الشيء الذي يجوز أن يوحى إليها ، إذ ليس كل الأمور يصلح وحيه إليها ، لأنها ليست بنبيّ ، وذلك أنها أُلهمت .

والثاني : أن « مايوحى » أفاد توكيداً ، كقوله : (فغشّاها ماغشّى) [النجم : ٥٤] .

قوله تعالى : (فَلْيُلْقِهِ اليمُّ) قال ابن الأنباري : ظاهر هذا الأمرُ ، ومعناه معنى الخبر ، تأويله : يلقيه [اليمُّ] ، ويجوز أن يكون البحر مأموراً بآلة ركَّبها الله تعالى فيه ، فسمع وعقل ، كما فعل ذلك بالحجارة والأشجار . فأما الساحل ، فهو : شط البحر . (يأخذْه عدوٌّ لي وعدوٌّ له) يعني : فرعون . قال المفسرون : اتخذت أمُّه تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاً ، ووضعت فيه موسى وأحكمت بالقار شقوق التابوت ، ثم ألقته في النيل ، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون ، فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية ، إذا بالتابوت ، فأمر الغلمان والجواري بأخذه ، فلما فتحوه رأوا صبياً من أصبح الناس وجهاً ؛ فلما رآه فرعون أحبَّه حُبّاً شديداً ، فذلك قوله : (وألقيتُ عليكَ محبَّة مِنّي) ، [قال أبو عبيدة : ومعنى « ألقيتُ عليكَ » أي : جعلتُ لكَ مَحَبَّة مِنّي] . قال ابن عباس : أَحَبَّه وحبَّبَه إلى خَلْقه ، فلا يلقاه أحد إلا أحبَّه من مؤمن وكافر . وقال قتادة : كانت في عينيه مَلاحة ، فما رآه أحد إلا حبَّه .

قوله تعالى : (ولِتُصْنَع على عيني) وقرأ أبو جعفر : « ولْتُصنعْ » بسكون اللام والعين والإدغام . قال قتادة : لتُغذى على محبتي وإرادتي . قال أبو عبيدة : على ما أُريد وأُحِبّ . قال ابن الأنباري : هو من قول العرب : غُذي فلان على عيني ، أي : على المَحبَّة منّي . وقال غيره : لتُرَبَّى وتغذى برأيٍ مني ، يقال : صنع الرَّجل جاريته : إذا ربَّاها ؛ وصنع فرسه : إذا داوم على علفه ومراعاته ، والمعنى : ولِتُصْنَعَ على عيني ، قدَّرنا مشي أختك وقولها : (هل أَدُلُّكم على من يَكْفُلُه) لأن هذا كان من أسباب تربيته على ما أراد الله عز وجل . فأما أخته ، فقال مقاتل : اسمها مريم . قال الفراء : وإنما اقتصر على ذِكْر المشي ،

ولم يذكر أنها مشت حتى دخلت على آل فرعون فدلَّتهم على الظِّئْر [١] ، لأن العرب تجتزىء بحذف كثير من الكلام، وبقليله، إذا كان المعنى معروفاً ، ومثله قوله : (أنا أُنبِّئكم بتأويله فأرسلون) [يوسف : ٤٥] ، ولم يقل : فأُرسل حتى دخل على يوسف .

قال المفسرون : سبب مشي أخته أن أُمَّه قالت لها : قُصِّيه ، فاتَّبعتْ موسى على أثر الماء ، فلما التقطه آل فرعون جعل لايقبل ثدي امرأة ، فقالت لهم أُخته : « هل أدُلُّكم على من يَكْفُلُه » أي : يُرْضِعه ويضمه إليه ، فقيل لها : ومن هي ؟ فقالت : أُمي ، قالوا : وهل لها لبن ؟ قالت : لبن أخي هارون ، وكان هارون أسنَّ من موسى بثلاث سنين ، فأرسلوها ، فجاءت بالأُم فقبل ثديها ، فذلك قوله : (فرجعناك إلى أُمِّك) أي : رددناك إليها (كي تَقَرَّ عينها) بك وبرؤيتك . (وقتلتَ نَفْساً) يعني : القبطي الذي وكزه فقضى عليه ، وسيأتي ذِكْره إن شاء الله تعالى (فنجَّيناكَ من الغَمِّ) وكان مغموماً مخافةَ أن يُقتَل به ، فنجّاه الله بأن هرب إلى مَدْيَن ، (وفَتَنَّاكَ فُتُوناً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : اختبرناك اختباراً ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أخلصناك إخلاصاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : ابتليناك ابتلاءً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

وقال الفراء : ابتليناكَ بغم القتيل ابتلاءً . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الفتون : وقوعُه في محنة بعد محنة خلَّصه الله منها ، أولها أن أُمَّه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ، ثم إلقاؤه في البحر ، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم جرُّه لحية فرعون حتى همَّ بقتله ، ثم تناوله الجمرة بدل

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها المرضعةُ له في الناس وغيرهم الذَّكر والأنثى .

الذُّرَّة ، ثم قتله القبطيَّ ، ثم خروجه إلى مَدْيَن خائفاً ؛ وكان ابن عباس يقصُّ هذه القصص على سعيد بن جبير ، ويقول له عند كل ثلاثة : وهذا من الفُتون يا ابن جبير ؛ فعلى هذا يكون « فتنَّاكَ » خلَّصناكَ من تلك المحن كما يُفْتَن الذهب بالنار فيخلص من كل خبث . والفتون : مصدر .

قوله تعالى : (فلبثتَ سنين) تقدير الكلام : فخرجتَ إلى أهل مدين . ومدين : بلد شعيب ، وكان على ثمان مراحل من مصر ، فهرب إليه موسى . وقيل : مدين : اسم رجل ، وقد سبق هذا [الأعراف:٨٦] .

وفي قدر لبثه هناك قولان .

أحدهما : عشر سنين ؛ قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : ثمان وعشرون سنة ، عشر منهنَّ مهر امرأته ، وثمان عشرة أقام حتى وُلد له ، قاله وهب .

قوله تعالى : (ثم جئتَ على قَدَر) أي : جئتَ لميقاتٍ قدَّرتُه لمجيئكَ قبل خَلْقِك ، وكان ذلك على رأس أربعين سنة ، وهو الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء ، هذا قول الأكثرين . وقال الفراء : « على قَدَرٍ » أي : على ما أراد الله به من تكليمه .

قوله تعالى : (واصطنعتُكَ لنفسي) أي : اصطفيتُك واختصصتك ، والاصطناع : اتخاذ الصنيعة ، وهو الخير تسديه إلى إنسان . وقال ابن عباس : اصطفيتك لرسالتي ووحيي (اذهب أنت وأخوك بآياتي) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها العصا واليد . وقد يُذْكَر الاثنان بلفظ الجمع .

والثاني : العصا واليد وحَلُّ العُقدة التي ما زال فرعون وقومه يعرفونها ، ذكرهما ابن الأنباري .

والثالث : الآيات التسع . والأول أصح .

قوله تعالى : (ولا تَنِيَا) قال ابن قتيبة : لا تَضْعُفا ولا تفتُرا ؛ يقال : وَنَى يني في الأمر ؛ وفيه لغة أخرى : وَنِيَ ، يونى .

وفي المراد بالذِّكْر هاهنا قولان .

أحدهما : أنه الرسالة إلى فرعون . والثاني : أنه القيام بالفرائض والتسبيحُ والتهليل .

﴿ إذْهَبَا إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالاَ رَبَّنَا إنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لاَتَخَافَا إنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

قوله تعالى : (اذهبا إلى فرعون) فائدة تكرار الأمر بالذهاب، التوكيد . وقد فسرنا قوله : (إنه طغى) [طه : ٢٤] .

قوله تعالى : (فقولا له قولاً لَيِّناً) وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « لَيْنا » بإسكان الياء ، أي : لطيفاً رفيقاً .

وللمفسرين فيه خمسة أقوال .

أحدها : قولا له : قل : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، رواه خالد ابن معدان عن معاذ ، والضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه قوله : (هل لك إلى أن تَزَكَّى . وأَهْدِيَكَ إلى ربِّك فتخشى) [النازعات : ١٨ ، ١٩] ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثالث : كَنِّيَاه ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي . فأما اسمه ، فقد ذكرناه في (البقرة : ٤٩) . وفي كنيته أربعة أقوال . أحدها : أبو مُرَّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : أبو مصعب ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . والثالث : أبو العباس . والرابع : أبو الوليد ، حكاهما الثعلبي .

والقول الرابع : قولا له : إن لكَ ربّاً ، وإن لكَ مَعَاداً ، وإن بين يديكَ جَنَّة وناراً ، قاله الحسن .

والخامس : أن القول اللين : أن موسى أتاه ، فقال له : تؤمن بما جئتُ به وتعبد ربَّ العالمين ، على أن لكَ شبابك فلا تهرم ، وتكون مَلِكاً لايُنْزع منك حتى تموت ، فاذا متَّ دخلتَ الجنة ، فأعجبه ذلك ؛ فلما جاء هامان ، أخبره بما قال موسى ، فقال : قد كنتُ أرى أن لكَ رأياً ، أنت ربٌّ أردتَ أن تكون مربوباً ؟! فقلبه عن رأيه ، قاله السدي . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه قرأ هذه الآية ، فقال : إلهي هذا رِفقك بمن يقول : أنا إله ، فكيف رِفقك بمن يقول : أنت إله .

قوله تعالى : (لَعَلَّه يتذكر أو يخشى) قال الزجاج : « لَعَلَّ » في اللغة : ترجٍّ وطمع ، تقول : لَعَلِّي أصير إلى خير ، فخاطب الله عز وجل العباد بما يعقلون . والمعنى عند سيبويه : اذهبا على رجائكما وطمعكما . والعلم من الله تعالى من وراء مايكون ، وقد عَلِم أنه لايتذكر ولا يخشى ، إلا أن الحُجَّة إنما تجب عليه بالآية والبرهان ، وإنما تُبعث الرسل وهم لاتعلم الغيب ولا تدري أيُقبل منها ، أم لا ، وهم يرجون ويطمعون أن يُقبل منهم ، ومعنى « لعلَّ » متصوَّر في أنفسهم ، وعلى تصوُّر ذلك تقوم الحُجَّة . قال ابن الأنباري : ومذهب الفراء في هذا : كي يتذكَّر . وروى خالد بن معدان عن معاذ قال : والله ماكان فرعون ليخرج من الدنيا حتى

يتذكَّر أو يَخْشى ، لهذه الآية ، وإنه تذكَّر وخشي لمَّا أدركه الغرق . وقال كعب : والذي يحلِفُ به كعب ، إنه لمكتوب في التوراة : فقولا له قولاً ليِّناً ، وسأقسِّي قلبه فلا يؤمن . قال المفسرون : كان هارون يومئذ غائباً بمصر ، فأوحى الله تعالى إلى هارون أن يتلقَّى موسى ، فتلقَّاه على مرحلة ، فقال له موسى : إن الله تعالى أمرني أن آتيَ فرعون ، فسألتُه أن يجعلكَ معي ؛ فعلى هذا يحتمل أن يكونا حين التقيا قالا : ربَّنا إننا نخاف . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون القائل لذلك موسى وحده ؛ وأخبر الله عنه بالتثنية لمَّا ضم إليه هارون ، فإن العرب قد تُوقع التثنية على الواحد ، فتقول : يازيد قوما ، ياحرسيُّ اضربا عنقه .

قوله تعالى : (أن يَفْرُط علينا) وقرأ عبد الله بن عمرو ، وابن السميفع ، وابن يعمر ، وأبو العالية : « أن يُفْرِط » برفع الياء وكسر الراء . وقرأ عكرمة ، وإبراهيم النخعي : « أن يَفْرَط » بفتح الياء والراء . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وابن محيصن : « أن يُفْرَط » برفع الياء وفتح الراء . قال الزجاج : المعنى ، أن يبادر بعقوبتنا ، يقال : قد فَرَط منه أمر ، أي : قد بَدَر ؛ وقد أفرط في الشيء : إذا اشتطَّ فيه ؛ وفرَّط في الشيء : إذا قصَّر ؛ ومعناه كلُّه : التقدم في الشيء ، لأن الفَرَط في اللغة : المتقدِّم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا فَرَطُكم على الحوض »[1] .

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤/٣١٣ ، والبخاري ١١/٤١٤ ، ومسلم ٤/١٧٩٢ من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، وله روايات أخرى بأطول منه في « الصحيحين » من حديث سهل ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبي سعيد الخدري وغيرهم ، والفرط والفارط : هو الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء . فمعنى فرطكم على الحوض : سابقكم إليه كالمهيىء له .

قوله تعالى : (أو أن يطغى) فيه قولان .

أحدها : يستعصي ، قاله مقاتل . والثاني : يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا .
قال ابن زيد : نخاف أن يعجّل علينا قبل أن نبلّغه كلامك وأمرك .

قوله تعالى : (إنني معكما) أي : بالنصرة والعون (أسمع) أقوالكم (وأرى) أفعالكم . قال الكلبي : أسمعُ جوابَه لكما ، وأرى مايفعل بكما .

قوله تعالى : (فأَرسِلْ معنا بني إسرائيل) أي : خلِّ عنهم (ولا تعذّبهم) وكان يستعملهم في الأعمال الشاقّة ، (قد جئناكَ بآية من ربّك) قال ابن عباس : هي العصا . قال مقاتل : أظهر اليد في مقام ، والعصا في مقام .

قوله تعالى : (والسلامُ على من اتّبع الهُدى) قال مقاتل : على مَنْ آمن بالله . قال الزجاج : وليس يعني به التحيّة ، وإنما معناه : أن مَن اتَّبع الهُدى ، سَلِم من عذاب الله وسخطه ، والدليل على أنه ليس بسلام ، أنه ليس بابتداء لقاء وخطاب .

قوله تعالى : (على مَنْ كَذَّب) أي : بما جئنا به وأعرض عنه .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَايَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

قوله تعالى : (قال فَمَنْ ربُّكما) في الكلام محذوف معناه معلوم، وتقديره : فأَتياه فأَدَّيا الرساله . قال الزجاج : وإِنما لم يقل : فأَتياه ، لأن في الكلام دليلاً على ذلك ، لأن قوله : « فمن ربكما » يدل على أنهما أتياه وقالا له .

قوله تعالى : (أعطى كُلَّ شيء خَلْقَه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أعطى كُلَّ شيء صورته ، فخلق كُلَّ جنس من الحيوان على غير صورة جنسه ، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم ، وصورة البعير لا كصورة الفرس ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير .

والثاني : أعطى كل ذكر زوجَه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال السدي ، فيكون المعنى : أعطى كُلَّ حيوان مايشاكله .

والثالث : أعطى كل شيء مايُصلِحه ، قاله قتادة .

وفي قوله : (ثم هدى) ثلاثة أقوال .

أحدها : هدى كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

والثاني : هدى للمنكح والمطعم والمسكن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : هدى كل شيء إلى معيشته ، قاله مجاهد . وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، والأعمش ، وابن السميفع ، ونصير عن الكسائي : « أعطى كُلَّ شيء خَلَقَهُ » بفتح اللام .

فان قيل : ماوجه الاحتجاج على فرعون من هذا ؟

فالجواب : أنه قد ثبت وجود خَلْق وهداية ، فلا بد من خالقٍ وهادٍ .

قوله تعالى : (قال فما بال القرون الأولى) اختلفوا فيما سأل عنه من حال القرون الأولى على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه سأله عن أخبارها وأحاديثها ، ولم يكن له بذلك عِلْم ، إذ التوراة إنما نزلت عليه بعد هلاك فرعون ، فقال : (عِلْمها عند ربِّي) ، هذا مذهب مقاتل . وقال غيره : أراد : إنّي رسول ، وأخبار الأمم عِلْم غيب ، فلا علم لي بالغيب .

والثاني : أن مراده من السؤال عنها : لم عُبدت الأصنامُ ، ولِم لم يُعبدِ اللهُ إن كان الحقُّ ماوصفتَ ؟ !

والثالث : أن مراده : مالها لاتُبعث ولا تُحاسَب ولا تجازى ؟ ! فقال : عِلْمها عند الله ، أي : عِلْم أعمالها . وقيل : الهاء في « عِلْمُها » كناية عن القيامة ، لأنه سأله عن بعث الأمم ، فأجابه بذلك .

وقوله : (في كتاب) أراد : اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (لايضلُّ ربِّي ولا يَنْسى) وقرأ عبد الله بن عمرو [١] ، وعاصم الجحدري ، وقتادة ، وابن محيصن : « لايُضِلُّ » بضم الياء وكسر الضاد ، أي : لايضيِّعه . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : « لايُضَل » بضم الياء وفتح الضاد . وفي هذه الآية توكيد للجزاء على الأعمال ، والمعنى : لايخطىء ربي ولا ينسى ماكان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم . وقيل : أراد : لم يجعل ذلك في كتاب لأنه يضل وينسى .

قوله تعالى : (الذي جَعَل لكم الأرض مهاداً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « مهاداً » . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « مهداً » بغير ألف . والمهاد : الفراش ، والمهد : الفرش . (وسلك لكم) أي : أدخل لأجْلكم في الأرض طُرُقاً تسلكونها ، (وأنزل من السماء ماءً) يعني : المطر .

(١) في النسخة الاستنبولية : عبد الله بن عمر .

وهذا آخر الإخبار عن موسى . ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله : (فأخرجنا به) يعني : بالماء (أزواجاً من نبات شتّى) أي : أصنافاً مختلفة في الألوان والطعوم ، كل صنف منها زوج . و « شتى » لاواحد له من لفظه . (كُلُوا) أي : مما أخرجنا لكم من الثمار (وارعَوْا أنعامكم) يقال : رعى الماشية ، يرعاها : إذا سرّحها في المرعى . ومعنى هذا الأمر : التذكير بالنِّعم ، (إنّ في ذلكَ لآياتٍ) أي : لَعِبَراً في اختلاف الألوان والطعوم (لأولي النُّهى) قال الفراء : لذوي العقول ، يقال للرجل : إنه لذو نُهْيَةٍ : إذا كان ذا عقل . قال الزجاج : واحد النُّهى : نُهْيَة ، يقال : فلان ذو نُهْيَة ، أي : ذو عقل ينتهي به عن المقابح ، ويدخل به في المحاسن ؛ قال : وقال بعض أهل اللغة : ذو النُّهية : الذي يُنتهى إلى رأيه وعقله ، وهذا حسن أيضاً .

قوله تعالى : (منها خلقناكم) يعني : الأرض المذكورة في قوله : « جعل لكم الأرض مهاداً » . والإشارة بقوله : « خلقناكم » إلى آدم ، والبشر كلُّهم منه . (وفيها نُعيدكم) بعد الموت (ومنها نُخرجكم تارة) أي : مرّة (أُخرى) بعد البعث ، يعني : كما أخرجناكم منها أولاً عند خلق آدم من الأرض .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَىٰ . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَانُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً . فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ . قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَاتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ . قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ

لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أريناه) يعني : فرعون (آياتِنا كُلَّها) يعني : التسع الآيات ، ولم يرِ كلَّ آية لله ، لأنها لا تُحصى ، (فكذَّب) أي : نسب الآيات إلى الكذب ، وقال : هذا سِحْر (وأبى) أن يؤمن (قال أجئتَنا لتُخرجنا من أرضنا) يعني : مصر (بِسِحْرك) أي : تريد أن تغلب على ديارنا بسحرك فتملكها وتخرجنا منها (فلنأتينَّك بِسِحْرٍ مثلِه) أي : فلنقابلنَّ ما جئتَ به من السِّحر بمثله (فاجعل بيننا وبينكَ موعداً) أي : اضرب بيننا وبينكَ أجلاً وميقاتاً (لا نُخْلِفُه) أي : لا نجاوزه (نحنُ ولا أنتَ مكاناً) وقيل : المعنى : اجعل بيننا وبينكَ موعداً مكاناً نتواعد لحضورنا ذلك المكان ، ولا يقع منّا خلاف في حضوره . (سوىً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي بكسر السين . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وخلف ، ويعقوب : « سُوىً » بضمها . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وابن أبي عبلة : « مكاناً سَواءً » بالمد والهمز والنصب والتنوين وفتح السين . وقرأ ابن مسعود مثله ، إلا أنه كسر السين . قال أبو عبيدة : هو اسم للمكان النصف فيما بين الفريقين ، والمعنى : مكاناً تستوي مسافته على الفريقين ، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر . (قال موعدكم يومُ الزينة) قرأ الجمهور برفع الميم . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، [وقتادة] ، وابن أبي عبلة ، وهبيرة عن حفص بنصب الميم . وفي هذا اليوم أربعة أقوال .

أحدها : يوم عيد لهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، والسدي عن أشياخه ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : يوم عاشوراء ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : يوم النيروز ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : يوم سوق لهم ، قاله سعيد بن جبير .

وأما رفع اليوم ، فقال البصريون : التقدير : وقتُ موعدكم يومُ الزينة ، فناب الموعد عن الوقت ، وارتفع به ما كان يرتفع بالوقت إذا ظهر . فأما نصبه ، فقال الزجاج : المعنى : موعدُكم يقع يوم الزينة ، (وأن يُحْشَرَ الناس) موضع « أن » رفع ، المعنى : موعدكم حشر الناس (ضحى) أي : إذا رأيتم الناس قد حُشروا ضحى . ويجوز أن تكون « أن » في موضع خفض عطفاً على الزينة ، المعنى : موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس ضحىً . وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « وأن تَحْشُرَ » بتاء مفتوحة ورفع الشين ونصب « الناسَ » . وعن ابن مسعود ، والنخعي : « وأن يَحشُرَ » بالياء المفتوحة ورفع الشين ونصب « الناسَ » .

قال المفسرون : أراد بالناس : أهلَ مصر ، وبالضحى : ضحى اليوم ، وإنما علّقه بالضحى ، ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس ، فيكون أبلغَ في الحجة وأبعدَ من الريبة .

(فتولّى فرعون) فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : تولّى عن الحق الذي أُمِر به .

والثاني : أنه انصرف إلى منزله لاستعداد ما يلقى به موسى ، (فجمع كيده) أي : مكره وحيلته (ثم أتى) أي : حضر الموعد . (قال لهم موسى) أي : للسحرة . وقد ذكرنا عددهم في (الأعراف : ١١٤) .

قوله تعالى : (ويلكم) قال الزجاج : هو منصوب على « ألزمكم الله ويلاً » ويجوز أن يكون على النداء ، كقوله تعالى : (ياويلنا مَن بعثنا من مرقدنا) [يس : ٥٢] .

قوله تعالى : (لا تفتروا على الله كذباً) قال ابن عباس : لا تشركوا معه أحداً .

قوله تعالى : (فيسحتكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « فيَسحَتكم » بفتح الياء ، من « سحت » . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « فيُسحِتكم » بضم الياء ، من « أسحت » . قال الفراء : ويُسحت أكثر ، وهو الاستئصال ، والعرب تقول : سحته الله ، وأسحته ، قال الفرزدق :

وَعَضُّ زَمانٍ يابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ المَالِ إلاَّ مُسْحَتاً أوْ مُجلَّفُ [١]

هكذا أنشد البيت الفراء ، والزجاج . ورواه أبو عبيدة : « إلاّ مُسْحَتٌ أو مُجلَّفُ » بالرفع .

---

(١) ديوانه : ٥٥٦ ، و « الطبري » : ١٧٨/١٦ ، و « مجاز القرآن » : ٢١/٢ ، و « شرح المفضليات » : ٣٩٦ ، و « الجمهرة » : ١٠٧/٢ ، و « اللسان » و « التاج » : جلف ، سحت ، و « القرطبي » : ٢١٥/١١ ، و « الخزانة » : ٣٤٧/٢ ، ويروى : « إلا مسحَت أو مجلّف » كما في « مجاز القرآن » لأبي عبيدة . ومن رواه كذلك ، جعل معنى « لم يدع » : لم يتقارّ ، أو يقرّ ، أو يستقرّ ، ومن رواه « إلا مسحتاً » جعل « لم يدع » بمعنى : لم يترك ، لم يبق ، ورفع قوله : « أو مجلّف » بإضمار ، كأنه قال : أو هو مجلّف . ومال مسحوت ، ومسحت : مُذهَب به ، مهلك . والمجلّف : الذي بقيت منه بقية . يريد : لم يترك إلا شيئاً مستأصلاً هالكاً ، أو شيئاً بقيت منه بقية .

قوله تعالى : (فتنـازعوا أمرهم بينهم) يعني : السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى ، وتشاوروا (وأسرُّوا النجوى) أي : أخْفَوْا كلامهم من فرعون وقومه . وقيل : من موسى وهارون . وقيل : « أسرُّوا » هاهنا بمعنى « أظهروا » .

وفي ذلك الكلام الذي جرى بينهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا : إن كان هذا ساحراً ، فانا سنغلبه ، وإن يكن من السماء كما زعمتم ، فله أمره ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا : ماهذا بقول ساحر ، ولكن هذا كلام الرب الأعلى ، فعرفوا الحقّ ، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه ، وإلى موسى وعصاه ، فنُكسوا على رؤوسهم ، وقالوا إن هذان لساحران ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنهم (قالوا إنْ هذان لساحران . . .) الآيات ، قاله السدي .

واختلف القراء في قوله تعالى : (إنْ هذان لساحران) فقرأ أبو عمرو ابن العلاء : « إنَّ هذين » على إعمال « إنَّ » وقال : إني لأستحيي من الله أن أقرأ « إنْ هذان » . وقرأ ابن كثير : « إنْ » خفيفة « هذانّ » بتشديد النون . وقرأ عاصم في رواية حفص : « إنْ » خفيفة « هذان » خفيفة أيضاً . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « إنّ » بالتشديد « هاذان » بألف ونون خفيفة . فأما قراءة أبي عمرو ، فاحتجاجه في مخالفة المصحف بما روي عن عثمان وعائشة ، أن هذا من غلط الكاتب على ماحكيناه في قوله تعالى : (والمقيمين الصلاة) في سورة (النساء : ١٦٢) [1] . وأما قراءة عاصم ، فمعناها : ماهذان إلا ساحران ،

(١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ : (إنْ هذان لساحران) لحن ، وأن عثمان رضي الله عنه قال : إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها ، وهذا ــــ

كقوله تعالى : (وإنْ نظنُّك لمن الكاذبين) [الشعراء : ١٨٦] أي : مانظنك إلا من الكاذبين ، وأنشدوا في ذلك :

ثكلتْك أمُّك إن قتلتَ لَمُسْلِماً حلّت عليه عُقوبة المُتَعمِّدِ

أي : ماقتلت إلا مسلماً . قال الزجاج : ويشهد لهذه القراءة ، ماروي عن أُبيِّ ابن كعبٍ أنه قرأ « ماهذان إلا ساحران » ، وروي عنه : « إن هذان إلا ساحران » ، ورويت عن الخليل « إنْ هذان » بالتخفيف ، والإجماع على أنه لم يكن أحدٌ أعلمَ بالنحو من الخليل . فأما قراءة الأكثرين بتشديد « إنَّ » وإثبات الألف في قوله : « هاذان » فروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : هي لغة بلحارث بن كعب . وقال ابن الأنباري : هي لغة لبني الحارث بن كعب ، وافقتها لغة قريش . قال الزجاج : وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب ، وهو رأس من رؤوس الرواة : أنها لغة لكنانة ، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون : أتاني الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان ، وأنشدوا :

فأَطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجاعِ وَلوْ رَأى مَسَاغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا (١)

ويقول هؤلاء : ضربته بين أُذناه . وقال النحويون القدماء : هاهنا هاء مضمرة ،

ـــ خبر باطل لايصح من وجوه ، انظر الجزء (٢/٢٥٢ ـ ٢٥٣) من هذا التفسير ، فانك تجد في التعليق على هذا الخبر كلاماً طويلاً ، لشيخ الاسلام ابن تيمية ، والحافظ السخاوي ، والطبري ، وغيرهم ، في رد مانُسب إلى عثمان وعائشة رضي الله عنها .

(١) البيت للمتلمس ، وهو في « الطبري » : ١٦/١٨٠ ، و « القرطبي » : ١١/٢١٧ ، و « اللسان » : صمم ، ومعنى أطرق : سكت فلم يتكلم وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض ، والشجاع : ضرب من الحيات . ومساغاً : اسم مكان ، من ساغ يسوغ : إذا دخل ونفذ . وصمم : عض ونيب فلم يرسل ماعض . والبيت جارٍ على لغة بني الحارث بن كعب ، ومن الفّهم . والشاهد فيه أن قوله : « لناباه » مثنى مجرور باللام ، وقد جاء بالألف .

المعنى : إنه هذان لساحران . وقالوا أيضاً : إن معنى « إنَّ » : نعم « هذان لساحران » ، وينشدون :

ويَقلْنَ شَيْبٌ قد عَلاَ كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ (١)

قال الزجاج : والذي عندي ، وكنتُ عرضتُه على عالمنا محمد بن يزيد ، وعلى إسماعيل ابن إسحاق بن حماد بن زيد ، فقبلاه ، وذكرا أنه أجود ماسمعناه في هذا ، وهو أن « إنَّ » قد وقعت موقع « نعم » ، والمعنى : نعم هذان لهما الساحران ، ويلي هذا في الجودة مذهب بني كنانة . وأستحسن هذه القراءة ، لأنها مذهب أكثر القراء ، وبها يُقرأ . وأستحسن قراءة عاصم ، والخليل ، لأنهما إمامان ، ولأنهما وافقا أُبَيَّ بن كعب في المعنى . ولا أجيز قراءة أبي عمرو لخلاف المصحف . وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال : « ألف » « هذان » هي ألف « هذا » والنون فرَّقتْ بين الواحد والتثنية ، كما فرقت نون « الذين » بين الواحد والجمع .

قوله تعالى : (ويذهبا بطريقتكم) وقرأ أبان عن عاصم : « ويُذهِبا » بضم الياء وكسر الهاء . وقرأ ابن مسعود ، وأُبَيُّ بن كعب ، وعبد الله بن عمرو ، وأبو رجاء المطاردي : « ويذهبا بالطريقة » بألف ولام ، مع حذف الكاف والميم . وفي الطريقة قولان .

أحدهما : بدينكم المستقيم ، رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : بسُنَّتِكم ودِينِكم وما أنتم عليه ، يقال : فلان حسن الطريقة .

---

(١) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات ، وهو في « القرطبي » : ٢١٨/١١ ، و « روح المعاني » : ٢٠١/١٦ ، و « اللسان » : أنن ، وقبله :

بَكَرَتْ عليَّ عواذلي يَلْحَيْنَني وألومُهُنَّهْ

أي : إنه قد كان كما تقلن .

والثاني : بأمثلكم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال مجاهد : بأُولي العقل ، والأشراف ، والأسنان . وقال الشعبي : يصرفان وجوه الناس إليهما . قال الفراء : الطريقة : الرجال الأشراف ، تقول العرب للقوم الأشراف : هؤلاء طريقة قومهم ، وطرائق قومهم .

فأما « المثلى » فقال أبو عبيدة : هي تأنيث الأمثل . تقول في الإناث : خذ المثلى منهما ، وفي الذكور : خذ الأمثل . وقال الزجاج : ومعنى المثلى والأمثل : ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال : هذا أمثل قومه ؛ قال : والذي عندي أن في الكلام محذوفاً ، والمعنى : يذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وقول العرب : هذا طريقة قومه ، أي : صاحب طريقتهم .

قوله تعالى : (فأجمعوا كيدكم) قرأ الأكثرون : « فأجمِعوا » بقطع الألف من « أجمعت » . والمعنى : ليكن عزمكم مجمعاً عليه ، لا تختلفوا فيختلَّ أمرُكم . قال الفراء : والإجماع : الإحكام والعزيمة على الشيء ، تقول : أجمعت على الخروج ، وأجمعت الخروج ، تريد : أزممت ، قال الشاعر :

يالَيْتَ شِعْرِي والمُنَى لا تَنْفَعُ هَلْ أغْدُوَنْ يَوْماً وأمْرِي مُجْمَعُ[1]

يريد : قد أُحكم وعُزم عليه . وقرأ أبو عمرو : « فاجمَعوا » بفتح الميم من « جمعت » ، يريد : لا تَدَعوا من كيدكم شيئاً إلا جئتم به . فأما كيدهم ، فالمراد به : سحرهم ، ومكرهم .

قوله تعالى : (ثم ائتُوا صفّاً) أي : مُصْطَفِّين مجتمعين ، ليكون أنظم لأموركم ، وأشدَّ لهيبتكم . قال أبو عبيدة : « صفاً » أي : صفوفاً . وقال ابن قتيبة : « صفاً » بمعنى : جمعاً . قال الحسن : كانوا خمسة وعشرين صفاً ، كلُّ ألف ساحر صفٌّ .

(١) البيت في « معاني القرآن » للفراء : ١/٤٧٣ غير منسوب ، وهو في « الطبري » : ١٨٣/١٦ ، و « القرطبي » : ٢٢١/١١ ، و « اللسان » : جمع .

قوله تعالى : (وقد أفلح اليوم من استعلى) قال ابن عباس : فاز من غلب .

﴿ قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ . قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

قوله تعالى : (بل ألقوا) قال ابن الأنباري : دخلت « بل » لمعنى : جحد في الآية الأولى ، لأن الآية الأولى إذا تُؤمِّلتْ وُجِدتْ مشتملة على : إما أن تلقي ، وإما أن لا تلقي .

قوله تعالى : (وعِصِيُّهم) قرأ الحسن ، وأبو رجاء العطاردي ، وأبو عمران الجوني ، وأبو الجوزاء : « وعُصِيُّهم » برفع العين .

قوله تعالى : (يُخيَّل إليه) وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي ، والحسن ، وقتادة ، والزهري ، وابن أبي عبلة : « تُخيَّلُ » بالتاء ، « إليه » أي :

إلى موسى . يقال : خُيِّل إليه : إذا شُبِّه له . وقد استدل قوم بهذه الآية على أن السحر ليس بشيء . وقال : إنما خيِّل إلى موسى ، فالجواب : أنا لا ننكر أن يكون ما رآه موسى تخييلاً ، وليس بحقيقة ، فانه من الجائز أن يكونوا تركوا الزئبق في سلوخ الحيات حتى جرت ، وليس ذلك بحيّات .

فأما السحر ، فانه يؤثِّر ، وهو أنواع . وقد سُحِرَ رسولُ الله ﷺ حتى أثر فيه (١) ،

---

(١) فقد روى البخاري في « صحيحه » : ١٩٢/١٠ ، ومسلم في « صحيحه » ١٧١٩/٤ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحرَ رسولَ الله ﷺ يهوديٌّ من يهود بني زريق يقال له : لبيد بن الأعصم ، قالت : حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ دعا رسول الله ﷺ ، ثم دعا ، ثم دعا ، ثم قال : « ياعائشة ، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ جاءني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجليَّ ، فقال أحدهما لصاحبه : ماوجع الرجل ؟ قال : مطبوب (أي : مسحور) قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذَكَرٍ ، قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذروان » ، قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه ـ ثم قال : « ياعائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين ، قالت : فقلت : يارسول الله أفلا أحرقتَهُ ؟ قال : لا ، أما أنا فقد عافاني الله ، وكرهتُ أن أثير على الناس شراً ، فأمرتُ بها فدفنت » . وفي رواية للبخاري ١٩٩/١٠ : « حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن » بدل « حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله » ، وهي موضحة ومبيِّنة لما قبلها .

وحديثُ السحر هذا ، رواه أحمد في « المسند » ، والنسائي ، وابن سعد ، والحاكم ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي في « دلائل النبوة » ، وغيرهم .

قال الامام ابن القيم في « بدائع الفوائد » بما حاصله : وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقىً بالقبول بينهم ، لايختلفون في صحته ، وقد أنكره كثير من أهل الكلام ، وقابلوه بالتكذيب ، وقولهم هذا مردود عند أهل العلم ، وقد اتفق أصحاب « الصحيحين » على تصحيحه ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ ، والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين .

. . . .

ــــ ثم قال ابن القيم : وقد دل قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد) وحديث عائشة (المتقدم ذكره) على تأثير السحر ، وأن له حقيقة ، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وقالوا : إنه لاتأثير للسحر البتة ، وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لاحقيقة له سوى ذلك ، وهذا خلاف ماتواترت به الآثار عن الصحابة ، والسلف ، واتفق عليه الفقهاء ، وأهل التفسير والحديث . . . .

ثم قال : والسحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً ـ أصابه في بدنه ـ شفاه الله منه ، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما ، فان المرض يجوز على الأنبياء . اهـ .

وقال الامام النووي في « شرح مسلم » ١٤/١٧٤ : قال المازري رحمه الله : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات حقيقة السحر ، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، خلافاً لمن أنكره ونفى حقيقته وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة لاحقائق لها ، وقد ذكره الله في كتابه ، وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر مافيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لايمكن فيما لاحقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت ، وهذا كله يبطل ماقالوه ، فاحالة كونه من الحقائق محال ـ ثم قال : ـ وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر ، فزعم أنه يحط منصب النبوة ، ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة ، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل ، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ ، والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ماقام الدليل بخلافه باطل ، فأما مايتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ، ولا كان مفضلاً من أجلها ، وهو مما يعرض للبشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا مالاحقيقة له .

قال النووي : قال القاضي عياض : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث : « حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن » ـ ويروى « يخيل إليه » ـ أي : يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فاذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور ، وكل ما جاء من الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ، ونحوه ، فمحمول على التخييل بالبصر ، لا لخلل تطرق إلى العقل ، وليس في ذلك مايدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة ، والله أعلم . اهـ . ــــ

. . . .

— وقد نقل نحو كلام الامام النووي الحافظ ابن حجر في « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ١٠/١٨٨ ، ثم قال عند قوله تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ١٠/١٩١ هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ، ولا حجة له بها ، لأن هذه الآية وردت في قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذلك (أي تخييلاً) ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل . اه .

وقال الحافظ أيضاً في « الفتح » ١٠/١٩٣ : ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد : فقالت أخت لبيد بن الأعصم : إن يكن نبياً فسيخبر ، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله . قال الحافظ : فوقع الشق الأول كما في الحديث الصحيح ، (وهو أنه أخبر) ، قال : واستدل ابن القصار بأن الذي أصابه من السحر كان من جنس المرض بقوله ﷺ في الحديث : « أما أنا فقد شفاني الله » . وقال الحافظ : ولم ينقل عنه ﷺ في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به . اه .

فقد تبين مما سبق من كلام العلماء أن السحر له حقيقة ، وإلا لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه في سورة (الفلق) بقوله : (ومن شر النفاثات في العقد) وهي السواحر اللاتي يسحرن وينفثن في العقد كما قال المفسرون ، وأنه مرض تسلط على جسده كبقية الأمراض ، وقد مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً حتى أغمي عليه ، وكان يقول ـ كما « الصحيحين » ـ : « إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » ، وقد ابتلي في قومه ، وقاسى صنوفاً من الأذى .

فان احتج أحد على منع السحر بقوله تعالى لرسوله ﷺ : (والله يعصمك من الناس) فمنه جوابان كما قال المصنف ابن الجوزي رحمه الله ، أحدهما : أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة ، فأما عوارض الأذى ، فلا تمنع عصمة الجملة . والثاني : أن قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) من أواخر مانزل بالمدينة . وقد سحر وأوذي قبل نزول هذه الآية .

وان احتج آخر بقوله تعالى : (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) فتلك مقالة الظالمين ، ومرادهم : من سُحر حتى جن وأصبح زائل العقل لايعقل مايقول ، فان المسحور الذي لايتّبع ، هو الذي فسد عقله بحيث لايدري مايقول ، فهو المجنون ـ والمسلمون لايقولون بمقالة الظالمين المفترين ـ فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس ، فانه لايمنع ذلك من اتباعه ، وقولهم : سحر الأنبياء يتنافى مع حماية الله لهم ، مردود ، فانه سبحانه وتعالى كما يحميهم ويصونهم يبتليهم ويختبرهم ، فيزيدهم ذلك رفعة في درجاتهم ، ونيل كرامتهم . —

ولعن العاضهة [١] ، وهي الساحرة .

قوله تعالى : (فأوجس في نفسه خيفةً موسى) قال ابن قتيبة : أضمر في نفسه خوفاً . وقال الزجاج : أصلها « خِوفة » ولكن الواو قلبت ياءً لانكسار ماقبلها .
وفي خوفه قولان .

أحدها : أنه خوف الطبع البشري .

— وقوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) معناه : لايسعد الساحر حيث كان ، ولا يفوز ، وليس معنى « لايفلح » : لايستطيع السحر ، بل إذا سحر فلا يفلح ، ولا يأمن حيث وجد ، فذلك عدم فلاحه .

هذا ماعليه جمهور المسلمين ، من المفسرين والمحدثين ، والفقهاء المحققين ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام ، سحر وأثر في جسده ، ولم يؤثر في عقله ، وذلك لايقدح في مقام النبوة والرسالة .

ومن الناس من يحاول أن يرد بعض النصوص الصحيحة ـ لقصور فهمه ـ ظناً منه أنه بذلك لايدع مجالاً للطعن في رسالة النبي ﷺ ، ولكن العلماء المحققين تلقَّوا هذه النصوص بالقبول ، وبيَّنوا وجه الحق فيها بعد علم ودراية ، وتمحيص وتحقيق ، فعلى المسلم أن يرجع في تفسير النصوص إلى أربابها ، والمحققين من أصحابها ، مخافة أن تزلَّ به القدم ، والله تعالى تكفل بحفظ شريعته ، ورسالة نبيه ، فقال في كتابه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقيض لهذا الدين أناساً قال في حقهم رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدُولُه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ، والله تعالى ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل . (ع)

(١) تقدم في الجزء ٤١٩/٤ عند تفسير قوله تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) قول المصنف : وفي الحديث أن رسول الله ﷺ « لعن العاضهة والمستعضهة » ، وهو حديث ضعيف . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ٩٤ : رواه أبو يعلى ، وابن عدي من حديث ابن عباس ، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان ، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء . اهـ كلام ابن حجر . ومعنى العاضهة والمستعضهة : الساحرة والمستسحرة .

والثاني : أنه لما رأى سحرهم من جنس ما أراهم في العصى ، خاف أن يلتبس على النـاس أمره ، ولا يؤمنوا ، فقيل له : (لا تخف إنك أنت الأعلى) عليهم بالظَّفَر والغَلَبة . وهذا أصح من الأول .

قوله تعالى : (وَألْقِ ما في يمينك) يعني : العصا (تلقفْ) وقرأ ابن عامر : « تلقّفُ ما » برفع الفـاء وتشديد القاف . وروى حفص عن عاصم : « تلقف » خفيفة . وكان ابن كثير يشدِّد التاء من « تلقف » يريد : « تتلقف » . وقرأ ابن مسعود ، وأُبَيُّ بن كعب ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء : « تلقم » بالميم . وقد شرحناها في (الأعراف : ١١٧) ، (إنما صنعوا كيدُ ساحر) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « كيد سحر » . وقرأ الباقون : « كيد ساحر » بألف ، والمعنى : إن الذي صنعوا كيد ساحر ، أي : عمل ساحر . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « إنما صنعوا كيدَ » بنصب الدال . (ولا يفلح الساحر) قال ابن عباس : لا يسعد حيثما كان . وقيل : لا يفوز . وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أخذتم الساحر فاقتلوه ، ثم قرأ (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ، قال : لا يأمن حيث وجد »[1] .

قوله تعالى : (قال آمنتم له) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، وورش عن نافع : « آمنتم له » على لفظ الخبر . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « آمنتم له » بهمزة ممدودة . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أآمنتم له » بهمزتين الثانية ممدودة .

---

(١) ذكره ابن كثير ٣/١٥٨ من رواية ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي ، وقال : وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً .

قوله تعالى : (إنه لكبيركم) قال ابن عباس : يريد معلِّمكم . قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلِّمه ، قال : جئت من عند كبيري .

قوله تعالى : (ولأُصلبنَّكم في جذوع النخل) « في » بمعنى « على » ، ومثله : (أم لهم سُلَّم يستمعون فيه) [الطور : ٣٨] . (ولتعلمُنَّ) أيُّها السحرة (أيُّنا أشدُّ عذاباً) لكم (وأبقى) أي : أدوَم ، أنا على إيمانكم ، أو ربُّ موسى على تركهم الإيمان به؟ (قالوا لن نؤثرك) أي : لن نختارك (على ماجاءنا من البينات) يعنون اليد والعصى .

فان قيل : لم نسبوا الآيات إلى أنفسهم بقولهم : « جاءنا » وإنما جاءت عامة لهم ولغيرهم .

فالجواب : أنهم لما كانوا بأبواب السحر ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم ، وقد علموا أن ماجاء به موسى ليس بسحر ، كان ذلك في حق غيرهم أبْيَنَ وأوضح ، وكانوا هم لمعرفته أخص .

وفي قوله تعالى : (والذي فطرنا) وجهان ذكرهما الفراء ، والزجاج .

أحدهما : أن المعنى : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات ، وعلى الذي فطرنا .

والثاني : أنه قسم ، تقديره : وحقِّ الذي فطرنا .

قوله تعالى : (فاقض ما أنت قاض) أي : فاصنع ما أنت صانع . وأصل القضاء : عمل باحكام (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) قال الفراء : « إنما » حرف واحد ، فلهذا نصب : « الحياة الدنيا » . ولو قرأ قارىء برفع « الحياة » لجاز ، على أن يجعل « ما » في مذهب « الذي » ، كقولك : إن الذي تقضي هذه الحياة الدنيا . وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو المتوكل : « إنما تُقضى » بضم التاء على مالم يُسمَّ فاعله ، « الحياةُ » برفع التاء . قال المفسرون : والمعنى : إنما سلطانك وملكك في هذه الدنيا ، لا في الآخرة .

قوله تعالى : (ليغفر لنا) يعنون الشرك (وما أكرهتنا عليه) أي : والذي أكرهتنا عليه ، أي : ويغفر لنا إكراهك إيَّانا على السحر .

فان قيل : كيف قالوا : أكرهتنا ، وقد قالوا : « أإن لنا لأجراً » ، وفي هذا دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكرهين ؟ فعنه أربعة أجوبة .

أحدها : أن فرعون كان يكره الناس على تعلّم السِّحر ، قاله ابن عباس . قال ابن الأنباري : كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعلّموا أولادهم السحر وهم لذلك كارهون ، وذلك لشغفه بالسحر ، ولما خامر قلبه من خوف موسى ، فالإكراه على السحر ، هو الإكراه على تعلّمه في أول الأمر .

والثاني : أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم : « أئن لنا لأجراً » ورأوا ذكرَه اللهَ تعالى وسلوكه منهاج المتقين ، جزعوا من ملاقاته بالسحر ، وحذروا أن يظهر عليهم فيطَّلع على ضعف صناعتهم ، فتفسد معيشتهم ، فلم يقنع فرعون منهم إلا بعمارضة موسى ، فكان هذا هو الإكراه على السحر .

والثالث : أنهم خافوا أن يُغلَبوا في ذلك الجمع ، فيقدح ذلك في صنعتهم عند الملوك والسُّوَق [1] ، وأكرههم فرعون على فعل السحر .

والرابع : أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم ، وكان سبب ذلك السحر ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

قوله تعالى : (والله خير) أي : خير منك ثواباً إذا أُطيع (وأبقى) عقاباً إذا عُصي ، وهذا جواب قوله : « ولتعلمُنَّ أيُّنا أشد عذاباً وأبقى » ؛ وهذا آخر الإخبار عن السحرة .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَايَمُوتُ فِيهَا

(١) السُّوَق : جمع سوقة ، وهم بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك ، ومن لم يكن ذا سلطان .

وَلا يَحْيى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلىٰ . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاؤُا مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾

قوله تعالى : (إنَّه من يأت ربه مجرماً) يعني : مشركاً (فإنَّ له جهنم لايموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة تنفعه .

[أنشد ابن الأنباري في مثل هذا المعنى قوله :

أَلاَ مَنْ لِنَفْسٍ لاتَمُوتُ فَيَنْقَضِي شَقَاهَا وَلاَ تَحْيَا حَيَاةً لَها طَعْمُ][1]

قوله تعالى : (قد عمل الصالحات) قال ابن عباس : قد أدَّى الفرائض ، (فأولئك لهم الدرجات العلى) يعني : درجات الجنة ، وبعضها أعلى من بعض . والعلى ، جمع العليا ، وهو تأنيث الأعلى . قال ابن الأنباري : وإنما قال : « فأولئك » ، لأن « مَن » تقع بلفظ التوحيد على تأويل الجمع . فاذا غلب لفظها ، وُحِّد الراجع إليها ، وإذا بُيِّن تأويلها ، جُمع المصروف إليها .

قوله تعالى : (وذلك) يعني الثواب (جزاء من تزكى) أي : تطهَّر من الكفر والمعاصي .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاتَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَىٰ . فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ . وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ . يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ . كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ

(١) مابين المعقفين زيادة من النسخة الاستنبولية ، والبيت في « القرطبي » : ١١/٢٢٧ ، و « اللسان » : طعم .

غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ . وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾

قوله تعالى : (أنْ أسْرِ بعبادي) أي : سِرْ بهم ليلاً من أرض مصر (فاضرب لهم طريقاً) أي : اجعل لهم طريقاً (في البحر يَبَساً) قرأ أبو المتوكل ، والحسن ، والنخعي : « يَبْساً » بإسكان الباء . وقرأ الشعبي ، وأبو رجاء ، وابن السميفع : « يابساً » بألف . قال أبو عبيدة : اليبس ، متحرك الحروف ، بمعنى اليابس ، يقال : شاة يبس ، أي : يابسة ليس لها لبن . وقال ابن قتيبة : يقال لليابس : يَبَس ، ويَبْس .

قوله تعالى : (لاتخاف) قرأ الأكثرون بألف . وقرأ أبان ، وحمزة عن عاصم : « لاتخفْ » . قال الزجاج : من قرأ « لاتخاف » ، فالمعنى : لست تخاف ، ومن قرأ « لاتخفْ » ، فهو نهي عن الخوف . قال الفراء : قرأ حمزة : « لاتخفْ » بالجزم ، ورفع « ولا تخشى » على الاستئناف ، كقوله تعالى : (يُولُّوكم الأدبار ثم لاينصرون) [آل عمران : ١١١] استأنف بـ « ثم » ، فهذا مثله ، ولو نوى حمزة بقوله : « ولا تخش » الجزم وإن كانت فيه الياء ، كان صواباً . قال ابن قتيبة : ومعنى (دركاً) لحاقاً . قال المفسرون : قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر بين أيدينا ، فأنزل الله على موسى (لاتخاف دركاً) أي : من فرعون (ولا تخشى) غرقاً في البحر .

قوله تعالى : (فأَتْبَعهم فرعون) قال ابن قتيبة : لحقهم . وروى هارون عن أبي عمرو : « فاتَّبعهم » بالتشديد . وقال الزجاج : تبع الرجل الشيء ، وأتبعه ، بمعنى واحد . ومن قرأ بالتشديد ، ففيه دليل على أنه اتبعهم ومعه الجنود . ومن قرأ « فأتبعهم » ، فمعناه : ألحق جنوده بهم ، وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ ،

وجائز أن لايكون، إلا أنه قد كان معهم . (فغشيَهم من اليم ماغشيَهم) أي : فغشيهم من ماء البحر ماغرّقهم . وقال ابن الأنباري : ويعني بقوله : « ماغشيهم » البعض الذي غشيهم ، لأنه لم يغشَهم كل مائهِ . وقرأ ابن مسعود، وعكرمة، وأبو رجاء، والأعمش : « فغشّاهم من اليم ماغشّاهم » بألف فيهما مع تشديد الشين وحذف الياء .

قولهتعالى : (وأضل فرعونُ قومَه) أي : دعاهم إلى عبادته (وما هدى) أي : [ما] أرشدهم حين أوردهم موارد الهلكة . وهذا تكذيب له في قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) [غافر : ٢٩] .

قولهتعالى : (وواعدناكم جانبَ الطورِ الأيمنَ) لأخذ التوراة . وقد ذكرنا في (مريم : ٥٢) معنى « الأيمن » ، وذكرنا في (البقرة : ٥٧) « المن والسلوى »

[قولهتعالى : (كلوا) أي : وقلنا لهم : كلوا] .

قولهتعالى : (ولا تطغَوْا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لاتبطروا في نعمي [فتظلموا] . والثاني : لاتجحدوا نعمي فتكونوا طاغين . والثالث : لاتدّخروا منه لأكثر من يوم وليلة .

قولهتعالى : (فيحلّ عليكم غضبي) أي : فتجب لكم عقوبتي . والجمهور قرؤوا « فيحِل » بكسر الحاء (ومن يحلِل) بكسر اللام . وقرأ الكسائي : « فيحُل » بضم الحاء (ومن يحلُل) بضم اللام . قال الفراء : والكسر أحب إليّ، لأن الضم من الحلول ، ومعناه : الوقوع ، و « يحل » بالكسر ، يجب ، وجاء التفسير بالوجوب ، لا بالوقوع .

قولهتعالى : (فقد هوى) أي : هلك .

قولهتعالى : (وإني لغفّار) الغفار : الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى ، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته، وأصل الغفر : الستر ، وبه سمي [زِئْبِر] الثوب:

غفراً ، لأنه يستر سداه . فالغفار : الستار لذنوب عباده ، المسبل عليهم ثوب عطفه .

قوله تعالى : (لمن تاب) قال ابن عباس : لمن تاب من الشرك (وآمن) أي : وحّد الله وصدّقه ،(وعمل صالحاً) أدّى الفرائض .

وفي قوله تعالى : (ثم اهتدى) ثمانية أقوال .

أحدها : علم أن لعمله هذا ثواباً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : لم يشكّك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : علم أن ذلك توفيق من الله [له] ، رواه عطاء عن ابن عباس . والرابع : لزم السنة والجماعة ، قاله سعيد ابن جبير . والخامس : استقام ، قاله الضحاك . والسادس : لزم الإسلام حتى يموت عليه ، قاله قتادة . والسابع : اهتدى كيف يعمل ، قاله زيد بن أسلم . والثامن : اهتدى إلى ولاية بيت النبي ﷺ ، قاله ثابت البناني .

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى . قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى . قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ . فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي . قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ . أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾

قوله تعالى : (وما أعجلك عن قومك ياموسى) قال المفسرون : لما نجّى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون ، قالوا : ياموسى ، لو أتيتنا بكتاب من

عند الله ، فيه الحلال والحرام والفرائض ، فأوحى الله [إليه يَعِدُهُ] أنه ينزل عليه ذلك في الموضع الذي كلّمه فيه ، فاختار سبعين ، فذهبوا معه إلى الطور لأخذ التوراة ، فعَجِل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه ، وأمرهم بلحاقه ، فقال الله تعالى له : ماالذي حملك على العجلة عن قومك ،(قال هم أولاء) أي : هؤلاء (على أثري)، وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعاصم الجحدري : « على إثري » بكسر الهمزة وسكون الثاء . وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر ، برفع الهمزة وسكون الثاء . وقرأ أبو رجاء ، وأبو العالية : بفتح الهمزة وسكون الثاء . والمعنى : هم بالقرب مني يأتون بعدي (وعجلت إليك ربِّ لترضى) أي : لتزداد رضىً ،(قال فانّا قد فتنّا قومك) قال الزجاج : ألقيناهم في فتنة ومحنة ، واختبرناهم .

قوله تعالى : (من بعدك) أي : من بعد انطلاقك من بينهم (وأضلّهم السامريّ) أي : كان سبباً لإضلالهم . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « وأضلُّهم » برفع اللام . وقد شرحنا في (البقرة : ٥٢) سبب اتخاذ السامري العجل ، وشرحنا في (الأعراف : ١٥٠) معنى قوله تعالى : (غضبان أسفاً) .

قوله تعالى : (ألم يعدْكم ربكم وَعْداً حسناً) أي : صدقاً ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إعطاء التوراة . والثاني : قوله : (لئن أقمتم الصلاة) إلى قوله : (لأكفِّرن عنكم سيآتكم . . .) الآية : [المائدة : ١٣] ، وقوله: (وإني لغفار لمن تاب) [طه : ٨٢] . والثالث : النصر والظَّفَر .

قوله تعالى : (أفطال عليكم العهد) أي : مدة مفارقتي إياكم (أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربِّكم) أن تصنعوا صنيعاً يكون سبباً لغضب ربكم (فأخلفتم موعدي) أي : عهدي ، وكانوا قد عاهدوه أنه إن فكَّهم الله من مَلَكَة آل فرعون ، أن يعبدوا

الله ولا يشركوا به ، ويقيموا الصلاة ، وينصروا الله ورسله . (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : بكسر الميم ، وقرأ نافع ، وعاصم: بفتح الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي : بضم الميم . قال أبو علي : وهذه لغات . وقال الزجاج : المُلْك ، بالضم : السلطان والقدرة . والمِلْك ، بالكسر : ماحوته اليد . والمَلْك ، بالفتح : المصدر ، يقال : ملكت الشيء أملكه ملكاً .

وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : ما كنا نملك الذي اتـُّخذ منه العجلُ ، ولكنها كانت زينة آل فرعون ، فقذفناها ، قاله ابن عباس .

والثاني : بطاقتنا ، قاله قتادة ، والسدي .

والثالث : لم نملك أنفسنا عند الوقوع في البليَّة ، قاله ابن زيد .

والرابع : لم يملك مؤمنونا سفهاءنا ، ذكره الماوردي .

فيخرَّج فيمن قال هذا لموسى قولان . أحدهما : أنهم الذين لم يعبُدوا العجل . والثاني : عابدوه .

قوله تعالى : (ولكنَّا حُمِّلنا أوزاراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « حُمِّلْنا » بضم الحاء وتشديد الميم . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « حملنا » خفيفة . والأوزار : الأثقال . والمراد بها : حلي آل فرعون الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر . فمن قرأ « حُمِّلنا » بالتشديد، فالمعنى: حمَّلَنا [ها] موسى ، أمَرَنا باستعارتها من آل فرعون ، (فقذفناها) أي : طرحناها في الحفيرة . وقد ذكرنا سبب قذفهم إياها في سورة (البقرة : ٥٢) .

قوله تعالى : (فكذلك ألقى السامري) فيه قولان .

أحدهما : أنه ألقى حلياً كما ألقَوْا .

والثاني : ألقى ما كان معه من تراب حافر فرس جبريل . وقد سبق شرح القصة في (البقرة : ٥٢) ، وذكرنا في (الأعراف : ١٤٨) معنى قوله تعالى : (عجلاً جسداً له خوار) .

قوله تعالى : (فقالوا هذا إلهكم) هذا قول السامري ومن وافقه من الذين افتُتنوا .

قوله تعالى : (فنسي) في المشار إليه بالنسيان قولان .

أحدهما : أنه موسى . ثم في المعنى ثلاثة أقوال . أحدها : هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن يخبركم أن هذا إلهه ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : فنسي موسى الطريق إلى ربه ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : فنسي موسى إلهه عندكم ، وخالفه في طريق آخر ، قاله قتادة .

والثاني : أنه السامري ، والمعنى : فنسي السامريُّ إيمانه وإسلامه ، قاله ابن عباس . وقال مكحول : فنسي ، أي : فترك السامريُّ ما كان عليه من الدين . وقيل : فنسي أن العجل لا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . فعلى هذا القول، يكون قوله تعالى : (فنسي) من إخبار الله عز وجل عن السامري . وعلى ما قبله ، فيمن قاله قولان .

أحدهما : أنه السامريُّ . والثاني : بنو إسرائيل .

قوله تعالى : (أفلا يرون ألاَّ يرجعُ) قال الزجاج : المعنى : أفلا يرون أنه لا يرجع (إليهم قولاً) .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا لَن نَّبْرَحَ

عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ . قَالَ يَا هَٰرُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَابْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

قوله تعالى : (ولقد قال لهم هارون من قبل) أي : من قبل أن يأتي موسى (يا قوم إنما فتنتم به) أي : ابتليتم (وإن ربَّكم الرحمنُ) لا العجل ، (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) أي : لن نزال مقيمين على عبادة العجل (حتى يرجع إلينا موسى) فلما رجع موسى (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلُّوا) بعبادة العجل (ألا تتَّبعني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « ألا تتبعني » بياء في الوصل ساكنة ، ويقف ابن كثير بالياء ، وأبو عمرو بغير ياء . وروى إسماعيل بن جعفر عن نافع : « ألا تتبعنيَ أفعصيت » بياء منصوبة . وروى قالون عن نافع مثل أبي عمرو سواء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بغير ياء في الوصل ، والوقف . والمعنى : ما منعك من اتباعي . و « لا » كلمة زائدة .

وفي المعنى ثلاثة أقوال .

أحدها : تسير ورائي بمن معك من المؤمنين ، وتفارقهم . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن تناجزهم القتال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في الإنكار عليهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أفعصيت أمري) وهو قوله في وصيته إياه « اخلفني في قومي وأصلح » قال المفسرون : ثم أخذ برأس أخيه ولحيته غضباً منه عليه . وهذا وإن لم

يذكر هاهنا ، فقد ذكر في (الأعراف : ١٥٠) فاكتُفي بذلك ، وقد شرحنا هناك معنى « يا ابن أم » واختلاف القراء فيها .

قوله تعالى : (ولا برأسي) أي : بشعر رأسي . وهذا الغضب كان لله عز وجل ، لا لنفسه ، لأنه وقع في نفسه أن هارون عصى الله بترك اتِّباع موسى .

قوله تعالى : (إني خشيتُ) أي : إن فارقتهم واتبعتك (أن تقول فرَّقت بين بني إسرائيل) وفيه قولان .

أحدهما : باتباعي إياك ومن معي من المؤمنين . والثاني : بقتالي لبعضهم ببعض .

وفي قوله تعالى : (ولم ترقب قولي) قولان .

أحدهما : لم ترقب قولي لك : « اخلفني في قومي وأصلح » .

والثاني : لم تنتظر أمري فيهم .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ . قَالَ بَصُرْتُ بِمَالَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لَامِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً . إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

قوله تعالى : (فما خطبك يا سامري) أي : ما أمرك وشأنك الذي دعاك إلى ما صنعت ؟ ! قال ابن الأنباري : وبعض اللغويين يقول : الخطب مشتق من الخطاب . المعنى : ما أمرُك الذي تخاطب فيه ؟ !

واختلفوا في اسم السامري على قولين .

أحدهما : موسى أيضاً ، قاله وهب بن منبه ، وقال : كان ابن عم موسى بن عمران .

والثاني : ميخـا ، قاله ابن السائب .

وهل كان من بني إسرائيل ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : لم يكن منهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : كان من عظمائهم ، وكان من قبيلة تسمى « سامرة » ، قاله قتادة .

وفي بلده قولان .

أحدهما : كرمان ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : باجرمـا ، قاله وهب .

قوله تعالى : (بَصُرْتُ بِمَا لم يَبْصُرُوا به) وقرأ حمزة والكسائي : « تَبصروا » ، بالتاء . فعلى قراءة الجمهور أشار إلى بني إسرائيل ، وعلى هذه القراءة خاطب الجميع . قال أبو عبيدة : علمت ما لم تعلموا . قال : وقوم يقولون : بصرت ، وأبصرت سواء ، بمنزلة أسرعت ، وسَرُعت . وقال الزجاج : يقال : بصُر الرجل يبصُر : إذا صار عليماً بالشيء ، وأبصر يبصر : إذا نظر . قال المفسرون : فقال له موسى : وما ذاك ؟ قال : رأيت جبريل على فرس ، فأُلقي في نفسي : أن اقبض من أثرها (فقبضت قبضة) ، وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، ومعاذ القارىء : « قبصة » بالصاد . وقال الفراء : والقبضة بالكفِّ كلِّها ، والقبصة ـ بالصاد ـ بأطراف الأصابع . قال ابن قتيبه : ومثل هذا : الخضم بالفم كله ، والقضم بأطراف الأسنان ، والنضخ أكثر من النضح ، والرجز : العذاب ، والرجس: النتن ، والهُلاس في البدن ، والسُّلاس في العقل ، والغلط في الكلام ، والغلت في الحساب، والخصر : الذي يجد البرد ، والخرص : الذي يجد البرد والجوع ، والنار الخامدة : التي قد سكن لَهَبها ولم يطفأ جمرها ، والهامدة : التي طفئت فذهبت البتّة ، والشَّكْد : العطاء ابتداءً ، فان كان جزاءً فهو شُكْم ، والمائح : الذي يدخل البئر فيملأ الدلو ، والماتح : الذي ينزعها .

قوله تعالى : (فنبذتُها) أي : فقذفتها في العجل . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ،

والكسائي ، وخلف : « فنبذتها » بالإدغام (وكذلك) أي : وكما حدثتك (سوَّلتْ) لي نفسي) أي : زيَّنتْ لي (قال) موسى (اذهب) أي : من بيننا (فإن لك في الحياة) أي : ما دمت حياً (أن تقول لا مساس) أي : لا أمسُّ ولا أُمَسُّ ، فصار السامريُّ يهيم في البرِّيَّة مع الوحش والسباع ، لا يَمسّ أحداً ، ولا يَمسُّه أحدٌ ، عاقبه الله بذلك ، وألهمه أن يقول : « لا مساس » ، وكان إذا لقيَ أحداً يقول : لا مساس ، أي : لا تقربني ، ولا تمسني ، وصار ذلك عقوبة لولده ، حتى إن بقاياهم اليوم ، فيما ذكر أهل التفسير ، بأرض الشام يقولون ذلك . وحكي أنه إن مس واحدٌ من غيرهم واحداً منهم ، أخذتهما الحمَّى في الحال .

قوله تعالى : (وإن لك موعداً) أي : لعذابك يوم القيامة (لن تُخلَفَه) أي : لن يتأخر عنك . ومن كسر لام « تخلف » أراد : لن تغيب عنه .

قوله تعالى : (وانظر إلى إلهك) يعني : العجل (الذي ظَلْت) قال ابن عباس : معناه : أقمت عليه . وقال الفراء : معنى « ظلت » : فعلته نهاراً . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر : « ظُلْت » برفع الظاء . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « ظِلت » بكسر الظاء . وقال الزجاج : « ظَلت » و « ظلت » بفتح الظاء ، وكسرها ، فمن فتح ، فالأصل فيه : « ظللت » ولكن اللام حذفت لثقل التضعيف والكسر ، وبقيت الظاء على فتحها ، ومن قرأ : « ظِلت » بالكسر ، حوَّل كسرة اللام على الظاء . ومعنى (عاكفاً) مقيماً ، (لنحرِّقنَّه) قرأ الجمهور « لنحرقنَّه » بضم النون وفتح الحاء وتشديد الراء وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو رزين ، وابن يعمر : « لنَحْرقنه » بفتح النون وسكون الحاء ورفع الراء مخففة . وقرأ أبو هريرة ، والحسن ، وقتادة : « لنحرقنه » برفع النون وإسكان الحاء وكسر الراء

مخففة . قال الزجاج : إذا شدد ، فالمعنى : نحرقه مرة بعد مرة . وتأويل « لنحرقنَّه »: لنبردنَّه ، يقال : حرقت أحرُق وأحْرِق : إذا بردت الشيء . والنسف : التذرية . وجاء في التفسير : أن موسى أخذ العجل فذبحه ، فسال منه دم ، لأنه كان قد صار لحماً ودماً ، ثم أحرقه بالنار ، ثم ذراه في البحر ، ثم أخبرهم موسى عن إلههم ، فقال : (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو) أي : هو الذي يستحق العبادة ، لا العجل ، (وسع كل شيء علماً) أي : وسع علمه كل شيء .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَاقَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً . مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْراً . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلاً . يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾

قوله تعالى : (كذلك نقص عليك) أي : كما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه ، نقص عليك (من أنباء ما قد سبق) أي : من أخبار من مضى ، والذِّكر هاهنا : القرآن (من أعرض عنه) فلم يؤمن ، ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة) وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : « يُحَمَّل » برفع الياء وفتح الحاء وتشديد الميم ، (وزراً) أي : إثماً (خالدين فيه) أي : في عذاب ذلك الوزر (وساء لهم) قال الزجاج : المعنى : وساء الوزر لهم يوم القيامة (حِملاً)، و « حملاً » منصوب على التمييز .

قوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور) قرأ أبو عمرو : « ننفخ » بالنون . وقرأ الباقون من السبعة : « ينفخ » بالياء ، على ما لم يسم فاعله . وقرأ أبو عمران الجوني :

« يوم ينفخ » بياء مفتوحة ورفع الفاء ، وقد سبق بيانه . (ونحشر المجرمين) وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وطلحة بن مصرِّف : « ويحشر » بياء مفتوحة ورفع الشين . وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وأبو عمران : « ويحشر » بياء مرفوعة وفتح الشين « المجرمون » بالواو . قال المفسرون : والمراد بالمجرمين : المشركون . (يومئذ زُرْقاً) وفيه قولان .

أحدهما : عُمياً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال ابن قتيبة : بيض العيون من العمى ، قد ذهب السواد ، والناظر .

والثاني : زُرق العيون من شدة العطش ، قاله الزهري . والمراد : أنه يشوِّه خَلْقَهم بسواد الوجوه ، وزرق العيون .

قوله تعالى : (يتخافتون بينهم) أي : يسارّ بعضهم بعضاً (إن لبثتم) أي : ما لبثتم إلا عشر ليال . وهذا على طريق التقليل ، لا على وجه التحديد .

وفي مرادهم بمكان هذا اللبث قولان .

أحدهما : القبور . ثم فيه قولان . أحدهما : أنهم عَنَوا طول ما لبثوا فيها ، روى أبو صالح عن ابن عباس : إن لبثتم بعد الموت إلا عشراً . والثاني : ما بين النفختين ، وهو أربعون سنة ، فانه يخفف عنهم العذاب حينئذ ، فيستقلُّون مدة لبثهم لهول ما يعاينون ، حكاه علي بن أحمد النيسابوري .

والقول الثاني : أنهم عَنَوا لبثهم في الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : (إذ يقول أمثلهم طريقة) أي : أعقلهم ، وأعدلهم قولاً (إن لبثتم إلا يوماً) فنسي القوم مقدار لبثهم لهول ما عاينوا .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً . فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً . لَاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَاعِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً . يَوْمَئِذٍ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً . يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً . وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً . وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال) سبب نزولها أن رجالاً من ثقيف أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا يا محمد : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس [١] .

قوله تعالى : (فقل ينسفها ربي نسفاً) قال المفسرون : النسف : التذرية . والمعنى : يصيِّرها رمالاً تسيل سيلاً ، ثم يصيِّرها كالصوف المنفوش ، تطيِّرها الرياح فتستأصلها (فيذرها) أي : يدَع أماكنها من الأرض إذا نسفها (قاعاً) قال ابن قتيبة : القاع من الأرض : المستوي الذي يعلوه الماء ، والصفصف : المستوي أيضاً ، يريد : أنه لا نبت فيها .

قوله تعالى : (لا ترى فيها عوَجاً ولاأمتاً) في ذلك ثلاثة أقوال .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٣٠٧/٤ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يامحمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ، فنزلت : (ويسألونك عن الجبال ...) الآية .

أحدها : أن المراد بالعِوَج : الأودية ، وبالأَمْت : الرَّوابي ، رواه أبن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذلك قال مجاهد : العِوَج : الانخفاض ، والأَمْت : الارتفاع ، وهذا مذهب الحسن . وقال ابن قتيبة : الأَمْت : النَّبك .

والثاني : أن العِوَج : المَيْل ، والأَمْت : الأَثَر مثل الشِّراك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن العِوَج : الصدع ، والأَمْت : الأَكَمة .

قوله تعالى : (يومئذ يَتَّبعون الداعي) قال الفراء : أي : يتَّبعون صوت الداعي للحشر ، لا عِوَج لهم عن دعائه : لا يقدرون أن لا يتَّبِعوا .

قوله تعالى : (وخَشَعَت الأصوات) أي : سكنت وخفيت (فلا تَسْمَعُ إلاّ هَمْساً) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : وطء الأقدام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، واختاره الفراء ، والزجاج .

والثاني : تحريك الشفاه بغير نطق ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس

والثالث : الكلام الخفيّ ، روي عن مجاهد . وقال أبو عبيدة : الصوت الخفيّ .

قوله تعالى : (يومئذ لا تَنْفَع الشفاعة) يعني : لا تنفع أحداً (إلا من أذِنَ له الرحمن) أي : إلا شفاعة من أذِن له الرحمن ، أي : أذِن أن يُشْفَع له ، (ورضي له قولاً) أي : ورضي للمشفوع فيه قولاً ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل « لا إله إلا الله » . (يعلم ما بين أيديهم) الكناية راجعة إلى الذين يتَّبعون الداعي . وقد شرحنا هذه الآية في سورة (البقرة : ٢٥٥) .

وفي هاء « به » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله مقاتل . والثاني : إلى « ما بين أيديهم وما خلفهم » ، قاله ابن السائب .

قولهتعالى : (وعَنَتِ الوجوه) قال الزجاج : « عَنَتْ » في اللغة : خضعت ، يقال : عنا يعنو : إذا خضع ، ومنه قيل : أُخِذتْ البلاد عَنْوَةً : إذا أُخذتْ غَلَبة ، وأُخذتْ بخضوع من أهلها . والمفسرون : على أن هذا في يوم القيامة ، إلا ما روي عن طلق بن حبيب : هو وضع الجبهة والأنف والكفّين والرُّكبتين وأطراف القدمين على الأرض للسجود . وقد شرحنا في آية الكرسي معنى « الحي القيوم » [البقرة: ٢٥٥] .

قولهتعالى : (وقد خاب مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) قال ابن عباس : خَسِر من أشرك بالله .

قولهتعالى : (ومَن يعملْ مِنَ الصالحات وهو مؤمن) « مِنْ » هاهنا للجنس . وإنما شرط الإيمان ، لأن غير المؤمن لا يُقبَل عملُه ، ولا يكون صالحاً ، (فلا يخاف) أي : فهو لا يخاف . وقرأ ابن كثير : « فلا يَخَفْ » على النهي .

قولهتعالى : (ظُلْماً ولا هَضماً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا يخاف أن يُظلَم فيُزاد في سيِّئاته ، ولا أن يُهضَم من حسناته ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا يخاف أن يُظلَم فيزاد من ذَنْب غيره ، ولا أن يُهضَم من حسناته ، قاله قتادة .

والثالث : أن لا يخاف أن يؤاخَذ بما لم يعمل ، ولا يُنتقص من عمله الصالح ، قاله الضحاك .

والرابع : لا يخاف أن لا يُجزَى بعمله ، ولا أن يُنقَص من حقّه ، قاله ابن زيد . قال اللغويون : الهَضْم : النَّقْص ، تقول العرب : هضمتُ لك من حقِّي ، أي : حطَطْتُ ، ومنه : فلان هضيم الكَشْحَيْن ، أي : ضامر الجنبين ،

ويقال : هذا شيء يهضم الطعام ، أي : ينقص ثِقْله . وفرق بعض المفسرين بين الظُّلم والهَضْم ، فقال : الظُّلم : منع الحق كلِّه ، والهضم : منع البعض ، وإن كان ظُلْماً أيضاً .

قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه) أي : وكما بيَّنَّا في هذه السورة ، أنزلناه ، أي : أنزلنا هذا الكتاب (قرآناً عربياً وصرَّفنا فيه من الوعيد) أي : بيَّنَّا فيه ضروب الوعيد . قال قتادة : يعني : وقائعه في الأُمم المكذِّبة .

قوله تعالى : (لعلَّهم يتَّقون) أي : ليكون سبباً لاتِّقائهم الشرك بالاتِّعاظ بِمَنْ قبلهم (أو يُحْدِثُ لهم) أي : يجدِّد لهم القرآن ، وقيل : الوعيد (ذِكْراً) أي : اعتباراً ، فيتذكَّروا به عِقاب الأُمم ، فيعتبروا . وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري : « أو نُحْدِثُ » بنون مرفوعة .

قوله تعالى : (فتعالى الله) أي : جَلَّ عن إلحادِ الملحدين وقول المشركين في صفاته ، (المَلِكُ) الذي بيده كلُّ شيء ، (الحَقُّ) وقد ذكرناه في (يونس : ٣٢) .

قوله تعالى : (ولا تَعْجَل بالقرآن) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن جبريل كان يأتي النبيَّ ﷺ بالسورة والآي فيتلوها عليه ، فلا يفرغ جبريل من آخرها حتى يتكلَّم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس [1] .

والثاني : أن رجلاً لطم امرأته ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب القصاص ، فجعل رسول الله ﷺ بينهما القصاص ، فنزلت هذه الآية ، فوقف

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٤/٣٠٩ : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) يقول : لا تعجل حتى نبينه لك .

رسول الله ﷺ حتى نزل قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) [النساء : ٣٤] ، قاله الحسن البصري [١] .

قوله تعالى : (مِنْ قَبْلِ أن يُقضى إليكَ وَحيُه) وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، ويعقوب : « نَقْضِيَ » بالنون وكسر الضاد وفتح الياء « وَحيَه » بنصب الياء .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته تخاف نسيانه [٢] ، هذا على القول الأول .

والثاني : لا تُقرىء أصحابك حتى نبيّن لك معانيه ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : لا تسأل إنزاله قبل أن يأتيك الوحي ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وقل ربِّ زِدْنِي عِلْماً) فيه ثلاثة أقوال .

---

(١) « الطبري » : ٥/٥٨ وذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٠٩ وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) قال ابن كثير ٣/١٦٧ : وقوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) كقوله تعالى في سورة (لا أقسم بيوم القيامة) : (لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) قال : وثبت في « الصحيح » عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعني أنه عليه السلام ، كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ماهو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه ، فقال : (لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه) أي : أن نجمعه في صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ، ثم قال : وقال في هذه الآية : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) أي : بل أنصت ، فاذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده .

أحدها : زِدْني قرآناً [1]، قاله مقاتل . والثاني : فهماً . والثالث : حفظاً ، ذكرها الثعلبي .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ . فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ . قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ . وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

قوله تعالى : (ولقد عَهِدْنا إلى آدم) أي : أمرناه وأوصيناه أن لا يأكل من الشجرة (مِنْ قَبْلُ) أي : مِنْ قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدي وتركوا

---

(١) قال ابن كثير ٣/١٦٧ : قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل . وقال الآلوسي في « روح المعاني » : واستدل بالآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب زيادته .

الإيمان بي ، وهم الذين ذكرهم في قوله : (لعلَّهم يتَّقون)، والمعنى : أنهم إن نقضوا العهد ، فانَّ آدم قد عَهِدنا إليه (فَنَسِيَ) .

وفي هذا النسيان قولان .

أحدهما : أنه التَّرك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والمعنى : ترك ما أُمِر به .

والثاني : أنه من النسيان الذي يخالف الذِّكْر ، حكاه الماوردي .

وقرأ معاذ القارئ ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « فَنُسِّيَ » برفع النون وتشديد السين .

قوله تعالى : (ولم نَجِدْ له عَزْماً) العَزْمُ في اللغة : توطينُ النفس على الفعل .

وفي المعنى أربعة أقوال .

أحدها : لم نجد له حفظاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، والمعنى : لم يحفظ ما أُمِر به .

والثاني : صبراً ، قاله قتادة ، ومقاتل ، والمعنى : لم يصبر عمَّا نُهي عنه .

والثالث : حزماً ، قاله ابن السائب . قال ابن الأنباري : وهذا لايُخرج آدم من أُولي العزم ، وإنما لم يكن له عزم في الأكل فحسب .

والرابع : عزماً في العَوْد إلى الذَّنب ، ذكره الماوردي . وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [البقرة : ٣٤] إلى قوله تعالى : (فلا يخرجنَّكما من الجَنَّة فتشقى) قال المفسرون : المراد به نَصَب الدُّنيا وتعبها من تكلُّف الحرث والزرع والعجن والخبز وغير ذلك . قال سعيد بن جبير : أُهبط إلى آدم ثور أحمر ، فكان يحتمل عليه ويمسح العرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه . قال العلماء : والمعنى : فتشقيا ؛ وإنما لم يقل : فتشقيا ، لوجهين .

أحدهما : أن آدم هو المخاطَب ، فاكتفى به ، ومثله : (عن اليمين وعن الشمال قعيد) [ق : ١٧] ، قاله الفراء .

والثاني : أنه لما كان آدم هو الكاسب ، كان التعب في حقّه أكثر ، ذكره الماوردي.

قوله تعالى : (إن لكَ ألّا تجوع فيها ولا تَعْرى) قرأ أُبيّ بن كعب : « لا تُجاع ولا تُعرى » بالتاء المضمومة والألف . (وأنَّكَ لا تظمأُ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « وأَنَّكَ » مفتوحة الألف . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « وإِنَّكَ » بكسر الألف . قال أبو علي : من فتح ، حمله على أن لك أن لا تجوع ، وأن لك أن لا تظمأ ، ومن كسر ، استأنف .

قوله تعالى : (لا تَظْمَأُ فيها) أي : لا تعطش . يقال : ظمِئ الرجل ظَمأً ، فهو ظمآن ، أي : عطشان . ومعنى (لا تَضْحَى) لا تبرز للشمس فيصيبك حَرُّها ، لأنه ليس في الجنة شمس .

قوله تعالى : (هل أدُلُّكَ على شجرة الخُلْد) أي : على شجرةٍ مَنْ أكل منها لم يَمُتْ (ومُلْكٍ لا يَبْلَى) جديده ولا يفنى . وما بعد هذا مفسر في (الأعراف : ٢٢) .

وفي قوله تعالى : (فغوى) قولان .

أحدهما : ضلّ طريق الخلود حيث أراده من قِبَل المعصية .

والثاني : فسد عليه عيشه ، لأن معنى الغيّ : الفساد . قال ابن الأنباري : وقد غلط بعض المفسرين ، فقال : معنى « غوى » : أكثر مما أكل من الشجرة حتى بشم ، كما يقال : غوى الفصيل : إذا أكثر من لبن أمّه فبشم فكاد يهلك ، وهذا خطأٌ من وجهين .

أحدهما : أنه لايقال من البشم : غَوَى يَغْوِي ، وإنما يقال : غَوِيَ يَغْوَى .

والثاني : أن قوله تعالى : (فلما ذاقا الشجرة) [الأعراف:٢٢] يدل على أنهما لم يُكثرا ، ولم تتأخر عنهما العقوبة حتى يصلا إلى الإكثار . قال ابن قتيبة : فنحن نقول في حق آدم : عصى وغوى كما قال الله عز وجل ، ولا نقول : آدم عاصٍ وغاوٍ ، كما تقول لرجل قطع ثوبه وخاطه : قد قطعه وخاطه ، ولا تقول : هذا خياط ، حتى يكون معاوداً لذلك الفعل ، معروفاً به .

قوله تعالى : (ثم اجتباه ربُّه) قد بيَّنَّا الاجتباء في (الأنعام : ٨٧) . (فتاب عليه وهدى) أي : هداه للتوبة . (قال اهْبِطا) في المشار إليهما قولان .

أحدهما : آدم وإبليس ، قاله مقاتل .

والثاني : آدم وحواء ، قاله أبو سليمان الدمشقي . ومعنى قوله تعالى : (بعضكم لبعض عدوٌ) آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، والحية أيضاً [١] ؛ وقد شرحنا هذا في (البقرة : ٣٦) .

قوله تعالى : (فمن اتَّبَعَ هُدَايَ) أي : رسولي وكتابي (فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى) قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتَّبَع مافيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه سوء الحساب ، ولقد ضمن الله لمن اتَّبع القرآن أن لايَضِلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله تعالى : (ومن أعرض عن ذِكْري) قال عطاء : عن موعظتي . وقال ابن السائب : عن القرآن ولم يؤمن به ولم يتَّبعه .

قوله تعالى : (فانَّ له معيشةً ضَنْكاً) قال أبو عبيدة : معناه : معيشة ضيِّقة ، والضَّنك يوصَف به الأنثى والذكر بغير هاء ، وكل عيش أو مكان أو منزل ضيِّق ، فهو ضَنك ، وأنشد :

(١) انظر التعليق الذي في الصفحة ٦٧ من الجزء الأول .

وإنْ نَزَلُوا بِضَنْكٍ فانْزِلِ [(١)]

وقال الزجاج : الضَّنْك أصله في اللغة : الضيّق والشدّة .

وللمفسرين في المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال .

أحدها : أنها عذاب القبر ، روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون ماالمعيشة الضنك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده إنه ليسلَّط عليه تسعة وتسعون تِنّيناً ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة » [(٢)] . وممن ذهب إلى أنه عذاب القبر ابن مسعود ، وأبو سعيد الخدري ، والسدي .

والثاني : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : شِدَّة عيشه في النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . قال ابن السائب : وتلك المعيشة من الضريع والزقّوم .

والرابع : أن المعيشة الضَّنْك : كسب الحرام ، روى الضحاك عن ابن عباس قال : المعيشة الضَّنْك : أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها ، وله

---

(١) هذا جزء من عجز بيت لعنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، وهو في « مجاز القرآن » : ٣٢/٢ ، و « الطبري » : ٢٢٥/١٦ ، و « القرطبي » : ٢٥٨/١١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٣٨٨/١ ، والبيت بتمامه :

إن يُلْحَقوا أكْرُرْ وإن يُسْتَلْحَمُوا أَشْدُدْ وإن يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أنْزِلِ

وفي « اللسان » مادة « ضنك » : الضَّنْكُ : الضيّق من كل شيء ، الذكر والأنثى فيه سواء ، ومعيشة ضنْك : ضيّقة ، وفي التنزيل : « فان له معيشة ضَنْكاً » ، أي : غير حلال .

(٢) « الطبري » : ٢٢٨/١٦ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٧٤ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٣١١/٤ ، وهو حديث ضعيف ، وذكره ابن كثير : ١٦٩/٣ وقال : رفعه منكر جداً .

معيشة حرام يركض فيها . قال الضحاك : فهذه المعيشة هي الكسب الخبيث ، وبه قال عكرمة .

والخامس : أن المعيشة الضَّنْك : المال الذي لايتَّقي اللهَ صاحبُه فيه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

فخرج في مكان المعيشة ثلاثة أقوال .

أحدها : القبر . والثاني : الدنيا . والثالث : جهنم .

وفي قوله تعالى : (ونحشره يوم القيامة أعمى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « أعمى » « حشرتَني أعمى » بفتح الميمين . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بكسرهما . وقرأ نافع بين الكسر والفتح . ثم في هذا العمى للمفسرين قولان .

أحدهما : أعمى البصر ، روى أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا أُخرج من القبر خرج بصيراً ، فاذا سيق إلى المحشر عمي .

والثاني : أعمى عن الحُجَّة ، قاله مجاهد ، وأبو صالح . قال الزجاج : معناه : فلا حُجَّة له يهتدي بها ، لأنه ليس للناس على الله حُجَّة بعد الرسل .

قوله تعالى : (كذلك) أي: الأمر كذلك كما ترى (أتتكَ آياتنا فنسيتَها) أي : فتركتَها ولم تؤمن بها ؛ وكما تركتَها في الدنيا تُترَكُ اليوم في النار . (وكذلك) أي : وكما ذكرنا (نجزي من أسرف) أي : أشرك ،(ولعذاب الآخرة أشدُّ) من عذاب الدنيا ومن عذاب القبر (وأبقى) لأنه يدوم .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً . فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَائِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾

قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَهْدِ لهم) أي : أفلم يتبيَّن لكفار مكة إذا نظروا آثار مَنْ أهلكنا مِنَ الأمم ؛ وكانت قريش تتَّجر وترى مساكن عاد وثمود وفيها علامات الهلاك ، فذلك قوله تعالى : (يمشون في مساكنهم) . وروى زيد عن يعقوب : « أفلم نَهْدِ » بالنون .

قوله تعالى : (ولولا كلمة سبقتْ من ربِّك) في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة ، وقيل : إلى يوم بدر ، وقيل : إلى انقضاء آجالهم (لكان لزاماً) أي : لكان العذاب لزاماً ، أي : لازماً لهم . واللِّزام : مصدر وُصف به العذاب . قال الفراء وابن قتيبة : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ولولا كلمة وأجَل مسمّىً لكان لزاماً .

قوله تعالى : (فاصبر على مايقولون) أمر الله تعالى نبيَّه بالصبر على مايسمع من أذاهم إلى أن يحكم الله فيهم ، ثم حكم فيهم بالقتل ، ونسخ بآية السيف إطلاق الصَّبر .

قوله تعالى : (وسبِّح بحمد ربِّك) أي : صلِّ له بالحمد له والثناء عليه (قبل طلوع الشمس) : يريد الفجر (وقبل غروبها) يعني : العصر (ومن آناء الليل) الآناء : الساعات ، وقد بيَّنَّاها في (آل عمران : ١١٣) ، (فسبِّح) أي : فصلِّ .

وفي المراد بهذه الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : المغرب والعشاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : جوف الليل ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : العشاء ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والرابع : أول الليل وأوسطه وآخره ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وأطرافَ النهار) المعنى : وسبِّح أطرافَ النهار . قال الفراء : إنما هما طرَفان ، فخرجا مخرج الجمع ، كقوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما) [التحريم : ٤] .

وللمفسرين في المراد بهذه الصلاة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الظُّهر ، قاله قتادة ؛ فعلى هذا ، إنما قيل لصلاة الظهر : أطراف النهار ، لأن وقتها عند الزوال ، فهو طرَف النِّصف الأول وطرف النِّصف الثاني .

والثاني : أنها صلاة المغرب وصلاة الصبح ، قاله ابن زيد ؛ وهذا على أن الفجر في ابتداء الطَّرف الأول ، والمغرب في انتهاء الطَّرف الثاني .

والثالث : أنها الفجر والظهر والعصر ؛ فعلى هذا يكون الفجر من الطرف الأول ، والظهر والعصر من الطرف الثاني ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : (لعلَّك تَرْضَى) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : « ترضى » بفتح التاء . وقرأ الكسائي ، وأبو بكر عن عاصم بضمها . فمن فتح ، فالمعنى : لعلَّك ترضى ثواب الله الذي يُعطيك . ومَنْ ضمَّها ، ففيه وجهان .

أحدها : لعلَّكَ تُرضى بما تُعطى . والثاني : لعلَّ الله أن يرضاك .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

قوله تعالى : (ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ) سبب نزولها ، ماروى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، قال : نزل ضيف برسول الله ﷺ ، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً ، فقال : قل له : إن رسول الله ﷺ يقول : « بعني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب » ، فأتيته فقلت له ذلك ، فقال اليهودي : والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « والله لو باعني أو أسلفني لقضيته ، وإني لأمين في السماء أمين في الأرض ، اذهب بدرعي الحديد إليه » ، فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا [١] . قال أُبيّ بن كعب : من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطّعت نفسه حسراتٍ على الدنيا . وقد مضى تفسير هذه الآية في آخر (الحجر : ٨٨) .

قوله تعالى : (زهرةَ الحياة الدنيا) وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، والزهري ، ويعقوب : « زَهَرة » بفتح الهاء . قال الزجاج : وهو منصوب بمعنى « متَّعنا » ، لأن معنى « متَّعنا » : جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ، (لنفتنهم فيه) أي : لنجعل ذلك فتنة لهم . وقال ابن قتيبة : لنختبرهم . قال المفسرون : زهرة الدنيا : بهجتها وغضارتها وما يروق الناظر منها عند رؤيته ، وهو من زهرة النبات وحسنه .

قوله تعالى : (ورزق ربِّك خير وأبقى) فيه قولان .

أحدهما : أنه ثوابه في الآخرة . والثاني : القناعة .

قوله تعالى : (وأْمُرْ أهلكَ بالصلاة) قال المفسرون : المراد بأهله : قومه ومن كان على دينه ، ويدخل في هذا أهل بيته .

قوله تعالى : (واصطبر عليها) أي : واصبر على الصلاة (لا نسألكَ رزقاً)

---

(١) « الطبري » : ١٦/٢٣٥ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٤/٣١٢ وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وابن راهويه ، والبزار ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » ، وأبي نعيم في « المعرفه » عن أبي رافع .

أي : لا نكلّفك رزقاً لنفسك ولا لخلقنا ، إنما نأمرك بالعبادة ورزقُكَ علينا ، (والعاقبةُ للتقوى) أي : وحُسن العاقبة لأهل التقوى . وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهلَه خصاصةٌ قال : قوموا فصلّوا ، ثم يقول : بهذا أمر الله تعالى ورسوله ، ويتلو هذه الآية .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ . قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا) يعني : المشركين (لولا) أي : هلاّ (يأتينا) محمد (بآية من ربّه) أي : كآيات الأنبياء ، نحو الناقة والعصا ، (أولم يأتهم) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « تأتهم » بالتاء . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يأتهم » بالياء .

قوله تعالى : (بيّنة ما في الصحف الأولى) أي : أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب من أخبار الأمم التي أهلكناها لمّا سألوا الآيات ثم كفروا بها ، فما يؤمّنهم أن تكون حالُهم في سؤال الآيات كحال أولئك؟! (ولو أنّا أهلكناهم) يعني : مشركي مكة (بعذاب من قبله) في الهاء قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ، قاله مقاتل . والثاني : إلى الرسول ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (لقالوا) يوم القيامة (ربّنا لولا) أي : هلاّ (أرسلتَ إلينا رسولاً) يدعونا إلى طاعتك (فنتّبع آياتك) أي : نعمل بمقتضاها (من قبل أن نَذِلّ)

بالعذاب (ونَخْزَى) في جهنم . وقرأ ابن عباس ، وابن السميفع ، وأبو حاتم عن يعقوب : « نُذَلَّ » « ونُخْزَى » برفع النون فيهما ، وفتح الذال . (قل) لهم يامحمد : (كُلٌّ) منا ومنكم (متربِّص) أي : نحن نتربَّص بكم العذاب في الدنيا ، وأنتم تتربصون بنا الدوائر (فتربَّصوا) أي : فانتظروا (فستعلمون) إذا جاء أمر الله (مَنْ أصحابُ الصِّراط السَّويِّ) أي : الدِّين المستقيم (ومَنِ اهتدى) من الضلالة ، أنحن ، أم أنتم ؟ وقيل : هذه منسوخة بآية السيف ، وليس بشيء .

★ ★ ★

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ . مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ . لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وهي مكية بإجماعهم من غير خلاف نعلمه .

قوله عز وجل : (اقترب) افتعل ، من القُرْب ، يقال : قَرُبَ الشيء ،

واقترب . وهذه الآية نزلت في كفار مكة . وقال الزجاج : اقترب للناس وقت حسابهم . وقيل : اللام في قوله : (للناس) بمعنى : « مِنْ » . والمراد بالحساب : محاسبة الله لهم على أعمالهم .

وفي معنى قُرْبِهِ قولان .

أحدهما : أنه آتٍ ، وكلُّ آتٍ قريبٌ .

والثاني : لأن الزمان - لِكثرة ما مضى وقِلّة ما بقي - قريبٌ .

قوله تعالى : (وهُمْ في غفلة) أي : عمَّا يفعل الله بهم ذلك اليوم (معرضون) عن التأهُّب له . وقيل : « اقترب للناس » عامٌّ ، والغفلة والإعراض خاص في الكفار ، بدلالة قوله تعالى : (ما يأتيهم من ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ) ، وفي هذا الذِّكْر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا تكون الإشارة بقوله : « مُحْدَثٍ » إلى إنزاله له ، لأنه أُنْزِل شيئاً بعد شيء .

والثاني : أنه ذِكْرٌ من الأذكار ، وليس بالقرآن ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . وقال النقاش : هو ذِكْر من رسول الله ، وليس بالقرآن .

والثالث : أنه رسول الله ، بدليل قوله في سياق الآية : (هل هذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم) ، قاله الحسن بن الفضل .

قوله تعالى : (إلا استَمَعُوه وهم يلعبون) قال ابن عباس : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : (لاهيةً قلوبُهم) أي : غافلةً عما يُراد بهم . قال الزجاج : المعنى : إلا استمعوه لاعبين لاهيةً قلوبهم ؛ ويجوز أن يكون منصوباً بقوله :

« يلعبون » . وقرأ عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : « لاهيةٌ » بالرفع .

قوله تعالى : (وأسرُّوا النَّجوى) أي : تناجَوا فيما بينهم ، يعني المشركين . ثم بيَّن مَنْ هم فقال : (الذين ظَلَمُوا) أي : أشرَكوا بالله . و « الذين » في موضع رفع على البدل من الضمير في « وأسَرُّوا » . ثم بيَّن سِرَّهم الذي تناجَوْا به فقال : (هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم) أي : آدميٌّ ، فليس بملك ؛ وهذا إنكار لنبوَّته . وبعضهم يقول : « أسرُّوا » هاهنا بمعنى : أظهروا ، لأنه من الأضداد .

قوله تعالى : (أفتأتون السِّحر) أي : أفتقبلون السِّحر (وأنتم تعلمون) أنه سِحْر ؟! يعنون أن متابعة محمد ﷺ متابعةُ السِّحر . (قُل ربِّي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « قل ربي » . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « قال ربِّي » ، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين ، وهذا على الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : يعلم القول ، أي : لا يخفى عليه شيء يقال في السماء والأرض ، فهو عالم بما أسررتم . (بل قالوا) ، قال الفراء : رَدَّ بـ « بل » على معنى تكذيبهم ، وإن لم يظهر قبله الكلام بجحودهم ، لأن معناه الإخبار عن الجاحدين ، وأعلَمَ أن المشركين كانوا قد تحيَّروا في أمر رسول الله ﷺ ، فاختلفت أقوالهم فيه ، فبعضهم يقول : هذا الذي يأتي به سِحْر ، وبعضهم يقول : أضغاث أحلام ، وهي الأشياء المختلطة تُرى في المنام ؛ وقد شرحناها في (يوسف : ٤٤) ، وبعضهم يقول : افتراه ، أي : اختلقه ، وبعضهم يقول : هو شاعر فليأتنا بآية كالناقة والعصا ، فاقترحوا الآيات التي لا إمهال بعدها .

قوله تعالى : (ما آمنتْ قبلَهم) يعني : مشركي مكة (مِنْ قرية) وصف القرية ، والمراد أهلها ، والمعنى : أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات ، لم يؤمنوا

بالآيات لمَّا أتتهم ، فكيف يؤمن هؤلاء ؟! وهذه إشارة إلى أن الآية لاتكون سبباً للإيمان ، إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً) هذا جواب قولهم : « هل هذا إلّا بَشَر مِثْلُكم » .

قوله تعالى : (نُوحي إليهم) قرأ الأكثرون : « يوحَى » بالياء . وروى حفص عن عاصم : « نُوحي » بالنون . وقد شرحنا هذه الآية في (النحل : ٤٣) .

قوله تعالى : (وما جعلناهم) يعني الرسل (جَسَداً) قال الفراء : لم يقل : أجساداً ، لأنه اسم الجنس . قال مجاهد : وما جعلناهم جسداً ليس فيهم روح . قال ابن قتيبة : ماجعلنا الأنبياء قبله أجساداً لاتأكل الطعام ولا تموت فنجعله كذلك . قال المبرد وثعلب جميعاً : العرب إذا جاءت بين الكلام بجحدين ، كان الكلام إخباراً ، فمعنى الآية : إنما جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام . قال قتادة : المعنى : وما جعلناهم جسداً إلّا ليأكلوا الطعام .

قوله تعالى : (ثم صَدَقْناهم الوعدَ) يعني : الأنبياء أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك مكذِّبيهم (فأنجيناهم ومَنْ نشاء) وهم الذين صدَّقوهم (وأهلكنا المُسْرِفين) يعني : أهل الشِّرك ؛ وهذا تخويف لأهل مكة . ثم ذكر منَّته عليهم بالقرآن فقال : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكم) ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فيه شرفكم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فيه دِينكم ، قاله الحسن ، يعني : فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم .

والثالث : فيه تذكرة لكم لِما تلقَونه من رَجعة أو عذاب ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أفلا تعقلون) مافضَّلْتُكم به على غيركم .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَاتَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾

ثم خوّفهم فقال : (وكم قصمنا) قال المفسرون واللغويون : معناه : وكم أهلكنا ، وأصل القصم : الكسر . وقوله : (كانت ظالمة)، أي : كافرة ، والمراد: أهلها . (فلما أحسّوا بأسنا) أي : رأوا عذابنا بحاسّة البصر (إذا هم منها يَرْكُضون) أي: يَعْدُون ، وأصل الرّكْض : تحريكُ الرّجلين، يقال: رَكَضْتُ الفرَس : إذا أعْدَيته بتحريك رِجليكَ فعدا .

قوله تعالى : (لاتَرْكُضوا) قال المفسرون : هذا قول الملائكة لهم : (وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه)، أي : إلى نعمكم التي أترفتكم ، وهذا توبيخ لهم.

وفي قوله : (لعلكم تُسأَلون) قولان.

أحدهما : تُسأَلون من دنياكم شيئاً ، استهزاءً بهم، قاله قتادة .

والثاني : تُسأَلون عن قتل نبيّكم ، قاله ابن السائب . فلما أيقنوا بالعذاب (قالوا ياويلنا إنّا كنّا ظالمين) بكفرنا ، وقيل : بتكذيب نبيّنا . (فما زالت تلك دعواهم) ، أي : ما زالت تلك الكلمة التي هي « ياويلنا إنّا كنّا ظالمين » قولهم يردّدونها (حتى جعلناهم حصيداً) بالعذاب ، وقيل : بالسيوف (خامدين)، أي : ميتين كخمود النار إذا طُفِئَتْ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ

بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَايَفْتُرُونَ . أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أي : لم نخلق ذلك عبثاً ، إنما خلقناها دلالة على قدرتنا ووحدانيَّتنا ليعتبر الناس بخَلْقه ، فيعلموا أن العبادة لاتصلح إلا لخالقه ، لنجازيَ أولياءنا ، ونعذِّبَ أعداءنا .

قوله تعالى : (لو أردنا أن نتَّخذ لهواً) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن المشركين لما قالوا : الملائكة بنات الله والآلهة بناته ، نزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن نصارى نجران قالوا : إن عيسى ابن الله ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

وفي المراد باللهو ثلاثة أقوال .

أحدها : الولد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال السدي . قال الزجاج : المعنى : لو أردنا أن نتخذ ولداً ذا لهوٍ نُلْهَى به .

والثاني : المرأة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثالث : اللعب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (لاتـَّخذناه من لـَدُنـَّا) قال ابن جريج : لا تـَّخذنا نساءً أو ولداً من أهل السماء ، لا من أهل الأرض . قال ابن قتيبة : وأصل اللهو : الجماع ، فكُنِّي عنه باللهو ، كما كُنِّيَ عنه بالسِّرِّ ، والمعنى : لو فعلنا ذلك لاتـَّخذناه من عندنا ، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده ، لا عند غيره .

وفي قوله : (إنْ كنا فاعلين) قولان .

أحدهما : أن « إنْ » بمعنى « ما » ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

والثاني : أنها بمعنى الشرط . قال الزجاج : والمعنى : إن كنا نفعل ذلك ، ولسنا ممن يفعله ؛ قال : والقول الأول قول المفسرين ، والثاني قول النحويين ، وهم يستجيدون القول الأول أيضاً ، لأن « إنْ » تكون في موضع النفي ، إلا أنَّ أكثر ما تأتي مع اللام ، تقول : إن كنت لـَصالحاً ، معناه : ما كنت إلاَّ صالحاً .

قوله تعالى : (بل) أي : دع ذاك الذي قالوا ، فانه باطل (نقذف بالحق) أي : نسلـِّط الحق وهو القرآن (على الباطل) وهو كذبهم (فيَدْمَغُهُ) قال ابن قتيبة : أي : يكسره ، وأصل هذا إصابة الدماغ بالضرب ، وهو مقتل (فاذا هو زاهق) أي : زائل ذاهب . قال المفسرون : والمعنى : إنا نبطل كذبهم بما نبيِّن من الحق حتى يضمحلَّ ، (ولكم الويل ممـَّا تَصِفُون) أي : من وصفكم الله بما لا يجوز (وله من في السموات والأرض) يعني : هم عبيده ومُلـْكه (ومَنْ عنده) يعني : الملائكة .

وفي قوله : (ولا يَسْتَحْسِرُون) ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يرجعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : لا ينقطعون ، قاله مجاهد . وقال ابن قتيبة : لايعيَون ، والحَسِر : المنقطع الواقف إعياءً وكلالاً .

والثالث : لا يملّون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (لا يَفْتُرون) قال قتادة : لايسأَمون . وسئل كعب : أما يَشْغَلُهم شأن ؟ أما تَشْغَلُهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي ، جُعل لهم التسبيحُ كما جُعل لكم النَّفَسُ ، ألستَ تأكل وتشرب وتقوم وتجلس وتجيء وتذهب وتتكلم وأنت تتنفس ؟ ! فكذلك جُعل لهم التسبيح . ثم إن الله تعالى عاد إلى توبيخ المشركين فقال : (أم اتَّخَذوا آلهة من الأرض) لأن أصنامهم من الأرض هي ، سواء كانت من ذهب أو فضة أو خشب أو حجارة (هُمْ) يعني : الآلهة (يُنْشِرون) أي : يُحْيُون الموتى . وقرأ الحسن : « يَنشُرون » بفتح الياء وضم الشين . وهذا استفهام بمعنى الجحد ، والمعنى : ما اتخذوا آلهة تَنْشُر ميتاً . (لو كان فيهما) يعني : السماء والأرض (آلهةٌ) يعني : معبودين (إلا الله) قال الفراء : سوى الله . وقال الزجاج : غير الله .

قوله تعالى : (لفَسَدَتَا) أي : لخربتا وبطلتا وهلك مَن فيهما ، لوجود التمانع بين الآلهة ، فلا يجري أمر العالَم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يَسْلَم من الخلاف .

قوله تعالى : (لا يُسأَل عمَّا يَفْعَل) أي : عمَّا يَحْكُم في عباده من هدي وإضلال ، وإعزاز وإذلال ، لأنه المالك للخلق ، والخلق يُسأَلون عن أعمالهم ؛ لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم . ولمَّا أبطل عز وجل أن يكون إله سواه من حيث العقل بقوله : (لفسدتا) ، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال : (أم اتَّخَذوا من دونه آلهة) وهذا استفهام إنكار وتوبيخ (قل

هاتوا برهانكم) على ما تقولون ، (هذا ذِكْر مَنْ معي) يعني : القرآن خبر مَن معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة بمالهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذِكْر مَنْ قبلي) يعني : الكتب المنزلة ، والمعنى : هذا القرآن، وهذه الكتب التي أُنزلت قبله ، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إِلّه سواه؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به . قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أُمَّته بأن لهم إلهاً غير الله ! .

قوله تعالى : (بل أكثرهم) يعني : كفار مكة (لا يعلمون الحقَّ) وفيه قولان .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن عباس . والثاني : التوحيد ، قاله مقاتل (فهم مُعْرِضُون) عن التفكُّر والتأمُّل وما يجب عليهم من الإيمان .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ . وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (مِنْ رسولٍ إلا يوحَى) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « إلا نوحي » بالنون ؛ والباقون بالياء .

قوله تعالى : (وقالوا اتَّخذ الرحمن ولداً) في القائلين لهذا قولان .

أحدها : أنهم مشركو قريش ، قاله ابن عباس . وقال ابن إسحاق : القائل لهذا النضر بن الحارث .

والثاني : أنهم اليهود، قالوا : إن الله صاهر الجن فكانت منهم الملائكة، قاله

قتادة . فعلى القولين ، المراد بالولد : الملائكة ، وكذلك المراد بقوله : (بل عباد مُكْرَمون) ، والمعنى : بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم ، (لايسبقونه بالقول) ، أي : لايتكلّمون إلا بما يأمرهم به . وقال ابن قتيبة : لايقولون حتى يقول ، ثم يقولون عنه ، ولا يعملون حتى يأمرهم .

قوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم) أي : ما قدّموا من الأعمال (وماخَلْفَهم) ما هم عاملون ، (ولا يشفعون) يوم القيامة ، وقيل : لا يستغفرون في الدنيا (إلا لِمَن ارتضى) أي : لِمَن رضي عنه ، (وهم مِنْ خشيته) أي : من خشيتهم منه ، فأضيف المصدر إلى المفعول ، (مُشْفِقون) أي : خائفون . وقال الحسن : يرتعدون . (ومَنْ يَقُل منهم) أي : من الملائكة . قال الضحاك في آخرين : هذه خاصة لإبليس ، لم يَدْعُ أحد من الملائكة إلى عبادة نفسه سواه ؛ قال أبو سليمان الدمشقي : وهذا قول من قال : إنه من الملائكة ، فان إبليس قال ذلك للملائكة الذين هبطوا معه إلى الأرض ، ومن قال : إنه ليس من الملائكة [1] ، قال : هذا على وجه التهديد ، وما قال أحد من الملائكة ذلك .

﴿ أوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفَلاَ يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(١) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ، وقال رسول الله ﷺ - كما في « صحيح مسلم » - « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، وقال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر .

قوله تعالى : (أولم ير الذين كفروا) أي : أولم يعلموا . وقرأ ابن كثير : « ألم ير الذين كفروا » بغير واو بين الألف واللام ، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة ، (أنَّ السموات والأرض كانتا رَتْقاً ففتقناهما) قال أبو عبيدة : السموات جمع ، والأرض واحدة ، فخرجت صفة لفظ الجمع على لفظ صفة الواحد والعرب تفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد ؛ والرَّتْق مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث سواء ، ومعنى الرَّتق : الذي ليس فيه ثقب . قال الزجاج : المعنى : كانتا ذواتَي رَتْق ، فجعلهما ذوات فتق ، وإنما لم يقل : « رَتْقَيْنِ » لأن الرَّتق مصدر .

وللمفسرين في المراد به ثلاثة أقوال .

أحدها : أن السموات كانت رَتْقاً لا تُمْطِر ، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنْبِت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات ، رواه عبد الله بن دينار عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وعكرمة ، ومجاهد في رواية ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتقهما الله تعالى ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

والثالث : أنَّه فَتَق من الأرض ست أرضين فصارت سبعاً ، ومن السماء ست سموات فصارت سبعاً ، رواه السدي عن أشياخه ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

قوله تعالى : (وجَعَلْنَا من الماء كلَّ شيء حيٍّ) وقرأ معاذ القارىء ، وابن أبي عبلة ، وحميد بن قيس : « كلَّ شيء حيّاً » بالنصب .

وفي هذا الماء قولان .

أحدهما : أنه الماء المعروف ، والمعنى : جعلنا الماء سبباً لحياة كل حيٍّ ، قاله الأكثرون . والثاني : أنه النُّطفة ، قاله أبو العالية .

قوله تعالى : (وجعلنا في الأرض رواسي) قد فسرناه في (النحل : ١٥) .

قوله تعالى : (وجعلنا فيها) أي : في الرواسي (فِجَاجاً) ، قال أبو عبيدة : هي المسالك . قال الزجاج : الفِجَاج جمع فَجّ ، وهو كل منخَرق بين جبلين ، ومعنى (سُبُلاً) طرقاً . قال ابن عباس : جعلنا من الجبال طُرُقاً كي تهتدوا إلى مقاصدكم في الأسفار . قال المفسرون : وقوله : « سبلاً » تفسير للفِجَاج، وبيان أن تلك الفِجَاج نافذة مسلوكة ، فقد يكون الفَجّ غير نافذ . (وجعلنا السماء سقفاً) أي : هي للأرض كالسقف .

وفي معنى (محفوظاً) قولان .

أحدهما : بالنجوم من الشياطين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : محفوظاً من الوقوع إلا باذن الله ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وهُمْ) يعني : كفار مكة (عن آياتها) أي : شمسها وقمرها ونجومها ، قال الفراء : وقرأ مجاهد : « عن آيتها » فوحَّده ، فجعل السماء بما فيها آية ؛ وكلٌّ صوابٌ .

قوله تعالى : (كلٌّ) يعني : الطوالع (في فَلَك) قال ابن قتيبة : الفَلَك: مدار النجوم الذي يضمُّها ، وسمَّاه فَلَكاً ، لاستدارته . ومنه قيل : فَلْكَة المِغْزَل ، وقد فَلَكَ ثَدْيُ المرأة . قال أبو سليمان : وقيل : إن الفَلَك ـ كهيئة الساقية من ماء ـ مستديرة دون السماء وتحت الأرض ، فالأرض وسطها ، والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار يجرون في الفَلَك ، وليس الفَلَك يُديرها . ومعنى « يَسْبَحون » : يَجْرُون . قال الفراء : لمَّا كانت السِّباحة من أفعال الآدميين ، ذُكِرَتْ بالنون ، كقوله : (رأيتُهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] ، لأن السجود من أفعال الآدميين .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما جعلنا لِبَشَرٍ مِنْ قبلك الخُلْدَ) سبب نزولها أن ناساً قالوا : إن محمداً لا يموت ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . ومعنى الآية : ماخلَّدنا قبلكَ أحداً من بني آدم ؛ والخُلْد : البقاء الدائم . (أفان مِتَّ فَهُمُ الخـالدون) يعني : مشركي مكة ، لأنهم قالوا : (نتربَّص به ريب المنون) [الطور : ٣٠] .

قوله تعالى : (ونبلُوكم بالشرِّ والخير) قال ابن زيد : نختبركم بما تحبُّون لننظر كيف شكركم ، وبما تكرهون لننظر كيف صبركم .

قوله تعالى : (وإلينا يُرْجَعون) [قرأ ابن عامر : « تَرجعون » بتاء مفتوحة . وروى ابن عباس عن أبي عمرو : « يُرجعون »] بياء مضمومة . وقرأ الباقون بتاء مضمومة .

قوله تعالى : (وإذا رآكَ الذين كَفَروا) قال ابن عباس : يعني المستهزئين ، وقال السدي : نزلت في أبي جهل ، مَرَّ به رسول الله ، فضحك وقال : هذا نَبيُّ بني عبد مناف . و « إن » بمعنى « ما » ومعنى (هُزُواً) مهزوءاً به (أهذا الذي يَذْكُر آلهتكم) أي : يعيب أصنامكم ، وفيه إضمار « يقولون » ، (وهم بِذِكْر الرحمن هم كافرون) وذلك أنهم قالوا : مانعرف الرحمن ، فكفروا بالرحمن .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

قوله تعالى : (خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ) وقرأ أبو رزين العُقيلي، ومجاهد، والضحاك : « خَلَقَ الإنسانَ » بفتح الخاء واللام ونصب النون . وهذه الآية نزلت حين استعجلت قريش بالعذاب.

وفي المراد بالإنسان هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : النضر بن الحارث ، وهو الذي قال : (اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك ...) الآية [الانفال : ٣٢] ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : آدم عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي في آخرين .

والثالث : أنه اسم جنس ، قاله علي بن أحمد النيسابوري ؛ فعلى هذا يدخل النضر بن الحارث وغيره في هذا وإن كانت الآية نزلت فيه .

فأمّا من قال : أُرِيدَ به آدم ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدها : أنه خُلق عجولاً ، قاله الأكثرون . فعلى هذا يقول : لما طُبع آدم على هذا المعنى ، وُجد في أولاده ، وأورثهم العَجَل .

والثاني : خُلق بعَجَل ، استَعجل بخَلْقه قبل غروب الشمس من يوم الجمعة ، وهو آخر الأيام الستة ، قاله مجاهد .

فأما من قال : هو اسم جنس ، ففي معنى الكلام قولان .

أحدها : خُلِق عَجُولاً ؛ قال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ،

والعرب تقول الذي يكثر منه اللعب : إنما خُلقتَ من لَعِب ، يريدون المبالغة في وصفه بذلك .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والمعنى : خُلقتِ العجلة في الإنسان ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (سأُريكم آياتي) فيه قولان .

أحدهما : ما أصاب الأُمم المتقدّمة ؛ والمعنى : إنكم تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنها القتل ببدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فلا تستعجلون) أثبت الياء في الحالين يعقوب .

قوله تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد) يعنون : القيامة . (لو يعلم الذين كفروا) جوابه محذوف ، والمعنى : لو علموا صدق الوعد ما استعجلوا ، (حين لايكفّون) أي : لايدفعون (عن وجوههم النار) إذا دخلوا (ولا عن ظهورهم) لإحاطتها بهم (ولا هم يُنصَرون) أي : يُمنَعون مما نزل بهم ، (بل تأتيهم) يعني : الساعة (بغتةً) فجأةً (فتَبْهَتُهم) تحيّرهم ؛ وقد شرحنا هذا عند قوله : (فبُهت الذي كفر) [البقرة : ٢٥٨] ، (فلا يستطيعون ردّها) أي : صرفها عنهم ، ولا هم يُمْهَلون لتوبة أو معذرة . ثم عزّى نبيّه ، فقال : (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي : كما فعل بك قومك (فحاق) أي نزل (بالذين سَخِروا منهم) أي : من الرسل (ما كانوا به يستهزؤون) يعني : العذاب الذي كانوا استهزؤوا به .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ . أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ . بَلْ مَتَّعْنَا

هؤُلاَءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ . قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَايُنْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل من يكلؤكم) المعنى : قل لهؤلاء المستعجلين بالعذاب : من يحفظكم من بأس الرحمن إن أراد إنزاله بكم ؟ ! وهذا استفهام إنكار ، أي : لا أحد يفعل ذلك ، (بل هم عن ذِكْر ربهم) أي : عن كلامه ومواعظه (مُعْرِضون) لايتفكَّرون ولا يعتبرون . (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) فيه تقديم وتأخير ، وتقديره : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ؟ وهاهنا تم الكلام . ثم وصف آلهتهم بالضعف ، فقال : (لايستطيعون نصر أنفسهم) والمعنى : من لايقدر على نصر نفسه عمّا يُراد به ، فكيف ينصُر غيره ؟ !

قوله تعالى : (ولا هم) في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، وهو قول ابن عباس . والثاني : أنهم الأصنام ، قاله قتادة .

وفي معنى (يُصْحَبُونَ) أربعة أقوال .

أحدها : يُجارُون ، رواه العوفي عن ابن عباس . قال ابن قتيبة : والمعنى : لايجيرهم منّا أحدٌ ، لأن المجير صاحب لجاره . والثاني : يُمنعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : يُنصرون ، قاله مجاهد . والرابع : لايُصحبون بخير ، قاله قتادة .

ثم بيَّن اغترارهم بالإمهال ، فقال : (بل متَّعنا هؤلاء وآباءهم) يعني أهل مكة (حتى طال عليهم العُمُر) فاغترُّوا بذلك ، (أفلا يرون أنّا نأتي الأرض نَنْقُصُها

من أطرافها) قد شرحناه في (الرعد : ٤١)، (أفَهُمُ الغالبون) أي : مع هذه الحال ، وهو نقص الأرض ، والمعنى : ليسوا بغالبين ، ولكنَّهم المغلوبون . (قل إنما أُنذِرُكم) أي : أُخَوِّفكم (بالوحي) أي : بالقرآن ، والمعنى : إنني ماجئتُ به من تلقاء نفسي ، إنما أُمِرْتُ فبلَّغتُ ، (ولا يَسمع الصُّمُّ الدُّعاءَ) وقرأ ابن عامر : « ولا تُسْمِعُ » بالتاء مضمومة « الصُّمَّ » نصباً . وقرأ ابن يعمر ، والحسن : « ولا يُسْمَعُ » بضم الياء وفتح الميم « الصُّمُّ » بضم الميم . شبَّه الكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعون نداء مناديهم ؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا، كالصُّمِّ لا يفيدهم صوت مناديهم . (ولئن مسَّتهم) أي : أصابتهم (نَفْحَةٌ) قال ابن عباس : طرف . وقال الزجاج : المراد أدنى شيء من العذاب ، (ليقولُنَّ ياويلنا) والويل ينادي به كلُّ من وقع في هلكة .

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

قوله تعالى : (ونضعُ الموازينَ القِسْطَ) قال الزجاج : المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، والقسط : العدل ، وهو مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازين قسط . قال الفراء : القسط من صفة الموازين وإن كان موحَّداً ، كما تقول : أنتم عدل ، وأنتم رضىً . وقوله : (ليوم القيامة) و « في يوم القيامة » سواء . وقد ذكرنا الكلام في الميزان في أول (الأعراف : ٨) .

فان قيل : إذا كان الميزان واحداً ، فما المعنى بذكر الموازين ؟

فالجواب : أنه لما كانت أعمال الخلائق توزن وزنةً بعد وزنة ، سمِّيت موازين .

قوله تعالى : (فلا تُظْلَم نفس شيئاً) أي : لا يُنْقَص محسن من إحسانه ، ولا يُزاد مسيء على إساءته (وإن كان مثقالَ حبَّة) أي : وزن حبة . وقرأ نافع : « مثقالُ » برفع اللام . قال الزجاج : ونصب « مثقالَ » على معنى : وإن كان العمل مثقال حبة . وقال أبو علي الفارسي : وإن كان الظُّلامة مثقال حبة ، لقوله تعالى : « فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً » . قال : ومن رفع ، أسند الفعل إلى المثقال ، كما أُسند في قوله تعالى : (وإن كان ذو عُسْرة) [البقرة : ٢٨٠] .

قوله تعالى : (أتينا بها) أي : جئنا بها . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد : « آتينا » ممدودة ، أي : جازينا بها .

قوله تعالى : (وكفى بنا حاسبين) قال الزجاج : هو منصوب على وجهين ، أحدهما : التمييز ، والثاني : الحال .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ . وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه التوراة التي فرَّق بها بين الحلال والحرام ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : البرهان الذي فرق به بين حق موسى وباطل فرعون ، قاله ابن زيد .

والثالث : النصر والنجاة لموسى ، وإهلاك فرعون ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وضياءً) روى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يرى الواو زائدة ؛ قال الزجاج : وكذلك قال بعض النحويين أن المعنى : الفرقان ضياء ، وعند

البصريين : أن الواو لاتُزاد ولا تأتي إلا بمعنى العطف ، فهي هاهنا مثل قوله تعالى : (فيها هدىً ونورٌ) [المائدة : ٤٤] . قال المفسرون : والمعنى أنهم استضاؤوا بالتوراة حتى اهتدَوا بها في دينهم . ومعنى قوله تعالى : (وذِكْراً للمتَّقين) أنهم يذكرونه ويعملون بما فيه . (الذين يخشون ربَّهم بالغيب) فيه أربعة أقوال .

أحدها : يخافونه ولم يروه ، قاله الجمهور . والثاني : يخشون عذابه ولم يروه ، قاله مقاتل . والثالث : يخافونه من حيث لا يراهم أحد ، قاله الزجاج . والرابع : يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم إذا كانوا بين الناس ، قاله أبو سليمان الدمشقي . ثم عاد إلى ذِكْر القرآن ، فقال : (وهذا) يعني : القرآن (ذِكْرٌ) لمن تذكَّر به ، وعظة لمن اتَّعظ (مباركٌ) أي : كثير الخير (أفأنتم) يا أهل مكة (له مُنْكِرون) أي : جاحدون ؟ ! وهذا استفهام توبيخ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ) أي : هُداه (مِنْ قَبْلُ) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من قبل بلوغه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : آتيناه ذلك في العِلْم السابق ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : مِنْ قَبْل موسى وهارون ، قاله الضحاك . وقد أشرنا إلى قصة إبراهيم في (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وكُنَّا به عالِمين) أي : علمنا أنه موضع لإيتاء الرُّشد . ثم بيَّن متى آتاه فقال : (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل) يعني : الأصنام . والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبَّهاً بِخَلْق من خَلْق الله تعالى ، وأصله من مثَّلت الشيء بالشيء : إذا شبَّهته به . وقوله : (التي أنتم لها) أي : على عبادتها (عاكفون) أي : مقيمون ، فأجابوه أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فاقتدَوا بهم ، فأجابهم بأنهم فيما فعلوا وآباءهم في ضلال مبين ، (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يعنون : أجادٌّ أنتَ ، أم لاعب ؟!

قوله تعالى : (لأكيدنَّ أصنامكم) الكيد : احتيال الكائد في ضرّ المكيد . والمفسرون يقولون : لأكيدنها بالكسر (بعد أن تُوَلُّوا) أي : تذهبوا عنها ، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إليه ولا يخلِّفون بالمدينة أحداً ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجتَ معنا إلى عيدنا أعجبكَ دِيننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ، قال : إني سقيم ، وألقى نفسه ، وقال سِرّاً منهم : « وتالله لأكيدنَّ أصنامكم » ، فسمعه رجل منهم ، فأفشاه عليه ، فرجع إلى بيت الأصنام ، وكانت ـ فيما ذكره مقاتل بن سليمان ـ اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونُحاس وحديد وخشب ، فكسرها ، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ، فذلك قوله : (فجعلهم جُذاذاً) قرأ الأكثرون : « جُذاذاً » بضم الجيم . وقرأ أبو بكر الصدّيق ، وابن مسعود ، وأبو رزين ، وقتادة ، وابن محيصن ، والأعمش ، والكسائي : « جِذاذاً » بكسر الجيم . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وأيوب السختياني ، وعاصم الجحدري : « جَذاذاً » بفتح الجيم . وقرأ الضحاك ، وابن يعمر : « جَذْذاً »

بفتح الجيم من غير ألف . وقرأ معاذ القارئ ، وأبو حيوة ، وابن وثّاب : « جُذذاً » بضم الجيم من غير ألف . قال أبو عبيدة : أي : مستأصَلين ، قال جرير :

بَني المهلَّب جَذَّ اللهُ دَابِرَهُم   أمْسَوْا رَمَاداً فلا أصلٌ ولا طَرَفُ[1]

أي : لم يَبْقَ منهم شيء ، ولفظ « جُذاذ » يقع على الواحد والاثنين والجميع من المذكَّر والمؤنَّث . وقال ابن قتيبة : « جُذاذاً » أي : فُتاتاً ، وكلُّ شيء كسرتَه فقد جذَذْتَه ، ومنه قيل للسَّويق : الجذيذ . وقرأ الكسائي : « جِذاذاً » بكسر الجيم على أنه جمع جَذيذ ، مثل ثقيل وثِقال ، وخَفيف وخِفاف . والجذيذ بمعنى : المجذوذ ، وهو المكسور . (إلا كبيراً لهم) أي : كسر الأصنامَ إلا أكبرها . قال الزجاج : جائز أن يكون أكبرها في ذاته ، وجائز أن يكون أكبرها عندهم في تعظيمهم إياه ، (لعلَّهم إليه يرْجِعون) ، في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الصنم . ثم فيه قولان . أحدهما : لعلهم يرجعون إليه فيشاهدونه ، هذا قول مقاتل . والثاني : لعلهم يرجعون إليه بالتهمة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثاني : أنها ترجع إلى إبراهيم . والمعنى : لعلهم يرجعون إلى دين إبراهيم بوجوب الحُجَّة عليهم ، قاله الزجاج .

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾

(١) ديوانه : ٣٩٠ ، و « مجاز القرآن » : ٢/٤٠ ، و « الكامل » : ٥١٠ .

فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم (قالوا مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أي : قد فعل ما لم يكن له فِعْلُه ، فقال الذي سمع إبراهيم يقول : « لأكيدن أصنامكم » : (سمعنا فتى يَذْكرهم) قال الفراء : أي : يَعيبهم ؛ تقول للرجل : لئن ذكرتَني لتندمنَّ ، تريد : بسوء .

قوله تعالى : (فَأْتُوا به على أعيُن الناس) أي : بمرأىً منهم ، لا تأتُوا به خفْيةً . قال أبو عبيدة : تقول العرب إذا أُظهر الأمر وشُهر : كان ذلك على أعين الناس .

قوله تعالى : (لعلهم يَشهدون) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثاني : يشهدون أنه فعل ذلك ، قاله السدي .

والثالث : يشهدون عقابه وما يُصنَع به ، قاله محمد بن إسحاق .

قال المفسرون : فانطلَقوا به إلى نمرود ، فقال له : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا) غضب أن تُعبَد معه الصغار ، فكسرها ، (فاسألوهم إن كانوا يَنْطِقون) من فَعَلَه بهم ؟ ! وهذا إلزام للحُجَّة عليهم بأنهم جماد لا يقدرون على النُّطق .

واختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم عليه السلام على قولين .

أحدهما : أنه وإن كان في صورة الكذب ، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لاقدرة له ، لايصلح أن يكون إلٰهاً ، ومثله قول الملَكين لداود : « إنَّ هذا أخي » ولم يكن أخاه « له تسع وتسعون نعجة » [صٓ : ٢٣] ، ولم يكن له شيء ،

فجرى هذا مجرى التنبيه لداود على مافعل، وأنه هو المراد بالفعل والمَثَل المضروب؛ ومِثْل هذا لاتسمِّيه العرب كذباً.

والثاني: أنه من معاريض الكلام؛ فروي عن الكسائي أنه [كان] يقف عند قوله تعالى: (بل فعله) ويقول معناه: فعله مَنْ فعله، ثم يبتدىء (كبيرهم هذا). قال الفراء: وقرأ بعضهم: «بل فعلَّه» بتشديد اللام، يريد: فلعلَّه كبيرهم هذا. وقال ابن قتيبة: هذا من المعاريض، ومعناه: إن كانوا ينطقون، فقد فعله كبيرهم، وكذلك قوله: (إني سقيم) [الصافات: ٨٩] أي: سأسقم، ومثله (إنكَ ميِّت) [الزمر: ٣٠] أي: ستموت، وقوله: (لاتؤاخذني بما نسيتُ) [الكهف: ٧٤] قال ابن عباس: لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، والمعنى: لاتؤاخذني بنسياني، ومن هذا قصة الخصمين «إذ تسوروا المحراب» [صٓ: ٢١]، ومثله (وإنّا أو إيّاكم لعلى هُدىً) [سبأ: ٢٤]، والعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجهٍ هو ألطف من الكشف وأحسن من التصريح. وروي أن قوماً من الأعراب خرجوا يمتارون، فلما صدروا، خالف رجل في بعض الليل إلى عِكْم صاحبه، فأخذ منه بُرّاً وجعله في عِكْمه، فلما أراد الرحلة وقاما يتعاكمان، رأى عِكْمه يشول، وعِكْم صاحبه يثقل، فأنشأ يقول:

عِكْم تغشَّى بعضَ أعكام القوم لَمْ أرَ عِكْماً سارقاً قبل اليوم

فخوَّن صاحبه بوجهٍ هو ألطف من التصريح. قال ابن الأنباري: كلام إبراهيم كان صدقاً عند البحث، ومعنى قول النبي ﷺ «كذب إبراهيم ثلاث كذبات»[1]:

---

(١) رواه البخاري: ٦/٢٧٧، ومسلم: ٤/١٨٤٠، ولفظه عند مسلم بتمامه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث ـــ

قال قولاً يشبه الكذب في الظاهر ، وليس بكذب . قال المصنف : وقد ذهب جماعة من العلماء إلى هذا الوجه ، وأنه من المعاريض ، والمعاريض لا تُذم ، خصوصاً إذا احتيج إليها ، روى عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب »[1] ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مايسرُّني أنّ

--- كذبات ، ثنتين في ذات الله ، قوله : « إني سقيم » ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، وواحدة في شأن سارة ، فانه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فان سألكِ فأخبريه أنك أختي فانك أختي في الاسلام ، فاني لاأعلم في الأرض مسلماً غيري وغيركِ ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، أتاه فقال له : لقد قدم أرضَك امرأةٌ لاينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأُتيَ بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقُبِضت يدُهُ قبضةً شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد ، فقُبِضتْ أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ، ففعلت ، فعاد ، فقُبِضتْ أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، فلكِ اللهَ أن لاأضرك ، ففعلت وأُطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بانسان ، فأخرجْها من أرضي ، وأعطها هاجر . قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف ، فقال لها : مهيم ؟ قالت : خيراً ، كف الله يد الفاجر ، وأخدم خادماً ، قال أبو هريرة : فتلك أمكم يابني ماء السماء . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٦/٢٨٠ : وفي الحديث مشروعية أخوة الاسلام ، وإباحة المعاريض ، والرخصة في الانقياد للظالم والغاصب ، وقبول صلة الملك الظالم ، وقبول هدية المشرك ، وإجابة الدعاء باخلاص النية ، وكفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح . اهـ .

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » : ٢/٣٣٤ من طريق قتـــادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : صحبت عمران بن حصين إلى البصرة ، فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر ، وقال : إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب . قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : قال البيهقي : رواه داود بن الزبرقان عن عمران بن حصين مرفوعاً ، قال : والموقوف هو الصحيح ، وكذا وهى المرفوع ابن عدي . قال البيهقي : وروي من وجه آخر ضعيف ـ يعني جداً ـ مرفوعاً . ثم قال : وبالجملة فقد حسن العراقي هذا الحديث ، ورد على الصغاني حكمه عليه بالوضع . اهـ . والمعاريض : ماحادت عن الكذب ، والمندوحة : السعة .

لي بما أعلم من معاريض القول مثل أهلي ومالي ، وقال النخعي : لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يدرؤون به عن أنفسهم . وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب ظريف ، وقد قال رسول الله ﷺ لعجوز : « إن الجنَّة لاتدخلها العجائز » [١] ، أراد قوله تعالى : (إِنَّا أَنشأناهُنَّ إِنشاءً) [الواقعة : ٣٥] ، وروي عنه ﷺ أنه كان يمازح بلالاً ، فيقول : « ما أُخت خالك منك » ؟ ، وقال لامرأة : « مَنْ زوجُك » ؟ فسمَّته له ، فقال : « الذي في عينيه بياض » [٢] ؟ ، وقال لرجل : « إنا حاملوك على ولد ناقة » [٣] ، وقال له العباس : ماترجو لأبي طالب ؟ فقال : « كل خير أرجوه من ربِّي » ، وكان أبو بكر حين خرج من الغار مع رسول الله ﷺ إذا سأله أحد : مَنْ هذا بين يديك ؟ يقول : هادٍ يهديني . وكانت امرأة ابن رواحة قد رأته مع جارية له ، فقالت له : وعلى فراشي أيضاً ؟ ! فجحد ، فقالت له : فاقرأ القرآن ، فقال :

وفينا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتابَه ... إذا انشقَّ مشهورٌ مِنَ الصُّبْحِ طالِع
يَبِيتُ يُجَافي جَنْبَهُ عن فِراشه ... إذا استثقلتْ بالكافرين المَضاجِعُ

---

(١) رواه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً ، ورواه الترمذي في « الشمائل » عن عبد ابن حميد عن الحسن أيضاً ، وذكره السيوطي في « الدر » : ١٥٨/٦ عن الحسن ، وزاد نسبته لابن المنذر ، والبيهقي في « البعث » ، وأورده أيضاً من رواية البيهقي في « الشعب » ، والطبراني في « الأوسط » عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) ذكره ملا علي القاري في « شرح الشمائل » للترمذي من رواية ابن أبي حاتم وغيره من حديث عبد الله بن سهم الفهري .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ ، فقال : « إني حاملك على ولد الناقة » فقال : يارسول الله ، ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال : « وهل تلد الإبلَ إلا النوقُ » ؟ .

فقالت : آمنتُ بالله ، وكذبت بصري ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فضحك وأعجبه ما صنع . وعرض شريح ناقة ليبيعها فقال له المشتري : كيف لبنها ؟ قال : احلبْ في أيّ إناءٍ شئتَ ، قال : كيف الوِطاء ؟ قال : افرش ونم ، قال : كيف نجاؤها[1] ؟ قال : إذا رأيتَها في الإبل عرفتَ مكانها ، علّق سوطكَ وسِرْ ، قال : كيف قوّتُها ؟ قال : احمل على الحائط ما شئتَ ؛ [فاستصراها] فلم يَرَ شيئاً مما وصف ، فرجع إليه،فقال : لم أرَ فيها شيئاً مما وصفتَها به،قال : ما كذبتك ، قال : أقِلني ، قال : نعم . وخرج شريح من عند زياد وهو مريض ، فقيل له : كيف وجدت الأمير ؟ قال : تركتُه يأمر ويَنهى ، فقيل له : مامعنى يأمر وينهى ؟ قال : يأمر بالوصية ، وينهى عن النَّوح . وأخذ محمد بن يوسف حجراً المدري فقال : العن علياً ، فقال : إن الأمير أمرني أن ألعن علياً محمد بن يوسف ، فالعنوه ، لعنه الله . وأمر بعض الأمراء صعصعة بن صوحان بلعن عليّ ، فقال : لعن اللهُ من لعن اللهُ ولعن عليٌّ ، ثم قال : إن [هذا] الأمير قد أبى إلا أن ألعن علياً ، فالعنوه ، لعنه الله . وامتحنت الخوارج رجلاً من الشيعة ، فجعل يقول : أنا مِنْ عليّ ومِنْ عثمان بريء . وخطب رجل امرأةً وتحته أخرى ، فقالوا : لا نزوّجك حتى تطلّق امرأتك ، فقال : اشهدوا أني قد طلقت ثلاثاً ، فزوّجوه ، فأقام مع المرأة الأولى ، فادّعوا أنه قد طلّق ، فقال : أما تعلمون أنه كان تحتي فلانة فطلّقتُها ، ثم فلانة فطلّقتُها ، ثم فلانة فطلّقتُها ؟ قالوا : بلى ، قال : فقد طلّقتُ ثلاثاً . وحكي أن رجلاً عثر به الطائف ليلة ، فقال له : من أنت ؟ فقال :

أنا ابنُ الذي لا يُنْزَلُ الدهرَ قِدرُه وإن نزلتْ يوماً فسوف تعود

---

(١) النَّجاء : السرعة في السير .

ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود

فظنّ الطائف أنه ابن بعض الأشراف بالبصرة ، فلما أصبح سأل عنه ، فإذا هو ابن باقلاني . ومثل هذا كثير .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فرجعوا إلى أنفسهم) فيه قولان .

أحدهما : رجع بعضهم إلى بعض . والثاني : رجع كلٌّ منهم إلى نفسه متفكّراً .

قوله تعالى : (فقالوا إنكم أنتم الظالمون) فيه خمسة أقوال .

أحدها : حين عبدتم من لا يتكلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : حين تتركون آلهتكم وحدها ، وتذهبون ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : في عبادة هذه الأصاغر مع هذا الكبير ، روي عن وهب أيضاً .

والرابع : لإبراهيم حين اتهمتموه والفأس في يد كبير الأصنام ، قاله ابن إسحاق ، ومقاتل .

والخامس : أنتم ظالمون لإبراهيم حين سألتموه ، وهذه أصنامكم حاضرة ، فاسألوها ، ذكره ابن جرير .

قوله تعالى : (ثم نُكِسوا على رؤوسهم) وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة : « نُكِّسوا » برفع النون وكسر الكاف مشددة . وقرأ سعيد ابن جبير ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « نَكَسوا » بفتح النون والكاف

مخفّفة . قال أبو عبيدة : « نُكِسوا » : قُلِبوا ، تقول : نكستُ فلاناً على رأسه : إذا قهرته وعلوته .

ثم في المراد بهذا الانقلاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أدركتْهم حيرةٌ ، فقالوا : (لقد علمتَ ما هؤلاء ينْطِقُون) ، قاله قتادة .

والثاني : رجعوا إلى أول ما كانوا يعرفونها به من أنها لا تنطق ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : انقلبوا على إبراهيم يحتجّون عليه بعد أن أقرّوا له ولاموا أنفسهم في تهمته ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي قوله : (لقد علمتَ) إضمار « قالوا » ، وفي هذا إقرار منهم بعجز مايعبدونه عن النُّطق ، فحينئذ توجهت لإبراهيم الحُجَّة ، فقال موبّخاً لهم : (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم) أي : لا يرزقكم ولا يعطيكم شيئاً (ولا يضرّكم) إذا لم تعبدوه ، وفي هذا حثٌّ لهم على عبادة من يملك النفع والضُّر ، (أفٍّ لكم) قال الزجاج : معناه : النتن لكم ؛ فلما ألزمهم الحجة غضبوا ، فقالوا : (حرّقوه) . وذُكر في التفسير أن نمرود استشارهم ، بأيّ عذاب أعذّبه ، فقال رجل : حرّقوه ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوه وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا

صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وانصروا آلهتكم) أي : بتحريقه ، لأنه يعيبها (إن كنتم فاعلين) أي : ناصريها .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أنهم حبسوا إبراهيم عليه السلام في بيت ثم بنوا له حيْراً طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل منيف ، ونادى منادي الملك : أيها الناس احتطبوا لإبراهيم ، ولا يتخلفنَّ عن ذلك صغير ولا كبير ، فمن تخلّف أُلقي في تلك النار ، ففعلوا ذلك أربعين ليلة ، حتى إن كانت المرأة لتقول : إن ظفرتُ بكذا لأحتطبنّ لنار إبراهيم ، حتى إذا كاد الحطب يساوي رأس الجدار سدوا أبواب الحيْر وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها ، حتى إن كان الطائر ليمرُّ بها فيحترق من شدة حرِّها ، ثم بنَوا بنياناً شامخاً ، وبنَوا فوقه منجنيقاً ، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل ؛ فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربَّنا إبراهيمُ يُحرَق فيكَ ، فائذن لنا في نصرته ؛ فقال : أنا أعلمُ به ، وإن دعاكم فأغيثوه ؛ فقذفوه في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وقيل : ست وعشرين ؛ فقال : « حسبي الله ونعم الوكيل »[1] . فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم ألكَ حاجة ؟ قال : أمّا إليك

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله ـــ

فـلا ، قال جبريل : فسل ربك ، فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي »[١] ، فقال الله عز وجل : (يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم) ، فلم تبق نـار على وجه الأرض يومئذ إلا طُفئت وظنَّت أنها عُنيت . وزعم السدي أن جبريل هو الذي ناداها . وقال ابن عباس : لو لم يُتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها . قال السدي : فأخذت الملائكة بضَبْعَي[٢] إبراهيم فأجلسوه على الأرض ، فاذا عين من ماء عذب ، وورد أحمر ، ونرجس . قال كعب ووهب : فما أحرقت النـار من إبراهيم إلا وَثاقه ، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام ، وقـال غيرهما : أربعين أو خمسين يوماً ، فنزل جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه . وإن آزر أتى نمرود فقال : ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم فأدفنها ، فانطلق نمرود ومعه الناس ، فأمر بالحائط فنُقب ، فاذا إبراهيم في روضة تهتزّ وثيابه تندى ، وعليه القميص وتحته الطنفسة والمَلَك إلى جنبه ، فناداه نمرود : يا إبراهيم ، إن إلهك الذي بلغتْ قُدرته هذا لكبيرٌ ، هل تستطيع أن تخرج ؟ قال : نعم ، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج ، فقال : مَن الذي رأيتُ معك ؟ قال : ملَك أرسله إليَّ ربِّي ليؤنسني ، فقال نمرود : إني مقرِّب

ـــ ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) . وفي رواية للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان آخر قول ابراهيم ﷺ حين أُلقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل .

(١) حديث « حسبي من سؤالي علمه بحالي » رواه ابن جرير مختصراً ، وفي سنده جهالة ، وذكره العجلوني في « كشف الخفاء » من رواية البغوي عن كعب الأحبار ، ورواه كثير من المفسرين عن أُبيّ بن كعب موقوفاً ، ولعله من الاسرائيليات ، ولا أصل له في المرفوع ، وقال ابن عراق في « تنزيه الشريعة » ١/٢٥٠ : قال ابن تيميه : موضوع اهـ. وهذا الخبر لا يصح ، لأنه يشير إلى ترك الدعاء ، مع أن الدعاء عبادة ، وقد جاءت الآيات والأحاديث بالأمر به ، والحض عليه .

(٢) الضَّبْع ، بسكون الباء : العضد .

لإلهك قرباناً لِما رأيتُ من قدرته ، فقال : إذن لايقبل الله منكَ ما كنتَ على دينك ، فقال : ياإبراهيم ، لا أستطيع ترك ملكي ، ولكن سوف أذبح له ، فذبح القربان وكفّ عن إبراهيم .

قال المفسرون : ومعنى « كُوني بَرْداً » أي : ذات برد « وسلاماً » أي : سلامة . (وأرادوا به كيداً) وهو التحريق بالنار (فجعلناهم الأخسرين) وهو أن الله تعالى سلّط البعوض عليهم حتى أكل لحومهم وشرب دماءهم ، ودخلت واحدة في دماغ نمرود حتى أهلكته ، والمعنى : أنهم كادوه بسوء ، فانقلب السوء عليهم .

قوله تعالى : (ونجّيناه) أي : من نمرود وكيده (ولوطاً) وهو ابن أخي إبراهيم ، وهو لوط بن هاران بن تارح ، وكان قد آمن به ، فهاجرا من أرض العراق إلى الشام . وكانت سارة مع ابراهيم في قول وهب . وقال السدي : إنما هي ابنة ملك حرّان ، لقيها إبراهيم فتزوجها على أن لايغيرها ، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم .

فأما قوله تعالى : (إلى الأرض التي باركنا فيها) ، ففيها قولان .

أحدهما : أنها أرض الشام ، وهذا قول الأكثرين . وبركتها : أن الله عزّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها ، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار .

والثاني : أنها مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس . والأول أصح .

قوله تعالى : (ووَهَبْنا له) يعني : إبراهيم (إسحاق ويعقوب نافلة) ، وفي معنى النافلة قولان .

أحدهما : أنها بمعنى الزيادة ، والمراد بها : يعقوب خاصة ، فكأنه سأل واحداً ، فأُعطي اثنين ، وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، والفراء .

والثاني : أن النافلة بمعنى العطية ، والمراد بها : إسحاق ويعقوب ، وهذا مذهب مجاهد ، وعطاء .

قوله تعالى : (وكُلاًّ جعلنا صالحين) يعني : إبراهيم وإسحاق ويعقوب . قال أبو عبيدة : « كُلٌّ » يقع خبره على لفظ الواحد ، لأن لفظه لفظ الواحد ، ويقع خبره على لفظ الجميع ، لأن معناه معنى الجميع .

قوله تعالى : (وجعلناهم أئمة) أي : رؤوساً يُقتدى بهم في الخير (يَهْدون بأمرنا) أي : يَدْعون الناس إلى ديننا بأمرنا إيَّاهم بذلك (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) قال ابن عباس : شرائع النبوَّة . وقال مقاتل : الأعمال الصالحة ، (وإقامَ الصلاة) قال الزجاج : حذفُ الهاء من « إقامة الصلاة » قليلٌ في اللغة ، تقول : أقام إقامة ، والحذف جائز ، لأن الإضافة عوض من الهاء .

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولوطاً آتيناه حكماً) قال الزجاج : انتصب « لوط » بفعل مضمر ، لأن قبله فعلاً ، فالمعنى : وأوحينا إليهم وآتينا لوطاً . وذكر بعض النحويين : أنه منصوب على « واذكر لوطاً » ، وهذا جائز ، لأن ذِكْر إبراهيم قد جرى ، فحُمل لوط على معنى : واذكر .

قال المفسرون : لمَّا هاجر لوط مع إبراهيم ، نزل إبراهيم أرض فلسطين ، ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة أو نحو ذلك من إبراهيم ، فبعثه الله نبيّاً .

فأما « الحُكم » ففيه قولان .

أحدها : أنه النبوَّة ، قاله ابن عباس .

والثاني : الفهم والعقل ، قاله مقاتل . وقد ذكرنا فيه أقوالاً في سورة

(يوسف: ٢٢). وأما «القرية» هاهنا، فهي سَدُوم، والمراد أهلها، والخبائث: أفعالهم المنكَرة، فنها إتيان الذكور وقطع السبيل، إلى غير ذلك مما قد ذكره الله عز وجل عنهم في مواضع [هود: ٧٨، والحجر: ٦٩].

قوله تعالى: (وأدخلناه في رحمتنا) أي: بانجائه من بينهم.

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى: (ونوحاً) المعنى: واذكر نوحاً، وكذلك ما يأتيك من ذِكْر الأنبياء (إذ نادى) أي: دعا على قومه (مِنْ قَبْلُ) أي: مِنْ قبل إبراهيم ولوطٍ. فأما الكرب العظيم، فقال ابن عباس: هو الغرق وتكذيب قومه.

قوله تعالى: (ونصرناه من القوم) أي: منعناه منهم أن يصلوا إليه بسوء. وقيل: «من» بمعنى «على».

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ . وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ . وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

قوله تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) وفيه قولان.

أحدهما : أنه كان عنباً ، قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وشريح .

والثاني : كان زرعاً ، قاله قتادة .

(إذ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم) قال ابن قتيبة : أي : رَعتْ ليلاً ، يقال : نَفَشَت الغنمُ بالليل ، وهي إبل نَفَشٌ ونُفَّاشٌ ونِفَاشٌ ، والواحد : نافِشٌ ، وسَرَحَتْ وسَرَبَتْ بالنهار . قال قتادة : النَّفَش بالليل ، والهَمَل بالنهار . وقال ابن السكّيت : النَّفَش : أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راعٍ .

الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فتفلّتت الغنم فوقعت في الحرث فلم تُبق منه شيئاً ، فاختصما إلى داود ، فقال لصاحب الحرث : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أوَ غير ذلك ؟ قال : ماهو ؟ قال : ينطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ، ويُقبل أصحاب الغَنَم على الكَرْم ، حتى إذا كان كليلة نفشت فيه الغَنَم ، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كَرْمهم ، فقال داود : قد أصبتَ القضاءَ ، ثم حكم بذلك ، فذلك قوله : (وكُنَّا لِحُكمهم شاهدين) وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : داود وسليمان ، فذكرهما بلفظ الجمع ، لأن الاثنين جمع ، هذا قول الفراء .

والثاني : أنهم داود وسليمان والخصوم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : « وكنا لِحُكمهما » على التثنية . ومعنى

« شاهدِين » : أنه لم يَغِب عنّا من أمرهم شيء . (ففهّمْناهـا سليمان) يعني : القضية والحكومة . وإنما كَنى عنها ، لأنه قد سبق مايدل عليها من ذِكْر الحُكم ، (وكُلاًّ) منهما (آتينا حُكماً) وقد سبق بيانه . قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا ، ولكنه أثنى على سليمان اصوابه ، وعَذَر داود باجتهاده .

فصل

قال أبو سليمان الدمشقي : كان قضاء داود وسليمان جميعاً من طريق الاجتهاد ، ولم يكن نصّاً ، إذ لو كان نصاً مااختلفا . قال القاضي أبو يعلى : وقد اختلف الناس في الغنم إذا نفشت ليلاً في زرع رجل فأفسدته ، فمذهب أصحابنا أن عليه الضمان ، وهو قول الشافعي ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : لاضمان عليه ليلاً ونهاراً ، إلا أن يكون صاحبها هو الذي أرسلها ، فظاهر الآية يدل على قول أصحابنا ، لأن داود حكم بالضمان ، وشرع مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لنا مالم يَثْبُت نَسْخُه . فان قيل : فقد ثبت نسخ هذا الحكم ، لأن داود حكم بدفع الغَنَم إلى صاحب الحرث ، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها ، ولا خلاف أنه لايجب على من نفشتْ غنمه في حرث رجل شيء من ذلك ؟ قيل : الآية تضمنت أحكاماً ، منها وجوب الضمان وكيفيته ، فالنسخ حصل على كيفيَّته ، ولم يحصل على أصله ، فوجب التعلُّق به ، وقد روى حرام بن محيِّصة عن أبيه : أن ناقةً للبراء دخلت حائط رجل فأفسدتْ ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل [1] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٤/٢٩٥ ، وأبو داود في « سننه » رقم (٣٥٦٩ - ٣٥٧٠) ، وابن ماجه في « سننه » رقم (٢٣٣٢) . قال ابن كثير : وقد علل هذا الحديث ، قال : وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : (وسخَّرْنا مع داود الجبال يسبِّحن) تقدير الكلام : وسخَّرْنا الجبال يسبِّحن مع داود . قال أبو هريرة : كان إِذا سبَّح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذِّكر ، وقال غيره : كان إِذا وجد فترةً ، أمر الجبال فسبَّحت حتى يشتاق هو فيسبِّح .

قوله تعالى : (وكُنَّا فاعلين) أي : لذلك . قال الزجاج : المعنى : وكنّا نقدر على ما نريده .

قوله تعالى : (وعلَّمْناه صنعةَ لَبُوس لكم) في المراد باللَّبوس قولان .

أحدهما : الدُّروع ، وكانت قبل ذلك صفائح ، وكان داود أول من صنع هذه الحلق وسرد ، قاله قتادة .

والثاني : أن اللَّبوس : السلاح كلُّه من درع إِلى رمح ، قاله أبو عبيدة . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : « لُبوس » بضم اللام .

قوله تعالى : (لِيُحْصِنَكُمْ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « لِيُحْصِنَكُمْ » بالياء . وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : « لِتُحْصِنَكُمْ » بالتاء . وروى أبو بكر عن عاصم : « لِنُحْصِنَكُمْ » بالنون خفيفة . وقرأ أبو الدرداء ، وأبو عمران الجوني ، وأبو حيوة : « لِتُحَصِّنَكُمْ » بتاء مرفوعة وفتح الحاء وتشديد الصاد . وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وحميد ابن قيس : « لِتَحَصُّنِكُمْ » بتاء مفتوحة مع فتح الحاء وتشديد الصاد مع ضمها . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو المتوكل ، ومجاهد : « لِنُحَصِّنَكُمْ » بنون مرفوعة وفتح الحاء وكسر الصاد مع تشديدها . وقرأ معاذ القارىء ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « لِيُحْصِنَّكُمْ » بياء مرفوعة وسكون الحاء وكسر الصاد مشددة النون .

فمن قرأ بالياء، ففيه أربعة أوجه . قال أبو علي الفارسي : أن يكون الفاعل اسم الله ، لتقدُّم معناه ، ويجوز أن يكون اللباس ، لأن اللبوس بمعنى اللباس من حيث كان ضرباً منه ، ويجوز أن يكون داود ، ويجوز أن يكون التعليم ، وقد دل عليه « علَّمْناه » .

ومن قرأ بالتاء ، حمله على المعنى ، لأنه الدرع .

ومن قرأ بالنون ، فلتقدُّم قوله : « وعلَّمناه » .

ومعنى « لِتُحْصِنَكُمْ » : لِتُحْرِزَكم وتمنعكم (مِنْ بأسكم) يعني : الحرب .

قوله تعالى : (ولسليمان الرِّيحَ) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمران الجوني ، وأبو حيوة الحضرمي : « الرِّياحُ » بألف مع رفع الحاء . وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : بالألف ونصب الحاء ، والمعنى : وسخَّرْنا لسليمان الريح (عاصفةً) أي : شديدة الهبوب (تجري بأمره) يعني : بأمر سليمان (إلى الأرض التي باركْنا فيها) وهي أرض الشام ، وقد مَرَّ بيان بركتها في هذه السورة [الانبياء : ٧٢] ؛ والمعنى : أنها كانت تسير به إلى حيث شاء ، ثم تعود به إلى منزله بالشام .

قوله تعالى : (وكُنَّا بِكُلِّ شيءٍ عالِمين) علمنا أن ما نُعطي سليمان يدعوه إلى الخضوع لربِّه .

قوله تعالى : (ومن الشياطين من يغوصون له) قال أبو عبيدة : « مَنْ » تقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكَّر والمؤنَّث . قال المفسرون : كانوا يغوصون في البحر ، فيستخرجون الجواهر ، (ويعملون عملاً دون ذلك) قال الزجاج : معناه : سوى ذلك ، (وكُنَّا لهم حافظين) أن يُفسدوا ما عملوا . وقال غيره : أن يخرجوا عن أمره .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (وأيُّوبَ إذ نادى ربَّه) أي : دعا ربَّه (أنّي) وقرأ أبو عمران الجوني : « إني » بكسر الهمزة ، (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) وقرأ حمزة : « مَسَّنِيْ » بتسكين الياء ، أي : أصابني الجَهْد ، (وأنت أرحم الراحمين) أي : أكثرهم رحمة ، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إذ أثنى عليه بأنه الأرحم وسكت .

الإشارة إلى قصته

ذكر أهل التفسير أن أيوب عليه السلام كان أغنى أهل زمانه ، وكان كثير الإحسان . فقال إبليس : يا رب سلِّطني على ماله وولده ـ وكان له ثلاثة عشر ولداً ـ فان فعلتَ رأيته كيف يُطيعني ويَعصيكَ ، فقيل له : قد سلَّطْتُكَ على ماله وولده ، فرجع إبليس فجمع شياطينه ومردته ، فبعث بعضهم إلى دوابِّه ورعاته ، فاحتملوها حتى قذفوها في البحر ، وجاء إبليس في صورة قيِّمه ، فقال : يا أيوب ألا أراك تصلِّي وقد أقبلتْ ريح عاصف فاحتملت دوابَّك ورعاتها حتى قذفَتْها في البحر ؟ فلم يردَّ عليه شيئاً حتى فرغ من صلاته ، ثم قال : الحمد لله الذي رزقني ثم قبله منِّي ، فانصرف خائباً ، ثم أرسل بعض الشياطين إلى جنانه وزروعه ، فأحرقوها ، وجاء فأخبره ، فقال مثل ذلك ، فأرسل بعض الشياطين فزلزلوا منازل أيوب وفيها ولده وخدمه ، فأهلكوهم ، وجاء فأخبره ، فحمد الله ، وقال لإبليس وهو يظنه قيِّمه في ماله : لو كان فيكَ خير لقبضكَ معهم ، فانصرف خائباً ،

فقيل له : كيف رأيتَ عبدي أيوب ؟ قال : يارب سلّطني على جسده فسوف ترى ، قيل له : قد سلّطْتُكَ على جسده ، فجاء فنفخ في إبهام قدميه ، فاشتمل فيه مثل النار ، ولم يكن في زمانه أكثر بكاءً منه خوفاً من الله تعالى ، فلما نزل به البلاء لم يبكِ مخافة الجزع ، وبقي لسانُه للذّكر ، وقلبه للمعرفة والشُّكر ، وكان يرى أمعاءه وعروقه وعظامه ، وكان مرضه أنه خرج في جميع جسده ثآليل كأليات الغنم ، ووقعت به حكّة لا يملكها ، فحكَّ بأظفاره حتى سقطت ، ثم بالمسوح ، ثم بالحجارة ، فأنتن جسمه وتقطّع ، وأخرجه أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كُناسة ، ورفضه الخلق سوى زوجته ، واسمها رحمة بنت إفرايم بن يوسف بن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه [1] . وروى أبو بكر القرشي عن الليث ابن سعد ، قال : كان ملك يظلم الناس ، فكلّمه في ذلك جماعة من الأنبياء ، وسكت عنه أيوب لأجل خيل كانت له في سلطانه ، فأوحى الله إليه : تركتَ كلامَه من أجل خيلك ؟! لأطيلنَّ بلاءك [2] .

واختلفوا في مدة لبثه في البلاء على أربعة أقوال .

أحدها : ثماني عشرة سنة ، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ [3] .

والثاني : سبع سنين ، قاله ابن عباس ، وكعب ، ويحيى بن أبي كثير .

---

(١) روى هذا الخبر وهب بن منبه في قصة طويلة ساقها ابن جرير الطبري في « التفسير » : ٦٥/١٧ ، قال ابن كثير : ١٨٨/٣ : وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير ، وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين ، وفيها غرابة .

(٢) ذكر نحو هذا الخبر السيوطي في « الدر » : ٣٢٧/٤ من رواية ابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني ، ولعله من الاسرائيليات .

(٣) ذكره ابن كثير ١٨٩/٣ من رواية ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك وقال : رفع هذا الحديث غريب جداً .

والثالث : سبع سنين وأشهر ، قاله الحسن .

والرابع : ثلاث سنين ، قاله وهب .

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال .

أحدها : [أنه] اشتهى إداماً ، فلم تُصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها ، فلما علم ذلك ، قال : « مسَّني الضُّر » ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله ، فلما انتهى أجل البلاء ، يسّر له الدعاء ، فاستجاب له ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن نفراً من بني إسرائيل مرُّوا به ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم ، فعند ذلك قال : « مسَّني الضُّر » ، قاله نوف البكالي . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان له أخوان ، فأتياه يوماً فوجدا ريحاً ، فقالا : لو كان الله علم منه خيراً مابلغ به كلّ هذا ، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك ، فقال : اللهم إن كنتَ تعلم أنّي لم أبِت ليلةً شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدِّقني ؛ فصُدِّق وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنتَ تعلم أنّي لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدِّقني ، فصُدِّق وهما يسمعان ، فخرَّ ساجداً ، ثم قال : اللهم لاأرفع رأسي حتى تكشفَ مابي ، فكشف الله عز وجل مابه .

والرابع : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : ليذبح أيوب هذه لي وقد بَرَأَ ، فجاءت فأخبرته ، فقال : إن شفاني الله لأجلدنَّك مائة جلدة ، أمَرْتِني أن أذبح لغير الله ؟! ثم طردها عنه ، فذهبتْ ، فلما رأى أنه لاطعام له ولا شراب ولا صديق ، خرَّ ساجداً وقال : « مسَّني الضُّر » ، قاله الحسن .

والخامس : أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عنفوان شبابه : إني مبتليك ،

قال : يارب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندي ، فصبَّ عليه من البلاء ماسمعتم ، حتى إذا بلغ البلاء منتهاه ، أوحى إليه أني معافيكَ ، قال : يارب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندك ، قال : « مسَّني الضُّر » ، قاله إبراهيم بن شيبان القرميسي فيما حدِّثنا به عنه .

والسادس : أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً ، فخاف هجران ربِّه ، فقال : « مسَّني الضُّر » ، ذكره الماوردي .

فان قيل : أين الصبر ، وهذا لفظ الشكوى ؟

فالجواب : أن الشكوى إلى الله لاتنافي الصبر ، وإنما المذموم الشكوى إلى الخَلْق [1] ، ألم تسمع قول يعقوب : « إنما أشكو بَثِّي وحُزْني إلى الله » [يوسف : ٨٦] . قال سفيان بن عيينة : وكذلك من شكا إلى النـاس ، وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله ، لم يكن ذلك جزعاً ، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ لجبريل في مرضه : « أجدني مغموماً » و « أجدني مكروباً » ، وقوله : « بل أنا وارأساه » [2] .

قوله تعالى : (وآتيناه أهله) يعني : أولاده (ومِثْلَهُمْ معهم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم ، وآتاه مثلهم معهم في الدنيـا ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة . وروى أبو صالح عن ابن عباس : كانت

---

(١) من المتفق عليه أن أيوب عليه السلام كان غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك ، وقد ابتلي في ماله وولده وجسده ، فصبر والتجأ إلى الله تعالى ، فذلك قول الله فيه : (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) فكشف الله تعالى مابه .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » : ١٠/١٠٥ من حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو جزء من حديث طويل .

امرأته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات ، فنُشِروا له ، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات .

والثاني : أنهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا ، فآتاه إياهم في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة ، رواه هشام عن الحسن .

والثالث : آتاه الله أجور أهله في الآخرة ، وآتاه مثلهم في الدنيا ، قاله نوف ، ومجاهد .

والرابع : آتاه أهله ومثلهم معهم في الآخرة ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : (رحمةً مِنْ عندنا) أي : فعلنا ذلك به رحمةً مِنْ عندنا ، (وذِكرى) أي : عِظةً (للعابدين) قال محمد بن كعب : من أصابه بلاء فليذكر ما أصاب أيوب ، فليقل : إنه قد أصاب من هو خيرٌ مني .

قوله تعالى : (وذا الكفل) اختلفوا هل كان نبياً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن نبياً ، ولكنه كان عبداً صالحاً ، قاله أبو موسى الأشعري ، ومجاهد . ثم اختلف أرباب هذا القول في علَّة تسميته بذي الكفل على ثلاثة أقوال . أحدها : أن رجلاً كان يصلِّي كلَّ يوم مائة صلاة فتوفي ، فكفل بصلاته ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله أبو موسى الأشعري . والثاني : أنه تكفل للنبيِّ بقومه أن يكفيه أمرهم ويقيمه ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله مجاهد . والثالث : أن ملِكاً قتل في يوم ثلاثمائة نبيٍّ ، وفرَّ منه مائة نبيٍّ ، فكفلهم ذو الكفل ، يطعمهم ويسقيهم حتى أُفلتوا ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله ابن السائب .

والقول الثاني : أنه كان نبياً ، قاله الحسن ، وعطاء [1] . قال عطاء :

---

(١) قال ابن كثير ٣/١٩٠ : وأما ذو الكفل ، فالظاهر من السياق أنه ماقرن مع الأنبياء إلا وهو نبي .

أوحى الله تعالى [إلى] نبيٍّ من الأنبياء : إني أريد قبض روحك ، فاعرض مُلكك على بني إسرائيل ، فمن تكفَّل لك بأنه يصلِّي الليل لايفتر ، ويصوم النهار لايفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب ، فادفع مُلكك إليه ، ففعل ذلك ، فقام شابٌّ فقال : أنا أتكفَّل لك بهذا ، فتكفَّل به ، فوفى ، فشكر اللهُ له ذلك ، ونبَّأه ، وسمِّي : ذا الكفل . وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ في الكفل : « أنه كان رجلاً لاينزع عن ذنب ، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها ، فبكت ، وقالت : مافعلتُ هذا قطّ ، فقام عنها تائباً ، ومات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل » ؛ والحديث معروف [1] ، وقد ذكرته في « الحدائق » ، فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذي الكفل ، وهذا غلط ، لأن ذلك اسمه الكفل ، والمذكور في القرآن يقال له : ذو الكفل ، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها ، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا . وإذا قلنا : إنه نبيّ ، فان الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال . وذكرت هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله تعالى ، فوافقني ، وقال : ليس هذا بذاك .

قوله تعالى : (كُلٌّ من الصابرين) أي : على طاعة الله وترك معصيته ، (وأدخلناهم في رحمتنا) في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس . والثاني : النبوَّة ، قاله مقاتل . والثالث : النّعمة والموالاة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، قال الحافظ ابن كثير ١٩١/٣ : وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وإسناده غريب .

مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وذا النُّونِ) يعني : يونس بن متّى . والنون : السمكة ؛ أضيف إليها لابتلاعها إياه .

قوله تعالى : (إذ ذهب مغاضباً) قال ابن قتيبة : المُغاضَبة : مُفاعَلة ، وأكثر المفاعَلة من اثنين ، كالمناظَرة والمجادَلة والمخاصَمة ، وربما تكون من واحد ، كقولك : سافرت ، وشارفت الأمر ، وهي هاهنا من هذا الباب . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « مُغْضَباً » باسكان الغين وفتح الضاد من غير ألف .

واختلفوا في مغاضبته لمن كانت ؟ على قولين .

أحدها : أنه غضب على قومه ، قاله ابن عباس ، والضحاك . وفي سبب غضبه عليهم ثلاثة أقوال . أحدها : أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له : شعيا : أن ائت فلاناً الملك ، فقل له : يبعث نبياً أميناً إلى بني إسرائيل ، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك ، وسبا منهم الكثير ، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلّمه حتى يرسلَهم ، فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله باخراجي ؟ قال : لا ، قال : فهل سماني لك ؟ قال : لا ، قال : فهاهنا غيري من الأنبياء ، فألَحّوا عليه ، فخرج مغاضباً للنبيّ والملك ولقومه ، هذا مروي عن ابن عباس ؛ وقد زدناه شرحاً في (يونس : ٩٨) . والثاني : أنه عانى من قومه أمراً صعباً من الأذى والتكذيب ، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجراً ، وما ظنّ أن هذا الفعل يوجب عليه ماجرى من العقوبة ، ذكره ابن الأنباري . وقد روي عن وهب بن منبه ، قال : لما حُملت عليه أثقالُ النبوّة ، ضاق بها ذرعاً ولم يصبر ،

فقذفها من يده وخرج هارباً (١) . والثالث : أنه لمَّا أوعدهم العذاب ، فتابوا ورُفع عنهم ، قيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع فيجدوني كاذباً ؟ فانصرف مغاضباً لقومه ، عاتباً على ربِّه . وقد ذكرنا هذا في (يونس : ٩٨) .

والثاني : أنه خرج مغاضباً لربِّه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وعروة . وقال أبو بكر النقاش : المعنى : مغاضباً من أجل ربِّه ، وإنما غضب لأجل تمرُّدهم وعصيانهم . وقال ابن قتيبة : كان مَغيظاً عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم ، مشتهياً أن ينزل العذاب بهم ، فعاقبه الله على كراهيته العفو عن قومه .

قوله تعالى : (فظَنَّ أن لن نَقْدِرَ عليه) وقرأ يعقوب : « يُقَدَّر » بضم الياء وتشديد الدال وفتحها . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي ليلى : « يُقْدَرَ » بياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها . وقرأ أبو عمران الجوني : « يَقْدِرَ » بياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة . وقرأ الزهري ، وابن يعمر ، وحميد بن قيس : « نُقَدِّرَ » بنون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن لن نقضي عليه بالعقوبة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك . قال الفراء : معنى الآية : فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من العقوبة ، والعرب تقول : قَدَر ، بمعنى : قَدَّر ، قال أبو صخر :

ولا عائداً ذاكَ الزمانُ الذي مضى
تباركتَ ما تَقْدِرْ يكُنْ ولكَ الشُّكرُ (٢)

أراد : ما تقدِّر ، وهذا مذهب الزجاج .

---

(١) لعله من الاسرائيليات التي نقلها وهب بن منبه ، وقد تقدم أمثال ذلك .

(٢) « شرح أشعار الهذليين » : ٢/٩٥٨ ، و « القرطبي » : ١١/٣٣٢ .

والثاني : فظن أن لن نضيّق عليه ، قاله عطاء . قال ابن قتيبة : يقال : فلان مُقَدَّر عليه ، ومُقَتَّر عليه ، ومنه قوله تعالى : (فَقَدَرَ عليه رِزقَه) [الفجر:١٦] أي : ضَيَّق عليه فيه . قال النقاش : والمعنى : فظن أن لن يضيّق عليه الخروج ، فكأنَّه ظن أن الله قد وسّع له ، إن شاء أن يقيم ، وإن شاء أن يخرج ، ولم يؤذَن له في الخروج .

والثالث : أن المعنى : فظن أنه يعجز ربه ، فلا يقدر عليه ، رواه عوف عن الحسن . وقال ابن زيد ، وسليمان التيمي : المعنى : أفظنَّ أن لن نَقْدِر عليه ؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حُذفت ألفه ؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصوّر إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار ، تقديره : ما ظنّ عجزنا ، فأين يهرب منا ؟! .

قوله تعالى : (فنادى في الظلمات) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، قاله سعيد ابن جبير ، وقتادة ، والأكثرون .

والثاني : أن حوتاً جاء فابتلع الحوت الذي هو في بطنه ، فنادى في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة البحر ، قاله سالم ابن أبي الجعد .

والثالث : أنها ظلمة الماء ، وظلمة مِعى السمكة ، وظلمة بطنها ، قاله ابن السائب . وقد روى سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه ، كلمة أخي يونس : فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين »[1] . قال الحسن : وهذا اعتراف [من] يونس بذنبه وتوبة من خطيئته .

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن السني عن أبي يعلى ، وفي سنده عمرو بن الحصين ، وهو ضعيف جداً ، ورواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، بلفظ « دعوة ذي النون ، —

قوله تعالى : (فاستجبنا له) أي : أجبناه (ونجَّيناه من الغمّ) أي : من الظلمات (وكذلك نُنْجِي المؤمنين) إذا دعونا . وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ : « نُجّي المؤمنين » بنون واحدة مشددة الجيم ؛ قال الزجاج : وهذا لحنٌ لا وجه له ، وقال أبو علي الفارسي : غلط الراوي عن عاصم ، ويدل على هذا إسكانه الياء من « نُجّي » ونصب « المؤمنين » ، ولو كان على ما لم يُسم فاعله ما سكّن الياء ، ولرفع « المؤمنين » .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ . وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ . إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

قوله تعالى : (لا تذرني فرداً) أي : وحيداً بلا ولد (وأنت خير الوارثين) أي : أفضل من بقي حياً بعد ميت .

قوله تعالى : (وأصلحنا له زوجه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أُصلحت للولد بعد أن كانت عقيماً ، قاله ابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وقتادة .

والثاني : أنه كان في لسانها طول ، وهو : البذاء ، فأُصلحت ، قاله عطاء . وقال السدي : كانت سليطة فكفّ عنه لسانها .

ـــ إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له » وهو حديث حسن .

والثالث : أنه كان خُلُقها سيِّئاً ، قاله محمد بن كعب [١] .

قوله تعالى : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) أي : يبادرون في طاعة الله .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدها : زكريا ، وامرأته ، ويحيى والثاني : جميع الأنبياء المذكورون في هذه السورة .

قوله تعالى : (ويدعوننا) وقرأ ابن مسعود ، وابن محيصن : « ويدعونا » بنون واحدة .

قوله تعالى : (رَغَباً ورَهَباً) أي : رغباً فيما عندنا ، ورهباً منا . وقرأ الأعمش : « رُغْباً ورُهْباً » بضم الراءين وجزم الغين والهاء ، وهما لغتان مثل النُّحْل ، والنَحَل ، والسُّقْم ، والسَّقَم ، (وكانوا لنا خاشعين) أي : متواضعين .

قوله تعالى : (والتي أحصنت فرجها) فيه قولان .

أحدها : أنه مخرج الولد ، والمعنى : منعته مما لا يحل . وإنما وُصِفَتْ بالعفاف لأنها قُذفت بالزنا .

والثاني : أنه جيب درعها . ومعنى الفرج في اللغة : كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق ، فهو يسمى فرجاً . وهذا أبلغ في الثناء عليها ، لأنها إذا منعت جيب درعها ، فهي لنفسها أمنع .

قوله تعالى : (فنفخنا فيها) أي : أمرنا جبريل ، فنفخ في درعها ، فأجرينا فيها روح عيسى كما تجري الريح بالنفخ . وأضاف الروح إليه إضافة الملك ، للتشريف والتخصيص (وجعلناها وابنها آية) قال الزجاج : لما كان شأنهما واحداً ، كانت

(١) قال ابن كثير : والأظهر من السياق الأول .

الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل. وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: «آيتين» على التثنية.

قوله تعالى: (إنَّ هذه أمَّتُكم) قال ابن عباس: المراد بالأمَّة هاهنا: الدِّين. وفي المشار إليهم قولان.

أحدها: أنهم أمة محمد ﷺ، وهو معنى قول مقاتل.

والثاني: أنهم الأنبياء عليهم السلام، قاله أبو سليمان الدمشقي. ثم ذكر أهل الكتاب، فذمَّهم بالاختلاف، فقال تعالى: (وتقطَّعوا أمرهم بينهم) أي: اختلفوا في الدِّين، (فمن يعمل من الصالحات) أي: شيئاً من الفرائض وأعمال البرّ (فلا كفران لسعيه) أي: لانجحد ماعمل، قاله ابن قتيبة، والمعنى: أنه يقبل منه، ويثاب عليه (وإنا له كاتبون) ذلك، نأمر الحفظة أن يكتبوه لنجازيَه به.

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ . وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ . إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَاوَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى: (وحرام على قرية) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «وحرام» بألف. وقرأ حمزة، والكسائي،

وأبو بكر عن عاصم : « وحِرْم » بكسر الحاء من غير ألف ، وهما لغتان. يقال : حِرْم وحرام. وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني : « حَرْمٌ » بفتح الحاء وسكون الراء من غير ألف والميم مرفوعة منوّنة . وقرأ سعيد بن جبير : « وحَرْمَ » بفتح الحاء وسكون الراء وفتح الميم من غير تنوين ولا ألف . وقرأ أبو الجوزاء ، وعكرمة ، والضحاك : « وحَرِمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء من غير تنوين ولا ألف . وقرأ سعيد بن المسيب ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء : « وحَرُمَ » بفتح الحاء وضم الراء ونصب الميم من غير ألف .

وفي معنى قوله تعالى : (وحرام) قولان .

أحدها : واجب ، قاله ابن عباس ، وأنشدوا في معناه :

فَانَّ حَرَاماً لا أرَى الدَّهْرَ بَاكِياً عَلَى شَجْوِهِ إلَّا بَكَيْتُ على عَمْرِو [1]

أي : واجب .

والثاني : أنه بمعنى العزم ، قاله سعيد بن جبير . وقال عطاء : حتم من الله . والمراد بالقرية : أهلها .

ثم في معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : واجب على قرية أهلكناها أنهم لايتوبون ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : واجب عليها أنها إذا أُهلكت لا ترجع إلى دنياها ، هذا قول قتادة ؛ وقد روي عن ابن عباس نحوه .

---

(١) البيت لعبد الرحمن بن جمانة المحـــاربي الجاهلي ، كما في « اللسان » : حرم ، وهو في « غريب القرآن » : ٢٨٨ ، ونسب للخنساء في « تفسير القرطبي » : ١١/٣٤٠ ، و « البحر المحيط » : ٦/٣٣٩ ، و « روح المعاني » : ١٧/٨٤ ، وفيها جميعاً : . . . . بكيت على صخر ، ولا يوجد البيت في ديوانها .

والثالث : أن « لا » زائدة ؛ والمعنى : حرام على قرية مهلكة أنهم يرجعون إلى الدنيا ، قاله ابن جريج ، وابن قتيبة في آخرين .

والرابع : أن الكلام متعلق بما قبله ، لأنه لما قال : « فلا كفران لسعيه » أعلمنا أنه قد حرَّم قبول أعمال الكفار ؛ فمعنى الآية : وحرام على قرية أهلكناها أن يُتقبَّل منهم عمل ، لأنهم لايتوبون ، هذا قول الزجاج .

فان قيل : كيف يصح أن يحرم على الإنسان ماليس من فعله ، ورجوعهم بعد الموت ليس إليهم ؟

فالجواب : أن المعنى : مُنعوا من ذلك ، كما يُمنع الإنسان من الحرام وإن قدر عليه ، فكان التشبيه بالتحريم للحالتين من حيث المنع .

قوله تعالى : (حتى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ) [1] وقرأ ابن عامر : « فُتِّحت » بالتشديد ، والمعنى : فُتح الردم عنهم (وهم من كل حدَب) قال ابن قتيبة : من كل نشَز من الأرض وأَكَمة (يَنْسِلون) من النَّسَلان : وهو مقاربة الخطو مع الإسراع ، كمشي الذئب إذا بادر ، والعَسَلان مثله . وقال الزجاج :

---

(١) تقدم الكلام على يأجوج ومأجوج في سورة (الكهف : ٩٤) . قال ابن كثير : وهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أي أبي الترك ، والترك شرذمة منهم تُركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، قال : وقد حكى النووي في « شرح مسلم » عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم ، وليسوا من حواء ، قال : وهذا قول غريب جداً ، ثم لادليل عليه لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على مايحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة ، والله أعلم . وهم إذا خرجوا من السد يعيثون في الأرض فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية ، انظر « تفسير ابن كثير » : ٣/١٩٥ - ١٩٧ .

الحَدَبُ : كل أَكَمَة ، و « يَنْسِلون » : يُسرعون . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وعاصم الجحدري : « يَنْسُلون » بضم السين .

وفي قوله تعالى : (وهم) قولان .

أحدهما : أنه إشارة إلى يأجوج ومأجوج ، قاله الجمهور .

والثاني : إلى جميع الناس ؛ فالمعنى : وهم يُحشَرون إلى الموقف ، قاله مجاهد . والأول أصح .

فان قيل : أين جواب « حتى » ؟ ففيه قولان .

أحدهما : أنه قوله تعالى : (واقترب الوعد الحق) والواو في قوله تعالى : « واقترب » زائدة ، قاله الفراء . قال : ومثله « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها » [الزمر : ٧٣] ، وقوله تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه » [الصافات: ١٠٣،١٠٤] ، المعنى : نادينا . وقال عبد الله بن مسعود : الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج ، كالحامل المتمّ ، لايدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً .

والثاني : أنه قول محذوف في قوله : (ياويلنا) ، فالمعنى : حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد ، قالوا : ياويلنا . قال الزجاج : هذا قول البصريين . فأما (الوعد الحق) فهو القيامة .

قوله تعالى : (فاذا هي) في « هي » أربعة أقوال .

أحدها : أن « هي » كناية عن الأبصار ، والأبصار تفسير لها ، كقول الشاعر :

لَعَمْرُو أبيها لاتَقولُ ظَعينَتي ألاَ فَرَّ عَنّي مَالكُ بن أبي كَعْبِ [1]

فذكر الظعينة ، وقد كنى عنها في « لعمرو أبيها » .

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » : ٩٢/١٧ ، و « البحر » : ٣٤٠/٦ ، و « القرطبي » : ٣٤٢/١١ ، و « روح المعاني » : ٨٥/١٧ .

والثاني : أن « هي » [ضمير فصل ، و][1] عمادٌ ، ويصلح في موضعها « هو » ، ومثله قوله : (إنه أنا الله) [النمل : ٩] ، وقوله : (فإنها لاتعمى الأبصار) [الحج : ٤٦] ، وأنشدوا :

بثوبٍ وَدينارٍ وشاةٍ ودرهمٍ فهَل هو مَرفوع بما هاهُنا رأْسُ[2]

ذكرهما الفراء .

والثالث : أن يكون تمام الكلام عند قوله : « هي » على معنى : فاذا هي بارزة واقفة ، يعني : من قربها ، كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : (شاخصة) ، ذكره الثعلبي .

والرابع : أن « هي » كناية عن القصة ، والمعنى : القصة أن أبصارهم شاخصة في ذلك اليوم ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري . قال المفسرون : تشخص أبصار الكفار من هول يوم القيامة ، ويقولون : (ياويلنا قد كنا) أي : في الدنيا (في غفلة من هذا) أي : عن هذا (بل كنا ظالمين) أنفسنا بكفرنا ومعاصينا . ثم خاطب أهل مكة ، فقال : (إنكم وما تعبدون من دون الله) يعني : الأصنام (حَصَبُ جهنم) وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو العالية ، وعمر بن عبد العزيز : « حَطَب » بالطاء . وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، وابن السميفع : « حَضَب » بالضاد المعجمة المفتوحة . وقرأ عروة ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « حَضْب جهنم » باسكان الضاد المعجمة . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو حيوة ، ومعاذ القارىء : « حِضْب » بكسر الحاء مع تسكين الضاد المعجمة . وقرأ أبو مجلز ،

---

(١) مابين المعقفين ، زيادة من « روح المعاني » .

(٢) البيت غير منسوب في « معاني القرآن » للفراء : ١/٥٢ ، و « الطبري » : ١٧/٩٣ ، و « البحر » : ٦/٣٤٠ ، و « روح المعاني » : ١٧/٨٥ .

وأبو رجاء ، وابن محيصن : « حَصْب » بفتح الحاء وبصاد غير معجمة ساكنة . قال الزجاج : من قرأ « حصَب جهنم » فمعناه : كلُّ مايرمى به فيها ، ومن قرأ « حطب » فمعناه : ماتُوقَد به ، ومن قرأ بالضاد المعجمة ، فمعناه : ما تهيج به النار وتُذْكى به . قال ابن قتيبة : الحصَب : ما أُلقي فيها ، وأصله من الحَصْباء ، وهو : الحصى ، يقال : حصبتُ فلاناً : إذا رميتَه ، حَصْباً ، بتسكين الصاد ، وما رَمَيْتَ به فهو حَصَب ، بفتح الصاد .

قوله تعالى : (أنتم) يعني : العابدين والمعبودين (لها واردون) أي : داخلون . (لو كان هؤلاء) يعني : الأصنام (آلهةً) على الحقيقة (ماوردوها) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إشارة إلى الأصنام ، والمعنى : لو كانوا آلهةً ما دخلوا النار .

والثاني : أنه إشارة إلى عابديها ، فالمعنى : لو كانت الأصنام آلهة ، منعت عابديها دخول النار .

والثالث : أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها ، بدليل قوله تعالى : (وكلٌّ فيها خالدون) يعني : العابد والمعبود .

قوله تعالى : (لهم فيها زفير) قد شرحنا معنى الزفير في (هود : ١٠٦) .

وفي علّة كونهم لا يسمعون ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوضع في مسامعهم مسامير من نار ، ثم يُقذَفون في توابيت من نار مقفلة عليهم ، رواه أبو أُمامة عن رسول الله ﷺ في حديث طويل . وقال ابن مسعود : إذا بقي في النار مَنْ يخلَّد فيها جُعلوا في توابيت من نار ،

ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحدهم أن في النار أحداً يعذَّب غيرُه [(١)] .

والثاني : أن السماع أُنْسٌ ، والله لا يحب أن يؤنسَهم ، قاله عون بن عمارة .

والثالث : إنما لم يسمعوا لشدة غليان جهنم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى) سبب نزولها أنه لما نزلت « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » شَقَّ ذلك على قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، فجاء ابن الزِّبعرى ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : شتم آلهتنا ، قال : وما قال ؟ فأخبروه ، فقال : ادعوه لي ، فلما دعي رسول الله ﷺ ، قال : يا محمد ، هذا شيء لآلهتنا خاصة ، أو لكل من عُبد من دون الله ؟ قال : « لا ، بل لكل من عُبد من دون الله » ، فقال ابن الزِّبعرى : خُصِمْتَ وربِّ هذه البنية ، ألستَ تزعم أن الملائكة عباد صالحون ، وأن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ،

---

(١) « الطبري » : ١٧/٩٥ ، وذكره السيوطي في « الدر » وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » ، والطبراني ، والبيهقي في « البعث » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، فضج أهل مكة ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [١] . وقال الحسين ابن الفضل : إنما أراد بقوله : (وما تعبدون) الأصنام دون غيرها ، لأنه لو أراد الملائكة والناس ، لقال : « ومَنْ » ، وقيل : « إنَّ » بمعنى : « إلَّا » ، فتقديره : إلا الذين سبقت لهم منّا الحسنى ، وهي قراءة ابن مسعود ، وأبي نهيك ، فانهما قرءا : « إلا الذين » . وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أنا منهم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن [٢] .

وفي المراد « بالحسنى » قولان . أحدهما : الجنة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . والثاني : السعادة ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (أولئك عنها) أي : عن جهنم ، وقد تقدم ذكرها (مُبْعَدُون) والبعد : طول المسافة ، والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء إذا مَرَّ قريباً منك . قال ابن عباس : لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة .

قوله تعالى : (لا يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر) وقرأ أبو رزين ، وقتادة ،

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي : ١٧٥ ، و « الطبري » : ١٧/٩٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٣٨ ، وزاد نسبته لأبي داود في ناسخه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني من وجه آخر عن ابن عباس ، قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن الزبعرى خطأ كبير ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها ، ولهذا قال : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده ؟! وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك ، واعتذر عما كان يهاجي به المسلمين أولاً .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » من رواية ابن أبي حاتم ، وابن عدي ، وابن مردويه عن النعمان بن بشير .

وابن أبي عبلة ، وابن محيصن ، وأبو جعفر الشيزري عن الكسائي : « لا يُحْزِنُهُم » بضم الياء وكسر الزاي .

وفي الفزع الأكبر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النفخة الآخرة ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم ، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى : (وتتلقاهم الملائكة) .

والثاني : أنه إطباق النار على أهلها ، رواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه ذبح الموت بين الجنة والنار ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال ابن جريج .

والرابع : أنه حين يؤمر بالعبد إلى النار ، قاله الحسن البصري .

وفي مكان تلقّي الملائكة لهم قولان .

أحدهما : إذا قاموا من قبورهم ، قاله مقاتل . والثاني : على أبواب الجنة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (هذا يومُكم) فيه إضمار : « يقولون » هذا يومكم (الذي كنتم توعدون) فيه الجنة .

قوله تعالى : (يوم نَطْوي السماء) [1] وقرأ أبو العالية ، وابن أبي عبلة ، وأبو جعفر : « تُطْوى » بتاء مضمومة « السماء » بالرفع ؛ وذلك بمحو رسومها ، وتكدير نجومها ، وتكوير شمسها ، (كطيِّ السِّجِلِّ للكتاب) قرأ الجمهور : « السِّجِلِّ » بكسر السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ،

(١) روى البخاري في « صحيحه » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات بيمينه » .

وأبو الجوزاء، ومحبوب عن أبي عمرو : « السِّجْلِ » بكسر السين وإسكان الجيم خفيفة . وقرأ أبو السماك كذلك، إلا أنه فتح الجيم .

قوله تعالى : (للكتاب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « للكتاب » . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « للكتب » على الجمع .

وفي السِّجل أربعة أقوال .

أحدها : أنه مَلَك ، قاله علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، والسدي .

والثاني : أنه كاتِب كان لرسول الله ﷺ ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس [1] .

والثالث : أن السجل بمعنى : الرجل ، روى أبو الجوزاء عن ابن عباس ، قال : السجل : هو الرجل . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : وقد قيل : « السجل » بلغة الحبشة : الرجل .

والرابع : أنه الصحيفة . رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والفراء ، وابن قتيبة [2] . وقرأت على شيخنا أبي منصور ، قال : قال أبو بكر ، يعني - ابن دريد - : السجل : الكتاب ، والله أعلم ؛ ولا ألتفت إلى قولهم : إنه

---

(١) رواه الطبري : ١٧/١٠٠ ، ورواه أبو داود ، والنسائي ، وغيرهما ، قال ابن كثير : ٣/٢٠٠ : لا يصح ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان في « سنن أبي داود » منهم شيخنا الحافظ المزي ، قال : وقد تصدّى ابن جرير للانكار على هذا الحديث ، ورده أتم ردّ ، وقال : لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل ، وكتّاب النبي ﷺ معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل ، قال : وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة .

(٢) وهو الصواب ، كما ذكر ابن كثير .

فارسي معرب ، والمعنى : كما يُطوى السجل على مافيه من كتـاب . و « اللام » بمعنى « على » . وقال بعض العلماء : المراد بالكتاب : المكتوب ، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة ، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب .

ثم استأنف ، فقال تعالى : (كما بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيده) الخلق هاهنـا مصدر ، وليس بمعنى المخلوق .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : كما بدأناهم في بطون أُمَّهاتهم حفاةً عُراةً غُرلاً ، كذلك نعيدهم يوم القيامة ؛ روي عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يحشر الناس يوم القيامة عراةً حفاةً غرلاً كما خُلقوا ، ثم قرأ : كما بدأنا أول خلق نعيده »[1] ؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثـاني : أن المعنى : إنا نُهلك كل شيء كما كان أول مرة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن السماء تمطر أربعين يومـاً كمني الرجال ، فينبتون بالمطر في قبورهم ، كما ينبتون في بطون أُمَّهاتهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أن المعنى : قُدرتنا على الإعادة كقُدرتنا على الابتداء ، قاله الزجاج .

---

(١) رواه البخاري : ٦/٢٧٥ ، ومسلم : ٤/٢١٩٤ ، ولفظه عند مسلم : عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) » . وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً » قلت : يارسول الله : النساء والرجال جميعـاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ! قال ﷺ : « ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

قوله تعالى : (وَعْداً) قال الزجاج : هو منصوب على المصدر ، لأن قوله تعالى : « نعيده » بمعنى : وعدنا هذا وعداً ، (إنّا كُنّا فاعلين) أي : قادرين على فعل مانشاء . وقال غيره : إنا كنا فاعلين ما وَعدْنا .

قوله تعالى : (ولقد كَتَبْنَا في الزَّبور من بعد الذِّكْر) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الزَّبور جميع الكتب المنزَلة من السماء ، و « الذِّكْر » : أُمّ الكتاب الذي عند الله ، قاله سعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد ، وابن زيد ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جبير ، فانه قال : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن ، والذِّكر : الذي في السماء .

والثاني : أن الزبور : الكتب ، والذِّكر : التوراة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن الزبور : القرآن ، والذِّكْر : التوراة والإنجيل ، قاله سعيد بن جبير في رواية .

والرابع : أن الزبور : زبور داود ، والذِّكْر : ذِكْر موسى ، قاله الشعبي .

وفي الأرض المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أرض الجنة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون . والثاني : أرض الدنيا ، وهو منقول عن ابن عباس أيضاً . والثالث : الأرض المقدسة ، قاله ابن السائب .

وفي قوله تعالى : (يرثها عباديَ الصالحون) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أُمّة محمد ﷺ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي رواية : ترث أُمّةُ محمد أرض الدنيا بالفتوح .

والثاني : بنو إسرائيل ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنه عامّ في كل صالح ، قاله بعض فقهاء المفسرين .

قوله تعالى : (إن في هذا) يعني : القرآن (لبلاغاً) أي : لكفاية ؛ والمعنى : أن من اتّبع القرآن وعمل به ، كان القرآن بلاغه إلى الجنة .

وقوله تعالى : (لقوم عابدين) قال كعب : هم أمة محمد ﷺ الذين يصلّون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان .

قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [١] قال ابن عباس : هذا عامّ للبَرِّ والفاجر ، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة [٢] . وقال ابن زيد : هو رحمة لمن آمن به خاصة .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَاتُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَاتَكْتُمُونَ . وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَاتَصِفُونَ ﴾

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » : ٢٠٠٧/٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل : يارسول الله ادع على المشركين ، قال : « إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة » . وروى الدارمي : ٩/١ عن أبي صالح مرسلاً قال : كان النبي ﷺ يناديهم يقول : « يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » ، وقد وصله الحاكم : ٣٥/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) ذكر ابن كثير : ٢٠٢/٣ من رواية الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف .

قوله تعالى : (فهل أنتم مسلمون) قال ابن عباس : فهل أنتم مخلصون له العبادة ؟ قال أهل المعاني : هذا استفهام بمعنى الأمر .

قوله تعالى : (فان تَوَلَّوا) أي : أعْرَضُوا ولم يؤمنوا (فقل آذنتُكم على سواء) في معنى الكلام قولان .

أحدهما : نابذتُكم وعاديتُكم وأعلمتُكم ذلك ، فصرتُ أنا وأنتم على سواء قد استوينا في العلم بذلك ، وهذا من الكلام المختصر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : أعلمتكم بالوحي إليَّ لتستووا في الإيمان به ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وإن أدري) أي : وما أدري (أقريبٌ أم بعيد ماتوعدون) بنزول العذاب بكم . (إنه يعلم الجهر) وهو مايقولونه للنبي ﷺ « متى هذا الوعد » [يس: ٤٨] ، و (ما تَكتُمون) إسرارُهم أن العذاب لايكون .

قوله تعالى : (لَعَلَّهُ فتنةٌ لكم) في هاء « لَعَلَّه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى ما آذنهم به ، قاله الزجاج .

والثاني : إلى العذاب ؛ فالمعنى : لعل تأخير العذاب عنكم فتنة ، قاله ابن جرير ، وأبو سليمان الدمشقي . ومعنى الفتنة هاهنا : الاختبار ، (ومتاعٌ إلى حين) أي : تستمتعون إلى انقضاء آجالكم . (قُلْ رَبِّ) وروى حفص عن عاصم : « قال رَبِّ » (احكم) قرأ أبو جعفر : « ربُّ احكم » بضم الباء . وروى زيد عن يعقوب : « ربِّيَ » بفتح الياء « أحْكَمُ » بقطع الهمزة وفتح الكاف ورفع الميم . ومعنى « احكم بالحق » أي : بعذاب كفار قومي الذي نزوله حقٌّ ، فحكَم عليهم بالقتل في يوم بدر وفيما بعده من الأيام ؛ والمعنى على هذا : افصل بيني وبين المشركين

بما يظهر به الحق . ومعنى (على ما تصفون) أي : من كذبكم وباطلكم [1] .
وقرأ ابن عامر ، والمفضل عن عاصم : « يصفون » بالياء .

فان قيل : فهل يجوز على الله أن يحكم بغير الحق؟

فالجواب : أن المعنى : احكم بحكمك الحق ، كأنه استعجل النصر عليهم .

* * *

(١) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٠٩ : وقوله تعالى : (وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) يقول جل ثناؤه : وقل يامحمد : وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته ، الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله : (إن هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) وقولكم : (بل افتراه بل هو شاعر) وفي كذبكم على الله جل ثناؤه، وقيلكم : (اتخذ الرحمن ولداً) ،فانه هين عليه تغيير ذلك ، وفصل مابيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ماتصفون من ذلك .

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

فصل في نزولها

روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلُّها ، غير آيتين نزلتا بالمدينة : قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ، والتي تليها [الحج:١٢، ١٣] . وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة ، وهي قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ...) إلى آخر الأربع [الحج : ٥٣-٥٧] . وقال عطاء بن يسار : نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة :

(هذان خصمان) واللتان بعدها [الحج : ٢٠ - ٢٢] . وقال أبو سليمان الدمشقي : أولها مدني إلى قوله تعالى : (وبشر المحسنين) [الحج : ٣٨] وسائرها مكي . وقال الثعلبي : هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : (هذان خصمان) إلى قوله تعالى : (الحميد) [الحج : ٢٠ - ٢٥] . وقال هبة الله بن سلامة : هي من أعاجيب سور القرآن ، لأن فيها مكياً ، ومدنياً ، وحضرياً ، وسفرياً ، وحربياً ، وسلمياً ، وليلياً ، ونهارياً ، وناسخاً ، ومنسوخاً ؛

فأما المكي ، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها .

وأما المدني ، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين .

وأما الليليْ ، فمن أولها إلى آخر خمس آيات .

وأما النهاريْ ، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع .

وأما السفري ، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة .

وأما الحضري ، فالى رأس العشرين [منها] ، نسب إلى المدينة ، لقرب مدّته .

قوله تعالى : (اتقوا ربكم) أي : احذروا عقابه (إنّ زلزلة الساعة) الزلزلة : الحركة على الحالة الهائلة .

وفي وقت هذه الزلزلة قولان

أحدهما : أنها يوم القيامة بعد النشور . روى عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » وقال : تدرون أي يوم ذلك ؟ فانه يوم ينادي الرّبْ عز وجل آدم عليه السلام : ابعث بعثاً إلى النار ، فذكر الحديث [1] . وروى أبو سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٤٣٢/٤ ، والترمذي : ١٤٦/٢ وقال : هذا حديث حسن ـــ

« يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم : قم ، فابعث بعث النار ، فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، فحينئذ يشيب المولود ، وتضع كل ذات حمل حملها »، وقرأ الآية [١] . وقال ابن عباس : زَلْزَلَةُ الساعة : قِيَامُهـا ، يعني أنها تُقارِب قيام الساعة ، وتكون معها . وقال الحسن ، والسدي : هذه الزلزلة تكون يوم القيامة [٢] .

والثاني : أنها تكون في الدنيا قبل القيامة ، وهي من أشراط الساعة ، قاله علقمة ، والشعبي ، وابن جريج . وروى أبو العالية عن أُبَيِّ بن كعب ، قال : ست آيات قبل القيامة ، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت ، واضطربت ، ففزع الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب ، والطير ، والوحش ، فماج بعضهم في بعض ، فقالت الجن للانس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحور ، فاذا هي نار تأجَّج ، فبينما هم كذلك إذ تصدَّعت الأرض إلى الأرض السابعة ، والسماء إلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم

ـــ صحيح ، ورواه الطبري : ١١١/١٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٤٣٣/٤ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(١) رواه أحمد في « المسند » ، والبخاري : ٣٣٥/٨ ، ومسلم : ٢٠١/١ وله بقية عندهما ، ورواه الطبري : ١١٢/١٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٣٤٤/٤ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) واختار ذلك ابن جرير الطبري وغيره ، واحتجوا على ذلك بأحاديث ، انظر تفسير ابن كثير : ٢٠٤/٣ - ٢٠٥ عند تفسير هذه الآية ، فقد ذكر الأحاديث التي تدل على أن الزلزلة تكون يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور .

الريح فماتوا [١] . وقال مقاتل : هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى ، وذلك أن منادياً ينادي من السماء : يا أيها الناس أتى أمر الله ، فيفزعون فزعاً شديداً فيشيب الصغير ، وتضع الحوامل .

قوله تعالى : (شيء عظيم) أي : لا يوصف لعِظَمه .

قوله تعالى : (يوم تَرونها) يعني: الزلزلة (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) فيه قولان.

أحدهما : تسلو عن ولدها ، وتتركه ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : تُشْغَل عنه ، قاله قطرب ، ومنه قول ابن رواحة :

ويذهل الخليل عن خليله

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : « تُذهِل » برفع التاء وكسر الهاء « كلَّ » بنصب اللام . قال الأخفش : وإنما قال : « مرضعة » ، لأنه أراد - والله أعلم - الفعل ، ولو أراد الصفة فيما نرى ، لقال : « مرضع » . قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا ، لأن بعد البعث لا تكون حبلى .

قوله تعالى : (وتَرى الناس سُكارى) وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن يعمر ، « وتُرى » بضم التاء . ومعنى « سكارى » : من شدة الخوف (وما هم بِسُكارى) من الشراب ، والمعنى : ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم ، لشدة ما مرَّ بهم ، يضطربون اضطراب السكران من الشراب . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « سَكْرى وما هم بِسَكْرى » وهي قراءة ابن مسعود . قال الفراء :

---

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٣٠/٦٣ عند قوله تعالى : (وإذا النجوم انكدرت) ، وفي سنده الحسين بن واقد ، قال الحافظ في « التقريب » : ثقة له أوهام ، وذكره ابن كثير : ٤/٤٧٥ من رواية ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وهو وجه جيد ، لأنه بمنزلة الهَلْكى والجَرْحى . وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن السميفع : « سَكارى وماهم بسَكارى » بفتح السين والراء وإثبات الألف ، (ولكن عذابَ الله شديد) فيه دليل على أن سكرهم من خوف عذابه .

قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله) قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث [1] . وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان كلَّما نزل شيء من القرآن كذَّب به ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه زعم أن الملائكة بنات الله ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه قال : لايقدر الله على إحياء الموتى ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (بغير علم) أي : إنما يقوله باغواء الشيطان ، لا بعلم (ويتَّبع) مايسوِّل له (كلَّ شيطانٍ مَريدٍ) وقد ذكرنا معنى « المريد » في سورة (النساء : ١١٧) .

قوله تعالى : (كُتب عليه أنَّه من تولاه) « كُتب » بمعنى : قُضي والهاء في « عليه » وفي « تولاه » كناية عن الشيطان . ومعنى الآية : قضي على الشيطان أنَّه يُضِلُّ مَن اتَّبعه . وقرأ أبو عمران الجوني : « كَتَب » بفتح الكاف « أنه » بفتح الهمزة [« فانه » بكسر الهمزة] . وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وابن أبي ليلى ، والضحاك ، وابن يعمر : « إنه » « فانه » بكسر الهمزة فيهما . وقد بيَّنَّا معنى « السعير » في سورة (النساء : ١٠) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ

(١) « أسباب النزول » للسيوطي : ١٥٠ من رواية ابن أبي حاتم ، و « الدر » : ٣٤٤/٤ .

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَانَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الناس) يعني : أهل مكة (إن كنتم في ريب من البعث) أي : في شك من القيامة (فانا خلقناكم من تراب) يعني : خَلْقَ آدم (ثم من نطفة) يعني : خَلْقَ ولده ، والمعنى : إن شككتم في بعثكم فتدبَّروا أمر خلقكم وابتدائكم ، فانكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والاعادة . فأما النطفة ، فهي المني . والعلقة : دم عبيط جامد . وقيل : سميت علقة لرطوبتها وتعلّقها بما تمرُّ به ، فاذا جفّت فليست علقةً . والمضغة : لحمة صغيرة . قال ابن قتيبة : وسميت بذلك ، لأنها بقدر مايُمضغ ، كما قيل : غرفة لقدر مايُغرَف .

قوله تعالى : (مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أن المخلَّقة : ماخُلِق سويّاً ، وغير المخلَّقة : ما ألقته الأرحام من النطف ، وهو دم قبل أن يكون خَلْقاً ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أن المخلَّقة : ما أُكمل خَلْقه بنفخ الروح فيه (١) ، وهو الذي يولَد

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب

حيّاً لتمامٍ ، وغير المخلّقة : ماسقط غير حيٍّ لم يكمل خَلْقُه بنفخ الروح فيه ، هذا معنى قول ابن عباس .

والثالث : أن المخلّقة : المصوَّرة ، وغير المخلّقة : غير مصوَّرة ، قاله الحسن .

والرابع : أن المخلّقة وغير المخلّقة : السقط ، تارة يسقط نطفة وعلقة ، وتارة قد صُوِّر بعضه ، وتارة قد صُوِّر كلُّه ، قاله السدي .

والخامس : أن المخلّقة : التامة ، وغير المخلّقة : السقط ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (لنبيّنَ لكم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : خلقناكم لنبيّن لكم ماتأتون وما تذَرون .

والثاني : لنبيّن لكم في القرآن بُدُوَّ خَلْقِكم ، وتنقُّلَ أحوالكم .

والثالث : لنبيّن لكم كمال حكمتنا وقدرتنا في تقليب أحوال خلقكم .

والرابع : لنبيّن لكم أن البعث حق .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : « ليبيّن لكم » بالياء .

قوله تعالى : (ونقرُّ في الأرحام) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء : « ويُقَرُّ » بياء مرفوعة وفتح القاف ورفع الراء . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو إسحاق السَّبيعي : « ويُقِرَّ » بياء مرفوعة وبكسر القاف ونصب الراء . والذي يُقَرُّ في الأرحام ، هو الذي لايكون سقطاً ، (إلى أجل مسمى) وهو أجل الولادة (ثم نخرجكم طفلاً)

—— رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لاإله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

قال أبو عبيدة : هو في موضع « أطفال » ، والعرب قد تضع لفظ الواحد في معنى الجميع ، قال الله تعالى : (والملائكةُ بعد ذلك ظهير) [التحريم : ٤] أي : ظهراء ، وأنشد :

فَقُلْنـا أسلِموا إنَّـا أَخوكم فقد بَرِئتْ من الإحَنِ الصدورُ (١)

وأنشد أيضاً :

في حَلْقكم عظمٌ وقد شَجينا (٢)

وقال غيره : إنما قال : « طفلاً » فوحَّد ، لأن الميم في قوله تعالى : (نخرجكم) قد دلَّت على الجميع ، فلم يحتج إلى أن يقول : أطفالاً .

قوله تعالى : (ثم لتبلغوا) فيه إضمار ، تقديره : ثم نعمِّركم لتبلغوا أشدكم ، وقد سبق معنى « الأشُد » [الأنعام : ١٥٣] ، (ومنكم من يُتَوفَّى) من قبل بلوغ الأشُدِّ (ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر) وقد شرحناه في (النحل : ٧٠) . ثم إن الله تعالى دلَّهم على إحيائه الموتى باحيائه الأرض ، فقال تعالى : (وترى الأرض هامدة) قال ابن قتيبة : أي : ميتة يابسة ، ومثله : همدت النار : إذا طفئت فذهبت .

قوله تعالى : (فاذا أنزلنا عليها الماء) يعني : المطر (اهتزَّت) أي : تحرَّكت للنبات ، وذلك أنها ترتفع عن النبات إذا ظهر ، فهو معنى قوله تعالى : (وربت) أي : ارتفعت وزادت . وقال المبرِّد : أراد : اهتزَّ نباتها وربا ، فحذف المضاف . قال الفراء : وقرأ أبو جعفر المدني : « وربأَت » بهمزة مفتوحة بعد الباء . فان كان ذهب إلى الرَّبيئة الذي يحرس القوم ، أي : أنه يرتفع ، وإلا ، فهو غلط .

---

(١) البيت للعباس بن مرداس ، وهو في « مجاز القرآن » : ١/٧٩ ، و ٢/٤٤ ، و « الأغاني » : ١٣/٦٢ ، و « الاصابة » رقم (٤٥١١) ، و « الاستيعاب » : ٣/١٠١ ، و « الخزانة » : ١/٧٣ ، و « الشنتمري » : ٢/١٠١ .

(٢) تقدم في الجزء ٢/١٢٨ ، فانظره هناك .

قوله تعالى : (وأنبتت من كل زوج بهيج) قال ابن قتيبة : من كل جنس حَسَنٍ يبهج ، أي : يسرُّ ، وهو فعيل في معنى فاعل .

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك كما وصف لكم . والأجود أن يكون موضع « ذلك » رفعاً ، ويجوز أن يكون نصباً على معنى : فعل الله ذلك بأنه هو الحق .

قوله تعالى : (وأن الساعة) أي : واتعلموا أن الساعة (آتية) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل) قد سبق بيانه . وهذا مما نزل في النضر أيضاً . والهدى : البيان والبرهان .

قوله تعالى : (ثانيَ عِطفه) العِطف : الجانب . وعِطفا الرجل : جانباه عن يمين وشمال ، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند إعراضه عن المشي . قال الزجاج : « ثانيَ » منصوب على الحال ، ومعناه : التنوين ، معناه : ثانياً عِطفه . وجاء في التفسير : أن معناه : لاوياً عنقه ، وهذا يوصف به المتكبّر ، والمعنى : ومن الناس من يجادل بغير علم متكبّراً .

قوله تعالى : (ليُضِلَّ) أي : ليصير أمره إلى الضلال ، فكأنّه وإن لم يقدّر أنه يضل ، فان أمره يصير إلى ذلك ، (له في الدنيا خزي) وهو ما أصابه يوم بدر ، وذلك أنه قُتل . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [يونس : ٧٠] إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدها : أن ناساً من العرب كان يأتون رسولَ الله ﷺ ، فيقولون : نحن على دينك ، فان أصابوا معيشةً ، ونُتِجَتْ خيلُهم ، وَوَلدتْ نساؤُهم الغلمانَ اطمأنوا وقالوا : هذا دينُ حقٍّ ، وإنْ لم يَجْرِ الأمر على ذلك قالوا : هذا دين سوءٍ ، فينقلبون عن دينهم ، فنزلت هذه الآية ، هذا معنى قول ابن عباس [١] ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : أن رجلاً من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم بالإسلام ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : أقلني ، فقال : « إن الإسلام لا يقال » . فقال : إني لم أُصب في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي ، فقال : « يا يهودي : إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب » ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطية عن أبي سعيد الخدري [٢] .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُ وَمَالَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ . إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

---

(١) رواه البخاري : ٣٣٦/٨ ، و « الطبري » : ١٢٢/١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٦/٤ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي : ١٧٦ عن عطيه عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٦/٤ عن ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد الخدري .

قوله تعالى : (على حرف) قال مجاهد ، وقتادة : « على شكٍّ » ، قال أبو عبيدة : كل شاكٍّ في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم . وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكِّن منه ، فشبِّه به الشاكُّ ، لأنه قَلِقٌ في دينه على غير ثبات ، ويوضحه قوله تعالى : (فإن أصابه خير) أي : رخاء وعافية (اطمأنَّ به) على عبادة الله (وإن أصابته فتنة) اختبار بجدب وقلّة مال (انقلب على وجهه) أي : رجع عن دينه إلى الكفر . والمعنى : انصرف إلى وجهه الذي توجه منه ، وهو الكفر[1] ، (خسر الدنيا) حيث لم يظفر بما أراد منها ، (و) خسر (الآخرة) بارتداده عن الدين . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو مجلز ، ومجاهد ، وطلحة ابن مصرف ، وابن أبي عبلة ، وزيد عن يعقوب : « خاسِرَ الدنيا » بألف قبل السين ، وبنصب الراء « والآخرةِ » بخفض التاء . (يدعو) هذا المرتد ، أي : يعبد (مالا يضره) إن لم يعبده (ولا ينفعه) إن أطاعه (ذلك) الذي فعل (هو الضلال البعيد) عن الحق (يدعو لَمَن ضَرُّه) قال بعضهم : اللام صلة ، والمعنى : يدعو مَن ضره . وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أن اللام معناها التأخير ، والمعنى : يدعو مَنْ لضرِّه (أقربُ من نفعه) ، قال : وشرح هذا أن اللام لليمين والتوكيد ، فحقُّها أن تكون أول الكلام ، فقدِّمت لتجعل في حقِّها . قال السدي : ضره في الآخرة بعبادته إياه أقربُ من نفعه .

فان قيل : فهل للنفع من عبادة الصنم وجه ؟

---

(١) قال ابن كثير : ٣/٢٠٩ : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه ، أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت ، انقلب ، فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فان أصابته فتنة ، أو شدة ، أو اختبار ، أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر . اهـ . نعوذ بالله من ذلك .

فالجواب : أنه لا نفع من قِبَلِه أصلاً ، غير أنه جاء على لغة العرب ، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون : هذا بعيد .

قوله تعالى : (لبئس المولى ولبئس العشير) قال ابن قتيبة : المولى : الولي ، والعشير : الصاحب ، والخليل .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَايَغِيظُ . وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

قوله تعالى: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) قال مقاتل : نزلت في نفر من أسد ، وغطفان ، قالوا : إنا نخاف أن لا يُنْصَرَ محمدٌ ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود [1] ، وإلى نحو هذا ذهب أبو حمزة الثمالي ، والسدي . وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الإشارة بهذه الآية إلى الذين انصرفوا عن الإسلام ، لأن أرزاقهم ما اتّسعت ، وقد شرحنا القصة في قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) .

وفي هاء « ينصره » قولان .

أحدها : أنها ترجع على « مَن » ، والنصر : بمعنى الرزق ، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد . قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل

---

(١) ذكره الطبري : ١٧/١٢٨ بدون سند .

من بني بكر ، فقال : مَنْ ينصرني نصره الله ، أي : من يعطيني أعطاه الله ، ويقال : نصر المطر أرض كذا ، أي : جادها ، وأحياها ، قال الراعي :

[إذا أدبر الشهر الحرام فودعي بلاد تميم] وانْصُرِي أرْضَ عَامِرِ [1]

والثاني : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ [2] ، فالمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ، رواه التميمي عن ابن عباس [3] ، وبه قال عطاء ، وقتادة. قال ابن قتيبة : وهذه كنـاية عن غير مذكور ، وكان قوم من المسلمين لشدة حنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر ، وآخرون من

(١) « مجاز القرآن » : ٢/٤٦ ، و « الجمهرة » : ٢/٣٥٩ ، و « اللسان » و « التاج » : نصر .

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٢٨ : وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك ، قول من قال : الهاء من ذِكْرِ نبيّ الله ﷺ ودينه ، وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه ، ذكر قوماً يعبدونه على حرف ، وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيراً في عبادتهم إياه ، وأنهم يرتدُّون عن دينهم لشدةٍ تصيبهم فيها ، ثم أتبع ذلك هذه الآية ، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخاً لهم على ارتدادهم عن الدين ، أو على شكهم فيه نفاقهم ، استبطاءاً منهم السعة في العيش ، أو السبوغ في الرزق ، وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم ، فمعنى الكلام إذن إذ كان ذلك كذلك : من كان يحسب أن لن يرزق الله محمداً ﷺ وأمته في الدنيا ، فيوسع عليهم من فضله فيها ، ويرزقهم في الآخرة من سَنِيّ عطاياه وكرامته ، استبطاءاً منه فعل الله ذلك به وبهم ، فليمدد بحبل إلى سماءٍ فوقه ، إما سقف بيت ، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه ، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ماقضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه ، فلينظر هل يذهبن كيده اختناقه كذلك مايغيظ ، فإن لم يذهب ذلك غيظه حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه ، فكذلك استعجاله نصر الله محمداً ودينه ، لن يؤخر ماقضى الله له من ذلك عن ميقاته ، ولا يعجل قبل حينه . اهـ .

(٣) رواه الطبري : ١٧/٢٢٦ ، وقال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن عباس هذا ورجحه : وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى ، وأبلغ في التهكّم ، فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لامحالة ، قال الله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ...) الآية ، ولهذا قال : (فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ) يعني : من شأن محمد ﷺ .

المشركين ، يريدون اتبّاعه ، ويخشَوْن أن لا يتم أمره ، فقال هذه الآية للفريقين . ثم في معنى [هذا] النصر قولان .

أحدهما : أنه الغلبة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه الرزق ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (فليمدد بسبب إلى السماء) في المراد بالسماء قولان .

أحدهما : سقف بيته ، والمعنى : فليشدد حبلاً في سقف بيته ، فليختنق به (ثم ليقطع) الحبل ليموت مختنقاً ، هذا قول الأكثرين . ومعنى الآية : ليصور هذا الأمر في نفسه لا أنه يفعله ، لأنه إذا اختنق لا يمكنه النظر والعلم .

والثاني : أنها السماء المعروفة ، والمعنى : فليقطع الوحي عن رسول الله ﷺ إن قدر ، قاله ابن زيد [١] .

قوله تعالى : (ثم لْيقطع) قرأ أبو عمرو ، وابن عامر : « ثم لِيقطع » « ثم لِيقضوا » [الحج : ٢٩] بكسر اللام . زاد ابن عامر « ولِيوفوا » [الحج : ٢٩] « ولِيطوفوا » [الحج : ٢٩] بكسر اللام أيضاً . وكسر ابن كثير لام « ثم لِيقضوا » فحسب . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بسكون هذه اللامات ، وكذلك في كل القرآن إذا كان قبلها واوٌ أو فاء [أو] ثم ، قال الفراء : من سكّن فقد خفف ، وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء ، فأكثر كلام العرب تسكينها ، وقد كسرها بعضهم . قال أبو علي : الأصل الكسر ، لأنك إذا ابتدأت قلت : لِيقم زيد .

قوله تعالى : (هل يذهبن كيدُه) قال ابن قتيبة : المعنى : هل تُذهبن حيلتُه غيظَه ، والمعنى : ليجهد جهده .

قوله تعالى : (وكذلك) أي : ومثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن

---

(١) « الطبري » : ١٢٦/١٧ ، و « الدر » : ٣٤٧/٤ .

(أنزلناه) يعني : القرآن . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (إن الله يفصل بينهم) أي : يقضي (يوم القيامة) بينهم بادخال المؤمنين الجنة ، والآخرين النار (إن الله على كل شيء) من أعمالهم (شهيد) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَايَشَاءُ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوابُّ) أي : ألم تعلم . وقد بيَّنَّا في سورة (النحل : ٤٩) معنى السجود في حق من يعقل ، ومن لا يعقل .

قوله تعالى : (وكثير من الناس) يعني : الموحدين الذين يسجدون لله .

وفي قوله تعالى : (وكثير حق عليه العذاب) قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلّهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم لا يسجدون ؛ والمعنى : وكثير من الناس أبى السجود ، فحق عليه العذاب ، لتركه السجود ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : (ومن يُهن اللهُ) أي : من يُشْقِه الله فما له من مُسْعِدٍ ، (إن الله يفعل ما يشاء) في خلقه من الكرامة والإهانة [1] .

---

(١) قال ابن كثير : أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه قيل له : إن هاهنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : ياعبد الله خلقك الله كما يشاء ، أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء ، أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء ، أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت ، أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

قوله تعالى : (هذان خصمان) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر ، حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنَي ربيعة ، والوليد بن عتبة ، هذا قول أبي ذر [١] .

والثاني : أنها نزلت في أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبيُّنا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون نبيَّنا ، ثم كفرتم به حسداً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [٢] ، وقتادة .

والثالث : أنها في جميع المؤمنين ، والكفار ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وعطاء ، ومجاهد [٣] .

---

(١) البخاري : ٣٣٧/٨ ، و « الطبري » : ١٣١/١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٨/٤ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(٢) « الطبري » : ١٣٢/١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٤٨/٤ وزاد نسبته لابن مردويه .

(٣) « الطبري » : ١٣٢/١٧ .

والرابع : أنها نزلت في اختصام الجنة والنار ، فقالت النار : خلقني الله لعقوبته ، وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، قاله عكرمة [١] .

فأما قوله تعالى : (هذان) وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن كثير : « هاذانّ » بتشديد النون « خصمان » ، فمعناه : جمعان ، وليسا برجلين ، ولهذا قال تعالى : (اختصموا) ولم يقل : اختصما ؛ على أنه قرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : « اختصما » .

وفي خصومتهم ثلاثة أقوال .

أحدها : في دين ربّهم ، وهذا على القولين الأولين . والثاني : في البعث ، قاله مجاهد . والثالث : أنه خصام مفاخرة ، على قول عكرمة .

قوله تعالى : (قطّعت لهم ثياب) أي : سُوّيت وجُعلت لباساً . قال ابن عباس : قُمُص من نار . وقال سعيد بن جبير : المراد بالنار هاهنا : النحاس . فأما « الحميم » فهو الماء الحارّ (يُصهر به) قال الفراء : يذاب به ، يقال : صهرت الشحم بالنار . قال المفسرون : يذاب بالماء الحارّ (ما في بطونهم) من شحم أو مِعىً حتى يخرج من أدبارهم ، وتنضج الجلود فتتساقط من حرّه ، (ولهم مقامع) قال الضحاك : هي المطارق . وقال الحسن : إن النار ترميهم بلهبها ، حتى إذا كانوا في أعلاها ، ضُربوا بمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً ، فاذا انتهوا إلى أسفلها ، ضربهم زفير لهبها ، فلا يستقرّون ساعة . قال مقاتل : إذا جاشت جهنم ، ألقتهم في أعلاها ، فيريدون الخروج ، فتتلقّاهم خزنة جهنم بالمقامع ، فيضربونهم ،

---

(١) « الطبري » : ١٣٢/١٧ .

فيهوي أحدهم من تلك الضربة إلى قعرها . وقال غيره : إذا دفعتهم النار، ظنوا أنها ستقذفهم خارجاً منها ، فتعيدهم الزبانية بمقامع الحديد .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

قوله تعالى : (ولؤلؤٍ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « ولؤلؤٍ » بالخفض . وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « ولؤلؤاً » بالنصب . قال أبو علي : من خفض، فالمعنى : يحلَّون أساور من ذهب ومن لؤلؤٍ ؛ ومن نصب قال : ويحلَّوْن لؤلؤاً [1] .

قوله تعالى : (وهُدُوا) أي : أرْشِدوا في الدنيا (إلى الطيِّب من القول) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه « لا إله إلا الله، والحمد لله » قاله ابن عباس . وزاد ابن زيد : « والله أكبر » .

والثاني : القرآن ، قاله السدي .

والثالث : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حكاه الماوردي .

فأما « صراط الحميد » فقال ابن عباس : هو طريق الإسلام .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢١٩/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت خليلي ﷺ يقول : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ويصدُّون عن سبيل الله) أي : يمنعون الناس من الدخول في الإسلام . قال الزجاج : ولفظ « يصدون » لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي ، لأن معنى « الذين كفروا » : الذين هم كافرون ، فكأنه قال : إن الكافرين والصَّادِّين ؛ فأما خبر « إنَّ » فمحذوف ، فيكون المعنى : إن الذين هذه صفتهم هلكوا .

وفي « المسجد الحرام » قولان .

أحدهما : جميع الحرم . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : كانوا يرون الحرم كلَّه مسجداً .

والثاني : نفس المسجد ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (الذي جعلناه للناس) هذا وقف التمام .

وفي معناه قولان .

أحدهما : جعلناه للنَّاس كلِّهم ، لم نخصَّ به بعضهم دون بعض ، هذا على أنه جميع الحرم .

والثاني : جعلناه قبلةً لصلاتهم ، ومنسكاً لحجِّهم ، وهذا على أنه نفس المسجد . وقرأ ابراهيم النخعي ، وابن أبي عبلة ، وحفص عن عاصم : « سواءً » بالنصب ، فيتوجه الوقف على « سواء » ، وقد وقف بعض القراء كذلك . قال أبو علي الفارسي : أبدل العاكف والبادي من الناس من حيث كانا كالشامل لهم ، فصار المعنى : الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء . فأما العاكف : فهو المقيم ، والبادي : الذي يأتيه من غير أهله ، وهذا من قولهم : بدا القوم : إذا خرجوا

من الحضر إلى الصحراء . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « البادي » بالياء ، غير أن ابن كثير وقف بياء ، وأبو عمرو بغير ياء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والمسيّبي عن نافع بغير ياء في الحالتين .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدها : أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها ، فليس أحدهما أحقَّ بالمنزل من الآخر ، غير أنه لايُخرَج أحدٌ من بيته ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة ، وأحمد ؛ ومذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام ، هذا على أن المسجد : الحرم كلّه .

والثاني : أنهما يستويان في تفضيله وحرمته وإقامة المناسك به ، هذا قول الحسن ، ومجاهد . و [منهم] من أجاز بيع دور مكة ، وإليه يذهب الشافعي . وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرم ، ويجوز أن يراد نفس المسجد .

قوله تعالى : (ومن يرد فيه بإلحاد) الإلحاد في اللغة : العدول عن القصد ، والباء زائدة ، كقوله تعالى : (تنبت بالدهن) [المؤمنون : ٢٠] ، وأنشدوا :

بِوَادِ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ وأَسْفَلُهُ بالمَرْخِ والشَّبَهانِ (١)

المعنى : وأسفله ينبت المرخ ؛ وقال آخر :

هُنَّ الحرائر لاربَّاتُ أَخْمِرَةٍ سودُ المحاجرِ لايَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ (٢)

---

(١) البيت للأحول اليشكري واسمه يعلى ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/٤٨ ، و « الطبري » : ١٦/٧٢ و ١٧/١٣٨ ، و « الجمهرة » : ١/٤٥ ، ٣/٤١٤ ، و « اللسان » : (شث ، شبه) ، و « الاقتضاب » ص ٤٥٧ ، و « القرطبي » : ١٢/٣٦ . والشث : ضرب من الشجر ، والمرخ : شجر كثير الوري سريعه ، والشبهان : نبت يشبه الثمام ، أو ضرب من العضاه . والشاهد في البيت زيادة الباء في كلمة « بالمرخ » .

(٢) هو في « مجاز القرآن » : ١/٤ ، و « الجمهرة » : ٣/٤١٤ ، و « الصحاح » ، —

وقال آخر :

نحن بنو جعدة أربابُ الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج [1]

هذا قول جمهور اللغويين. قال ابن قتيبة : والباء قد تزاد في الكلام ، كهذه الآية ، وكقوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) [العلق : ١] (وهزّي إليك بجذع النخلة) [مريم : ٢٤] (بأيّكم المفتون) [القلم : ٦] (تُلقُون إليهم بالمودَّة) [الممتحنة : ١] (عيناً يشرب بها) [الانسان : ٦] أي : يشربها ؛ وقد تزاد « من » ، كقوله تعالى : (ما أُريد منهم من رزق) [الذاريات : ٥٧] ، وتزاد « اللام » كقوله تعالى : (الذين هم لربهم يرهبون) [الاعراف : ١٥٤] ، والكاف ، كقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) [الشورى : ١١] ، و « عن » ، كقوله تعالى : (يخالفون عن أمره) [النور : ٦٣] ، و « إنّ » ؛ كقوله تعالى : (فانَّه ملاقيكم) [الجمعة : ٨] ، و « إنْ » الخفيفة ، كقوله تعالى : (فيما إن مكنّاكم فيه) [الاحقاف : ٢٦] ، و « ما » ، كقوله تعالى : (عما قليل ليصبحنّ نادمين) [المؤمنون : ٤٠] ، و « الواو » ، كقوله تعالى : (وتلّه للجبين ، وناديناه) [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] .

وفي المراد بهذا الإلحاد خمسة أقوال .

أحدها : أنه الظلم ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد : هو عمل سيئة ؛ فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي ، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال : لاتحتكروا الطعام بمكة ، فان احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم [2] .

ـــ و « اللسان » ، و « التاج » : (سور) ، و « القرطبي » : ١/١٥٨ ، و « شواهد المغني » : ١١٦ ، و « الخزانة » : ٣/٦٦٨ .

(١) البيت لراجز من بني جعدة ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/٥٦ ، و « الاقتضاب » ص : ٤٥٨ ، و « شواهد المغني » ص : ١١٤ ، و « الخزانة » : ٤/١٥٩ .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٥١ من رواية سعيد بن منصور ، والبخاري في « تاريخه » ، وابن المنذر ، عن عمر رضي الله عنه موقوفاً بلفظ « احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم » .

والثـاني : أنه الشرك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثالث : الشرك والقتل ، قاله عطاء .

والرابع : أنه استحلال محظورات الإحرام ، وهذا المعنى محكيٌّ عن عطاء أيضاً .

والخامس : استحلال الحرام تعمُّداً ، قاله ابن جريج .

فان قيل : هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة ، ولم يفعله ؟

فالجواب من وجهين .

أحدهما : أنه إذا همَّ بذلك في الحرم خاصّة ، عوقب ، هذا مذهب ابن مسعود ، فانه قال : لو أن رجلاً همَّ بخطيئة ، لم تكتب عليه مالم يعملها ، ولو أن رجلاً همَّ بقتل مؤمن عند البيت ، وهو بـ «عَدَن أَبْيَن » ، أذاقه الله في الدنيا من عذاب أليم . وقال الضحاك : إن الرجل ليهمُّ بالخطيئة بمكة وهو بأرضٍ أخرى ، فتكتب عليه ولم يعملها . وقال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات . وسئل الإمام أحمد : هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ فقال : لا ، إلا بمكة لتعظيم البلد . وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها ؛ وقد جاور جابر بن عبد الله، وكان ابن عمر يقيم بها .

والثاني : أن معنى : « ومن يرد » : من يعمل . قال أبو سليمان الدمشقي : هذا قول سائر من حفظنا عنه .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ

مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

قوله تعالى : (وإذ بوّأنا لإبراهيم) قال ابن عباس : جعلنا . وقال مقاتل : دللناه عليه . وقال ثعلب : وإنما أدخل اللام، على أنّ « بوّأنا » في معنى : جعلنا ، فيكون بمعنى « ردف لكم » [النمل : ٧٢] أي : ردفكم . وقد شرحنا كيفية بناء البيت في (البقرة : ١٢٩) .

قوله تعالى : (أن لاتشرك بي شيئاً) المعنى : وأوحينا إليه ذلك [١] ، (وطهر بيتيَ) حرّك هذه الياء ، نافع وحفص عن عاصم . وقد شرحنا الآية في (البقرة : ١٢٥) .

وفي المراد بـ « القائمين » قولان . أحدهما : القائمون في الصلاة ، قاله عطاء ، والجمهور . والثاني : المقيمون بمكة ، حكي عن قتادة .

قوله تعالى : (وأذّن في الناس بالحج) قال المفسرون : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، أمره الله تعالى أن يؤذّن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يارب ، وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذّن ، وعليّ البلاغ ، فعلا على جبل أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس : إن ربكم قد بنى بيتاً ، فحجّوه ، فأسمع مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله أن يحج ، فأجابوه : لبيك اللهم لبيك [٢] . والأذان بمعنى النداء والإعلام ، والمأمور بهذا الأذان ، إبراهيم في قول الجمهور ،

---

(١) قال ابن كثير : هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أُسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له .

(٢) قال ابن كثير : هذا مضمون ماورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، والله أعلم ، قال : وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة . اهـ .

إلا ماروي عن الحسن أنه قال : المأمور به محمد ﷺ . والناس هاهنا : اسم يعم جميع بني آدم عند الجمهور ، إلا ماروى العوفي عن ابن عباس أنه قال : عنى بالناس أهل القبلة .

واعلم أن من أتى البيت الذي دعا إليه إبراهيم ، فكأنه قد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه . وواحد الرجال هاهنا : راجل ، مثل صاحب ، وصحاب ، والمعنى : يأتوك مشاةً . وقد روي أن إبراهيم وإسماعيل حجّا ماشيين ، وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة ، والنجائب تُقاد معه . وحج الإمام أحمد ماشياً مرتين أو ثلاثاً [(١)] .

قوله تعالى : (وعلى كل ضامرٍ) أي : ركباناً على ضُمَّر من طول السفر . قال الفراء : و « يأتين » فعل للنوق . وقال الزجاج : « يأتين » على معنى الإبل . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : « يأتون » بالواو .

قوله تعالى : (من كل فج عميق) أي : طريق بعيد . وقد ذكرنا تفسير الفجّ عند قوله تعالى : (وجعلنا فيها فجاجاً) [الانبياء : ٣١] .

قوله تعالى : (ليشهدوا) أي : ليحضروا (منافع لهم) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : التجارة ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : منافع الآخرة ، قاله سعيد بن المسيب ، والزجاج في آخرين .

---

(١) من المتفق عليه أن الحج جائز راكباً وماشياً ، وقد اختلف في الأفضل منها ، فقال بعضهم : المشي أفضل ، وقال جمهور الفقهاء : الركوب أفضل ، اقتداءً بالنبي ﷺ ، ولأنه أعون على القيام بوظائف مناسك الحج ، فمن هنا نعلم أن من حج بالطائرة مثلاً ، ووجد الراحة ، وقام بالمناسك كاملة ، أفضل ممن ذهب إلى الحج ماشياً وحصلت له مشقة ، فضجر ، أو لم يستطع القيام بالمناسك على الوجه الكامل .

والثالث : منافع الدارين جميعاً ، قاله مجـاهد . وهو أصح ، لأنه لايكون القصد للتجارة خاصة ، وإنما الأصل قصدُ الحج ، والتجارة تَبَع .

وفي الأيام المعلومات ستة أقوال .

أحدها : أنها أيام العشر[1] ، رواه مجاهد عن ابن عمر ، وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والشافعي

والثاني : تسعة أيام من العشر ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثالث : يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده ، رواه نافع عن ابن عمر ، ومقسم عن ابن عباس .

والرابـع : أنها أيام التشريق ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قـال عطاء الخراساني ، والنخعي ، والضحاك .

والخامس : أنها خمسة أيام ، أولها يوم التروية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والسادس : ثلاثة أيام ، أولها يوم عرفة ، قاله مالك بن أنس . وقيل : إنما قال : « معلومات » ، ليحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرهـا . قال الزجاج : والذِّكْر هاهنا يدل على التسمية على مايُنحَر ، لقوله تعالى : (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ؛ قال القاضي أبو يعلى : ويحتمل أن يكون الذِّكر المذكور هـاهنا : هو الذِّكر على الهدايا الواجبة ، كالدم الواجب لأجل التمتع والقران ، ويحتمل أن يكون الذِّكر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق ، لأن الآية عامَّة في ذلك .

---

(١) أي عشر ذي الحجة ، وقد قال رسول الله ﷺ في فضلهـــا : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام » (يعني عشر ذي الحجة) قالوا : يارسول الله ، ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » رواه البخاري في « صحيحه » ٢/٣٨٢ ، وأبو داود رقم (٢٤٣٨) واللفظ له .

قوله تعالى : (فكلوا منها) يعني : الأنعام التي تُنحر ؛ وهذا أمر إباحة . وكان أهل الجاهلية لا يستحلّون أكل ذبائحهم ، فأعلم الله عز وجل أن ذلك جائز ، غير أن هذا إنما يكون في الهدي المتطوَّع به ، فأما دم التمتع والقران ، فعندنا [١] أنه يجوز أن يأكل منه ، وقال الشافعي : لا يجوز [٢] ، وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال : من كل الهدي يؤكل ، إلا ما كان من فداء أو جزاء أو نذر [٣] . فأما « البائس » فهو ذو البؤس ، وهو شدة الفقر .

قوله تعالى : (ثم ليقضوا تفثهم) فيه أربعة أقوال .

أحدها : حلق الرأس ، وأخذ الشارب ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وقص الأظفار ، والأخذ من العارضين ، ورمي الجمار ، والوقوف بعرفة ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : مناسك الحج ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول ابن عمر .

والثالث : حلق الرأس ، قاله مجاهد .

---

(١) أي : معاشر الحنابلة .

(٢) وكذلك قال الامام النووي في « الروضة » : ٣/١٩١ طبع المكتب الاسلامي ، لأنه دم واجب ، ولكن الحنابلة - كما ذكر المصنف - أجازوا أن يأكل من هدي التمتع والقران ، وهو قول الحنفية بناءً على أصلهم أن دم التمتع والقران ، دم نسك ، لا دم جبران . وقد صح أن أزواج النبي ﷺ تمتعن معه في حجة الوداع ، وأدخلت عائشة رضي الله عنها الحج على العمرة حين حاضت فصارت قارنة ، ثم ذبح ﷺ عنهن البقر فأكلن من لحمها ، وثبت أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فأكل ﷺ هو وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه من لحمها ، وشربا من مرقها . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » (٥/١٩٢) : والظاهر أنه يجوز الأكل من الهدي من غير فرق بين ما كان منه تطوعاً وما كان فرضاً ، لعموم قوله تعالى : (فكلوا منها) ، ولم يفصل .

(٣) في البخاري تعليقاً عن ابن عمر رضي الله عنهما : لا يؤكل من جزاء الصيد والنذر ، ويؤكل مما سوى ذلك ، قال الحافظ ابن حجر : ووصله ابن أبي شيبة بمعناه .

والرابع : الشعر ، والظفر ، قاله عكرمة .

والقول الأول أصح ، لأن التفث : الوسخ ، والقذارة : من طول الشعر والأظفار والشعث . وقضاؤه : نقضه ، وإذهابه . والحاج مغبَّر شعث لم يدّهن ، ولم يستحدّ ، فاذا قضى نسكه ، وخرج من إحرامه بالحلق ، والقلم ، وقص الأظفار ، ولبس الثياب ، ونحو ذلك ، فهذا قضاء تفثه . قال الزجاج : وأهل اللغة لايعرفون التفث إلا من التفسير ، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال .

قوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) وروى أبو بكر عن عاصم : « ولْيوفّوا » بتسكين اللام وتشديد الفاء . قال ابن عباس : هو نحر ما نذروا من البُدن . وقال غيره : ما نذروا من أعمال البرِّ في أيام الحج ، فان الإنسان ربما نذر أن يتصدق إن رزقه الله رؤية الكعبة ، وقد يكون عليه نذور مطلقة ، فالأفضل أن يؤدِّيَها بمكة .

قوله تعالى : (وليطوّفوا بالبيت العتيق) هذا هو الطواف الواجب ، لأنه أمر به بعد الذبح ، والذبح إنما يكون في يوم النحر ، فدل على أنه الطواف المفروض .

وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أقوال .

أحدها : لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة . روى عبد الله بن الزبير ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما سمى الله البيت : العتيق ، لأن الله أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبّار قط » [1] وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلاً . قال ابن كثير : وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربي عن عبد الله بن صالح به ، وقال : إن كان صحيحاً . وذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٥٧ ، وزاد نسبته للبخاري في « تاريخه » ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » عن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه .

والثاني : أن معنى العتيق : القديم ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والثالث : لأنه لم يملك قط ، قاله مجاهد في رواية ، وسفيان بن عيينة .

والرابع : لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان ، قاله ابن السائب . وقد تكلَّمنا في هذه السورة في « ليقضوا » « وليوفوا » « وليطوفوا » .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك ، يعني : ما ذكر من أعمال الحج (ومن يعظِّم حرمات الله) فيجتنب ما حرم الله عليه في الإحرام تعظيماً لأمر الله . قال الليث : الحرمة : ما لا يحلُّ انتهاكه . وقال الزجاج : الحرمة : ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه .

قوله تعالى : (فهو) يعني : التعظيم (خير له عند ربه) في الآخرة (وأُحلَّت لكم الأنعام) وقد سبق بيانها [المائدة : ١] (إلا ما يتلى عليكم) تحريمه ، يعني [به] : ما ذكر في (المائدة : ٣) من المنخنقة وغيرها . وقيل : وأُحلت لكم الأنعام في حال إحرامكم ، إلا ما يتلى عليكم في الصيد ، فإنه حرام .

قوله تعالى : (فاجتنبوا الرجس) أي : دعوه جانباً ، قال الزجاج : و « مِن » هاهنا ، لتخليص جنس من أجناس ، المعنى : فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن . وقد شرحنا معنى الرجس في (المائدة : ٩٠) .

وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال .

أحدها : شهادة الزور ، قاله ابن مسعود . والثاني : الكذب ، قاله مجاهد . والثالث : الشرك ، قاله أبو مالك . والرابع : أنه قول المشركين في الأنعام : هذا حلال ، وهذا حرام ، قاله الزجاج ، قال : وقوله تعالى : (حنفاء لله) منصوب على الحال ، وتأويله : مسلمين لا يُنسَبون إلى دين غير الإسلام . ثم ضرب الله مثلاً للمشرك ، فقال : (ومن يشرك بالله) إلى قوله : (سحيق) ، والسحيق : البعيد .

واختلفوا في قراءة « فتخطَفُه » فقرأ الجمهور : « فتخطَفُه » بسكون الخاء من غير تشديد الطاء . وقرأ نافع : بتشديد الطاء . وقرأ أبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : بفتح التاء والخاء وتشديد الطاء ونصب الفاء . وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران [الجوني] : بكسر التاء والخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء . وقرأ الحسن ، والأعمش : بفتح التاء وكسر الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء . وكلهم فتح الطاء .

وفي المراد بهذا المثَل قولان .

أحدهما : أنه شبَّه المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه ، بالذي يَخِرُّ من السماء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه شبَّه حال المشرك في أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضر يوم القيامة ، بحال الهاوي من السماء ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (ذلك) أي : الأمر ذلك الذي ذكرناه (ومن يعظم شعائر الله) قد شرحنا معنى الشعائر في (البقرة : ١٥٨) .

وفي المراد بها هاهنا قولان .

أحدهما : أنها البدن . وتعظيمها : استحسانها ، واستسمانها (لكم فيها منافع)

قبل أن يُسمّيَها صاحبها هدياً، أو يشعرها ويوجبها ، فإذا فعل ذلك، لم يكن له من منافعها شيء ، روى هذا المعنى مقسم عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك . وقال عطاء ابن أبي رباح : لكم في هذه الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا إذا احتجتم إلى شيء من ذلك أو اضطررتم إلى شرب ألبانها (إلى أجل مسمًّى) وهو أن تُنحَر .

والثاني : أن الشعائر : المناسك ومشاهد مكة ؛ والمعنى : لكم فيها منافع بالتجارة إلى أجل مسمًّى ، وهو الخروج من مكة ، رواه أبو رزين عن ابن عباس . وقيل : لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى ، وهو انقضاء أيام الحج .

قوله تعالى : (فإنها) يعني الأفعال المذكورة ، من اجتناب الرجس وقول الزور، وتعظيم الشعائر . وقال الفراء : « فإنها » يعني الفعلة (من تقوى القلوب)، وإنما أضاف التقوى إلى القلوب ، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب .

قوله تعالى : (ثُمَّ مَحِلُّها) أي : حيث يَحِلُّ نحرها (إلى البيت) يعني : عند البيت ، والمراد به : الحرم كلّه ، لأنا نعلم أنها لا تذبح عند البيت ، ولا في المسجد ، هذا على القول الأول ؛ وعلى الثاني ، يكون المعنى : ثم مَحِلُّ الناس من إحرامهم إلى البيت ، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكل أُمَّة جعلنا منسكاً) قرأ حمزة ، والكسائي ، وبعض

أصحاب أبي عمرو بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها . فمن فتح أراد المصدر، من نَسَكَ يَنسُكُ ، ومن كسر أراد مكان النُّسُك كالمجلِس والمطلِع . ومعنى الآية : لكلِّ جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) ، وإنما خص بهيمة الأنعام ، لأنها المشروعة في القُرَب . والمراد من الآية : أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة ، وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة .

قوله تعالى : (فإلهكم إله واحد) أي : لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم سواه (فله أسلموا) أي : انقادوا واخضعوا . وقد ذكرنا معنى الإخبات في (هود : ٢٣) وكذلك ألفاظ الآية التي تلي هذه .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَاهَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (والبُدْنَ) وقرأ الحسن ، وابن يعمر برفع الدال . قال الفراء : يقال : بُدْن وبُدُن ، والتخفيف أجود وأكثر ، لأن كل جمع كان واحده على « فَعَلَة » ثم ضُمَّ أول جمعه ، خُفِّف ، مثل أَكَمَة وأُكْم ، وأَجَمَة وأُجْم ، وخَشَبَة وخُشْب . وقال الزجاج : « البُدْنَ » منصوبة بفعل مُضمر يفسره الذي ظهر ، والمعنى : وجعلنا البُدْنَ ؛ وإن شئتَ رفعتها على الإستئناف ، والنصب أحسن ؛ ويقال : بُدْن وبُدُن وبَدَنة ، مثل قولك : ثُمْر وثُمُر وثَمَرة ؛ وإنما سمِّيت بَدَنَة ، لأنها تَبْدُن ، أي : تسمن .

والمفسرين في البُدْن قولان .

أحدهما : أنها الإبل والبقر ، قاله عطاء .

والثاني : الإبل خاصة ، حكاه الزجاج ، وقال : الأول قول أكثر فقهاء الأمصار . قال القاضي أبو يعلى : البدنة : اسم يختص الإبل في اللغة ، والبقرة تقوم مقامها في الحكم ، لأن النبي ﷺ جعل البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة [1] .

قوله تعالى : (جعلناها لكم من شعائر الله) أي : جعلنا لكم فيها عبادة لله ، من سَوْقها إلى البيت ، وتقليدها ، وإشعارها ، ونحرها ، والإطعام منها ، (لكم فيها خير) وهو النفع في الدنيا والأجر في الآخرة ، (فاذكروا اسم الله عليها) أي : على نحرها ، (صَوَافَّ) وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة : « صَوافن » بالنون . وقرأ الحسن ، وأبو مجلز ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن يعمر : « صَوافي » بالياء . قال الزجاج : « صَوافَّ » منصوبة على الحال ، ولكنها لا تنوَّن لأنها لا تنصرف ؛ أي : قد صفَّت قوائمها ، والمعنى : اذكروا اسم الله عليها في حال نحرها ، والبعير يُنحَر قائماً ، وهذه الآية تدل على ذلك . ومن قرأ : « صوافن » فالصافن : التي تقوم على ثلاث ، والبعير إذا أرادوا نحره ، تُعقل إحدى يديه ، فهو الصافن ، والجميع : صوافن . هذا ومن قرأ : « صوافيَ » بالياء وبالفتح بغير تنوين ، فتفسيره : خوالص ، أي : خالصة لله لا تشركوا به في التسمية على نحرها أحداً . (فاذا وجبت جنوبها) أي : إذا سقطت إلى الأرض ، يقال : وَجَبَ الحائط وَجْبَة ،

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٢/٩٥٥ عن جابر رضي الله عنه قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وفي رواية لأحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ فحضر الأضحى ، فذبحنا البقرة عن سبعة ، والبعير عن عشرة . قال الشوكاني في « نيل الأوطار » ٥/١٨٥ : ويشهد له ما في « الصحيحين » من حديث رافع بن خديج أنه ﷺ قسم فعدل عشراً من الغنم ببعير .

إذا سقط . ووَجَبَ القلب وَجيباً : إذا تحرك من فزع . واعلم أن نحرها قياماً سُنَّة ، والمراد بوقوعها على جُنوبها : موتها ، والأمر بالأكل منها أمر إباحة ، وهذا في الأضاحي .

قوله تعالى : (وأطْعِموا القانعَ والمُعْتَرَّ) وقرأ الحسن : « والمُعْتَرِ » بكسر الراء خفيفة . وفيهما ستة أقوال .

أحدها : أن القانع : الذي يَسأل ، والمعترّ : الذي يتعرَّض ولا يسأل ، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، واختاره الفراء .

والثاني : أن القانع : المتعفّف ، والمعترّ : السائل ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والنخعي . وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أن القانع : المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعترّ : الذي يتعرَّض لك ويُلِمُّ بك ولا يسأل ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد : القانع : جارك الذي يقنع بما أعطيته ، والمعترّ : الذي يتعرَّض ولا يسأل ، وهذا مذهب القرظي . فعلى هذا يكون معنى القانع : أن يقنع بما أُعطي . ومن قال : هو المتعفف ، قال : هو القانع بما عنده .

والرابع : القانع : أهل مكة ، والمعترّ : الذي يعترُّ بهم من غير أهل مكة ، رواه خصيف عن مجاهد .

والخامس : القانع : الجار وإن كان غنيّاً ، والمعترّ : الذي يعترُّ بك ، رواه ليث عن مجاهد .

والسادس : القانع : المسكين السائل ، والمعترّ : الصَّديق الزائر ، قاله زيد ابن أسلم . قال ابن قتيبة : يقال : قَنَع يَقْنَع قُنوعاً : إذا سأل ، وقَنِع يَقْنَع

قَنَاعة : إذا رضي ، ويقال في المعتر : اعترّني واعتراني وعَرَاني . وقال الزجاج : مذهب أهل اللغة أن القانع : السائل ، يقال : قَنَع يَقْنَع قُنُوعاً : إذا سأل ، فهو قانع ، قال الشماخ :

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أعَفُّ مِنَ القُنُوعِ [١]

أي:من السؤال ؛ ويقال : قَنِع قَنَاعة : إذا رضي، فهو قَنِع ، والمعترّ والمعتري واحد .

قوله تعالى : (كذلك) أي : مثل ماوصفنا من نحرها قائمة (سخّرناها لكم) نِعمة منّا عليكم لتتمكّنوا من نحرها على الوجه المسنون (لعلكم تَشكُرون) أي : لكي تَشكُروا .

قوله تعالى : (لن ينالَ اللهَ لحومُها) وقرأ عاصم الجحدري ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : « لن تنال اللهَ لحومُها » بالتاء (ولكن تنالُه التقوى) بالتاء أيضاً .

سبب نزولها أن المشركين كانوا إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [٢] . قال المفسرون : ومعنى الآية : لن تُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤها ، وإنما يُرفع إليه التقوى ؛ وهو ما أُرِيدَ به وجهُه منكم . فمن قرأ « تناله التقوى » بالتاء ، فانه أنث للفظ التقوى . ومن قرأ : « يناله » بالياء ، فلأن التقوى والتُّقى واحد . والإشارة بهذه الآية إلى أنه لايقبل اللحوم والدّماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله ، وإنما يتقبل مايتقونه به ، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عريت عن نيّة صحيحة .

---

(١) « مجاز القرآن » : ٢/٥١ ، و « الطبري » : ١٧/١٦٨ ، و « القرطبي » : ١٢/٦٤ ، و « اللسان » : قنع .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٦٣ من رواية ابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس .

قوله تعالى : (كذلك سخَّرها) قد سبق تفسيره [الحج : ٣٧] ، (لتُكبِّروا الله على ماهداكم) أي : على مابيَّن لكم وأرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجِّه ، وذلك أن يقول : الله أكبر على ماهدانا ، (وبَشِّر المحسنين) قال ابن عباس : يعني : الموحِّدين .

﴿ إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لايُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

قوله تعالى : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يدفع » « ولولا دفع الله » بغير ألف ، وهذا على مصدر « دَفع » . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « إن الله يدافع » بألف « ولولا دفع » بغير ألف ، وهذا على مصدر « دافعَ » ، والمعنى : يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم ونصرهم عليهم . قال الزجاج : والمعنى : إذا فعلتم هذا وخالفتم الجاهلية فيما يفعلونه من نحرهم وإشراكهم ، فان الله يدفع عن حزبه . والـ « خوَّان » فعّال من الخيانة ، والمعنى : أنَّ مَنْ ذكر غير اسم الله ، وتقرَّب إلى الأصنام بذبيحته ، فهو خوَّان .

قوله تعالى : (أُذِنَ للَّذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ،

وحمزة ، والكسائي : « أَذِنَ » بفتح الألف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : « أُذِنَ » بضمها .

قوله تعالى : (الذين يقاتَلون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ؛ وأبو بكر عن عاصم : بكسر التاء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : بفتحها . قال ابن عباس : كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فيقول لهم : « اصبروا ، فاني لم أُومر بالقتال » حتى هاجر رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية ، وهي أول آية أُنزلت في القتال [1] . وقال مجاهد : هم ناس خرجوا من مكة مهاجرين ، فأدركهم كفار قريش ، فأُذن لهم في قتالهم . قال الزجاج : معنى الآية : أُذن الذين يقاتَلون أن يقاتِلوا . (بأنهم ظُلموا) أي : بسبب ما ظُلموا . ثم وعدهم النصر بقوله : (وإنَّ الله على نصرهم لقدير) ولا يجوز أن تقرأ بفتح « إن » هذه من غير خلاف بين أهل اللغة ، لأن « إنَّ » إذا كانت معها اللام ، لم تُفتح أبداً . وقوله : (إلا أن يقولوا ربُّنا الله) معناه : أُخرِجوا لتوحيدهم .

قوله تعالى : (ولولا دَفْعُ الله الناسَ) قد فسرناه في (البقرة : ٢٥١) .

قوله تعالى : (لهدِّمت) قرأ ابن كثير ، ونافع : « لَهُدِمَتْ » خفيفة ، والباقون بتشديد الدال .

فأما الصوامع ، ففيها قولان .

أحدها : أنها صوامع الرهبان ، قاله ابن عباس ، وأبو العالية ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنها صوامع الصابئين ، قاله قتادة ، وابن قتيبة .

فأما البِيَع ، فهي جمع بِيعة ، وهي بِيَع النصارى .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي صفحة ١٧٧ بدون سند ، وذكره كثير من المفسرين هكذا بدون سند . وذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » : ٣/١٦٤ في بيعة العقبة الثانية من رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن كعب بن مالك .

وفي المراد بالصلوات قولان .

أحدها : مواضع الصلوات . ثم فيها قولان . أحدها : أنها كنائس اليهود ، قاله قتادة ، والضحاك ، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : قوله : (وصلوات) هي كنائس اليهود ، وهي بالعبرانية « صلوتا » . والثاني : أنها مساجد الصابئين ، قاله أبو العالية .

والقول الثاني : أنها الصلوات حقيقة ، والمعنى : لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين ، لانقطعت الصلوات في المساجد ، قاله ابن زيد .

فأما المساجد ، فقال ابن عباس : هي مساجد المسلمين . وقال الزجاج : معنى الآية : لولا دفع بعض الناس ببعض لهدّمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيَع ، وفي زمن محمد المساجد .

وفي قوله : (يُذْكَرُ فيها اسم الله) قولان .

أحدها : أن الكناية ترجع إلى جميع الأماكن المذكورات ، قاله الضحاك .

والثاني : إلى المساجد خاصة ، لأن جميع المواضع المذكورة ، الغالب فيها الشِّرك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه) أي : من ينصر دينه وشرعه .

قوله تعالى : (الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض) قال الزجاج : هذه صفة ناصريه . قال المفسرون : التمكين في الأرض : نصرتهم على عدوّهم ، والمعروف : لاإله إلا الله ، والمنكر : الشِّرك . قال الأكثرون : وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ . وقال القرظي : هم الولاة .

قوله تعالى : (ولله عاقبة الأمور) أي : إليه مرجعها ، لأن كلَّ مُلك يَبْطُل سوى مُلكه .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ . وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (ثم أَخَذْتُهم) أي : بالعذاب (فكيف كان نكير) أثبت الياء في « نكير » يعقوب [في الحالَيْن] ، ووافقه ورش في إثباتها في الوصل ، والمعنى : كيف [أنكرت عليهم مافعلوا من التكذيب بالإهلاك ؟ ! والمعنى : إني] أنكرتُ عليهم أبلغ إنكار ، وهذا استفهام معناه التقرير .

قوله تعالى : (أهلكتُها) قرأ أبو عمرو : « أهلكتُها » بالتاء ، والباقون : « أهلكناها » بالنون .

قوله تعالى : (وبئر معطَّلة) قرأ ابن كثير ، [وعاصم] ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « وبئر » مهموز . وروى ورش عن نافع بغير همز ، والمعنى : وكم بئرٍ معطَّلة ، أي : متروكة (وقصر مَشيد) فيه قولان .

أحدها : مجصَّص ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . قال الزجاج : أصل الشِّيد : الجصُّ والنُّورة ، وكل مابني بهما أو بأحدهما فهو مَشيد .

والثاني : طويل ، قاله الضحاك ، ومقاتل . وفي الكلام إضمار ، تقديره : وقصر مشيد معطَّل أيضاً ليس فيه ساكن .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن

يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (أفلم يَسيروا) قال المفسرون : أفلم يَسِر قومك في أرض اليمن والشام (فتكونَ لهم قلوب يَعْقِلون بها) إذا نظروا آثار من هلك (أو آذان يَسْمَعون بها) أخبار الأمم المكذّبة (فانها لاتعمى الأبصار) قال الفراء : الهاء في قوله : « فانها » عماد ، والمعنى : أن أبصارهم لم تعم ، وإنما عميت قلوبهم . وأما قوله : (التي في الصدور) فهو توكيد ، لأن القلب لايكون إلا في الصدر ، ومثله : (تلك عَشَرة كاملة) [البقرة:١٩٦] ، (يطير بجناحيه) [الانعام : ٣٨] ، (يقولون بأفواههم) [آل عمران : ١٦٧] .

قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب) قال مقاتل : نزلت في النضر بن الحارث القرشي . وقال غيره : هو قولهم له : (متى هذا الوعد) [الملك : ٢٥] ونحوه من استعجالهم ، (ولن يُخْلِف الله وعده) في إنزال العذاب بهم في الدنيا ، فأنزله بهم يوم بدر ، (وإن يوماً عند ربّك) أي : من أيام الآخرة (كألف سنة مما تَعُدُّون) من أيام الدنيا . قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تَعُدُّون » بالتاء . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « يَعُدُّون » بالياء .

فان قيل : كيف انصرف الكلام من ذِكْر العذاب إلى قوله : « وإن يوماً عند ربّك » ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا ، فقيل لهم : لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا ، وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سنيّ الدنيا ، فكيف تستعجلون بالعذاب ؟! فقد تضمنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة ، هذا قول الفراء .

والثاني : وإن يوماً عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم ، فلا فرق بين وقوع مايستعجلونه وبين تأخيره في القدرة ، إلا أن الله تفضّل عليهم بالإمهال ، هذا قول الزجاج .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

قوله تعالى : (ورِزْقٌ كريم) يعني به [الرزق] الحَسَن في الجنة .

قوله تعالى : (والذين سَعَوا في آياتنا) أي : عملوا في إبطالها (مُعاجِزين) قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « مُعجِزين » بغير ألف . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « مُعاجِزين » بألف . قال الزجاج : « مُعاجِزين » أي : ظانّين أنهم يُعجزوننا ، لأنهم ظنوا أنهم لايُبعثون وأنه لا جنة ولا نار . قال : وقيل في التفسير : مُعاجِزين : معانِدين ، وليس هو بخارج عن القول الأول ؛ و « معجزين » تأويلها : أنهم كانوا يعجّزون من اتّبع النبيَّ ﷺ ويثبّطونهم عنه .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول) الآية . قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه سورة (النجم) قرأها حتى بلغ قوله : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) [النجم : ١٩ ، ٢٠] ، فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ؛ فلما سمعت قريش بذلك فرحوا ، فأتاه جبريل ، فقال : ماذا صنعتَ ؟ تلوتَ على الناس مالم آتِكَ به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، فنزلت هذه الآية تطييباً لقلبه ، وإعلاماً له أن الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا . قال العلماء المحققون : وهذا لا يصح [1] ، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا ، ولو صح ، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات ، فانهم كانوا إذا تلا لغطوا ، كما قال الله عز وجل : (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه) [فصّلت : ٢٦] . قال : وفي معنى « تمنى » قولان .

أحدهما : تلا ، قاله الأكثرون [2] ، وأنشدوا :

---

(١) قال ابن كثير ٣/٢٢٩ : قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم ، وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة ، ثم قال في آخرها : وكلها مرسلات ، ومنقطعات والله أعلم . اه . والحق أن روايات هذه القصة معلّة بالارسال والضعف والجهالة ، وليس فيها رواية صحيحة تصلح الاحتجاج ، بل فيها مالا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وذُكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله ﷺ بما فيه مدح لأصنام المشركين بهذه الجملة الباطلة : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؟ ! وذلك مما يدل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً ومتناً . وممن تكلم من العلماء على هذه القصة وبيَّن بطلانها بكلام طويل ، القاضي أبو بكر ابن العربي ، والقاضي عياض ، والشوكاني ، والآلوسي ، وغيرهم .

(٢) قال الامام ابن القيم في « إغاثة اللهفان » : ١/٩٣ في فصل الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن ـ بعد أن عدَّد وجوهاً ـ : ومنها أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه ما أرسل ـــ

تمنَّى كتابَ اللهِ أوّلَ ليلهِ وآخرَه لاقى حِمامَ المقادِرِ [(١)]

وقال آخر :

تمنَّى كتابَ اللهِ آخرَ ليلهِ تمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ [(٢)]

ـــ من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، ثم قال : والسلف كلهم على أن المعنى : إلا إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ، ثم قال : فاذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام ، فكيف بغيرهم ؟ ! ولهذا يغلّط القارىء تارة ، ويخلط عليه القراءة ، ويشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فاذا حضر عند القراءة ، لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا ، وربما جمعها له ، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه . اهـ .
وقال الامام ابن جرير الطبري في « التفسير » ١٩٠/١٧ بعد ماذكر عن الضحاك أن معنى قوله تعالى : (إذا تمنى) : التلاوة والقراءة : وهذا القول أشبه بتأويل الكلام ، بدلالة قوله تعالى : (فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) على ذلك ، لأن الآيات التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لاشك أنها آيات تنزيله ، فمعلوم أن الذي ألقى فيه الشيطان ، هو ماأخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه ، فتأويل الكلام إذن : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ ، أو حدّث وتكلم ، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه ، أو في حديثه الذي حدّث وتكلم (فينسخ الله مايلقي الشيطان) ، يقول تعالى : فيُذهبُ الله مايلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله . اهـ .

فهذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة ، وليس فيهـا إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ﷺ للقرآن مايفتتن به الذين في قلوبهم مرض ، ولكن أعداء الاسلام مافتئوا دائماً يدسون في هذا الدين مالبس منه ، ومالم يقله رسول الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، فيذكرون مالا يليق بمنصب النبوة ومقام الرسالة ، كما فعلوا في كثير من الآيات الواردة في غير نبينا محمد ﷺ ، كيوسف ، وأيوب ، وداود ، وسليمان عليهم السلام ، فيذكرون في تفسيرها من الاسرائيليات التي لايجوز نسبتها لآحاد النـاس ، فضلاً عن نبي مرسل ، أو رسول مقدم ، فليتنبه المسلمون لذلك ، وليأخذوا التفسير من العلماء المحققين حتى لايرموا الأنبياء والمرسلين فيما هم منه معصومون .

(١) « مجاز القرآن » : ٥٤/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : مني .

(٢) « مجاز القرآن » : ٥٤/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : مني .

والثاني : أنه من الأمنية ، وذلك أن رسول الله ﷺ تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومُه ، فألقى الشيطان على لسانه لما كان قد تمناه ، قاله محمد بن كعب القرظي[١].

قوله تعالى : (فَينْسَخُ الله ما يُلقي الشيطان) أي : يُبطله ويُذهبه (ثم يُحْكِمُ الله آياته) قال مقاتل : يُحْكِمُها من الباطل .

قوله تعالى : (ليجعل) اللام متعلقة بقوله : « ألقى الشيطان » ، والفتنة هاهنا بمعنى البلية والمحنة . والمرضُ : الشك والنفاق . (والقاسيةِ قلوبهم) يعني : الجافية عن الإيمان . ثم أعلمه أنهم ظالمون وأنهم في شقاق دائم ، والشقاق : غاية العداوة .

قوله تعالى : (وليَعْلَمَ الذين أوتوا العلم) وهو التوحيد والقرآن ، وهم المؤمنون . وقال السدي : التصديق بنسخ الله .

قوله تعالى : (أنّه الحق) إشارة إلى نسخ ما يلقي الشيطان ؛ فالمعنى : ليعلموا أن نسخ ذلك وإبطاله حق من الله (فيؤمنوا) بالنسخ (فتُخْبِتَ له قلوبهم) أي : تخضع وتَذِلّ . ثم بيّن بباقي الآية أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف الله وهدايته .

(١) هذه الرواية من جملة الروايات التي تكلم عليها العلماء المحققون ، وبينوا بطلانها ، وأنه لايجوز نسبتها إلى آحاد الناس ، فضلاً عن رسول الله ﷺ المعصوم . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي : تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة - الذين هم بجهلهم أعداء على الاسلام أكثر ممن صرح بعداوته - إن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى أن لاينزل عليه من الله وحي ، فكيف يجوز لمن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه ، وأراد أن لايقطع انسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه ، وأنس وحشته ، وغاية أمنيته ، وكان رسول الله ﷺ أجود الناس ، فاذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، أفيؤثر على هذا مجالسته للأعداء ؟ ! .

قوله‌تعالى : (في مِرْيَة منه) أي : في شكّ .

وفي هاء « منه » أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى قوله : تلك الغرانيق العلى [١] . والثاني : أنها ترجع إلى سجوده في سورة (النجم) . والقولان عن سعيد بن جبير ، فيكون المعنى : إنهم يقولون : ما بالُـه ذكر آلهتنا ثم رجع عن ذكرها ؟! والثالث : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله ابن جريج . والرابع : أنها ترجع إلى الدِّين ، حكاه الثعلبي [٢] .

قوله‌تعالى : (حتى تأتيَهم الساعة) وفيها قولان .

أحدها : القيامة تأتي مَنْ تقوم عليه من المشركين ، قاله الحسن .

والثاني : ساعة موتهم ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : (أو يأتيَهم عذاب يوم عقيم) فيه قولان .

أحدها : أنه يوم بدر ، روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنه يوم القيامة ، قاله عكرمة ، والضحاك . وأصل العقم في الولادة ، يقال : امرأة عقيم لا تلد ، ورجل عقيم لا يولد له ، وأنشدوا :

عُقِمَ النِّساءُ فلا يَلِدْنَ شَبِيهَه   إنَّ النِّسـاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ [٣]

---

(١) مضى الكلام على قصة الغرانيق قبل قليل ، وأنها باطلة .

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٢ : وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : هي كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته ، وذلك أن ذلك من ذكر قوله : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك) أقرب منه من ذكر قوله : (فينسخ الله مايلقي الشيطان) والهاء من قوله : « أنه » من ذكر القرآن ، فالحاق الهاء في قوله : « في مرية منه » بالهاء من قوله : « أنه الحق من ربك » أولى من إلحاقها بـ « ما » التي في قوله : « مايلقي الشيطان » مع بُعد مابينهما . اهـ .

(٣) « اللسان » ، و « التاج » : عقم .

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم ، لأنها لا تأتي بالسحاب الممطر ، فقيل لهذا اليوم : عقيم ، لأنه لم يأت بخير .

فعلى قول من قال : هو يوم بدر ، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير ، قاله الضحاك .

والثاني : لأنهم لم يُنْظَروا فيه إلى الليل ، بل قُتلوا قبل المساء ، قاله ابن جريج .

والثالث : لأنه لا مثْل له في عِظَم أمره ، لقتال الملائكة فيه ، قاله يحيى ابن سلام .

وعلى قول من قال : هو يوم القيامة ، في تسميته بذلك قولان .

أحدهما : لأنه لا ليلة له ، قاله عكرمة .

والثاني : لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج ، ذكره بعض المفسرين .

﴿ المُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (المُلْكُ يومئذ) أي : يوم القيامة (لله) من غير منازع ولا مدَّع (يحكُم بينهم) أي : بين المسلمين والمشركين ؛ وحكمه بينهم بما ذكره في تمام الآية وما بعدها . ثم ذكر فضل المهاجرين فقال : (والذين هاجروا في سبيل الله) أي : من مكة إلى المدينة .

وفي الرزق الحسن قولان .

أحدهما : أنه الحلال ، قاله ابن عباس . والثاني : رزق الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : (ثم قُتِلوا أو ماتوا) وقرأ ابن عامر : « قُتِّلوا » بالتشديد .

قوله تعالى : (لَيُدْخِلَنَّهم مُدْخَلاً) [وقرأ نافع بفتح الميم] (يرضونه) يعني : الجنة . والمدخل يجوز أن يكون مصدراً ، فيكون المعنى : ليُدخلنَّهم إدخالاً يُكرَمون به فيرضونه ؛ ويجوز أن يكون بمعنى المكان . و « مَدخلاً » بفتح الميم على تقدير : فيدخلون مدخلاً . (وإن الله لعليم) بنيّاتهم (حليم) عنهم .

﴿ ذٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَاعُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَايَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (ذلك) قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك ، أي : الأمر ما قصصنا عليكم (ومن عاقب بمثل ما عُوقب به) والعقوبة : الجزاء ؛ والأول ليس بعقوبة ، ولكنه سمي عقوبةً ، لاستواء الفعلين في جنس المكروه ، كقوله : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) [الشورى : ٤٠] لما كانت المجازاة إساءة بالمفعول به سمّيت سيئة ، ومثله : (الله يستهزئ بهم) [البقرة : ١٥] ، قاله الحسن . ومعنى الآية : من قاتل المشركين كما قاتلوه (ثُمَّ بُغِيَ عليه) أي : ظُلم بإخراجه عن منزله . وزعم مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة لقوا المسلمين لليلةٍ بقيت من المحرَّم ، فقاتلوهم ، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبوا إلا القتال ، فثبت المسلمون ، ونصرهم الله على المشركين ،

ووقع في نفوس المسلمين من القتـال في الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية [١] ، وقال : (إن الله لعفوٌ) عنهم (غفور) لقتالهم في الشهر الحرام .

قوله تعالى : (ذلك) أي : ذلك النصر (بأنَّ الله) القادر على ما يشـاء . فمن قدرته أنه (يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل وأنَّ الله سميع) لدعـاء المؤمنين (بصير) بهم حيث جعل فيهم الإيمان والتقوى ، (ذلك) الذي فعل من نصر المؤمنين (بأن الله هو الحقُّ) أي : هو الإله الحق (وأنَّ ما يَدْعُون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « يدعون » باليـاء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بالتاء ، والمعنى : وأنَّ ما يعبدون (من دونه هو الباطل) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً) يعني : المطر (فتصبح الأرض مخضرَّة) بالنبـات . وحكى الزجاج عن الخليل أنـه قال : معنى الكلام التنبيه ، كأنه قال : أتسمع ، أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا . وقـال ثعلب : معنى الآية عند الفراء خبر ، كأنه قال : اعلم أن الله ينزل من السماء ماءً فتصبح ، ولو كان استفهاماً والفاء شرطاً لنصبه .

قوله تعالى : (إن الله لطيف) أي : باستخراج النبات من الأرض رزقاً لعبـاده (خبير) بما في قلوبهم عند تأخير المطر . وقد سبق معنى الغني الحميد في (البقرة : ٢٦٧) .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤/٣٦٩ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله سخَّر لكم ما في الأرض) يريد البهائم التي تُركَب (ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) قال الزجاج : كراهة أن تقع . وقال غيره : لئلا تقع (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) فيما سخَّر لهم وفيما حبس عنهم من وقوع السماء عليهم . (وهو الذي أحياكم) بعد أن كنتم نطفاً ميتة (ثم يُميتكم) عند آجالكم (ثم يُحييكم) للبعث والحساب (إن الإنسان) يعني : المشرك (لكفور) لنِعَم الله إذ لم يوحّده .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ . وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (لكلِّ أُمَّة جعلنا مَنْسَكاً) قد سبق بيانه في هذه السورة [الحج : ٣٤] (فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمر) أي : في الذبائح [١] ، وذلك أن

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٧/١٩٩ : يقول تعالى ذكره : فلا ينازعنك هؤلاء المشركون بالله يا محمد في ذبحك ومنسكك بقولهم : أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله ؟ فإنك أولى بالحق منهم ، لأنك محق وهم مبطلون .

كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول الله ﷺ في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله (١) ؟! يعنون : الميتة .

فإن قيل : إذا كانوا هم المنازعين له ، فكيف قيل : « فلا يُنَازِعُنَّكَ في الأمر » ؟

فقد أجاب عنه الزجاج ، فقال : المراد : النهي له عن منازعتهم ، فالمعنى : لا تنازعنَّهم ، كما تقول الرجل : لا يخاصمنَّك فلان في هذا أبداً ، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين ، لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين ، فاذا قلت : لا يجادلنَّك فلان ، فهو بمنزلة : لا تجادلنَّه ، ولا يجوز هذا في قولك : لا يضربنَّك فلان وأنت تريد : لا تضربنَّه ، [ولكن] لو قلت : لا يضاربنَّك فلان ، لكان كقولك : لا تضاربنَّ ، ويدل على هذا الجواب قوله : (وإن جادلوك) .

قوله تعالى : (وادع إلى ربِّك) أي : إلى دينه والإيمان به (٢) . و « جادلوك » بمعنى : خاصموك في أمر الذبائح ، (فقل الله أعلمُ بما تعملون) من التكذيب ، فهو يجازيكم به . (الله يحكم بينكم يوم القيامة) أي : يقضي بينكم (فيما كنتم

---

(١) رواه الطبري بنحوه : ٨/١٦ ، ١٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣/٤٢ ، في سورة (الأنعام : ١٢٢) عند قوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لفسق . . .) الآية . وقد تقدم نحو ذلك في الجزء ٣/١١٤ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : ١٧/١٩٩ : يقول تعالى ذكره : وادع يامحمد منازعيك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك بألاَّ يأكلوا إلا ماذبحوه بعد اتّباعك ، وبعد التصديق بما جئتهم به من عند الله ، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان ، وتبرؤوا منها ، إنك لعلى طريق مستقيم ، غير زائل عن محجة الحق والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربُّك ، وهم الضُّلاَّل عن قصد السبيل ، لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ومطاعمهم وعبادتهم الآلهة .

فيه تختلفون) من الدّين ، أي : تذهبون إلى خلاف ما ذهب إليه المؤمنون ؛ وهذا أدب حسن علّمه الله عباده ليردّوا به مَن جادل على سبيل التعنّت ، ولا يجيبوه ، ولا يناظروه .

فصل

قال أكثر المفسرين : هذا نزل قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ بآية السيف . وقال بعضهم : هذا نزل في حق المنافقين ، كانت تظهر من أقوالهم وأفعالهم فلتات تدل على شركهم ، ثم يجادلون على ذلك ، فوكل أمرهم إلى الله تعالى ، فالآية على هذا محكمة .

قوله تعالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) هذا استفهام يراد به التقرير ؛ والمعنى : قد علمتَ ذلك ، (إنّ ذلك) يعني ما يجري في السموات والأرض (في كتاب) يعني : اللوح المحفوظ [1] ، (إن ذلك) أي : علم الله بجميع ذلك (على الله يسير) سهل لا يتعذّر عليه العلم به .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » ٤/٢٠٤٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ـ قال : ـ وعرشه على الماء » .

قوله تعالى : (ويَعْبُدون) يعني : كفار مكة (ما لم يُنزّل به سلطاناً) أي : حُجة (وما ليس لهم به عِلْم) أنه إله ، (وما للظالمين) يعني : المشركين (من نصير) أي : مانع من العذاب . (وإذا تُتْلى عليهم آياتنا) يعني القرآن ؛ والمنكر هاهنا بمعنى الإنكار ، فالمعنى : أثر الإنكار من الكراهة ، وتعبيسُ الوجوه ، معروف عندهم . (يكادون يَسْطُون) أي : يبطشون ويُوقِعون بمن يتلو عليهم القرآن من شدّة الغيظ ، يقال : سطا عليه ، وسطا به : إذا تناوله بالعنف والشدة . (قل) لهم يا محمد : (أفأنبّئكم بشرٍّ مِنْ ذلكم) أي : بأشدَّ عليكم وأكره إليكم من سماع القرآن ، ثم ذكر ذلك فقال : (النارُ) أي : هو النار .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الناس ضُرِب مَثَل) قال الأخفش : إن قيل : أين المَثَل ؟

فالجواب : أنه ليس هاهنا مثَل ، وإنما المعنى : يا أيها الناس ضُرب لي مَثَل ، أي : شبِّهت بي الأوثان (فاستمعوا) لهذا المثل . وتأويل الآية : جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها معي فاستمعوا حالها ؛ ثم بيَّن ذلك بقوله : (إن الذين تدْعُون) أي : تعبدون (من دون الله) ، وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وابن أبي عبلة : « يدعون » بالياء المفتوحة . وقرأ ابن السميفع ، وأبو رجاء وعاصم الجحدري : « يُدْعون » بضم الياء وفتح العين ، يعني : الأصنام ، (لن يَخْلُقوا ذُباباً) والذباب واحد ، والجمع القليل : أذِبَّة ، والكثير : الذِّبّان ، مثل

غُراب وأَغْرِبة وغِرْبان؛ وقيل: إنما خص الذُّباب لمهانته واستقذاره وكثرته.
(ولو اجتمعوا) يعني: الأصنام (له) أي: لخلقه، (وإن يَسلبهم) يعني: الأصنام؛ قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجفّ، فيأتي الذباب فيختلسه. وقال ابن جريج: كانوا إذا طيَّبوا أصنامهم عجنوا طيبهم بشيء من الحلواء، كالعسل ونحوه، فيقع عليها الذباب فيسلبها إياه، فلا تستطيع الآلهة ولا مَن عبَدها أن يمنعه ذلك. وقال السدي: كانوا يجعلون للآلهة طعاماً، فيقع الذباب عليه فيأكل منه. قال ثعلب: وإنما قال: (لايستنقذوه منه) فجعل أفعال الآلهة كأفعال الآدميين، إذ كانوا يعظِّمونها ويذبحون لها وتُخاطَب، كقوله: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم [النمل: ١٨] لمّا خاطبهم جعلهم كالآدميين، ومثله: (رأيتهم لي ساجدين) [يوسف: ٤]، وقد بيَّنَّا هذا المعنى في (الأعراف: ١٩١) عند قوله تعالى: (وهم يُخْلَقون).

قوله تعالى: (ضَعُفَ الطالب والمطلوب) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: الطالب: الذباب يطلب مايسلُبه من الطِّيب الذي على الصنم، والمطلوب: الصنم يطلب الذباب منه سَلْبَ ماعليه، روي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: الطالب: عابد الصنم يطلب التقرُّب بعبادته، والمطلوب: الصنم، هذا معنى قول الضحاك، والسدي (١).

(١) قال ابن جرير الطبري: ١٧/٢٠٣: والصواب من القول في ذلك عندنا، ماذكرته عن ابن عباس من أن معناه: وعجز الطالب، وهو الآلهة، أن تستنقذ من الذباب ماسلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه، والمطلوب: الذباب.

قال: وإنما قلت: هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة ـــ

قوله تعالى : (ماقَدَرُوا الله حق قدره) أي : ماعظَّموه حق عظمته ، إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له (إن الله لقويّ) لايُقْهَر (عزيز) لايُرَام .

﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَٰئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

قوله تعالى : (الله يصطفي من الملائكة رسُلاً) كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، (ومن الناس) الأنبياء المرسلين ، (إن الله سميع) لمقالة العباد (بصير) بمن يتخذه رسولاً . وزعم مقاتل أن هذه الآية نزلت حين قالوا : « أَأُنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بينِنا » [ص : ٨] .

قوله تعالى : (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) الإشارة إلى الذين اصطفاهم ؛ وقد بيَّنَّا معنى ذلك في آية الكرسي [البقرة : ٢٥٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

ـــ والذباب ، فأن يكون ذلك خبراً عما هو به متصل ، أشبه من أن يكون خبراً عما هو عنه منقطع ، وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها ، تقريعاً منه بذلك عَبَدَتها من مشركي قريش ، يقول تعالى ذكره : كيف يُجعل لي مثل في العبادة ، ويشرك فيها معي مالاقدرة له على خلق ذباب ، وإن أخذ له الذباب فسلبه شيئاً عليه ، لم يقدر أن يمتنع منه ولا ينتصر ، وأنا الخالق مافي السموات والأرض ، ومالكُ جميع ذلك ، والمحيي من أردت ، والمميت ما أردت ومن أردت ؟ ! إن فاعل ذلك لاشك أنه في غاية الجهل .

قوله تعالى : (اركعوا واسجدوا) قال المفسرون : المراد : صلّوا ، لأن الصلاة لاتكون إلا بالركوع والسجود ،(واعبُدوا ربَّكم) أي : وحّدوه (وافعلوا الخير) يريد : أبواب المعروف (لعلَّكُم تُفلِحون) أي : لكي تسعدوا وتبقوا في الجنة .

فصل

لم يختلف أهل العلم في السجدة الأولى من (الحج) واختلفوا في هذه السجدة الأخيرة ؛ فروي عن عمر ، وابن عمر ، وعمّار ، وأبي الدرداء ، وأبي موسى ، وابن عباس ، أنهم قالوا : في (الحج) سجدتان ، وقالوا : فضّلت هذه السورة على غيرها بسجدتين ، وبهذا قال أصحابنا ، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه . وروي عن ابن عباس أنه قال : في (الحج) سجدة ، وبهذا قال الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وجابر بن زيد ، وأبو حنيفة وأصحابه ، ومالك ؛ ويدل على الأول ماروى عقبة بن عامر ، قال : قلت : يارسول الله أفي (الحج) سجدتان ؟ قال : « نعم ، ومن لم يسجدها فلا يقرأهما » (١) .

(١) رواه الامام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث عبد الله بن لهيعة به ، وقال الترمذي : ليس بقوي . قال ابن كثير : وفي هذا نظر ، فان ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع ، وأكثر مانقموا عليه تدليسه ، ثم قال ابن كثير : وقد رواه أبو داود في « المراسيل » عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين » ، ثم قال أبو داود : وقد أسند هذا ، يعني من غير هذا الوجه ، ولا يصح . قال ابن كثير : وقال الحافظ أبو بكر الاسماعيلي : حدثني ابن أبي داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثني نافع ، قال : حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية ، وقال : إن هذه فضلت بسجدتين ، قال : ـــ

فصل

واختلف العلماء في عدد سجود القرآن ، فروي عن أحمد روايتان ، إحداهما : أنها أربع عشرة سجدة . وبه قال الشافعي ، والثانية : أنها خمس عشرة ، فزاد سجدة (صۤ : ٢٤) . وقال أبو حنيفة : هي أربع عشرة ، فأخرج التي في آخر (الحج) وأبدل منها سجدة (صۤ : ٢٤) .

فصل

وسجود التلاوة سُنَّة ، وقال أبو حنيفة : واجب . ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبيرة الإحرام والسلام ، خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي . ولا يجزىء الركوع عن سجود التلاوة ، وقال أبو حنيفة : يجزىء . ولا يسجد المستمع إذا لم يسجد التالي ، نص عليه أحمد رضي الله عنه . وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات ، خلافاً للشافعي .

قوله تعالى : (وجاهِدوا في الله) في هذا الجهاد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه فِعل جميع الطاعات ، هذا قول الأكثرين . والثاني : أنه جهاد الكفار ، قاله الضحاك . والثالث : أنه جهاد النفس والهوى ، قاله عبد الله بن المبارك .

فأما حق الجهاد ، ففيه ثلاثة أقوال .

ـــ وروى أبو داود ، وابن ماجه ، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقي عن عبد الله بن مُنَين عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصَّل وفي سورة الحج سجدتان ، قال ابن كثير : فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً .

أحدها : أنَّه الجِدُّ في المجاهدة ، واستيفاء الإمكان فيها . والثاني : أنه إخلاص النيَّة لله عز وجل . والثالث : أنه فِعل مافيه وفاء لحق الله عز وجل .

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة ، واختلفوا في ناسخها على قولين .

أحدها : قوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . [البقرة : ٢٨٦] .

والثاني : قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) [التغابن : ١٦] . وقال آخرون : بل هي مُحْكَمَةٌ ، ويؤكده القولان الأولان في تفسير حق الجهاد ، وهو الأصح ، لأن الله تعالى لا يكلِّف نفساً إلا وسعها .

قوله تعالى : (هو اجتباكم) أي : اختاركم واصطفاكم لدينه . والحرج : الضّيق ، فما من شيء وقع الإنسان فيه إلا وجد له في الشرع مَخرجاً بتوبة أو كفارة أو انتقالٍ إلى رخصة ونحو ذلك . وروي عن ابن عباس أنه قال : الحرج : ماكان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد ، وضعه الله عن هذه الأمة .

قوله تعالى : (مِلَّةَ أبيكم) قال الفراء : المعنى : وسّع عليكم كملَّة أبيكم ، فاذا ألقيتَ الكاف نصبتَ ، ويجوز النصب على معنى الأمر بها ، لأن أول الكلام أمر ، وهو قوله : « اركعوا واسجدوا » والزموا ملَّة أبيكم .

فان قيل : هذا الخطاب للمسلمين ، وليس إبراهيم أباً لكُلِّهم .

فالجواب : أنه إن كان خطاباً عامّاً للمسلمين ، فهو كالأب لهم ، لأن حرمته وحقَّه عليهم كحق الوالد ، وإن كان خطاباً للعرب خاصة ، فابراهيم أبو العرب قاطبة ، هذا قول المفسرين . والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ ، لأن إبراهيم أبوه ، وأُمَّة رسول الله ﷺ داخلة فيما خوطب به رسول الله .

قوله تعالى : (هو سمَّاكم المسلمين) في المشار إِليه قولان .

أحدهما : أنه الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ؛ فعلى هذا في قوله : (مِنْ قَبْلُ) قولان . أحدهما : من قبل إِنزال القرآن سمَّاكم بهذا في الكتب التي أنزلها . والثاني : « مِنْ قَبْلُ » أي : في أُمّ الكتاب ، وقوله : (وفي هذا) أي : في القرآن .

والثاني : أنه إِبراهيم عليه السلام حين قال : (ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) [البقرة : ١٢٨] ؛ فالمعنى : من قَبْلِ هذا الوقت ، وذلك في زمان إِبراهيم عليه السلام ، وفي هذا الوقت حين قال : (ومن ذريتنا أمة مسلمة) ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : (ليكونَ الرسولُ) المعنى : اجتباكم وسمَّاكم ليكون الرسول ، يعني محمداً ﷺ (شهيداً عليكم) يوم القيامة أنه قد بلَّغكم ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة : ١٤٣) إِلى قوله : (وآتوا الزكاة) .

قوله تعالى : (واعتصموا بالله) قال ابن عباس : سَلُوه أن يَعْصِمكم من كل ما يُسخط ويُكْرَه . وقال الحسن : تمسَّكوا بدين الله [1] . وما بعد هذا مشروح في (الأنفال : ٤٠) .

★ ★ ★

---

(١) قال ابن كثير : (واعتصموا بالله) أي : اعتضدوا بالله ، وتوكلوا عليه ، وتأيَّدوا به ، (هو مولاكم) أي : حافظكم ، وناصركم ، ومظفركم على أعدائكم ، (فنعم المولى ونعم النصير) يعني : نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء . وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى : (فنعم المولى ونعم النصير) : فنعم الولي الله لمن فعل ذلك منكم ، فأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده ، واعتصم به ، ونعم النصير ، يقول : ونعم الناصر هو له على من بغاه بسوء .

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

سورة المؤمنين مكية في قول الجميع .

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لقد أُنزلت علينا عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة ، ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون) إلى عشر آيات » ، رواه الحاكم أبو عبد الله في « صحيحه » [1] . وروى أبو سعيد الخدري

---

(1) هو جزء من حديث طويل رواه الحاكم ٢/٣٩٢ وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ـــ

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى حاط حائط الجنة لَبِنَة من ذهب ولَبِنَة من فضة ، وغرس غرسها بيده فقال لها : تكلَّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال لها : طوبى لكِ منزل الملوك »[1] . قال الفراء : « قد » هاهنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال ، لأن « قد » تقرِّب الماضي من الحال حتى تُلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة ، قبل حال قيامها ؟ فيكون معنى الآية : إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرِّف : « قد أُفْلِحَ » بضم الألف وكسر اللام وفتح الحاء ، على ما لم يُسمَّ فاعله . قال الزجاج : ومعنى الآية : قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخير . ومن قرأ : « قد أُفْلِحَ » بضم الألف ، كان معناه : قد أُصيروا إلى الفلاح . وأصل الخشوع في اللغة : الخضوع والتواضع .

وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : أنه النظر إلى موضع السجود . روى أبو هريرة قال : كان رسول الله

ـــ وتعقبه الذهبي فقال : سئل عبد الرزاق (أحد الرواة) عن شيخه ذا (وهو يونس بن سليم) فقال : أظنه لاشيء ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي في « التفسير » : ١٤٦/٢ ، والنسائي ، وهو ضعيف ، لأن في سنده عندهم ، يونس بن سليم ، وهو مجهول . وقد ذكر هذا الحديث السيوطي في « الدر » : ٢/٥ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والعقيلي ، والبيهقي في « الدلائل » ، والضياء في « المختارة » عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) ذكره ابن كثير : ٢٣٨/٣ من رواية البزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، قال ابن كثير : ثم قال البزار : لانعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل ، وليس هو بالحافظ ، وهو شيخ متقدّم الموت .

ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » فنكس رأسه [١] . وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار ، وقتادة .

والثاني : أنه تركُ الالتفات في الصلاة ، وأن تُلين كنفك للرجل المسلم ، قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

والثالث : أنه السكون في الصلاة ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، والزهري .

والرابع : أنه الخوف ، قاله الحسن .

وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : الشِّرك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الباطل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : المعاصي ، قاله الحسن . والرابع : الكذب ، قاله السدي . والخامس : الشتم والأذى الذي كانوا يسمعونه من الكفار ، قاله مقاتل . قال الزجاج : واللغو : كل لعب ولهو ، وكل معصية فهي مطَّرَحة مُلغاة . فالمعنى : شغلهم الجِدُّ فيما أمرهم الله به عن اللغو .

قوله تعالى : ﴿ للزكاة فاعلون ﴾ أي : مؤدُّون ، فعبَّر عن التأدية بالفعل ، لأنه فعل .

قوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ قال الفراء : « على » بمعنى « مِنْ » . وقال الزجاج : المعنى : أنهم يُلامون في إطلاق ما حُظر عليهم وأُمروا بحفظه ، إلا على أزواجهم ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فانهم لا يُلامون [٢] .

---

(١) رواه الحاكم : ٢/٣٩٣ وقال : هذا حديث صحيح لولا خلاف فيه على محمد (يعني محمد بن سيرين) فقد قيل عنه مرسلاً ، ولم يخرجـاه . وتعقبه الذهبي فقال : الصحيح أنه مرسل ، ورواه ابن جرير الطبري : ١٨/٢ عن محمد بن سيرين وعطاء بن أبي رباح مرسلاً .

(٢) قال ابن كثير ٣/٢٣٩ : وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم ـــ

قوله تعالى : (فمن ابتغى) أي : طَلَب (وراء ذلك) أي : سوى الأزواج والمملوكات (فأولئك هم العادُون) يعني الجائرين الظالمين ، لأنهم قد تجاوزوا إلى مالايَحِلّ ، (والذين هم لأماناتهم) قرأ ابن كثير : « لأمانتهم » وهو اسم جنس ، والمعنى : للأمانات التي ائتُمنوا عليها ، فتارة تكون الأمانة بين العبد وبين ربّه ، وتارة تكون بينه وبين جنسه ، فعليه مراعاة الكُلّ . وكذلك العهد . ومعنى (راعون) : حافظون . قال الزجاج : وأصل الرعي في اللغة : القيام على إصلاح مايتولاّه الراعي من كل شيء .

قوله تعالى : (على صلواتهم) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « صلواتِهم » على الجمع . وقرأ حمزة ، والكسائي : « صلاتِهم » على التوحيد ، وهو اسم جنس . والمحافظة على الصلوات : أداؤها في أوقاتها .

قوله تعالى : (أولئك هم الوارثون) ذكر السدي عن أشياخه أن الله تعالى يرفع للكفار الجنة ، فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا ، ثم تقسم بين المؤمنين فيرِثونهم ، فذلك قوله : « أولئك هم الوارثون » . وقد شرحنا هذا في (الأعراف : ٤٣) عند قوله : (أُورِثتموها) ، وشرحنا معنى الفردوس في (الكهف : ١٠٧) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

ـــ الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) قال : فهذا الصنيع خارج عن القسمين ، وقد قال الله تعالى : (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . اهـ .

خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسانَ) فيه قولان .

أحدهما : أنه آدم عليه السلام . وإنما قيل : « مِنْ سُلالة » لأنه استُلَّ من كل الأرض ، هذا مذهب سلمان الفارسي ، وابن عباس في رواية ، وقتادة .

والثاني : أنه ابن آدم ، والسُّلالة : النطفة استُلَّت من الطين ، والطين : آدم عليه السلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس [1] . قال الزجاج : والسُّلالة : فُعالة ، وهي القليل مما يُنْسَل ، وكل مبنيٍ على « فُعالة » يراد به القليل ، من ذلك : الفُضالة ، والنُّخالة ، والقُلامة .

قوله تعالى : (ثُمَّ جعلناه) يعني : ابن آدم (نُطْفَةً في قَرار) وهو الرَّحِم (مكين) أي : حريز ، قد هُيِّىءَ لاستقراره فيه . وقد شرحنا في سورة (الحج : ٥) معنى النُّطفة والعَلَقة والمُضغة .

قوله تعالى : (فخلقنا المُضغة عظاماً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « عظاماً فكسونا العظام » على الجمع . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « عَظْماً فكسونا العَظْم » على التوحيد .

قوله تعالى : (ثم أنشأناه خَلْقاً آخر) وهذه الحالة السابعة . قال عليّ عليه السلام : لاتكون موؤودة حتى تمرَّ على التارات السبع .

وفي محل هذا الإنشاء قولان .

أحدهما : أنه بطن الأم . ثم في صفة الإنشاء قولان . أحدهما : أنه نفخ

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٨/٨ : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم ، وهي صفة مائه ، وآدم هو الطين ، لأنه خُلق منه .

الروح فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والشعبي ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك في آخرين . والثاني : أنه جعْله ذكراً أو أُنثى ، قاله الحسن .

والقول الثاني : أنه بعد خروجه من بطن أُمه . ثم في صفة هذا الإنشاء أربعة أقوال . أحدها : أن ابتداء ذلك الإنشاء أنه استُهلَّ ، ثم دُلَّ على الثدي ، وعُلِّم كيف يبسط رجليه إلى أن قعد ، إلى أن قام على رجليه ، إلى أن مشى ، إلى أن فُطم ، إلى أن بلغ الحُلُم ، إلى أن تقلَّب في البلاد ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : أنه استواء الشباب ، قاله ابن عمر ، ومجاهد . والثالث : أنه خروج الأسنان والشَّعر ، قاله الضحاك ، فقيل له : أليس يولَد وعلى رأسه الشعر ؟ فقال : وأين العانة والإبط ؟ . والرابع : أنه إعطاء العقل والفهم ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (فتبارك الله) أي : استحق التعظيم والثناء . وقد شرحنا معنى « تبارك » في (الأعراف : ٥٤) ، (أحسنُ الخالقين) أي : المصوِّرين والمقدِّرين . والخلْق في اللغة : التقدير . وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وعنده عمر ، إلى قوله تعالى : (خلْقاً آخر) ، فقال عمر : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد خُتمتْ بما تكلمتَ به يا ابن الخطاب » [1] .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : (أحسنُ الخالقين) وقوله : (هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله) [فاطر : ٣] ؟

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٦/٥ من رواية ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن صالح أبي الخليل قال : نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) إلى قوله : (أنشأناه خلقاً آخر) قال عمر : (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال : « والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت ياعمر » .

فالجواب : أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ، ولا موجد سوى الله ، ويكون بمعنى التقدير ، كقول زهير :

[ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ]وبَعْـ ـضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي[1]

فهذا المراد هاهنا ، أن بني آدم قد يصوِّرون ويقدِّرون ويصنعون الشيء ، فالله خير المصوِّرين والمقدِّرين . وقال الأخفش : الخالقون هاهنا هم الصانعون ، فالله خير الخالقين .

قوله تعالى : (ثم إنكم بعد ذلك) أي : بعد ما ذُكر من تمام الخَلْق (لميِّتون) عند انقضاء آجالكم . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعكرمة ، وابن أبي عبلة : « لمائتون » بألف . قال الفراء : والعرب تقول لمن لم يمت : إنك مائت عن قليل ، وميت ، ولا يقولون للميت الذي قد مات : هذا مائت ، إنما يقال في الاستقبال فقط ، وكذلك يقال : هذا سيِّد قومه اليوم ، فاذا أخبرتَ أنه يسودهم عن قليل ، قلتَ : هذا سائد قومه عن قليل ، وكذلك هذا شريف القوم ، وهذا شارف عن قليل ؛ وهذا الباب كلُّه في العربية على ما وصفتُ لك .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو في « شرح ديوان زهير » : ٩٤ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٢٦٥ ، و « الطبري » : ١٨/١١ ، و « القرطبي » : ١٢/١١٠ ، و « اللسان » و « التاج » : خلق .

قوله تعالى : (ولقد خَلَقْنَا فوقكم سبع طرائق) يعني : السموات السبع ، قال الزجاج : كل واحدة طريقة . وقال ابن قتيبة : إنما سميت « طرائق » بالتَّطارق ، لأن بعضها فوق بعض ، يقال : طارقتُ الشيء : إذا جعلتَ بعضه فوق بعض .

قوله تعالى : (وما كُنَّا عن الخَلْق غافلين) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ماغفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماءً أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب .

والثاني : ما كنا تاركين لهم بغير رزق ، فأنزلنا المطر .

والثالث : لم نغفُل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم .

قوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ) يعلمه الله ، وقال مقاتل : بقدر ما يكفيهم للمعيشة [١] .

قوله تعالى : (وشجرةً) هي معطوفة على قوله : (جناتٍ) . وقرأ أبو مجلز ، وابن يعمر ، وإبراهيم النخعي : « وشجرةٌ » بالرفع . والمراد بهذه الشجرة : شجرة الزيتون .

فان قيل : لماذا خص هذه الشجرة من بين الشجر ؟

فالجواب من أربعة أوجه .

أحدها : لكثرة انتفاعهم بها ، فذكَّرهم من نِعَمِه ما يعرفون ، وكذلك

---

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لاتعدُّ ولا تحصى ، في إنزاله القطر من السماء بقدر ، أي : بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه والسقي والشرب والانتفاع به ، حتى أن الأرض التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها ، ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها ، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، ثم قال : فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور .

وقال ابن جرير الطبري في تمام الآية : (وإنا على ذهاب به لقادرون) يقول جل ثناؤه : وإنا على الماء الذي أسكنّاه في الأرض لقادرون أن نذهب به فتهلكوا أيها الناس عطشاً وتخرب أرضوكم فلا تنبت زرعاً ولا غرساً ، وتهلك مواشيكم ، يقول : فمن نعمتي عليكم تركي ذلك لكم في الأرض جارياً .

خص النخيل والأعناب في الآية الأولى ، لأنهما كانا جُلَّ ثمار الحجاز وماوالاها ، وكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف .

والثاني : لأنهم لا يكادون يتعاهدونها بالسقي ، وهي تُخرج الثمرة التي يكون منها الدُّهن .

والثالث : أنها تنبت بالماء الذي هو ضد النار ، وفي ثمرتها حياة للنار ومادة لها .

والرابع : لأن أول زيتونة نبتت بذلك المكان فيما زعم مقاتل .

قوله تعالى : (طور سَيْناء) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « طور سِيناء » مكسورة السين . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، مفتوحة السين ، وكلُّهم مدَّها . قال الفراء : العرب تقول : سَيناء ، بفتح السين في جميع اللغات ، إلا بني كنانة ، فإنهم يكسرون السين . قال أبو علي : ولاتنصرف هذه الكلمة ، لأنها جُعلت اسماً لبقعة أو أرض ، وكذلك « سينين » ، ولو جُعلت اسماً للمكان أو للمنزل أو نحو ذلك من الأسماء المذكَّرة لصُرفت ، لأنك كنت قد سمَّيت مذكَّراً بمذكَّر . والطُّور : الجبل .

وفي معنى « سَيْناء » خمسة أقوال .

أحدها : أنه بمعنى الحسن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الضحاك : « الطور » : الجبل بالسريانية ، و « سَيْناء » : الحسن بالنبطية . وقال عطاء : يريد : الجبل الحسن .

والثاني : أنه المبارك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه اسم حجارة بعينها ، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده ، قاله مجاهد .

والرابع : أن طور سيناء : الجبل المشجَّر ، قاله ابن السائب .

والخامس : أن سيناء : اسم المكان الذي به هذا الجبل ، قاله الزجاج ؛ قال الواحدي : وهو أصح الأقوال ؛ قال ابن زيد : وهذا هو الجبل الذي نودي منه موسى ، وهو بين مصر وأيلة [1] .

قوله تعالى : (تنبت بالدُّهن) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « تُنْبِت » برفع التاء وكسر الباء . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بفتح التاء وضم الباء . قال الفراء : وهما لغتان : نبتت ، وأنبتت ، وكذلك قال الزجاج : يقال : نبت الشجر وأنبت في معنى واحد ، قال زهير :

رأيتُ ذَوِي الحاجاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِيناً لهم حتى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ [2]

قال : ومعنى « تَنْبُتُ بالدُّهْن » : تنبت ومعها دهن ، كما تقول : جاءني زيد بالسيف ، أي : جاءني ومعه السيف . وقال أبو عبيدة : معنى الآية : تنبت الدهنَ ، والباء زائدة ، كقوله : (ومن يُرِد فيه بالحادٍ بظلم) [الحج : ٢٥] وقد بيَّنَّا هذا المعنى هناك .

قوله تعالى : (وصِبْغٍ) وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، وإبراهيم النخعي ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٨/١٤ : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن سيناء اسم أضيف إليه الطور ، يعرف به ، كما قيل : جبلا طيىء ، فأضيفا إلى طيىء ، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال : معناه : جبل مبارك ، أو كما قال من قال : معناه : حسن ، لكان الطور منوناً ، وكان قوله : « سيناء » من نعته ، على أن سيناء بمعنى : مبارك وحسن غير معروف في كلام العرب فيجعل ذلك من نعت الجبل ، ولكن القول في ذلك إن شاء الله كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك ، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ ، وهو مع ذلك مبارك ، لا أن معنى سيناء معنى مبارك .

(٢) البيت في « شرح ديوان زهير بن أبي سلمى » : ١١١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٢٣٩/١ ، و « الطبري » : ١٨/١٤ ، و « القرطبي » : ١١٦/١٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : نبت .

والأعمش : « وصِبْغاً » بالنصب . وقرأ ابن السميفع : « وصِبَاغٍ » بألف مع الخفض . قال ابن قتيبة : الصِّبغ مِثْل الصِّباغ ، كما يقال : دِبْغ ودِبَاغ ، ولِبْس ولِبَاس . قال المفسرون : والمراد بالصِّبغ هاهنا : الزيت ، لأنه يلوِّن الخبز إذا غُمس فيه ، والمراد أنه إدام يُصبَغ به .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإنَّ لكم في الأنعام لعبرةً نُسْقِيكُم) وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « نَسْقِيكُم » بفتح النون . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بضمها . وقد شرحنا هذا في (النحل : ٦٦) إلى قوله تعالى : (ولكم فيها منافع كثيرة) يعني : في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها (ومنها تأكلون) من لحومها وأولادها والكسب عليها .

قوله تعالى : (وعليها) يعني : الإبل خاصة (وعلى الفُلْك تُحْمَلُون) فالإبل تحمل في البرّ ، والسفن تحمل في البحر .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَاهٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَاسَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ . ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ . فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قال المفسرون : هذا تعزية

لرسول الله ﷺ بذِكْرِ هذا الرسول الصابر ليتأسَّى به في صبره ، وليعلم أن الرسل قبله قد كُذِّبوا .

قوله تعالى : (يريد أن يتفضَّل عليكم) أي : يعلوكم بالفضيلة ، فيصير متبوعاً ، (ولو شاء الله) أن لا يُعبَد شيء سواه (لأَنزل ملائكة) تبلِّغ عنه أمره ، لم يرسل بشراً (ماسمعنا بهذا) الذي يدعونا إليه نوح من التوحيد (في آبائنا الأَولين) . فأما الجِنَّةُ فمعناها : الجنون .

وفي قوله : (حتى حين) قولان .

أحدهما : أنه الموت ، فتقديره : انتظروا موته . والثاني : أنه وقت منكَّر .

قوله تعالى : (قال ربِّ انصرني) وقرأ عكرمة ، وابن محيصن : « قال ربُّ » بضم الباء ، وفي القصة الأُخرى [المؤمنون : ٣٩] .

قوله تعالى : (بما كذَّبونِ) وقرأ يعقوب : « كذَّبوني » بياء ، وفي القصة التي تليها أيضاً : « فاتقوني » [المؤمنون : ٥٢] « أن يَحْضُروني » [المؤمنون : ٩٨] « ربِّ ارجعوني » [المؤمنون : ٩٩] « ولا تكلِّموني » [المؤمنون : ١٠٨] أثبتهن في الحالين يعقوب ، والمعنى : انصرني بتكذيبهم ، أي : انصرني بإهلاكهم جزاءً لهم بتكذيبهم . (فأوحينا إليه) قد شرحناه في (هود : ٣٧) إلى قوله : (فاسلك فيها) أي : أدخل في سفينتك (من كلِّ زوجين اثنين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « من كلِّ » بكسر اللام من غير تنوين . وقرأ حفص عن عاصم : « من كلٍّ » بالتنوين . قال أبو علي : قراءة الجمهور إضافة « كلّ » إلى « زوجين » ، وقراءة حفص تؤول إلى زوجين ، لأن المعنى : من كل الأزواج زوجين .

قوله تعالى : (وَقُلْ ربِّ أنزلني مُنْزَلاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « مُنْزَلاً » بضم الميم . وروى أبو بكر عن عاصم فتحها . والمَنْزِلُ ، بفتح الميم : اسم لكل مانزلتَ به ، والمُنْزَلُ ، بضمها : المصدر بمعنى الإنزال ؛ تقول : أنزلتُه إنزالاً ومُنْزَلاً .

وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذاك قولان .

أحدهما : عند نزوله في السفينة . والثاني : عند نزوله من السفينة .

قوله تعالى : (إن في ذلك) أي : في قصة نوح وقومه (لآيات وإنْ كُنَّا) أي : وما كنا (لَمُبْتَلِينَ) أي : لمختبرين إياهم بارسال نوح إليهم . (ثم أنشأنا من بعدهم قرْناً آخَرين) يعني عاداً (فأرسلنا فيهم رسولاً منهم) وهو هود ، هذا قول الأكثرين ؛ وقال أبو سليمان الدمشقي : هم ثمود ، والرسول صالح . وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (أيَعِدُكُمْ أنَّكم) قال الزجاج : موضع « أنَّكم » نصب على معنى : أيَعِدُكُمْ [أنَّكم] مخرجون إذا متُّم ، فلما طال الكلام أُعيد ذِكْر « أنَّ » كقوله : (ألم يَعْلَمُوا أنَّه مَنْ يُحادِدِ الله ورسوله فأنَّ له نار جهنَّم) [التوبة : ٦٣] .

قوله تعالى : (هيهات هيهات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « هيهاتَ هيهاتَ » بفتح التاء فيهما في الوصل ، وإسكانها في الوقف . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو مجلز ، وهارون عن أبي عمرو : « هيهاناً هيهاناً » بالنصب والتنوين . وقرأ ابن مسعود ، وعاصم الجحدري ، وأبو حيوة الحضرمي ، وابن السميفع : « هيهاتٌ هيهاتٌ » بالرفع والتنوين . وقرأ أبو العالية ، وقتادة : « هيهاتٍ هيهاتٍ » بالخفض والتنوين . وقرأ أبو جعفر : « هيهاتِ هيهاتِ » بالخفض من غير تنوين ، وكان يقف بالهاء . وقرأ أبو المتوكل

الناجي ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : « هيهاتُ هيهاتُ » بالرفع من غير تنوين ، وقرأ معاذ القارىء ، وابن يعمر ، وأبو رجاء ، وخارجة عن أبي عمرو : « هيهاتْ هيهاتْ » بإسكان التاء فيهما . وفي « هيهات » عشر لغات قد ذكرنا منها سبعة عن القراء ، والثامنة : « إيهات » ، والتاسعة : « إيهان » بالنون ، والعاشرة : « إيها » بغير نون ، ذكرهن ابن القاسم ؛ وأنشد الأحوص في الجمع بين لغتين منهن :

تذكَّرُ أياماً مَضَيْن من الصِّبا وهيهاتِ هيهاتاً إليك رجوعُها (١)

قال الزجاج : فأما الفتح ، فالوقف فيه بالهاء ، تقول : « هيهاه » إذا فتحت ووقفت بعد الفتح ، فاذا كسرتَ ووقفتَ على التاء كنتَ ممن ينوّن في الوصل ، أو كنتَ ممن لا ينوّن . وتأويل « هيهات » : البُعد لما توعَدون . وإذا قلتَ : « هيهات ما قلت » ، فمعناه : بعيد ما قلت . وإذا قلتَ : « هيهات لما قلت » ، فمعناه : البعد لما قلت . ويقال : « أيهات » في معنى « هيهات » ، وأنشدوا :

وأيهاتَ أيهاتَ العقيقُ ومَنْ بهِ وأيهاتَ وصلٌ بالعقيقِ نُواصله (٢)

قال أبو عمرو بن العلاء : إذا وقفت على « هيهات » فقل : « هيهاه » . وقال الفراء : الكسائي يختار الوقف بالهاء ، وأنا أختار التاء .

قوله تعالى : (لِمَا تُوعَدُون) قرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : « ما تُوعَدُون » بغير لام . قال المفسرون : استبعد القومُ بعثهم بعد الموت إغفالاً منهم للتفكُّر في بدوِ أمرهم وقُدرة الله على إيجادهم ، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ، (إن هي إلا حياتنا الدُّنيا) يعنون : ما الحياة إلا ما نحن فيه ، وليس بعد الموت حياة .

(١) « القرطبي » : ١٢/١٢٢ ، و « اللسان » : هيه .

(٢) « القرطبي » : ١٢/١٢٢ ، وفيه : . . وأيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نواصله .

فان قيل : كيف قالوا : (نموت ونحيا) وهم لا يقرّون بالبعث ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها الزجاج .

أحدها : نموت ويحيا أولادنا ، فكأنهم قالوا : يموت قوم ويحيا قوم .

والثاني : نحيا ونموت ، لأن الواو للجمع ، لا للترتيب .

والثالث : ابتداؤنا موات في أصل الخلقة ، ثم نحيا ، ثم نموت .

قوله تعالى : (إنْ هو) يعنون الرسول . وقد سبق تفسير ما بعد هذا [هود : ٧ ، النحل : ٣٨] إلى قوله : (قال عمّا قليل) قال الزجاج : معناه : عن قليل ، و « ما » زائدة بمعنى التوكيد .

قوله تعالى : (ليُصبِحُنّ نادمين) أي : على كفرهم ، (فأخذتْهم الصَّيحة بالحق) أي : باستحقاقهم العذاب بكفرهم . قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم ، فصاروا لشدّتها غُثاءً . قال أبو عبيدة : الغُثاء : ما أشبه الزّبد وما ارتفع على السيل ونحو ذلك مما لا يُنتفَع به في شيء . وقال ابن قتيبة : المعنى : فجعلناهم هَلْكَى كالغُثاء ، وهو ما علا السَّيل من الزَّبَد والقَمش [1] ، لأنه يذهب ويتفرَّق . وقال الزجاج : الغُثاء : الهالك والبالي من ورق الشجر الذي إذا جرى السَّيل رأيته مخالطاً زَبَده . وما بعد هذا قد سبق شرحه [الحجر : ٥] إلى قوله تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترى) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر : « تترىً كلَّما » منونة والوقف بالألف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : بلا تنوين ، والوقف عند نافع وابن عامر بألف . وروى هبيرة ، وحفص عن عاصم ، أنه يقف بالياء ؛ قال أبو علي : يعني بقوله : يقف بالياء ،

(١) القَمش : الرديء من كل شيء ، وما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء ، ويقال لرُذالة الناس : قُماش .

أي : بألِف مُمالة . قال الفراء : أكثر العرب على ترك التنوين ، ومنهم من نوَّن ، قال ابن قتيبة : والمعنى : مُتتابع بفترة بين كل رسولين ، وهو من التَّواتر ، والأصل : وَتْرَى ، فقُلبت الواو تاءً كما قلبوها في التَّقوى والتخمة . وحكى الزجاج عن الأصمعي أنه قال : معنى واتَرْتُ الخبرَ : أتْبَعْتُ بعضه بعضاً ، وبين الخبرين هُنيَّة وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : ومما تضعه العامة غير موضعه قولهم : تواترتْ كتُبي إليك ، يعنون : اتصلتْ من غير انقطاع ، فيضعون التواتر في موضع الاتصال ، وذلك غلط ، إنما التواتر مجيء الشيء ثم انقطاعه ثم مجيئه ، وهو التفاعل من الوِتر ، وهو الفرد ، يقال : واترتُ الخبر ، أتْبعتُ بعضه بعضاً ، وبين الخبرين هُنَيهة ، قال الله تعالى : (ثم أرسلنا رُسُلنا تترى) أصلها « وَتْرى » من المواترة ، فأبدلت التاء من الواو ، ومعناه : منقطعة متفاوتة ، لأن بين كل نبيَّين دهراً طويلاً . وقال أبو هريره : لا بأس بقضاء رمضان تترى ، أي : منقطعاً . فإذا قيل : واتر فلان كتبه ، فالمعنى : تابعها ، وبين كل كتابين فترة .

قوله تعالى : (فأتْبَعْنا بعضَهم بعضاً) أي : أهلكنا الأمم بعضهم في إثر بعض (وجعلناهم أحاديث) قال أبو عبيدة : أي : يُتمثَّل بهم في الشرّ ؛ ولا يقال في الخير : جعلتُه حديثاً .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاستكبروا) أي : عن الإيمان بالله وعبادته (وكانوا قوماً عالين) أي : قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم .

قوله تعالى : (وقومُهما لنا عابدون) أي : مطيعون . قال أبو عبيدة : كل من دان لملك فهو عابدٌ له .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني : التوراة ، أُعطيها جملة واحدة بعد غرق فرعون (لعلَّهم) يعني : بني إسرائيل ، والمعنى : لكي يهتدوا .

قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأُمَّه آيةً) وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : « آيتين » على التثنية ، وهذا كقوله : (وجعلناها وابنها آية) [الأنبياء : ٩١] [1] وقد سبق شرحه .

قوله تعالى : (وآويناهما) أي : جعلناهما يأويان (إلى ربوة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « رُبوة » بضم الراء . وقرأ عاصم ، وابن عامر : بفتحها . وقد شرحنا معنى الربوة في (البقرة : ٢٦٥) ، (ذاتِ قرار) أي : مستوية يستقر عليها ساكنوها ، والمعنى : ذات موضع قَرار . وقال الزجاج : أي : ذات مستقَرّ (ومَعِينٍ) وهو الماء الجاري من العيون . وقال ابن قتيبة : « ذات قرار » أي : يُستقَرُّ بها للعمارة ، « ومَعِينٍ » هو الماء الظاهر ،

---

(١) قال ابن كثير ٣/٢٤٦ : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلها آية للناس ، أي : حجة قاطعة على قدرته على مايشاء ، فانه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . اهـ .

ويقال : هو مَفْعُول من المين ، كأنّ أصله مَعْيُون ، كما يقال : ثوب مَخِيط ، وبُرٌّ مَكِيل .

واختلف المفسرون في موضع هذه الربوة الموصوفة على أربعة أقوال .

أحدها : أنها دمشق ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عبد الله بن سلام ، وسعيد بن المسيب .

والثاني : أنها بيت المقدس ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنها الرملة من أرض فلسطين ، قاله أبو هريرة .

والرابع : مصر ، قاله وهب بن منبه ، وابن زيد ، وابن السائب [1] .

فأما السبب الذي لأجله أوَيَا إلى الربوة ، فقال أبو صالح عن ابن عباس : فرّت مريم بابنها عيسى من ملكهم ، ثم رجعت إلى أهلها بعد اثنتي عشرة سنة . قال وهب بن منبه : وكان الملك أراد قتل عيسى .

---

(١) قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر ، وليس كذلك صفة الرملة ، لأن الرملة لاماءَ بها معين ، والله تعالى ذِكْره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين .

وقال ابن كثير عن القول الرابع الذي قاله وهب بن منبه : وهو بعيد جداً . ثم قال : وأقرب الأقوال في ذلك مارواه العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال : المعين : الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : (قد جعل ربك تحتكِ سرياً) وكذا قال الضحاك وقتادة (إلى ربوة ذات قرار ومعين) : هو بيت المقدس ، فهذا ـ والله أعلم ـ هو الأظهر ، لأنه المذكور في الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أولى مايفسر به ، ثم الأحاديث الصحيحة ، ثم الآثار .

﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَايَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الرسل) قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة في آخرين : يعني بالرسل هاهنا محمداً ﷺ وحده ، وهو مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجميع ، ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أُمروا ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة ، والزجاج [١] ، والمراد بالطيّبات : الحلال . قال عمرو بن شرحبيل : كان عيسى عليه السلام يأكل من غَزْل أُمّه [٢] .

---

(١) ذكر الطبري أن المراد بقوله تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) عيسى بن مريم عليه السلام ، كما تقول في الكلام للرجل الواحد : كفّوا عنا أذاكم ، وكما قال تعالى : (الذين قال لهم الناس) والمراد رجل واحد . وقال القرطبي : قال بعض العلماء : والخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ وأنه أقامه مقام الرسل ، وقال : قال الزجاج : هذه مخاطبة للنبي ﷺ ، ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ، أي : كلوا من الحلال . وقال ابن كثير : يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ، ودلالة ونصحاً ، فجزاهم الله عن العباد خيراً ، قال : وقال الحسن البصري في قوله : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه .

(٢) وفي « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم » قالوا : وأنت يارسول الله ؟ قال : « نعم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » وفي « الصحيح » أيضاً « أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » . وفي « صحيح مسلم » ٧٠٣/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيباً ، —

قوله تعالى : (وأنَّ هذه أُمَّتُكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وأنَّ » بالفتح وتشديد النون . ووافق ابنُ عامر في فتح الألف ، لكنه سكَّن النون . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « وإنَّ » بكسر الألف وتشديد النون . قال الفراء : من فتح ، عطف على قوله : « إني بما تعملون عليم » وبأنَّ هذه أُمَّتُكم ، فوضعها خفض لأنها مردودة على « ما » ؛ وإن شئتَ كانت منصوبة بفعل مضمر ، كأنك قلت : واعلموا هذا ؛ ومن كسر استأنف . قال أبو علي الفارسي : وأما ابن عامر ، فانه خفف النون المشدَّدة ، وإذا خُفِّفت تعلَّق بها مايتعلَّق بالمشدَّدة . وقد شرحنا معنى الآية والتي بعدها في (الأنبياء : ٩٢) إلى قوله : (زُبُراً) وقرأ ابن عباس ، وأبو عمران الجوني : « زُبَراً » برفع الزاي وفتح الباء . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن السميفع : « زُبْراً » برفع الزاي وإسكان الباء . قال الزجاج : من قرأ « زُبُراً » بضم الباء ، فتأويله : جعلوا دينهم كُتُباً مختلفة ، جمع زَبُور . ومن قرأ « زُبَراً » بفتح الباء ، أراد قِطَعاً .

قوله تعالى : (كُلُّ حِزْبٍ بما لديهم فَرِحُون) أي : بما عندهم من الدِّين الذي ابتدعوه مُعْجَبون ، يرون أنهم على الحقّ

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم أهل الكتاب ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم أهل الكتاب ومشركو العرب ، قاله ابن السائب .

ـــ وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم . . .) الآية ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ ! » .

قوله تعالى : (فَذَرْهُم في غَمرتِهم) وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب : « في غمراتهم » على الجمع . قال الزجاج : في عَمايتهم وحَيرتهم ، (حتى حين) أي : إلى حين يأتيهم ما وُعدوا به من العذاب . قال مقاتل : يعني كفار مكة .

فصل

وهل هذه الآية منسوخة ، أم لا ؟ فيها قولان .

أحدهما : أنها منسوخة بآية السيف . والثاني : أن معناها التهديد ، فهي محكَمة .

قوله تعالى : (أيَحسَبُون أنَّما نُمِدُّهُم به) وقرأ عكرمة ، وأبو الجوزاء : « يُمِدُّهم » بالياء المرفوعة وكسر الميم . وقرأ أبو عمران الجوني : « نَمُدُّهُم » بنون مفتوحة ورفع الميم . قال الزجاج : المعنى : أيحسبون أن الذي نمدهم به (من مال وبنين) مجازاة لهم ؟ ! إنما هو استدراج ، (نُسارِعُ لهم في الخيرات) أي : نسارع لهم به في الخيرات . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وأيوب السختياني : « يُسارِعُ » بياء مرفوعة وكسر الراء . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل مثله ، إلا أنهما فتحا الراء . وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « يُسْرِعُ » بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء من غير ألف .

قوله تعالى : (بل لايَشعُرُون) أي : لايعلمون أن ذلك استدراج لهم .

﴿ إنَّ الَّذينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لايُشْرِكُونَ . وَالَّذينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنَّهُمْ إلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

ثم ذكر المؤمنين فقال : (إِنَّ الذين هم من خَشية ربِّهم مُشْفِقُون) وقد شرحنا هذا المعنى في قوله : (وهم من خشيته مشفقون) [الأنبياء : ٢٨] [(١)] .

قوله تعالى : (والذين يُؤْتُون ما آتَوا) وقرأ عاصم الجحدري : « يأتون ما أتوا » بقصر همزة « أتوا » . وسَأَلت عائشةُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالت : يارسول الله ، أهم الذين يُذنبون وهم مشفقون ؟ فقال : « لا ، بل هم الذين يصلُّون وهم مشفقون ، ويصومون وهم مشفقون ، ويتصدَّقون وهم مشفقون أن لا يُتقبَّل منهم » [(٢)] . قال الزجاج : فمعنى « يؤتون » : يُعطون ما أَعْطَوا وهم يخافون أن لا يُتقبَّل منهم ، (أنهم إلى ربِّهم راجعون) أي : لأَنَّهم يوقنون أنهم يرجعون . ومعنى « يَأتون » : يعملون الخيرات وقلوبهم خائفة أن يكونوا مع اجتهادهم مقصِّرين ، (أولئك يسارعون في الخيرات) وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : « يُسْرِعون » برفع الياء وإسكان السين وكسر الراء من غير ألف . قال الزجاج : يقال : أسرعت وسارعت في معنى واحد ، إلا أن « سارعت » أبلغ من « أسرعت » ، (وهم لها) أي : من أجلها ، وهذا كما تقول : أنا أُكرم فلاناً لك ، أي : من أجلك . وقال بعض أهل العلم : الوجل المذكور هاهنا واقع على مُضْمَر .

---

(١) قال ابن كثير ٣/٢٤٨ : أي : هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهمّ الصالح مشفقون من الله ، خائفون منه ، وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١١ وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي الدنيا في « نعت الخائفين » ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن عائشة رضي الله عنها .

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ . حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولدينا كتاب) يعني : اللوح المحفوظ (يَنْطِقُ بالحقّ) قد أُثبت فيه أعمال الخلق ، فهو ينطق بما يعملون (وهم لا يُظْلَمون) أي : لا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم . ثم عاد إلى الكفار ، فقال : (بل قلوبهم في غمرة من هذا) قال مقاتل : في غفلة عن الإيمان بالقرآن . وقال ابن جرير : في عمىً عن هذا القرآن . قال الزجاج : يجوز أن يكون إشارة إلى ما وصف من أعمال البِرِّ في قوله : (أولئك يسارعون في الخيرات) ، فيكون المعنى : بل قلوب هؤلاء في عماية من هذا ؛ ويجوز أن يكون إشارة إلى الكتاب ، فيكون المعنى : بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحقّ وأعمالُهم مُحْصَاةٌ فيه .

فخرج في المشار إليه بـ « هذا » ثلاثة أقوال .

أحدها : القرآن . والثاني : أعمال البِرِّ . والثالث : اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : (ولهم أعمالٌ مِنْ دون ذلك) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أعمال سيّئة دون الشِّرك ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : خطايا من دون ذلك الحق ، قاله مجاهد . وقال ابن جرير : من دون أعمال المؤمنين وأهل التقوى والخشية .

والثالث : أعمالٌ غير الأعمال التي ذُكِروا بها سيعملونها ، قاله الزجاج .

والرابع : أعمال - من قبل الحين الذي قدَّر الله تعالى أنه يعذِّبهم عند مجيئه - من المعاصي ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (هم لها عاملون) إخبار بما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التي كُتبت عليهم لا بدَّ لهم من عملها [1] .

قوله تعالى : (حتى إذا أخذْنا مُترَفيهم) أي : أغنياءهم ورؤساءهم ، والإشارة إلى قريش . وفي المراد « بالعذاب » قولان .

أحدهما : ضرب السيوف يوم بدر ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : الجوع الذي عُذِّبوا به سبع سنين ، قاله ابن السائب . و (يَجأرون) بمعنى : يصيحون . (لا تجأروا اليوم) أي : لا تستغيثوا من العذاب (إنَّكم منّا لا تُنصَرون) أي : لا تُمنَعون من عذابنا . (قد كانت آياتي تُتلَى عليكم) يعني : القرآن (فكنتم على أعقابكم تَنكِصُونَ) أي : ترجعون وتأخَّرون عن الإيمان بها ، (مستكبِرين) منصوب على الحال . وقوله : (به) الكناية عن البيت الحرام ، وهي كناية عن غير مذكور ؛ والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم ، لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم . تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وَوُلاتُه ، هذا مذهب ابن عباس وغيره . قال الزجاج : ويجوز أن تكون الهاء في « به » للكتاب ، فيكون المعنى : تُحدِث لكم تلاوتُه عليكم استكباراً .

قوله تعالى : (سامِراً) قال أبو عبيدة : معناه : تَهجُرون سُمّاراً ، والسامر بمعنى السُّمّار ، بمنزلة طفل في موضع أطفال ، وهو من سَمَر الليل . وقال

---

(١) قال ابن كثير : أي : قد كتبت عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لامحالة لتحق عليهم كلمة العذاب . اهـ .

ابن قتيبة : « سامِراً » أي : متحدِّثين ليلاً ، والسَّمَر : حديث الليل . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو العالية ، وابن محيصن : « سُمَّراً » بضم السين وتشديد الميم وفتحها ، جمع سامر . وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري : « سُمَّاراً » برفع السين وتشديد الميم وألف بعدها .

قوله تعالى : (تهجرون) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « تَهجُرون » بفتح التاء وضم الجيم . وفي معناها أربعة أقوال .

أحدها : تهجرون ذِكْرَ الله والحقَّ ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : تهجرون كتاب الله تعالى ونبيَّه ﷺ ، قاله الحسن .

والثالث : تهجرون البيت ، قاله أبو صالح . وقال سعيد بن جبير : كانت قريش تَسْمُر حول البيت ، وتفتخر به ولا تطوف به .

والرابع : تقولون هُجْراً من القول ، وهو اللغو والهَذَيان ، قاله ابن قتيبة . قال الفراء : يقال : قد هَجَر الرجل في منامه : إذا هذى ، والمعنى : إنكم تقولون في رسول الله ﷺ ماليس فيه ومالا يَضُرُّه .

وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن محيصن ، ونافع : « تُهْجِرُون » بضم التاء وكسر الجيم . قال ابن قتيبة : وهذا من الهُجْر ، وهو السَّبُّ والإفحاش من المنطق [1] ، يريد سبَّهم للنبي ﷺ ومن اتَّبعه . وقرأ أبو العالية ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : « تُهَجِّرُون » بتشديد الجيم ورفع التاء ؛ قال ابن الأنباري : ومعناها معنى قراءة ابن عباس .

---

(١) في « غريب القرآن » : وهو السب والافحاش في المنطق .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفلم يَدَّبَّرُوا القول) يعني : القرآن ، فيعرفوا مافيه من الدلالات والعِبَر على صدق رسولهم (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) المعنى : أليس قد أرسل الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمد ﷺ ؟ ! (أم لم يعرفوا رسولهم) هذا توبيخ لهم ، لأنهم عرفوا نسبه وصدقه وأمانته صغيراً وكبيراً ثم أعرضوا عنه . والجِنَّة : الجنون ، (بل جاءهم بالحق) يعني القرآن .

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ولو اتَّبع الحقُّ أهواءهم) في المراد بالحق قولان .

أحدها : أنه الله عز وجل ، قاله مجاهد ، وابن جريج ، والسدي في آخرين .

والثاني : أنه القرآن ، ذكره الفراء ، والزجاج . فعلى القول الأول يكون المعنى : لو جعل الله لنفسه شريكاً كما يحبُّون . وعلى الثاني : لو نزَّل القرآن بما يحبُّون من جعل شريك لله (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذِكْرهم) أي : بما فيه شرفهم وفخرهم ، وهو القرآن (فهُم عن ذِكْرهم مُعْرِضون) أي : قد تولَّوا عما جاءهم من شرف الدنيا والآخرة . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : « بل أتيناهم بذكراهم فهم عن ذكراهم مُعْرِضون » بألف فيهما . (أم تسألُهم) عمّا جئتهم به (خَرْجاً)

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «خَرْجاً» بغير ألف [«فخراج» بألف]. وقرأ ابن عامر: «خَرْجاً فخَرْج» بغير ألف في الحرفين. وقرأ حمزة، والكسائي: «خراجاً» بألف «فخراج» بألف في الحرفين. ومعنى «خَرْجاً»: أجراً ومالاً، (فخراج ربّك) أي: فما يُعطيك ربُّك من أجره وثوابه (خيرٌ وهو خير الرازقين) أي: أفضل من أعطى؛ وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجراً، لا أنه قد سألهم. والناكب: العادل؛ يقال: نَكَبَ عن الطريق، أي: عَدَل عنه.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ. وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

قوله تعالى: (ولو رَحِمناهم وكَشَفْنا ما بهم من ضُرٍّ) قال ابن عباس: الضُّرّ هاهنا: الجوع الذي نزل بأهل مكة حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أعِنّي على قريش بسنين كَسِنِيِّ يوسف»[1]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه الضُّرّ، وأنهم قد أكلوا القِدّ[2] والعظام، فنزلت هذه الآية والتي بعدها، وهو العذاب المذكور في قوله: (ولقد أخذناهم بالعذاب).

قوله تعالى: (حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه يوم بدر، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول»: ١٧٩، وذكره السيوطي في «الدر»: ٥/١٢، وأصله في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

(٢) قال في «اللسان» القِدّ: السير الذي يُقَدّ من الجلد، وذكر كثير من المفسرين أنهم أكلوا العلهز، وهو الوبر والدم.

والثاني : أنَّهُ الجوع الذي أصابهم ، قاله مقاتل .

والثالث : بابٌ من عذاب جهنم في الآخرة ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (إذا هم فيه مُبْلِسُون) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو المتوكل ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء : « مبلَسون » بفتح اللام . وقد شرحنا معنى المُبلس في (الأنعام : ٤٥) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قليلاً ماتَشْكُرون) قال المفسرون : يريد أنهم لايشكرون أصلاً .

قوله تعالى : (ذرأكم في الأرض) أي : خلقكم من الأرض .

قوله تعالى : (وله اختلاف الليل والنهار) أي : هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض (أفلا تعقلون) ماترون من صُنْعه ؟! وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : (قل لِمَن الأرض) أي : قل لأهل مكة المكذِّبين بالبعث : لِمَن الأرض (ومن فيها) مِن الخَلْق (إن كنتم تعلمون) بحالها ، (سيقولون لله) قرأ أبو عمرو : « لله » بغير ألف هاهنا ، وفي اللَّذَين بعدها بألف . وقرأ الباقون : « لله » في المواضع الثلاثة . وقراءة أبي عمرو على القياس . قال الزجاج : ومن قرأ : « سيقولون الله » فهو جواب السؤال ، ومن قرأ « لله » فجيِّد أيضاً ، لأنك

إذا قلتَ : مَنْ صاحبُ هذه الدار ؟ فقيل : لزيد ، جاز ، لأن معنى « مَن صاحب هذه الدار ؟ » : لمن هي ؟ وقال أبو علي الفارسي : من قرأ « لله » في الموضعين الآخَرين ، فقد أجاب على المعنى دون مايقتضيه اللفظ . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « سيقولون الله » « الله » « الله » بألف فيهن كلِّهن . قال أبو علي الأهوازي : وهو في مصاحف أهل البصرة بألف فيهن .

قوله تعالى : (قل أفلا تَذَكَّرون) فتعلمون أن من قدر على خَلْق ذلك ابتداءاً ، أقدر على إحياء الأموات ؟!

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفلا تَتَّقُون) فيه قولان .

أحدهما : تتقون عبادة غيره . والثاني : تخشَون عذابه . فأما الملكوت ، فقد شرحناه في (الأنعام : ٧٥) .

قوله تعالى : (وهو يُجير ولا يُجَار عليه) أي : يمنع [من] السوء من شاء ، ولا يمنع منه من أراده بسوء ، يقال : أجَرْتُ فلاناً : أي : حميته ، وأجرتُ عليه : أي : حميت عنه .

قوله تعالى : (فأنَّى تُسْحَرون) قال ابن قتيبة : أنَّى تُخْدَعون وتُصْرَفون عن هذا ؟!

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (بل أتيناهم بالحق) أي : بالتوحيد والقرآن (وإنَّهم لكاذبون) فيما يُضيفون إلى الله من الولد والشريك ؛ ثم نفاهما عنه بما بعد هذا إلى قوله : (إذاً لذهب كل إله بما خلَق) أي : لانفرد بخَلْقه ولم يرض أن يُضاف خَلْقُه وإنعامه إلى غيره ، ولمنع الإلهَ الآخر عن الاستيلاء على ماخلَق (ولعلا بعضهم على بعض) أي : غلب بعضهم بعضاً .

قوله تعالى : (عالمِ الغيب) قرأ ابن كثير ، وأبو [عمرو ، وابن] عامر ، وحفص عن عاصم : « عالمِ » بالخفض . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « عالمُ » بالرفع . قال الأخفش : الجرُّ أجود ، ليكون الكلام من وجه واحد ، والرفع ، على أن يكون خبر ابتداء محذوف ، ويقوِّيه أن الكلام الأول قد انقطع .

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾

قوله تعالى : (إمَّا تُرِيَنِّي) وقرأ أبو عمران الجوني ، والضحاك : « تُرِئَنِّي » بالهمز بين الراء والنون من غير ياء . والمعنى : إن أريتني ما يوعدون من القتل والعذاب ، فاجعلني خارجاً عنهم ولا تُهلكني بهلاكهم ؛ فأراه الله تعالى ما وعدهم ببدر وغيرها ، ونجّاه ومن معه .

قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسنُ السَّيِّئَةَ) فيه أربعة أقوال .

أحدها : ادفع إساءة المسيء بالصفح ، قاله الحسن .

والثاني : ادفع الفُحش بالسلام ، قاله عطاء ، والضحاك .

والثالث : ادفع الشِّرك بالتوحيد ، قاله ابن السائب .

والرابع : ادفع المنكَر بالموعظة ، حكاه الماوردي . وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (نحن أعلم بما يصفون) أي : بما يقولون من الشِّرك والتكذيب ؛ والمعنى : إنّا نجازيهم على ذلك . (وقل رب أعوذ) أي : ألجأ وأمتنع (بِكَ من هَمَزات الشياطين) قال ابن قتيبة : هو نَخْسُها وطَعْنُها ، ومنه قيل للعائب : هُمَزَةٌ ، كأنه يطعن وينْخَس إذا عاب . وقال ابن فارس : الهَمْزُ كالعَصْر ، يقال : همزتُ الشيء في كفِّي ، ومنه الهَمْز في الكلام ، لأنه كأنه يضغط الحرف ، وقال غيره : الهَمْز في اللغة : الدَّفْع ، وهَمَزات الشياطين : دَفْعُهم بالإغواء إلى المعاصي .

قوله تعالى : (أن يَحْضُرُون) أي : أن يَشْهَدُون ؛ والمعنى : أن يصيبوني بسوء ، لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء . ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكِرين للبعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند الموت بالآية التي تلي هذه ، وقيل : هذا السؤال منهم للملائكة الذين يقبضون أرواحهم .

فان قيل : كيف قال : « ارجعون » وهو يريد : « ارجعني » ؟

فالجواب : أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن ، وذلك أنه يخبر عن نفسه [فيه] بما تخبر به الجماعة ، كقوله : (إنّا نحن نُحيي ونُميت) [قٓ : ٤٣] ، فجاء خطابه كاخباره عن نفسه ، هذا قول الزجاج .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (لعلِّي أعمل صالحاً فيما تَرَكْتُ) قال ابن عباس : فيما مضى من عُمُري ؛ وقال مقاتل : فيما تركت من العمل الصالح .

قوله تعالى : (كلاّ) أي : لا يرجع إلى الدنيا (إنَّها) يعني : مسألته الرجعة (كلمةٌ هو قائلها) أي : هو كلام لا فائدة له فيه (ومن ورائهم) أي : أمامهم وبين أيديهم (برزخ) قال ابن قتيبة : البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، وكل شيء بين شيئين فهو برزخ . وقال الزجاج : البرزخ في اللغة : الحاجز ، وهو هاهنا : ما بين موت الميت وبعثه .

قوله تعالى : (فإذا نُفِخ في الصُّور) في هذه النفخة قولان .

أحدهما : أنها النفخة الأولى ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنها الثانية ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قوله تعالى : (فلا أنساب بينهم) في الكلام محذوف ، تقديره : لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها ، لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ ، إنما يُرفَع التواصل والتفاخر بها .

وفي قوله : (ولا يتَسَاءلون) ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يتساءلون بالأنساب أن يترك بعضهم لبعض حقَّه .

والثاني : لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه ، لاشتغال كل واحد بنفسه .

والثالث : لا يسأل بعضهم بعضاً من أي قبيل أنت ، كما تفعل العرب لتعرف النسب فتعرف قدر الرجل . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأعراف : ٨] إلى قوله : (تَلْفَحُ وجوهَهم النَّارُ) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنىً واحد ، إلا أن اللفح أعظم تأثيراً ، والكالح : الذي قد تشمَّرت شفته عن أسنانه ، نحو ما ترى [من] [1] رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتشمَّرت الشفاه . وقال ابن مسعود : قد بدت أسنانهم وتقلَّصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار . وروى أبو عبد الله الحاكم في « صحيحه » من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية : « تشويه النار فتقلَّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّته » [2] .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

(١) زيادة من « اللسان » .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٩٥ وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وهو من رواية أبي السمح دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال الحافظ في « التقريب » عن دراج أبي السمح : صدوق في حديثه ، عن أبي الهيثم ضعيف ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ، والترمذي وقال : حسن غريب . وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » .

وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم تكن) المعنى : ويقال لهم : ألم تكن (آياتي تُتلى عليكم) يعني : القرآن . (قالوا ربَّنا غلبت علينا شِقوتُنا) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « شِقوتُنا » بكسر الشين من غير ألف ، وقرأ عمرو ابن العاص ، وأبو رزين العقيلي ، وأبو رجاء العطاردي كذلك ، إلا أنه بفتح الشين . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي : « شَقَاوتُنا » بألف مع فتح الشين والقاف ؛ وعن الحسن ، وقتادة كذلك ، إلا أن الشين مكسورة . قال المفسرون : أقرَّ القوم بأنَّ ما كُتب عليهم من الشقاء منعهم الهدى .

قوله تعالى : (ربَّنا أخرجنا منها) أي : من النار . قال ابن عباس : طلبوا الرجوع إلى الدنيا (فإن عُدنا) أي : إلى الكفر والمعاصي .

قوله تعالى : (اخسَؤوا) قال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط ، يقال : خَسَأْتُ الكلب أخسَؤه : إذا زجرتَه ليتباعد .

قوله تعالى : (ولا تكلِّمون) أي : في رفع العذاب عنكم . قال عبد الله ابن عمرو : إن أهل جهنم يدعون مالكاً أربعين عاماً ؛ فلا يجيبهم ، ثم يقول : (إنكم ماكثون) [الزخرف : ٧٧] ، ثم ينادون ربَّهم (ربَّنا أخرجنا منها) فيَدَعهم مثل عُمُر الدنيا ، ثم يقول : (إنكم ماكثون) ثم ينادون ربَّهم (ربَّنا أخرجنا منها) فيَدَعهم مثل عمر الدنيا ، ثم يردُّ عليهم (اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون) فما ينبس القومُ بعد ذلك بكلمة إن كان ، إلا الزفير والشهيق .

ثم بيَّن الذي لأجله أخسأهم بقوله : (إِنَّه) وقرأ ابن مسعود ، وأبوعمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « أنَّه » بفتح الهمزة (كان فريق من عبادي) قال ابن عباس : يريد المهاجرين .

قوله تعالى : (فاتَّخَذْتُموهم) قال الزجاج : الأجود إدغام الذال في التاء لقرب المخرجين ، وإن شئتَ أظهرتَ ، لأن الذال من كلة والتاء من كلة ، وبين الذال والتاء في المخرج شيء من التباعد .

قوله تعالى : (سخريّاً) قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو حاتم عن يعقوب : « سُخريّاً » بضم السين هاهنا وفي (صٓ : ٦٣) ، تابعهم المفضل في (صٓ : ٣٢) . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : بكسر السين في السورتين . ولم يختلف في ضم السين في الحرف الذي في (الزخرف : ٣٢) . واختار الفراء الضم ، والزجاج الكسر . وهل هما بمعنىً ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان ومعناهما واحد ، قاله الخليل ، وسيبويه ، ومثله قول العرب ، بحر لُجّيٌّ ولِجّيٌّ ، وكوكبٌ دُرّيٌّ ودِرّيٌّ .

والثاني : أن الكسر بمعنى الهمز ، والضم بمعنى : السُّخرة والاستعباد ، قاله أبو عبيدة ، وحكاه الفراء ، وهو مروي عن الحسن ، وقتادة .

قال أبو علي : قراءة من كسر أرجح من قراءة من ضمّ ، لأنه من الهزء ، والأكثر في الهزء كسر السين . قال مقاتل : كان رؤوس كفار قريش كأبي جهل وعقبة [والوليد] قد اتخذوا فقراء أصحاب رسول الله ﷺ كعمَّار وبلال وخبَّاب وصهيب سِخْرِيّاً يستهزئون بهم ويضحكون منهم .

قوله تعالى : (حتى أنسَوكم ذِكْري) أي : أنساكم الاشتغال بالاستهزاء بهم ذِكْري ، فنسب الفعل إلى المؤمنين وإن لم يفعلوه ، لأنهم كانوا السبب في وجوده ، كقوله : (إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من النّاس) [إبراهيم : ٣٦] .

قوله تعالى : (إنّي جزَيتُهُمُ اليومَ بما صبروا) أي : على أذاكم واستهزائكم (أنَّهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « أنَّهم » بفتح الألف . وقرأ حمزة ، والكسائي : « إنَّهم » بكسرها . فمن فتح « أنَّهم » ، فالمعنى : جزيتُهم بصبرهم الفوزَ ، ومن كسر « إنهم » ، استأنف .

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَابُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال كم لبثتم) قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « قال كم لبثتم » وهذا سؤال الله تعالى للكافرين . وفي وقته قولان .

أحدها : أنه يسألهم يوم البعث .

والثاني : بعد حصولهم في النار .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « قل كم لبثتم » وفيها قولان .

أحدهما : أنه خطاب لكل واحد منهم ، والمعنى : قل يا أيها الكافر .

والثاني : أن المعنى : قولوا ، فأخرجه مخرج الأمر للواحد ، والمراد الجماعة ، لأن المعنى مفهوم . وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي يدغمون ثاء « لبثم » ، والباقون لايدغمونها ؛ فمن أدغم ، فلتقارب مخرج الثاء والتاء ، ومن لم يدغم ، فلتباين المخرجين .

وفي المراد بالأرض قولان . أحدهما : أنها القبور . والثاني : الدنيا . فاحتقر القوم مالبثوا لما عاينوا من الأهوال والعذاب فقالوا : (لبثنا يوماً أو بعض يوم) قال الفراء : والمعنى : لاندري كم لبثنا .

وفي المراد بالعادّين قولان .

أحدها : الملائكة ، قاله مجاهد .

والثاني : الحسَّاب ، قاله قتادة . وقرأ الحسن ، والزهري ، وأبو عمران الجوني ، وابن يعمر : « العادِين » بتخفيف الدال .

قوله تعالى : (قال إن لبثتُم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « قال إن لبثم » . وقرأ حمزة ، والكسائي : « قل إن لبثم » على معنى : قل أيها السائل عن لبثهم . وزعموا أن في مصحف أهل الكوفة « قل » في الموضعين ، فقرأها حمزة ، والكسائي على مافي مصاحفهم ، أي : مالبثم في الأرض (إلّا قليلاً) لأن مكثهم في الأرض وإن طال ، فانه مُتَنَاهٍ ، ومكثهم في النار لايتناهى .

وفي قوله : (لو أنّكم كنتم تَعْلَمون) قولان .

أحدها : لو علمتم قدر لبثكم في الأرض .

والثاني : لو علمتم أنكم إلى الله ترجعون ، فعملتم لذلك .

قوله تعالى : (أفَحَسِبْتُم) أي : أفظننتم (أنَّما خَلَقْناكم عَبَثاً) أي :

للعبث ؛ والعبث في اللغة : اللعب ، وقيل : هو الفعل لا لغرض صحيح ، (وأنكم إلينا لا تُرجعون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : « لا تُرْجَعون » بضم التاء . وقرأ حمزة ، والكسائي بفتحها . (فتعالى الله) عمَّا يَصِفُه به الجاهلون من الشِرك والولد ، (المَلِكُ) قال الخطّابي : هو التامّ المُلك الجامع لأصناف المملوكات . وأما المالك : فهو الخالص المُلك . وقد ذكرنا معنى « الحق » في (يونس : ٣٢) .

قوله تعالى : (ربُّ العرشِ الكريمِ) والكريم في صفة الجماد بمعنى : الحسن . وقرأ ابن محيصن : « الكريمُ » برفع الميم ، يعني الله عز وجل .

قوله تعالى : (لا بُرهان له به) أي : لا حُجَّة له به ولا دليل ؛ وقال بعضهم : معناه : فلا برهان له به .

قوله تعالى : (فإنما حسابه عند ربه) أي : جزاؤه عند ربّه [1] .

تم ـ بعون الله تبارك وتعالى ـ الجزء الخامس من كتاب
« زاد المسير في علم التفسير » ويليه الجزء السادس
وأوله تفسير « سورة النور » .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري في تفسير تمام السورة : (إنه لا يفلح الكافرون) يقول : إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم ، (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وقل يا محمد : رب استر عليَّ ذنوبي بعفوك عنها ، وارحمني بقبول توبتك وتركك عقابي على ما اجترمت ، وأنت خير الراحمين ، يقول : وقل : أنت يارب خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته ، ولم يعاقبه على ذنبه . اهـ .